عبد الكريم غلاب
عضو أكاديمية المملكة المغربية

قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي

مغرب الأرض والشعب
عصر الدول والدويلات

الجزء الأول



قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي

الجزء الأول

عبد الكريم غلاّب
عضو أكاديمية المملكة المغربية

قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي

مغرب الأرض والشعب
عصر الدول والدويلات

الجزء الأول



الطبعة الأولى

1426 هـ - 2005 م

دار الغرب الإسلامي

ص: ب. 5787 - 113 بيروت



تقديم

لماذا أكتب هذا التاريخ؟

سؤال لم ألقه على نفسي وأنا أكتب، أو بعد أن أنهيت هذا المؤلف الذي أضعه بين يدي القراء، وقبلهم بين يدي التاريخ. فهو عمل سيحاكمه التاريخ قبل أن يحاكمه القراء، وإنما ألقيته منذ راودتني الفكرة، ومنذ كتبت «تاريخ الحركة الوطنية في المغرب...» منذ كانت صلتي بالتاريخ دراسة وقراءة وكتابة وأنا أتساءل: لماذا يكتب التاريخ، وقد كتب نفسه؟ ولماذا أسهم في هذا العمل، وقد كتب الكاتبون، ولم يخل عصر من عصور المعرفة إلا كان من بنيه من يتعامل مع التاريخ، حتى في عصور انحسار المعرفة وضعف المستوى الفكري؟

لم أقدم على هذه الخطوة والتي قبلها لأني أؤمن بالمستقبل أكثر مما أؤمن بالماضي فحسب، ولا لأن تاريخ المغرب العربي لم يحظ ـ بقدر ما يستحق ـ بالتأليف والكتابة، ولكن لأني، وأنا مُدْمِنٌ على الاحتكام إلى التاريخ ـ رغم قلة إيماني به ـ أجده يؤكد حقيقتين:

أولاهما: أن المغرب العربي ليس ابن اتفاقية مراكش لسنة 1989[1]، ولا هو ابن أحلام المناضلين الذين راودتهم أحلامه، وهم في قلب المعركة في عواصمه المختلفة وفي نضالهم بباريس والقاهرة ونيويورك، بل إن المغرب العربي هو ابن إنسانه المتحد في المنبت والجذور والأصل والانتماء، وجغرافيته التي تكون وحدته ونضاله المشترك من أجل البقاء والاستمرار قبل أزيد من ثلاثة آلاف سنة (هي التي سجلها التاريخ المعروف) وابن دينه ولغته

(1) الذي تم فيه إعلان تأسيس الاتحاد المغاربي.

اللذين عرفهما قبل أربعة عشر قرناً، وابن نضاله المشترك للعودة إلى الوجود، بعد أن حاول الاستعمار الغربي أن يطمس وجوده، ويغيب هُويته ويجعله ذيلاً في جنوبه يمنحه الفضاء التوسعي، ويخدم رفاهيته ويشبع نهم بنيه.

ثانيتهما: أن هذا الجزء المتحرك من العالم القديم، لم يكن كماً مهملاً، أو قطعة أرض معزولة عن الدنيا في المجاهل حتى جاء الاستعمار فكان من كشوفاته هذا المغرب الكبير. ولكنه جزء من العالم المتحرك بإنسانه وموقعه الجغرافي وموضعه الاستراتيجي. تعامل مع العالم المتحضر في شرقه وشماله، أخذاً وعطاءً، تعاوناً وتدابراً، صلحاً وحرباً..

وكان من هذا العالم امبراطوريات سجلت توسعها ونفوذها في التاريخ العالمي الواسع. كانت لها قوة الحرب والمال ونفوذ الفاتحين والغزاة. ولكن إنسان هذا المغرب الكبير عرف كيف يحاور الإنسان الفينيقي والروماني والوندالي والبيزنطي والعربي ثم بعد ذلك البرتغالي والإسباني والفرنسي والإنجليزي والإيطالي، ويخرج من هذا الحوار الملتهب سالماً - ولا أقول منتصراً - ضمن وجوده وكيانه وهُويته وقابليته للبقاء ولبناء مستقبله.

المغرب العربي إذن ليس كيانات منفصلة. ولو كان كذلك لما صمد لهذه التجربة الملحمية الحافلة بالصراع الطويل النفس، من أجل الوجود والبقاء.

وكما استهدفت المنطقة جميعها للغزو في الحقب الطويلة، قاومت جميعها هذا الاستهداف. وإذا كان الحاضر وريث الماضي، والمستقبل يخرج من معطفهما معاً، فإن شعبنا، وهو يبني مستقبله، قد يكون في حاجة إلى هذا الدرس من التاريخ حتى لا يضل الطريق، وهو يواجه معركة مجهولة النتائج في العالم الجديد الذي يبنى - في غيبة عنا ولكن بنا - فيسلك سبيل الكيانات الصغرى التي تنفق طاقاتها في صراع أبدي، إذا عرف أوله فلا يعرف له آخر، وإذا عرفت بعض مظاهره فلا تعرف له أسباب ولا نتائج.

ولا أزعم أن تاريخ المغرب العربي لم يكتب من قبل، فقد كتبه بعض

الأقدمين والمحدثين مغربيين وعرب وأجانب، ولكني لا أتردد في القول بأن هذا التاريخ في حاجة إلى قراءات جديدة للأحداث. وإني لأزعم أن الأحداث هي أبسط ما في كتابة التاريخ، وخاصة الكتابة التي تعتمد على ما كتبه الأقدمون والمحدثون، ومعظمهم عالة على الكتب القديمة، أو على الوثائق. والقراءة المتأنية للتاريخ ـ أي تاريخ ـ لا تعتمد الثقة فيما روى الأولون والأخيرون. بل لا تعتمد الثقة حتى في بعض الوثائق التي كتبت ـ وما تزال تكتب ـ لتحقيق أهداف آنية لا مصداقية لها. الحقيقة لا يملكها الرواة وحدهم، رغم أن بعضهم استعمل وسائل التثبت التي كان يستعملها أحياناً رواة الحديث أو اعتمد على بعض «الوثائق». الحقيقة المجردة لا يملكها هؤلاء وأولئك. هي دائماً رهينة البحث المتشكك، خاصة إذا اقترنت كتابتها بالأساطير والمبالغات والخرافات، أو اقترنت كتابتها بجهل كتّابها بالعوامل الجغرافية والنفسية الإنسانية وجهلهم بالنظرة الشمولية لواقع العالم ـ المعروف ـ في المرحلة التي يكتبون عنها، وبتعامل المرحلة والحدث والإنسان مع ذلك العالم. ولعله يتحكم في الأحداث أكثر مما تتحكم القطرية الضيقة والإنسان المحاصر في هذا القطر أو ذاك.

وقد تشكك في التاريخ، أو في حقيقته كثير من الذين كتبوه ابتداء من هيرودت حتى شيخ المؤرخين ابن خلدون، فقال: «إن فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال وتشد إليها الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال. . ظاهره مجرد أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأول. . . وباطنه: نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق. فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق. وجدير بأن يعد في علومها وخليق. . .».

المهم إذن ليس رواية الأحداث التي يتساوى فيها كل الذين ينصبون أنفسهم لكتابة التاريخ وتكرير رواية الأحداث، ولكن المهم هو ربط هذه

الأحداث بواقع أكثر عمومية وشمولاً في الزمان والمكان والإنسان. والمهم كذلك تجريد التاريخ ـ وأنت تقرأه ـ من الأسطورة والخرافة، التي لم تعلق بضرب من ضروب المعرفة أكثر مما علقت بالتاريخ. فكثير من المؤرخين كانوا لا يعتبرون أنفسهم مطوقين بالحقيقة ـ حتى الذين كتبوا منهم تاريخ المغرب العربي في عهد الاستعمار، رغم علمهم، ووسائل البحث التي كانوا يملكونها، لم يعتبروا أنفسهم مطوقين بالحقيقة، بل كانوا ـ بعضهم على الأقل ـ يعتبرون الحقيقة هي ما يكتبون لخدمة هدف استعماري، ربما كان عندهم أهم من الحقيقة التي لا يؤمنون بها.

وليست كتابة التاريخ استعراض أقوال المؤرخين ومناقشتهم الحساب. فتلك عملية ذهنية تجريدية يقدرها الباحث الجدلي الذي يهمه أن يقوم برياضة فكرية كما فعل بعض الكتاب الأجانب والمغاربة ليصلوا من وراء ذلك إلى نتائج المنطق الصوري يخدمون بذلك آراء مسبقة.

فلعله قد آن الأوان ليتحرر المؤرخ ـ وهو يقرأ تاريخ بلاده ـ من الأسطورة أولاً، ومن الخلفيات. التي قد يكون بعضها نبيلاً كالخلفيات الوطنية، وليقترب هذا المؤرخ من الواقع كما كان، لا كما يرغب أن يكون.

لا أحد يملك الحقيقة، خاصة كلما ابتعد بها الزمن، ولكن القراءة الجديدة إذا اتصفت بالمنطق العلمي، وبالفهم السليم للقضايا والأشياء والناس ويتمثل الواقع، الذي لن يكون غير واقع الإنسان ـ مهما ابتعد به الزمان ـ فإنسان ما قبل آلاف السنين هو إنسان اليوم بكل نوازعه ومحاسنه ومباذله، ولو اختلفت المفاهيم وتنورت الأفكار وتحضر السلوك واتسعت الآفاق والأبعاد وتنوعت وسائل الاتصال. القراءة الجديدة إذا اتصفت بكل ذلك يمكن أن تقدم إسهاماً في فهم الماضي كدرس للمستقبل.

وكان اهتمامي الأول بالأرض وبالإنسان. فقد تفاعل الإنسان المغربي مع الأرض التي قدمتها له الجغرافية المتميزة. ولذلك فهذه ليست قراءة لتاريخ الدول أو تاريخ السلطة، وكثيراً ما تطغيان على التاريخ، حتى إن الإنسان،

الشعب، يلغى من حساب كثير من المؤرخين كأنه كم مهمل. الإنسان يصنع الدولة، والدولة لا تصنع الأنسان. والأرض تصنع الشعوب، والشعوب لا تصنع الأرض، إلا عندما تستخرج كنوزها من بحورها وسهولها وجبالها وصحرائها: غذاء وكساء ومسكناً ومعادن وحصوناً وملجأً عندما يشتد الروع ويطغى الطاغي ويتنمر الخصم ويعتدي المعتدي.

المغرب العربي مدين للأرض والشعب في التاريخ كما في الحاضر والمستقبل. وصنع دولته أو دوله منذ فجر التاريخ على نحو ما كان مفهوم الدولة. وعلى نحو ما تطور مفهوم الدولة في العصور الإسلامية حتى العصر الحديث. كانت الدولة منه وإليه، غير مفروضة عليه من خارج أو داخل. وكانت الدولة جزء منه تكون معه الوجود المتميز والخادم للشعب. وإذا كان قد عرف نوعاً آخر من الدولة المركزية كما حاول أن يفرضه القادمون، فقد كان التمرد سبيله للحفاظ على الأرض والإنسان، إخلاصاً للعنصرين الأساسيين اللذين اعتمد عليهما في بناء دولته أو دوله الجديدة حينما حان وقت بنائها.

وتلك هي الكلمة الأولى في قراءة التاريخ.

وتاريخ المغرب العربي مدين لشعبه وأرضه أكثر مما هو مدين لمكون آخر من مكونات التاريخ. لولاهما لما كان له وجود، أو لما بقي له وجود متميز بعد الأحداث الكبرى التي مر بها منذ عهد الفينيقيين حتى منتصف القرن العشرين.

وحينما نقرأ التاريخ يجب أن نتلمس فيه أثر الأرض وأثر الإنسان، رغم ما يُغرقه فيه «رواة التاريخ» من أساطير أحياناً، ومن فهم سقيم لمواقف الإنسان في فترات مهمة من التاريخ. فتجد هؤلاء الرواة أو «المؤرخين» يشتمون شعبهم ويصفونه بأقذع الأوصاف والنعوت، وكأنهم لا ينتمون إليه، مبتعدين عن كل منطق عقلي أو فهم مجرد أو وعي بمسؤوليتهم في البحث عن الحقيقة أو روايتها على الأقل. أو تقدير للأحداث والمتغيرات التي ترغم

وقد تأتي هذه الأحداث والمتغيرات من السلطة الحاكمة أو من الظروف الدولية العامة أو مما يفرضه الموقع الستراتيجي للمغرب من مطامع وتدخل استعماري عسكري أو سياسي أو إداري أو هي جميعها.

وتلك إحدى آفات تاريخ المغرب العربي، سواء الذي كتبه العرب ـ والمغاربة من بينهم ـ أو الذي كتبه الأجانب، مدفوعين بالعقلية الاستعمارية، أو العرب والمغربيون من بينهم ـ مدفوعين بتقديس كل أبطال الفتح العربي، ومقدسين لكل رجال السلطة من المغاربة أنفسهم، ولو كانوا ظالمين أو مجازفين أو معتدين أو مخطئين في أساليب التعامل مع الدعوة التي حملوها بالغزو، ومع السلطة التي تولوها بالصدفة أو الاغتصاب أو الوراثة. لا بالتبشير والهداية، وبالبطش أحياناً لا بالإقناع والتعامل مع الإنسان ليسلم، لا ليكفر بمن حملوا الإسلام إليه.

التجاوزات التي حدثت في الفتح الإسلامي العربي، وفي كثير من مراحل الحكم المركزي الوطني كانت منطقية عند بعض المؤرخين، ولذلك تجاوزوا هم أيضاً التاريخ ليكتبوا كلاماً أبعد ما يكون عن التاريخ.

وقد كان للتجاوزات أثر في المآسي التي عرفتها منطقة المغرب العربي في فترة طويلة من التاريخ، وربما ما تزال تتحكم في الحاضر حتى الآن، رغم أن المغربيين من أكثر الشعوب تعلقاً بالإسلام ودفاعاً عنه. ومن أهم الشعوب الإسلامية التي اتخذت من الإسلام قيمة من قيمها الكبرى ديناً وثقافةً وحضارةً وسياسةً.

والقراءة الجديدة لهذا التاريخ ستكون عقلانية منصفة للأرض والإنسان والحقيقة على قدر ما يمكن إنصاف الحقيقة. بفكر متجرد من الخلفيات والأحكام المسبقة، المتمرس على الصراحة والجهر بما يؤمن بأنه حق، ولو كان مما لا يرضِ بعض الذين يعتبرون أنفسهم أصحاب الحق.

مراكش ـ فبراير 2005

عبدالكريم غلاب

الجغرافيا تصنع التاريخ

الجغرافية ثابتة والتاريخ متحرك:

مقولة قد تكون قديمة متجددة. ولكنها لا تصمد للتحليل، فيما أعتقد. فما من شيء ثابت غير متحرك في الحياة. والإنسان لا يستطيع أن يحرك التاريخ فحسب، ولكنه يستطيع أن يحرك الجغرافية كذلك.

وإذا كان القائلون والمرددون للمقولة يعنون الجغرافية الطبيعية، باصطلاح الجغرافيين القدماء منهم والمحدثين، فإننا مع ذلك، نشكك في صحة هذه المقولة، ليس فقط استناداً إلى التحولات التي شهدتها الكرة الأرضية في عصورها القديمة: العصور الحجرية المتعددة، والعصور الجيولوجية، وعصور التحولات الكبرى بين اليابسة والمحيطات، ولكن كذلك بفعل الإنسان الذي استطاع ـ مثلاً ـ أن يربط المحيط الهندي بالأطلسي عن طريق البحر الأبيض، والذي استطاع أن يلغي البحار من حسابه فيربط بين أوروبا والجزر البريطانية وربط بين البحرين الأبيض والأحمر بقناة السويس، وسيربط ـ مرة أخرى ـ بين أوروبا وأفريقيا عن طريق النفق أو الجسر الممتد من المغرب إلى اسبانيا، وربط بين الجزيرة العربية والبحرين عن طريق الجسر. . . ومن يدري فلعل الإنسان سينتصر على ما فعلت الطبيعة في سالف العصور حينما عرفت الكرة الأرضية لفعل تبادل البحار واليابسة وتراوح مكانهما بالتحركات الأرضية والبحرية والزلازل والانجراف والتّحات.

وحتى الطبيعة نفسها ما تزال مستمرة في تغيير ملامح الكرة جغرافياً.

فالصحراء تزحف على الأرض الخضراء، والأنهار الكبرى تجف مياه بعضها، والأمطار يقل هطولها، وقد تتكاثر فتفيض سيولها من قارة لحساب أخرى فتتغير ملامح جغرافيتهما معا. والإنسان نفسه قد يساعد على هذا التغيير بفضل تقنيات حصر المياه وتحويل أنهارها سرقة، أو باتفاق يتحكم فيه ميزان القوى. وقد تتحكم التقنيات الحديثة في تغيير الطابع الجغرافي لبلاد صحراوية أو قليلة أمطارها إلى بلاد غنية بالبحيرات التي تكتشفها آلات الحفر العملاقة، وتسحب مياهها آلات الامتصاص، فتغير من مظهر البلاد الصحراوي إلى بلاد تنتج قضباً وزيتوناً وحدائق عنب وفاكهة وأبا وقحماً وشعيراً وذرة.

وما لنا لا نسلك في هذا الاتجاه إنتاج الطاقات ـ والبترول أبرز مظاهرها ـ إلى أن تصبح الطاقة النووية مباح إنتاجها لكل ذي مقدرة علمية أو مالية، ولكل ذي حاجة للاستعمال، بعد أن يخلص العالم الثالث إنتاجها من تأميم العالم الأول. والطاقة أحد أساليب تغيير الجغرافية التي تكونها الطبيعة فيتغلب الإنسان على تغييرها. وبذلك يغير الملامح الكبرى للجغرافية التي تتحكم في التاريخ.

وقد ارتبط تاريخ الإنسان بالجغرافية فكانت، في الغالب، هي صانعة هذا التاريخ.

لا نذهب بعيدا ـ ونحن نحاول أن ندلل على صحة هذه المقولة ـ في التاريخ البعيد وإنما نجتزىء منه بالمعروف لدينا والقريب منا.

* * *

الجغرافية صنعت تاريخ مصر:

نأخذ المثال الأول من تاريخ مصر فهي أرض قريبة من الأرض التي سنقرأ تاريخها في هذا الكتاب.

مصر عرفت تاريخاً مجيداً فيه من العلم قدر ما فيه من الدين، وفيه من

الأسطورة والخرافة قدر ما فيه من حقائق الحياة، وفيه من الفن قدر ما فيه من التقنية والصناعة، وفيه من التعامل مع الأرض، مائها ومرعاها وعطائها وجفافها، صحرائها وخضرائها، قدر ما فيه من التعامل مع الإنسان، وهي تؤلهه وتستعبده، وهي تعطيه أو تحرمه، وهي تعلمه أو تجهله، وهي تغذيه أو تجوعه. . . واستفاد تاريخ مصر من كل ملمح من ملامح جغرافيتها حتى قال هيرودوت: إن مصر هبة النيل. . . وهو يعني أن النيل ـ وهو المظهر الأول في جغرافيتها ـ هو الذي صنع مصر وتاريخها. ولكن مصر لم تبن تاريخها على النيل ـ وهو العمدة الأولى في هذا التاريخ ـ فحسب، ولكنها بنته أيضاً على صحرائها المتسعة الأرجاء التي ربطت هذا التاريخ بتاريخ لوبيا. وكان منها فراعين حكموا مصر وبنوا جزء من تاريخها. ولم يهبها النيل خضرة الشاطئين ولقمة الخبز ـ كلما وهبته أجمل عذراء على بسيطها ـ فحسب، ولكنه وهبها حياة الارتباط الدائم بالجنوب مع الشمال: الجنوب الجبلي الذي منحها قطع الصخور الضخمة من النوع الذي يصمد مع الزمن فتبني به مصر معالم تاريخها في الجنوب (الأقصر وأسوان) ونحتت على صفائحه رسوم ملوكها وملكاتها الفاتنات. ونقشت، بهروغليفيتها، قصصها وصلواتها وأشعار شعرائها. . . وفي الشمال (أهرامات الجيزة وسقارة وأبا الهول) النيل هو الذي منحها الطاقة لنقل أحجار الأهرام وأبى الهول من الجنوب إلى الشمال. وفي الأهرام بعث جزء من الديانات المصرية القديمة التي ربطت روح الفراعين بالله، وخلد على صحراء الجيزة أروع ما أنتجته الحضارات القديمة، وأسهم النيل ـ كالإنسان المصري ـ في نقل صخوره كما أسهم في عطائه الروحي، فكانت بذلك صلة قوية بين الماء الذي كان رمزاً لإلّه الخير والعطاء، والصحراء التي كانت رمزاً للبقاء والخلود.

وتحكمت الجغرافية في تاريخ مصر فمنحتها ميزة أو ميزات ما تزال تحير الباحثين والدارسين. فقد خرجت مصر عن تقاليد العصور الخوالي، واستغلت الجغرافية الطبيعية، على نحو ما أسلفنا بالعلم، وللدين والفن،

وأبدعت عبادات وصلوات تقترب من الله أحياناً، وتعود فَتُؤَلِّه الإنسان أحياناً. كان من فراعينها مؤمنون وموحدون كأخناتون، وكان منهم حكام قادرون كتختمس، وكان منهن فاتنات كنيفرتيتي. ولكن تاريخها اختصرته أرضها بفعل الجغرافية أيضاً. ولعله من غير الطبيعي ـ على نحو ما عرف في تاريخ كثير من البلاد أقل من مصر عطاء للتاريخ ـ أن تبقى الحضارة المصرية حبيسة أرض مصر. ولكن شعب مصر كان دائماً ملتصقاً بالأرض. ولم يعرف المصريون في تاريخهم ـ حتى العصر الحاضر ـ إنسياحا في غير طول مصر وعرضها. ولعلك تعجب إذا علمت أن مفكرين وعلماء وتجاراً من أبناء أجيال ما قبل الحرب الثانية لم يزوروا من أرض الدنيا حتى مقام الرسول، ولعلك تعجب أكثر إذا عرفت أن كثيراً منهم لم يعرفوا من بلادهم غير القرية والعاصمة (القاهرة) وكانوا يعجبون للذين يهاجرون حتى في طلب العلم ويرحلون للسياحة. ولعله لم ينبغ منهم رحالون، إلا قلة، كما نبغ من المغاربة على مر عصور التاريخ من وحي هذا التقوقع داخل الأرض المصرية.

وتسأل الجغرافية عن ظاهرة انحسار الحضارة المصرية ـ وكان في إمكانها أن تبهر العالم وأن تزداد إشعاعاً ـ في النيل والصحراء والجنوب والشمال بخاصة، فتجيبك الجغرافية بوضوح بأنها حققت للتاريخ المصري كل ما يريد حتى تشبع فلم يطمح إلى ما وراء: الماء والخضرة ورمال الصحراء. ولم يكن العالم القديم يطمع في أكثر من هذه الأقانيم الثلاثة. وكان شعب مصر ـ فيما تؤكد الجغرافية ـ يسير مع تيار النيل من الجنوب إلى الشمال. كان الجنوب مركز التاريخ، وكان الشمال محطات لإشعاع هذا التاريخ. ويقف تاريخ مصر حيث تقف الأقانيم الثلاثة، فلا يعبر البحر، لأنه يكتفي «بالبحر» (النيل) الذي يعيش مع مرحلة من مراحل ينابيعه، ويصاحبه حتى مصبه، فيقف التاريخ، وربما صب حيث تصب مياه النيل. ويعيش التاريخ من فيض النهر الخالد على جنباته، ولا يكاد يتجاوزها إلا حينما

يكون للصحراء أيضاً عطاء. ويقف شعب مصر على «حدوده» ـ والجغرافية الطبيعية وضعت له حدوداً قبل أن تعرفها الجغرافية السياسية ـ فلا يتجاوزها شرقاً ولا غرباً، ولا جنوباً إلا حينما يسمح النهر بذلك، ولم يسمح في معظم فترات التاريخ، فلم تهاجر الحضارة المصرية إلى السودان، وهو أقرب جار جنوبي، ولم يتجاوزها شمالاً لأن البحر المالح كان هو هذا الشمال، وقد اكتفت حضارة مصر بالبحر الحلو فلم تغامر مع الأبيض أو الأحمر.

الجغرافية حصرت التاريخ المصري في النيل والصحراء القريبة من النيل. ولم يكن هذا التقوقع في صالح هذه الحضارة التي تعرضت لهجمات كانت خطيرة في كثير من الأحيان كان يمكنها أن تصد الغزو، لو أنها كانت حضارة غازية منساحة: غزاها أقوام من الشرق ومن الغرب ومن الشمال وحكموها بعد أن حولوا مجرى التاريخ. كان منهم الهكسوس الغزاة الرعاة المدمرون، وكان منهم الليبيون والأثيوبيون والأشوريون والفرس والمقدونيون ولم يكن للمصريين بد من قبول هذا الغزو والتعامل معه على قاعدة الاحتواء والادماج والاقتصاص. ولكنهم كانوا يدافعون عن البلاد كلما كان لهم ملك قوي مناضل. وللدفاع عن الوطن خرج تحوتمس العظيم من مصر لمطاردة المهاجمين حتى شواطىء الفرات في القرن 15 ق. م. وقد حاولوا أن يجعلوا من المنطقة الشرقية منطقة واقية. ولذلك ضموا سوريا وفلسطين إلى الأمبراطورية في بعض فترات التاريخ. فخروج مصر وحضاراتها عن حدودها كان دفاعياً وليس هجومياً. ولم يكن اشعاعاً حضارياً يحرر الحضارة المصرية من عزلتها بمقدار ما كان عملاً دفاعياً[1] يحمي العزلة ويؤكدها. ولذلك لا

---

(1) كان غزو الهكسوس لمصر انذاراً للدولة المصرية باندثار العهد الفرعوني. ولذلك قام «أحمس» مؤسس الأسرة 18 بطرد الهكسوس سنة 1580ق. م. وبدأت الدولة بتكوين جهاز عسكري لحماية مصر والدفاع عنها. وتحت راية هذا الجيش تكونت «الأمبراطورية المصرية» التي حكمت شمال السودان وسوريا وفلسطين تحت زعامة «تحتمس الثالث» وترك الفراعنة حكام المناطق التي احتلوها يديرون شؤون بلادهم. =

غرابة إذا حكى التاريخ بأن الهكسوس تحولوا إلى مصريين. وغزاهم بعد ذلك اليونان والرومان والعرب والأكراد والأتراك، وخلفوا فيهم عائلات حاكمة. ويكفي أن نعرف أن معظم الدول في مصر الإسلامية كانت أجنبية عن مصر، حتى إنه يروى عن الأستاذ أحمد لطفي السيد ـ الفيلسوف المصري الذي عاصر ثورة 1919 كأحد قادتها ثم عاصر ثورة 1952 كأحد شهودها ـ قوله: إن مصر لم يحكمها مصري منذ عهد تحوتمس حتى عبدالناصر.

التاريخ الذي تحكيه الجغرافية قد لا يقر هذه المقولة لأن مصر ـ في عرف التاريخ المصري ـ هضمت كل الغزاة الذين خطبوا ودها وحاولوا الالتصاق بمجدها، سرعان ما أصبحوا مصريين، سواء كانوا من آسيا كالهكسوس أو من أصل مغربي كالفاطميين، أو من أصل كردي كالأيوبيين أو من أصل تركي كالمماليك أو من أصل ألباني كعائلة محمد علي، آخر عائلة غير مصرية حكمت مصر قبل انتهاء عهد العائلات الملكية الحاكمة.

وكان البحر في الشمال والشرق سبيلاً للأمم البحرية إلى مصر. وذلك من تحكم الجغرافية في التاريخ. ولم يكن للأسكندر المقدوني اليوناني أن يغض النظر عن بلاد الفراعين وقد غزا بلاداً أخرى في شرق اليونان وغربها فبنى أجمل مدينة ما تزال تحمل اسمه. بعد ذلك لعبت دوراً مهماً في التاريخ الحضاري لمصر. ولم يكن لقيصر أن يقوى على صد جاذبية ابنة مصر وملكتها كيليوباطرة (البطلسية) فجعل منها أجمل ملكة على شواطىء البحر الأبيض.

= ولم يتدخلوا في عقيدتهم وقوانينهم. وهذا ما يؤكد ما ذهبنا إليه من أن الحضارة المصرية لم تنشر ظلالها خارج مصر. بل إن النفوذ المصري في هذه «الإمبراطورية» أخذ ينهار في عهد أخناتون أعظم فرعون اتجه إلى التوحيد. وحارب آلهة الفراعين وفي مقدمتهم «آمون» إله الدولة القديم. وبذلك انهار النفوذ المصري خارج مصر، باستثناء فترة قصيرة في عهد رمسيس الثاني من الأسرة الثامنة عشرة.

في عهد الدولة الحديثة نشطت التجارة مع الخارج.

هل كان من حسن حظ مصر أو من سوئه أن لعبت الجغرافية هذه الأدوار المهمة والمتناقضة في التاريخ المصري؟

إذا كان الأمر لا يتعلق بحسن الحظ وبسوئه، فإن الجغرافية مع ذلك لم تسيء إلى مصر، بل إنها أمدتها بأجيال من الحاكمين ومن المقيمين جددت شبابها وحضارتها وعطاءها بقطع النظر عما قد يكون التاريخ طواه من عمليات الغزو، الذي يكون خطيراً في البداية ثم لا يلبث أن يصبح متجاوزاً إذا عرفت الشعوب التي تقع ضحية الغزو كيف تتعامل معه، وكيف تهضم الغزاة وتحتويهم فتستفيد من خيرهم وتترك الزمان يطوي شرورهم. وإلا فكيف يمكن أن نتصور تاريخ مصر واستمراريته منذ خمسة آلاف سنة دون العطاء اليوناني والإسلامي ـ في مختلف عهوده ـ وكيف يمكن أن نتصور استمرارية تاريخ مصر دون الفاطميين الذين هضمتهم مصر وقدموا عطاءهم التاريخي والديني منها؟ وكيف يمكن أن نتصور استمرارية هذا التاريخ لو لم يقف صلاح الدين الأيوبي في وجه الصليبيين ويخلص بعض أجزاء مصر ومراكزها الحضارية من غزوهم، ثم يبني دولة كانت قوية ومنتجة مصرية، شامية ولو دعيت بالأيوبية؟ بل كيف يمكن أن نتصور تطور تاريخ مصر الحديث لو لم تحرك الجغرافية نابليون لمواجهة الانجليز في شرق المتوسط فينقض على مصر، ثم يترك فيها جزء من بداية النهضة المصرية.

هؤلاء الغزاة المتوافدون من الشرق والغرب والشمال جذبهم الموقع الجغرافي والموضع الاستراتيجي. وجذبهم إلى جانب ذلك تحكم الجغرافية في تاريخ مصر، وقد حاصرتها في «جزيرتها» الصحراوية، النيلية، الخضراء ـ وفيها بنت حضارتها اللامعة في تاريخ الإنسانية، ودافعت عنها فلم تخرج بها ـ خشية الشتات، ربما ـ كما خرجت حضارة الفرس والفينيقيين واليونان والرومان والأوروبيين بعد ذلك. ربما كانت تشبه إلى حد ما الحضارة الصينية التي تقوقعت في «الجزيرة» الصينية الكبرى، مع الفارق الهائل بين أرض

ياجوج وماجوج إذا كانوا من بلاد الصين، وأرض الصين وأقوام الصين، وبين أرض مصر وسكانها وجغرافية مصر التي تحاصر العطاء على ضفتي الوادي، وفي السنوات المعطاء التي يفتتن فيها بالغادة الحسناء التي يقدمها إليه شعب مصر ـ فيما تحكي الأساطير ـ في احتفالات صاخبة ومثيرة.

* * *

إشعاع الحضارة السياسية والفلسفية لليونان حققه الموقع الجغرافي:

ونأخذ المثال الثاني، لتحكم الجغرافية في صياغة التاريخ، من تاريخ اليونان. فقد وجد هذا الشعب ـ أو الشعوب ـ الصغيرة في موقع جغرافي فريد. وكان تشتته على مجموعة من الجزر المتقاربة والمتباعدة مؤشر صحة لا مؤشر ضعف. بنى حضارته العلمية والفكرية بعبقرية أبنائه. وبنى مجده السياسي والحضاري خارج اليونان بدافع من الموقع الجغرافي. الجزر الصغيرة لم تكن تضمن له الحياة، ولكنها علمته في الوقت نفسه أن ينتصر على الشتات بقهر البحر، فكان شعباً بحاراً ينتقل جنوباً وشرقاً وغرباً، وينقل معه بعضاً من حضارته الفكرية والسياسية والعلمية. بنى فلسفته على التنظير تارة وعلى الواقعية تارة أخرى، وربط الفكر الفلسفي بالفكر السياسي. ومنح الإنسانية مثلاً من هذا الفكر وذاك لتجترَّ الفلسفة اليونانية حتى آخر الفلاسفة الذين عاشوا في أوروبا وافريقيا. وما ندري ما إذا كانت هذه الفلسفة ما تزال تغري أمريكا؟ ومنح الفكر السياسي في مثاله الديمقراطي إشعاعاً على العالم يتذكره كلما واجه طغياناً خارجياً أو داخلياً، وما تزال كلمة «الديمقراطية» التي خرجت من المعطف اليوناني تغري بالاتباع كلما فكر المفكرون السياسيون في بناء عالم تتعادل فيه السلط، وتسمو فيه النظرة إلى حقوق الإنسان ضد كل اغتصاب أو تسلط أو طغيان.

التاريخ اليوناني هو أيضاً كان نتاجاً لجغرافية بلاد اليونان. وإذا كانت الحضارة اليونانية ـ على خلاف الحضارة المصرية ـ لم تتقوقع في اليونان،

فلأن اليونانيين أبناء مجموعة جزائر، وليسوا أبناء جزيرة واحدة محاصرة بالنيل والخضرة والصحراء، كما هو الأمر في مصر. الجزر اليونانية متفتحة على البحار. فكان من حسن حظها أن هذه البحار لم تكن محيطات تفصل الجزر اليونانية بعضها عن بعض، وفي وسع قوارب متوسطة اجتيازها. وأرض الشرق قريبة حيث كان يمكن للاسكندر أن يحط الرحال بكل تراث اليونان الحضاري والفكري والسياسي. . .

كانت الجزر المشتتة إذن عاملاً جغرافياً تَحَكَّم في صياغة التاريخ اليوناني، ليس في داخل اليونان فحسب، ولكن كذلك خارج اليونان.

وما يدري أحد لو لم يكن البحر سبيل هجرة الحضارة اليونانية هل كان يمكن أن تنتقل الفلسفة اليونانية خارج اليونان؟ هل كان يمكن أن يعرف التاريخ فتوح الاسكندر في الشرق والغرب، ينشر من خلالها الحضارة اليونانية؟ هل كان يمكن أن يبني الاسكندر مدينة الإسكندرية التي أسست مدرسة خاصة في الفلسفة تجاوبت فيها الثقافة اليونانية مع الثقافة المصرية القديمة والطابع المصري، وكانت إلى ذلك «جزيرة» فلسفية في جنوب المتوسط أشعت على أفريقيا كما أشعت على أوروبا فكراً وعلماً وحضارة؟ هل كان يمكن أن يتعرف العرب على فلسفة اليونان فينقلوها ويضيفوا إليها، كما فعلوا في عصر ازدهار الحضارة العلمية العربية الإسلامية ابتداء من عهد المأمون حتى عهد الموحدين في المغرب والأندلس؟ . هل كان يمكن أن ينتقل هذا الفكر من خلال العرب إلى أوروبا فتفرز القارة القديمة ـ الجديدة عصور النهضة التي مهدت للحضارة الحديثة، حضارة علم وتقنية وفكر وفن وسياسة وثقافة عامة؟ .

هل كان يمكن أن ينقل الفكر السياسي اليوناني الجمهوري إلى عصر النهضة فينتشر الفكر الديمقراطي ـ ابتداء من الكلمة حتى الفكر ـ في أوروبا ثم في بقية أنحاء العالم؟ وهل كان يمكن أن ينتقل الأدب اليوناني، ابتداء من المحاورات الفلسفية الأفلاطونية، حتى الياذة هوميروس وأساطير سوفوكليس ومآسي أوديب لتعطي مثالاً لاستقراء أساطير التاريخ ومآسي الإنسان القديم،

ولتسلك فنون القول ـ ابتداء من عصر النهضة ـ مسلك الأدب اليوناني في القصة والمسرحية والرواية والملاحم الشعرية؟.

أغلب الظن أن البحر الذي هجّر اليوناني القديم هجّر معه التاريخ اليوناني بكل ما حفل به من فكر سياسي وفلسفي وفن نحتي وقولي.

وتحكمت الجغرافية مرة أخرى في التاريخ.

* * *

الامبراطورية الرومانية بنت الموقع الجغرافي:

ومثال آخر نأخذه من روما هذه المدينة التي أعطت اسمها لأجيال من تواريخ الإنسانية. وكان موقعها الجغرافي هو الذي بعث الحياة في أباطرتها القدماء. امتطوا البحر ليفسح لهم المجال الذي ضاق على أرض الرومان الفقيرة المحاصرة، وكان للموقع أيضاً ـ وسط الأبيض المتوسط ـ بين امتداده شرقاً وبين امتداده جنوباً ـ ويكاد الامتدادان يتعادلان ـ أثره في صياغة التاريخ. وفسح البحر المجال للإمبراطورية الرومانية.

هذا مثال إذن نأخذه من إحدى أعظم الإمبراطوريات القديمة التي تطورت واستمرت قروناً عاشت فيها قبل المسيحية وبعدها. وكان لها دور كبير في تكييف الوضع العام سياسياً واقتصادياً وحضارياً في أوروبا الجنوبية والبحر المتوسط بجنوبه الواسع. إنها الأمبراطورية الرومانية التي تركت بصماتها على التاريخ القديم، وما تزال ملامح هذه البصمات تبرز في التاريخ الحديث.

الأسباب التي يتحدث عنها المؤرخون لظهور الامبراطورية الرومانية بهذه القوة العسكرية والسياسية (الجمهورية) والحضارية والعلمية والفنية لا تكاد تخرج عن الأسباب الظاهرة، وكلها صحيحة، ولكنها تغفل، إلى حد ما، العامل الجغرافي الذي تدخل بفاعلية ليكون وراء كل ذلك. يذكرون عوامل الرجال الذين أنجبتهم روما وطموح بعضهم اللامحدود: سيبون الإفريقي، وأميليوس، وشيبون اميليانوس، وبومبيوس، وقيصر، وكلهم وغيرهم برزوا في الحروب العديدة وانتشروا بجيوشهم شرقاً وغرباً. ويذكرون بعض

الظروف البشرية كالطمع والتطلع إلى بلاد الآخرين. ولكنهم ينسون أو يتغافلون مفتاح كل هذه الظروف والعوامل وهو الموقع الجغرافي الذي خلق كل الأسباب المذكورة والمنسية.

إيطاليا تقسم المتوسط قسمين، وهي شبه جزيرة تنغرس من الشمال الغربـي إلى الجنوب بشرق لتكون شبه حذاء يعزل قسما من المتوسط، يسمى الآن الأدرياتي، عن جزء منه يسمى الآن البحر الأبيض. تحيط بها جزر كبرى: على قدمها صقلية وقريباً من وسطها الغربـي كورسيكا وسردينيا. وعلى مرمى البصر من صقليتها أقرب أرض افريقية إليها تونس. وتونس هي مركز قرطاج، وهي الأخرى تقسم المتوسط في جنوبه قسمين: غربها ليبيا التي تفضي إلى مصر (وكلها جميعاً بلاد الحضارات القديمة) وغربها الجزائـر والمغرب وهي البلاد التي أسهمت في حضارة قرطاج وحاربت تحت الراية القرطاجية، وامتد نفوذ أبنائها وسمعتهم إلى قادس في إسبانيا وإلى مناطق أخرى من أوروبا.

وإلى الشرق من هذه الجزيرة (شبه جزيرة) توجد بلاد حضارة أخرى هي اليونان، ومنها بلاد عسكرية توسعيـة أخرى هي مقدونيا أنجبت الأسكندر الذي كان ذكره ما يزال يطير النوم من عيون كل الرجال والأبطال.

تعاقبت على هذا الموقع (ايطاليا) أقوام استقروا فيه وكونوا لهم شعباً أو شعوباً مختلطة. ومن هذا الخليط تكون شعب من الفلاحين إذا كان يجد له في الشمال ما يحقـق بـه أمنه الغذائي فإنه لا يجد في الجنوب إلا البؤس والبحر والتيه. والبحر كما تمرست عليه شعوب أخرى يغري بالبحث عن لقمة الخبز. التى قد لا يجد ما يكفيه منها في الأرض. وإلى جانب هذا الشعب بلاد فيها خصب ومزيد من الثراء. وشبه الجزيرة ـ مع كل هذا ـ كان ممرا (طريقا) لعديد من الشعوب تنقل تجاراتها فتستغني، ولكنها أيضاً تهدد الاستقرار فيها وتطمع.

ذلك عن الجانب المادي من الموقع الجغرافي. ولكن الموقع يسنده

موضع لا يجعلها وسط بحر تحيط بها بحور، وإنما يجعلها وسط موضع حضاري وموضع توسعي تحيط بها حضارات ومطامع وتوسعات استهدفتها في كثير من فترات التاريخ القريب منها.

الأبيض المتوسط كان له أثر في تكوين عقلية الرجال الطامعين. بقية أوروبا الداخلية التي لم تكن منفتحة على البحار لم يكن الرجال فيها يملكون هذه العقلية التي تكيف طموحهم. البحر كان يعلم الشاطئيين طريقة الانتصار عليه والنفاذ إلى ما وراءه. وهو بحر مشمس في أغلب أيام السنة. والشمس تفتح آفاق التوسع وتحرر الإنسان من الجمود والتقوقع والكسل.

وذلك ما أثر في انسياح روما شرقاً وغرباً حتى كونت لها إمبراطوريتين: (الغربية التي تزعمتها روما، والشرقية البيزنطية التي تزعمتها القسطنطينية).

انساحت شعوب أخرى من قلب أوروبا كالوندال مثلاً لتحاول تكوين امبراطورية متوسطية على أنقاض روما، ولكنه انسياح المغامرين لا انسياح المتحضرين. وفرق كبير ما تركته الامبراطورية الرومانية في التاريخ، وما تركه الوندال.

للعامل الجغرافي أثر كبير في ذلك.

* * *

الموقع الجغرافي أسهم في نشأة الإسلام وانتشاره:

المثال الرابع نأخذه من الموقع الجغرافي للجزيرة العربية، فيها نشأ الإسلام ومنها انتشر وعلى أطرافها نشأت اليهودية والمسيحية. وكانت بلداً قفراً، غير ذي زرع، شديد المراس، محاصراً بالبحر والفقر، ولكنه متسع اتساع دنيا ذلك العصر. مهد اتساعه لأهله سبيل التنقل والهجرة. وجعل من قبائله رحلا طلباً للكلأ والماء. وجعل من بعض قبائله مهاجرين للتجارة حيثما وجدت تجارة في الشمال المخصب (بلاد الشام). وجعل الموقع من أهله أشداء في الدفاع عن النفس والعقيدة والعرض والمال. وكان لا بد لمنزل

الوحي والأديان أن يكون مركز دين وهدى فكان أن بنى إبراهيم بيتاً مكانة للناس وأمناً ومقاماً مصلى، فكانت الكعبة التي ربطت بعض قبائل الجزيرة بالله، ولو أنهم زاغوا عن طريقه، فاتخذ كل منهم إلاهاً يعبده بعد أن نسوا إلّه إبراهيم.

ربما كان الموقع الجغرافي في مقدمة ترشيح هذه الجزيرة للديانات السماوية. قد يكون لأنها وسط العالم المعروف آنذاك ولم يكن يتجاوز شواطىء المتوسط والبحر الأحمر، ومراكز الامبراطوريات التي فرضت نفسها على التاريخ في آسيا: الفارسية والهندية والصينية. وكان أن تردد على أطرافها موسى ثم عيسى، وأن نبغ في قلبها محمد. ولم تكن رسالته، التي تحررت من القبلية والقومية (نسبة لقوم الرسول) والعائلية لتكون للناس كافة، لو لم تكن هذه الرسالة الضخمة رسالة متحدية للموقع الجغرافي، بكل ما حمله لسكانها من شدة وحدة وعناد. ربما كانت الهجرة بالدين ـ لا فراراً به، ولكن تقوية له ونصرة للآخرين على خصومه ـ هي أولى التحديات للموقع الجغرافي، فرضها الموقع وفرضت عليه. رغم اتساع الموضع (شبه الجزيرة) فقد ضاق عن أن يحتمل ضخامة الرسالة إلى الناس كافة، فكانت الهجرة إلى الحبشة بداية تحدي المحاصرة التي فرضها الموقع الجغرافي على المسلمين، ولعله لولا قرب الشاطىء الافريقي من مركز الدعوة الإسلامية لما كانت التجربة الأولى، ولولا التجربة الأولى لما فكر المسلمون في أن يرحلوا باسلامهم إلى الأقوام الآخرين شمالاً حتى العراق مروراً بمراكز الامبراطورية البيزنطية حتى عاصمتها القسطنطينية، ثم شمالاً بشرق إلى بلاد فارس، وغرباً إلى الشاطىء الافريقي ابتداء من مصر حتى المغرب، ثم شمالاً حتى أبواب فيينا بواتيي.

الموقع الجغرافي لم يؤثر في تصدير الحكم فحسب إلى بلاد الشام ثم العراق، وما تفرع عنه من دول وخلافات وممالك، ولكنه أثر في تصدير الدين كذلك. كان الإسلام بداية للحكم وملهمه، وكان في الوقت نفسه تفتحاً

على العالم الجديد: الخصب، الغني، المستقر، المتحضر، الشاسع الآفاق.

وأثر أيضاً في تصدير اللغة بتصدير القرآن والمصادر الأخرى لهذه اللغة، الشعر العربي في مقدمتها. وتصدير ما نشأ عن الدين والقرآن واللغة من علوم تجاوزت النطاق الضيق لما عرفته الحضارة العربية إلى علوم تجريبية ونظرية وفلسفية أسهم الدين في التفتح عليها.

أليس كل ذلك ردة فعل لموقع جغرافي ضاق عن أن يسع عظمة وشساعة الرسالة الإسلامية؟.

ترى لو كان الإسلام نشأ في بيئة جغرافية غير هذه، ناعمة وخصبة ومعتدلة الطقس، وبين أقوام لم يمنحهم الموضع ما منح العرب من شدة وعناء وتطلع إلى ما وراء موضع القحل والفقر، لو نشأ الإسلام في بيئة جغرافية غير هذه أكان ينتشر بهذا الامتداد الآفاقي، وفي أقل من قرنين وصل إلى أطراف الصين وطرفي الشرق والغرب من أوروبا وكل شمال أفريقيا ليتغلغل بعد ذلك في شرقها وغربها؟.

من المؤكد أن الجغرافية أسهمت بحظ كبير في تحويل مجرى التاريخ، ليس تاريخ الإسلام فحسب، ولكن تاريخ العالم الذي ارتبط بالإسلام، وفيه نصيب كبير من الإيجابيات وحظ من السلبيات التي كتبت في تاريخ المسلمين أو الذين تعاملوا مع التاريخ تحت راية الإسلام، فكانوا وبالاً على المسلمين وأضروا بتاريخ الإسلام الذي لمع بإيجابياته في مختلف عصور التاريخ.

* * *

إيبريا المحاصرة دفعها الموقع إلى اختراق الحصار:

مثال آخر نأخذه من الموقع الجغرافي لشبه الجزيرة الإيبيرية، هذه البلاد الأوروبية التي يحاصرها البحر وتفصلها عن أوروبا جبال البرينيه. كانت دائماً تتوق لتكون أوروبية. ولكن وجهتها كانت دائماً لغير أوروبا رغم أنها شاركت في فترات من تاريخ الصراع بين الدول الأوروبية، وبين طرفي

المسيحية: الكاثوليكية والبروتستانية. وإذا كانت تقسمها القوميات واللغات والأقاليم، فإنها تنزع من حين لآخر إلى الوحدة كلما قوي إقليم من أقاليمها وخاصة الأقاليم القشتالية.

وقد فرض عليها الموقع الجغرافي أن تؤدي الضريبة عن أوروبا كما كان يتصور غلاة المسيحية فيها. أقاليمها الجنوبية تطل على البوغاز. ولذلك كان هذا البوغاز معبراً للعرب والمسلمين، فأقاموا في الأندلس دولة عمرت ثمانية قرون، بفضل عبور المغاربة لإقرار السلطة الإسلامية، كلما ضعفت أو تهاوت أمام المد الشمالي. ولذلك دفع بها موقعها الجغرافي على البوغاز أن تكون دائماً مغزوة أو غازية، للدفاع عن الذات وعن الدين، كما ركز ذلك المتطرفون المسيحيون دون أن يقيموا وزناً لتغير التاريخ الذي أقام دولة أندلسية من الأندلسيين الأصليين ومن الوافدين المسلمين مشارقة ومغاربة. وللدفاع عن النفس والدين اتجهوا ـ عن طريق البوغاز ـ إلى أفريقيا. وباب أفريقيا هو المغرب. ولذلك حاولوا أن يقيموا لهم معبراً في طنجة أو في العرائش وكل الشواطىء المغربية الأبيضية والأطلسية وكان التاريخ الدموي المشترك هو المتحكم في تاريخ شبه الجزيرة.

ومحاصرة جبال البرينيه لشبه الجزيرة عن أوروبا ـ مع ضعف الموارد نسبياً ـ دفعت بهم إلى أن يخوضوا معارك بحرية مع أكبر الدول التي دفع بها الموقع الجغرافي أيضاً إلى البحر وهي انجلترا. وانتهى الأمر بهذا الصراع الطويل الدامي إلى أن وضعت انجلترا لها قدماً في جنوب شبه الجزيرة، فاحتلت جبل طارق كما كانت قد احتلت طنجة لتتحكم في البوغاز ـ الطريق البحري للأبيض وللمحيط معاً ـ والطريق البحري لربط أجزاء أوروبا جنوبها بغربها وجزء من شمالها وللدفاع عنها أيضاً. ولا ننسى أن البوغاز أنقذها ـ أو أسهم في إنقاذها ـ مرتين في هذا القرن في حربين عظميين. ولتحجم الأسطول الاسباني الذي كان يطمح أيضاً إلى أن يستولي ـ وقد استولى بالفعل ـ على شواطىء شمال أفريقيا من المغرب حتى الجزائر وتونس وطرابلس، كما

استولى على الشواطىء الأطلسية المغربية، ليس فقط للدفاع عن النفس حتى لا تتقوى الدولة الإسلامية في الأندلس، ولكن أيضاً لتكون محطات إلى قلب أفريقيا، وللوصول إلى المحيط الهندي وآسيا عن طريق رأس الرجاء الصالح.

الموقع الجغرافي أيضاً تحكم في أنها أصبحت دولة بحرية أطلسية. وليس من الصدفة في شيء أن كريستوف كولومبس أبحر من شبه الجزيرة الإيبيرية ليختصر الطريق إلى الهند ـ بلاد الأبازير ـ فاكتشف أمريكا. وأن الإسبان والبرتغاليين كانوا البحارين أكثر جرأة لسلوك نفس الطريق البحري فكونوا أعظم مستعمرة في التاريخ: نقلوا إليها بعضاً من شعبهم ولغتهم وجزء من حضارتهم، حتى إذا نضجت البلاد الواسعة المختلفة السكان الأصليين طردت الحكم الإسباني البرتغالي واستقلت كما استقل الشمال عن انجلترا.

الموقع الجغرافي إذن هو الذي تحكم في صياغة تاريخ هذه البلاد جميعها من شبه الجزيرة إلى الشواطىء المغاربية إلى أمريكا اللاتينية. وما تزال إسبانيا مدينة في حضارتها القديمة والحديثة وفي تاريخها المستقبلي وفي اقتصادها لهذا الموقع الجغرافي، الذي سيزيد في تدعيمه الربط القار بين أفريقيا وأوروبا عن طريق المغرب وإسبانيا.

* * *

الموقع الجغرافي جعل من الجزيرة الفقيرة أعظم امبراطورية في التاريخ:

آخر مثال نأخذه من العصر الحديث: مثال من أوروبا الحديثة تقدمه الجزر البريطانية: جزر أوروبية معزولة عن أوروبا يحيط بها البحر ويمزقها، يعزلها ويوصلها. وعادة سكان الجزر أنهم يولدون بحارين، خاصة إذا كانت الأرض لا تحقق لهم الغذاء ولا الثراء، ولا ترضي مطامحهم ليكونوا كما يريدون. وسكان الجزر البريطانية لم يكونوا يصلون القربى من أوروبا

ـ ويعتبرون أنفسهم صفوة بنيها ـ إلا على أسنة الحراب. ولذلك كانت سبلهم للغذاء والثراء هي الحروب، ومع أقرب جيران لهم من أوروبا وهي فرنسا. وهم يبعدون بالحرب دائماً عن أرضهم، لأنهم يعرفون بحدس ربان السفينة أن العدو إذا قفز إلى السفينة فقد حقق نصف النصر، لهذا كانوا دائماً يحاربون خارج الجزر البريطانية، اتفقت هذه الحقيقة ولم تختلف، إلا في الحرب العالمية الثانية يوم تخطى الطيران الألماني المانش الذي جعل منه البريطانيون مقبرة لخصومهم والغزاة من جيرانهم والأبعدين على السواء. وأصبحت الغارات الألمانية تُصَبِّح اللندنيين وسكان كل المدن البريطانية وتُمَسِّيهم.

لم تتحكم الجغرافية في صياغة التاريخ البريطاني في دفاع أهل الجزر عن جزرهم، كما يدافع بحارة سفينة عن سفينتهم، فحسب، ولكنها تحكمت في صياغة التاريخ البريطاني الحديث. عز عليهم أن يعيشوا لصق الفقر والإملاق وعلى غير مبعدة منهم أرض أغنى وأوسع أفقاً. فكان البحر سبيلهم لتحطيم تحكم الجغرافية في الإنسان. تركوا المانش للدفاع عن الجزر من الطامعين، وركبوا المحيطات لاكتشاف القارات الواسعة والغنية. كان الذهب والأبازير والتجارة هدفهم من البحث عن آسيا، وفي ذهنهم منها بلاد الحضارات الهندية والصينية. وكان طريقهم إليها محفوفاً بالمصاعب: في مقدمتها طول المسافات وعظم المحيطات. ولذلك كانت الطريق وسيلة وهدفاً في نفس الآن. للوصول إلى الهند كان لا بد من الدوران حول أفريقيا ولا بد لذلك من محطات، قد تكون في البداية محطات استراحة وتزود، لتصبح بعد ذلك جزء من الإمبراطورية، ولم تكن هذه هي الصعوبة الوحيدة ولكن الطريق كان محفوفاً بالخصوم والأعداء. وفي الوقت الذي راودت البريطانيين رغبة الانطلاق من أسر الجزيرة كانت شعوب أخرى تبحث عن قدرها في غير أرضها. كان البرتغاليون والإسبانيون يقفون بالمرصاد لكل من تسول له نفسه أن يتجه نحو شواطىء البحر الأبيض الجنوبية من طنجة حتى

طرابلس، ونحو الشواطىء الأطلسية في إفريقيا ابتداءً من موانيء المغرب وشواطىء صحرائه حتى غانة، وقد سلكوا نفس الطريق نحو الشرق محاذين الشواطىء الجنوبية ثم الشرقية الإفريقية، متخذين من بعضها محطات سفر ومقرات إقامة. وفي طريقهم إلى الخليج وبحر الهند والجزر الشتات في المحيط الهندي (الفيليبين) وإلى بعض أجزاء الهند كان الصدام بين المغامرين الإنجليز والإسبان والبرتغال. ولكن شساعة الاتجاه، وغروب شمس كثير من الشعوب الإفريقية والأسيوية، ويقظة المحاربين الأوروبيين واتقانهم لآلات الحرب مع نهضة الصناعة والفنون التجريبية المتقدمة منحت كل «ذي حق حقه» فكان لكل المغامرين حظهم لتكوين امبراطوريتهم فيما وراء البحار. وكان لإنجلترا حظ الأسد، وهي تزرع «الجنس» الأشقر في جنوب إفريقيا ليكون بعد ذلك دولة تنفصل وتستقل على حساب السكان الأصليين من السود، ولتزرع الجنس الأشقر كذلك في الجزر القريبة من الهدف: الصين، فتتكون بذلك زيلاندا الجديدة وأوستراليا ولتستولي على بلاد المهراجات والحضارات فتضع الهند أغلى درة في تاج الإمبراطورية.

وتدفع بها المغامرة غرباً حتى جزر المالوين.

وإذا لم يكن التاج البريطاني قد استطاع أن يفرض الحكم إلى الأبد على أمريكا الشمالية حيث ثار السكان، والبريطانيون من بينهم ضد فرض الضرائب البريطانية عليهم فاستقلوا، فقد منحت هذه الدولة ـ التي ستصبح أعظم دولة في العالم متفردة بالقوة والسلطة والقرار السياسي ـ كثيراً من قيم الإمبراطورية في مقدمتها اللغة الإنجليزية، التي فرضتها على السكان الأوروبيين والإفريقيين جميعهم دون سائر لغاتهم الأصلية التي هاجروا بها وفقدوها بعد أن حطوا رحالهم في القارة الجديدة.

وإذا كان البحر الأبيض ـ تقليدياً ـ بحيرة أوروبية يتبادل فيه الشمال والجنوب المصالح والحروب والتعاون والتدابر، فإن البريطانيين الذين كان

الأوروبيون يعزلونهم عن هذه البحيرة وجدوا لهم مكاناً وهم يسدون منفذه الرئيسي، قبل أن يكون له منفذ آخر. فكان هذا المنفذ بين أيديهم وهم يحتلون طنجة في فترات من التاريخ، وجبل طارق قبل أزيد من ثلاثة قرون. ومن هذا المنفذ كان لهم مكان، حاربوا من أجله الفرنسيين، في مصر. ثم أصبحت مصر من مشمولات التاج بعد أن سهل لهم المأمورية الفرنسيون يوم فتح دي ليشيبس قناة السويس. أصبحت مصر بذلك طريقاً «شرعياً» نحو الهند. وحتى يضمن البريطانيون الحفاظ على جوهرة التاج «الهند» لا بد ـ «منطقياً» ـ أن تكون لهم مصر، ولو حاربوا في سبيلها الفرنسيين ثم الإيطاليين والألمان.

بذلك أحاطت الإمبراطورية بإفريقيا وضمت إليها منافذها الأساسية في الشمال والشرق والغرب والجنوب. وضمت معظم المناطق الكبرى في آسيا، ودقت باب الصين عدة مرات، وحاربت في سبيل أن تكون لها الصين كما كانت لها الهند.

الإمبراطورية التي لم تغرب عنها الشمس حتى منتصف القرن العشرين هي التي ميزت تاريخ البريطانيين الذين لم يدعوا الجغرافية تتحكم فيهم فتحكمت في صياغة تاريخهم.

الجغرافية التي منحت البريطانيين أرضاً جدباء محاصرة بالبحار هي التي منحتهم الطموح ليبنوا لهم مراتع في معظم قارات العالم. استوطنوا بعضها فانفصلوا عن التاج، ولكنهم بريطانيون جنساً ولغة وحضارة، وربما اقتصاداً وانتماءً سياسياً ودفاعاً عن التاج كلما تعرض للخطر، أو حارب دفاعاً عن الإمبراطورية. أو للمزيد من التمكين لها. كان أبناء هذه البلاد جميعهم يمنحون دمهم في سبيل الذين يحتلونهم، وفي سبيل الإمبراطورية التي حكمت العالم ردحاً طويلاً من الزمان.

لو لم تكن الجغرافية التي تحكمت في بلاد الإنجليز لما جاهد أبناء

الجزر الفقيرة المحاصرة لبناء هذه الإمبراطورية، ولما منحت لهم الإمبراطورية أعظم قوة بحرية في التاريخ، وأعظم جيش في التاريخ، ولما منحت لغتهم أعظم انتشار في المعمور، ولما منحتهم أعظم قوة اقتصادية: صناعية تجارية، ولما كانوا يجوبون العالم فيجدون لهم مكان إقامة ومجال عمل وكسب، ولما أصبحت امبراطوريتهم أغنى امبراطورية في التاريخ، تملك كل مدخرات العالم من الإنتاج والمواد الخام واليد العاملة والقوة المستهلكة لصناعتهم، والشعوب التي تخدم هذه الإمبراطورية.

ونعود إلى السؤال الذي نختم به فقرات هذا الفصل: ترى لو كانت انجلترا على غير وضعها الجغرافي الذي نعرف أكان الإنجليز يتحدون الواقع ليجعلوا من الأرض التي يملكون أعظم امبراطورية في التاريخ، ومن الإنجليز ـ الشعب المحدود السكان ومحدود أفق المعرفة ـ أعظم شعوب الأرض من حيث الانتشار، ومن حيث توالد شعوب أخرى تنتمي بعض أعراقها إلى الشعب الإنجليزي؟.

نؤكد ـ ونحن نجيب على التساؤل: الجغرافية هي التي صنعت تاريخ الشعب الإنجليزي.

تلك أمثلة اقتبسناها من مسيرة الإنسانية لنؤكد فكرة تحكم الجغرافية ـ إلى حد كبير ـ في صياغة التاريخ، ولنتلمس من ورائها أن تاريخ المغرب لم يكن بدعا في تاريخ العالم، وأن الأحداث الكبرى التي عرفها فرضها موقعه الجغرافي، وكان يمكن أن تكون غير ما كانت لو لم يكن الموقع الجغرافي الذي فرض الموقع الاستراتيجي، وفرض كذلك ـ إلى حد كبير ـ تكوين الإنسان المغربي على نحو ما كانه في البداية، وعلى نحو ما جمد أو تغير في مسيرته التاريخية منذ ما قبل التاريخ.

وفي الفصول القادمة سيكون لنا لقاء مع صياغة الجغرافية لملامح تاريخ المغرب.

ماذا صنعت الجغرافية بتاريخ المغرب؟

لا يمكن أن يخرج المغرب عن «سنة الطبيعة» فيما صنعت الجغرافية بالتاريخ في كثير من البلاد. ولو أن الأمر يختلف في بعض البلاد التي ليس لها وجود جغرافي متميز وقليل ما هي. والمغرب ليس منها على كل حال.

الجغرافية ـ كابنها التاريخ ـ تتمرد على السياسة. ولذلك فهي لا تعترف بالمغرب والجزائر وتونس، ولنضف ليبيا شرقاً وموريتانيا جنوباً بغرب، وإنما تتحدث عن كتلة اسمها ـ والتسمية من الإنسان لا من الطبيعة ـ المغرب، يوصف بالكبير أو بالعربي أو بالمغارب للتمييز، وليس للتحديد. أما الجغرافية فقد حددته بالجزء الغربي من شمال القارة الإفريقية الذي تربط بينه روابط مشتركة تحددها الطبيعة في مجموعات الجبال والوديان والسهول والصحارى والشواطىء المتوسطية والأطلسية.

والأمر ليس أمر التشابه، ولكنه أمر الارتباط الوحدوي بين هذه العوامل التي كونت وجود هذا الجزء من شمال إفريقيا. ولذلك حينما نتحدث عن تاريخ المغرب أو عن مستقبله لا يمكن أن نتحدث عن المتميز بالوصف: مغرب أقصى ـ أوسط ـ أدنى، أو بالاسم: المغرب ـ الجزائر ـ تونس ـ ليبيا ـ موريتانيا، وإنما نتحدث عن الكتلة المغربية كما عرفتها الجغرافية وكما صنعت هذه الجغرافية تاريخه القديم والمتوسط وليس الحديث الذي تدخلت السياسة إلى حد كبير لتصنع المغارب لا المغرب.

وإذا كان البحر الأبيض المتوسط ـ منذ كان بحيرة قبل أن يلتقي

بالأطلسي غربـاً وبالأحمر شرقاً ـ يفسح المجال ـ وهو مد جغرافي مشترك ـ أمام تاريخ هذه الكتلة الإفريقية ليرتبط بالشمال، وليجعل منها وحدة مُتحدَّاة ومتَحَدِّيَة في مواجهة الصراع الإنساني التاريخي، فإن سلاسل الجبال المشتركة تعطي لشعبها المشترك طبيعة الإنسان الجبلي في ارتباطه بالأرض، وفي دفاعه عن نفسه، وفي قوة شكيمته وصعوبة انهياره أو استسلامه. كما أن السهول والوديان منحت حياة هذا الشعب المشتركة مصدراً مهماً للعيش، ومكنته من تنوع حياته بين مظهري الأمن والخوف. الجبل يحميه ويمكنه من الدفاع، والسهل يمنحه الحياة عندما يأمن ثم يمنحه الغذَاء والكساء وحرية التنقل. تنضاف إلى ذلك الصحراء التي لم تكن عامل عزل ومحاصرة بمقدار ما كانت البحر الواسع الأفق المأمون الجانب ـ أكثر من أمن البحر في الشمال والغرب ـ الموصل إلى ما وراء الصحراء جنوباً (إفريقيا السوداء) وما وراءها شرقاً: صحراء العرب التي شهدت في الماضي الحضارة الفرعونية في جزئها الإفريقي، وشهدت في العصر المتوسط الحضارة الإسلامية في جزئها الأسيوي.

الجبال التي تعتبر في بعض البلاد حاجزاً كانت في المغرب واصلاً في امتدادها المتميز: غرب ـ شرق. وفي بعض مناطقها: جنوب ـ شمال.

الريف والأطالس صلة وصل:

فجبال الريف تمتد من طنجة حتى الرأس الأبيض (قرب بنزرت) تأخذ اسم الريف في الغرب (المغرب) وتأخذ اسم التل في الشرق: الجزائر وتونس. هذه السلسلة كان يمكن أن تكون حاجزاً بين المغرب (السهلي) والبحر، ولكنها ـ رغم التواءاتها المعقدة وصخورها الصماء الصلدة في بعض المناطق ـ تخللتها أودية عميقة وانحدارات قوية كانت مجازات للإنسان نحو السهول جنوباً، ونحو البحر وسهوله الضيقة شمالاً، وكانت أيضاً غذاء للسهول الخضراء بالماء الذي توفره أمطاراً وثلوجاً.

وسلسلة جبال الأطلس، المتوسط والكبير. تأخذ نفس الاتجاه: غرب ـ شرق، تمتد من خليج أكادير على المحيط الأطلسي إلى ساحل تونس الشرقي متصاعداً من الجنوب: أكادير (نحو 1000 كيلومتر بعيداً عن مضيق طنجة على المتوسط) إلى الشمال (ساحل تونس المتوسطي).

بقطع النظر عن قوة هذه الجبال وارتفاعاتها ومنخفضاتها في بعض المناطق والفجاج والانفراجات التي تحدث بينها لتفسح المجال للإنسان وللطبيعة ليتحررا من عزلتها، ولتربط بينها وبين السهول الجنوبية والشمالية، بقطع النظر عن ذلك، وبقطع النظر عن الاسم الذي تحمله في المغرب (الأطلس الكبير) والاسم الذي تحمله عندما تمتد نحو الجزائر (الأطلس الصحراوي) والاسم الذي تحمله في تونس (الظهر التونسي)، وبقطع النظر عن الأسماء المختلفة لبعض هذه الجبال: بوناصر بوايبلان في الأطلس المتوسط وتوبقال، مكون، العياشي في الأطلس الكبير مثلاً بالمغرب، والقصور وعمور والأوراس مثلاً في الجزائر والشعانبي مثلاً في تونس، بقطع النظر عن كل ذلك فإن هذه الجبال تكون رابطة قوية من الغرب إلى الشرق بين أجزاء المغرب الكبير. وهي كمثيلها الريفي لا تمزق المغرب وتعزل مناطقه، ولكنها تفسح المجال لربط شمال هذه البلاد بجنوبها وغربها بشرقها.

وتنتهي هذه الجبال في شمالها وجنوبها بالهضاب والسهول التي تعطي للحياة طابعاً حضارياً أكثر، سواء بصلة هذه البلاد بالبحر (الأبيض المتوسط) وخاصة في تونس ثم في الجزائر ثم في المغرب أو بصلتها بالمحيط في المغرب، أو بتمكينه من مراكز الإقامة والاستقرار الحضاري في السهول المتسعة في كل من الأقسام الثلاثة لهذا المغرب: الاستقرار والسكنى والمعمار والزراعة والتنقل واستغلال المياه في الأنهار التي تتكون من منابعها الجبلية فتخترق البلاد وتصب أخيراً في البحر. مجموعة السهول والهضاب الساحلية والداخلية هي مصدر الحياة

الأساسية لهذه البلاد وشعبها. وهي التي أوجدت منه إنساناً مناضلاً مع الطبيعة في سبيل البقاء وجعلت منه فلاحاً متميزاً يستثمر الأرض كأحسن ما يكون الاستثمار، رغم اعتماده على موارد محدودة من المياه التي تسقط على أرضه وتجري في أنهاره، ولا تأتيه من مصادر أخرى أو جهات أبعد ـ كما هو الأمر مثلاً في كثير من أنهار أوروبا وإفريقيا وأمريكا. إذن موارد محدودة كثيراً ما تتصف بالجفاف، ولكنها ـ في محدوديتها ـ تبعث على النشاط والحيوية والترقب والحذر، وتخزين نتاج الصيف للشتاء، ونتاج السنة الجيدة للسنة الممحلة.

الصحراء حزام جامع بين الشرق والغرب:

والقسم الأكبر من منطقة المغرب الكبير تكتنفه الصحراء بهضابها ومرتفعاتها (الحمادات) ومنخفضاتها. وهي أيضاً تمتد من المحيط غرباً حتى حدود مصر. وهي الصحراء التي كانت تدعى بالكبرى وتكون ـ جغرافياً لا طبيعياً ـ الجزء الفاصل ـ الواصل بين شمال أفريقيا وأفريقيا الوسطى والغربية والشرقية (السوداء) ولم تكن هذه الصحراء فاصلة بين جزئي افريقيا (الأبيض والأسمر) ولكنها كانت صلة وصل أدت إلى تمازج الأعراق، وتمازج الحضارة، والتكامل الاقتصادي والثقافي والديني، بل والسياسي، فالصحراء حكمت الشمال كما حكمت الجنوب، وأمدت الشمال بالفكر كما أمدها الشمال بالعقيدة والفكر أيضاً والاقتصاد. ولعل الدور أتاها مرة أخرى لتمد المنطقة كلها بالثروة المعدنية: بترولاً وغازاً وفوسفاطاً.

والصحراء أيضاً تمثل هذا الحزام الكبير الجامع بين غرب المغرب وشرقه. حزام متصل من جنوب موريتانيا حتى جنوب وشرق وشمال ليبيا يكشف السهول جنوب الأطلس. وربما كان يزحف عليها في دورات التصحر.

أكبر امتداد في منطقة متكاملة:

وتملي الجغرافية على التاريخ عاملاً أساسياً آخر هو هذه السواحل الواسعة الطويلة التي تبدأ من مصب نهر السينغال في المحيط الأطلسي لتقتحم شمالاً مضيق طنجة ـ جبل طارق. وتمتد شرقاً على الشاطىء الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط في منعرجات هائلة تكون خلجاناً طبيعية، تمر بشواطىء المغرب ثم الجزائر ثم تونس في شبه جدار ينزل جنوباً ليكون شبه جزيرة، ثم جزراً منفصلة عن الأرض (جربة ـ قرقنة). ويصل إلى ليبيا ليكون ـ بعد الشاطىء الطرابلسي منها ـ شبه جزيرة برقة.

مميزات إيجابية وسلبية لهذا الساحل الطويل الذي يكون الامتداد من وإلى المغرب، والذي فك الحصار عنه وفك الحصار عن الآخرين إليه. ولا تكاد تجد اتساعاً وامتداداً بحرياً في منطقة متكاملة خدم المنطقة حضارياً وتاريخياً واقتصادياً، وكان لها نعمة بمقدار ما كان عليها نقمة، مثل هذا الشاطىء الواسع الممتد على المغرب، سواء في غربه الأطلسي أو شماله المتوسطي (نحو 3500 كلم من شواطىء المغرب الأقصى فحسب).

ثم إن التكوين الجيولوجي المتنوع لهذا الشاطىء تحكم إلى حد كبير في التاريخ. فالمضيق كان له أثر كبير في تكييف تاريخ المغرب الكبير. والشاطىء الأطلسي الممتد حتى قلب افريقيا كان له أثر كذلك على الصراع بين شمال المتوسط وجنوبه، ولأنه يماثل ويقابل امتداد الشاطىء الأطلسي على أوروبا (شبه جزيرة إيبيريا وفرنسا بخاصة) اعتبر بمثابة امتداد بحري يحقق أهداف التوسع الذي ورثته أوروبا عن روما، وانطلقت منه تبحث عن عالم آخر (آسيا) بلاد الابازير أو الذهب. وكان الشاطىء المغربي الطويل على البحر محطات ومجازاً لهذا المجهول الذي كان يبحث عنه المغامرون.

نفس الشيء نجده في الشواطىء الجزائرية والشاطىء التونسي الذي اعتبر أول محطة في جنوب المتوسط يقصدها المغامرون من الشاطئين

(مغامرات القراصنة التي لعبت دوراً مهماً في تاريخ المنطقة أكبر مظهر لأهمية الشواطىء في تكييف مجرى التاريخ) وكانت أكثر جدوى من الشواطىء المصرية التي كانت تمثل باب الصحراء باستثناء حافتي وادي النيل؛ ودور مدينة الاسكندرية.

هكذا كان على البحر في الشمال والغرب أن يحقق الامتداد الكبير، للمغرب وإليه، كما حققت الصحراء الامتداد الكبير إلى إفريقيا السمراء وإلى الشرق في المراحل الوسطى المختلفة من التاريخ الإسلامي لهذه البلاد.

تقسيم جغرافي أفقي أثر في صياغة التاريخ.

إيجابيات هذا التنوع الجغرافي وأثرها على صياغة التاريخ، منذ كان لهذه البلاد تاريخ، دفعت ببعض الباحثين إلى تصور تقسيم جغرافي آخر للمغرب. وهو تقسيم لا يعتمد الجغرافية وحدها ولا المناخ ولا البيئة، ولكنه يعتمد التفاعل التاريخي والتطورات التي حدثت في المغرب أثناء الخلط والارتباك بين التحديات القادمة من الشمال ورد التحديات التي يقوم بها شعب المغرب، وخاصة بعد انهيار السلطة الرومانية التي خلفت قرطاجة ودمرتها، وخضوع المغرب للوندال الجرمانيين القادمين من الشمال ثم البيزنطيين القادمين من الشمال الشرقي ثم العرب القادمين من الشرق. المواجهة التي أبداها الأمازيغيون لهذه التحديات أثرت في تكوين جغرافي جديد للمغرب.

وبيان ذلك أن الغزو الروماني الذي طغى على المقاومة الأمازيغية جعل المغاربة يلتجئون إلى الصحراء. هذا البحر الكبير الذي عرفه العرب، وجاء دور البربر ليتعرفوا عليه حتى يحميهم من جهة ويمنحهم فرصة يستعيدون فيها نفسهم للمقاومة. وقد طاردوا السكان الزنوج، واستقروا فيه مع ما منحهم من طبيعة جديدة تفرضها الصحراء، وهي تختلف عن الطبيعة التي منحها إياهم الأطلس والسهل الثري والساحل، وهي أيضاً طبيعة مكنتهم من وسيلة جديدة للعيش والتنقل وهي استعمال الجمل، كما منحتهم حرية أكثر سعة لأن الصحراء لا تعرف حاجزاً ولا حدوداً.

ومن هنا تكون ما يسميه هؤلاء الجغرافيون المؤرخون بمغرب الصحراء. وهو يخضع لتقسيم أفقي لا عمودي، فمغرب الصحراء إذن يمتد من ليبيا إلى المحيط الأطلسي جنوب المغرب الذي كان محط الغزاة من الشرق (الفنيقيين) والشمال الشرقي (الرومان والبيزنطيين) والشمال (الوندال).

والقسم الثاني يسميه هؤلاء المؤرخون (المتجغرفون) «مغرب الوسط»، وهو ما يشمل الآن الجزائر والمغرب وجزء من تونس وطرابلس لا يأخذ هذا الاسم من موقعه الجغرافي بين الشرق (تونس) والمحيط من جهة، وبين المتوسط ومغرب الصحراء من جهة، فحسب، فذلك منظور جغرافي (خرائطي) ولكنه يأخذه من الدور الذي لعبه في التاريخ، لأنه الجزء الذي قاوم الغزاة من الرومان والوندال والبيزنطيين والعرب (حينما كان فتحهم غزوا) وظل هذا الجزء مستقلاً ولو أنه لم يتوحد تحت مملكة أو أمارة واحدة، وإنما يعد المؤرخون (الأجانب بالأخص) منها تسع امارات. وهي الإمارات التي احتفظت باستقلال هذا الجزء في ظل حروب تحريرية استمرت عشرات السنين.

ولم تكن صراعات سياسية وعسكرية على السلطة بين البربر والغزاة، ولكنها كانت صراعاً أيضاً بين الوندال والبيزنطيين وبين الأمازيغيين والوندال وبينهم وبين البيزنطيين، وبين عقائد المسيحية التي حاولت روما بعد أن رضخت وتممت نشرها في المنطقة وبين المسيحيين واليهود.

مغرب الوسط إذن لم يستسلم ولم يهاجر كما فعلت طوائف من الأمازيغيين الذين كونوا مغرب الصحراء، وإنما ظل يقاوم في سبيل الاستقلال إلى ما بعد الفتح الإسلامي. والموقع الجغرافي بجباله وسهوله وسواحله مكن السكان من هذه المقاومة استمراراً لرسالة المغرب والمغاربة في مواجهة التحديأت الخارجية.

والقسم الثالث هو المغرب المفتوح. وهو القسم الذي تركزت فيه دولة قرطاج. واحتفظت به روما بعد أن دمرت دولتها. ثم احتله بعد ذلك الوندال والبيزنطيون والعرب. وظل على التوالي شريطاً ساحلياً لا يقوى على المقاومة، ولا يكون ملجأ للمقاومين. وحافظ على نظامه الاجتماعي والاقتصادي لأنه، فيما يبدو، كان الجزء الأكثر مسالمة، والأوفر إنتاجاً.

وما من شك في أن مرور القرطاجنيين وتركيز أسس الدولة في هذه المنطقة أثر على وضع السكان وقابليتهم للمقاومة والعمل للتحرر. ولذلك كانوا ينتظرون التحرير من المغرب الوسط[1].

هذا التقسيم الجغرافي المصطنع، إلى حد ما، يفسر كثيراً من أحداث التاريخ. ليس فقط تاريخ مرحلة الصراع الأجنبي على المغرب، والتحديات التي واجهتها المغاربة. ولكن كذلك تاريخ تكوين الدولة الإسلامية الحديث ابتداء من الدولة الإدريسية حتى القضاء على الاستعمار الفرنسي. وما مشكلة الصحراء التي ابتدعت بعد ذلك إلا جزء منه.

---

(1) حلل هذا التقسيم الذي اتبعه المؤرخون الغربيون الأستاذ عبد الله العروي... مجمل تاريخ المغرب ط 3 الفصل الثالث ص 95 ـ 107.

الإنسان المغربي
بماذا أمدته الجغرافية؟

أصل الإنسان الأمازيغي؟

اعتاد المؤرخون ـ العرب والأجانب ـ أن يبحثوا عن أصل الإنسان الأمازيغي، أو الشعب البربري كما يسمونه. ولا يفيدنا في شيء أن نبحث عن مصدر فكرة «المصدر» كأن كل الشعوب التي عاشت في منطقة ما قدمت إليها من منطقة أخرى. ولعل فكرة البحث عن الموطن الذي جاء منه الأمازيغيون إلى المغرب الكبير جاءت من ظلم التاريخ لهذه المنطقة. فلم يعرف عن تاريخها القديم إلا القليل. وما عرف منه وكتب عنه ارتبط بالغزو البوني والروماني والوندالي والبيزنطي ثم الفتح العربي، ثم الامتداد التركي ثم الاستعمار الفرنسي والإسباني. ويمكن أن نتصور أنه إذا كان تاريخ هذه البلاد مرتبطاً بهذه الشعوب التي غزت أو فتحت أو استعمرت، فإن أصل الإنسان كان كذلك من خارج المنطقة.

والمؤرخون العرب القدماء ـ وخلاصتهم ابن خلدون ـ نحوا هذا النحو لأن آفاق تفكيرهم كانت محدودة، فهم لا يعرفون ـ تقريباً ـ إلا القسم العربي من آسيا. وبما أن سكان المغرب يشبهون في ملامحهم ـ في الغالب ـ سكان هذه المنطقة، فهم ـ ولا شك ـ من أصل يمني أو فلسطيني.

ولذلك فمعظم النسابين (إلى أي حد يتقن النساب التاريخ. . .؟) يؤكدون أن الأمازيغيين يرجعون في أصلهم إلى البرانس والبتر، ويذهبون

أكثر من ذلك إلى تأكيد نسب البرانس إلى حام والبتر إلى سام...؟ ثم يزعمون انطلاقاً من ذلك أن البتر عرب من مصر والبرانس من عرب اليمن. ويؤكد ابن خلدون ذلك. ويستمر هؤلاء المؤرخون في القول بأنهم قدموا من اليمن أو من فلسطين عبر مصر وأنهم أول من استوطن هذه الأرض بعد العصر الحجري.

والوزان نفسه الذي لا يمكن أن يعتمد عليه كمؤرخ، ولكنه ـ ولا شك ـ اطلع على كتب بعض المؤرخين التي قرأها في مهجره بصقلية، يروى نفس الروايات التي تزعم أن السكان «الإفريقيين البربر يتمون إلى الفلسطينيين الذين هاجروا قديماً إلى إفريقيا حين طردهم الأشوريون فأقاموا بها لجودتها وخصبها» ويضيف: «ويزعم آخرون أن أصلهم يرجع إلى السبئيين (أي المرين) الذين كانوا يعيشون في اليمن قبل أن يطردهم الأشوريون أو الأثيوبيون منها».

هذا الاتجاه في التعريف بمنشأ السكان البربر يقابله اتجاه آخر نشأ عن الدراسات الاستعمارية التي كانت تريد أن تطبع كل ظاهرة عرقية أو بشرية أو تاريخية أو حتى جغرافية بالفكر الاستعماري، وتوظيف الظاهرة لخدمة الهدف الاستعماري. ويريد هذا الاتجاه أن يربط السكان الأمازيغيين بسكان أوروبا، قدموا إلى شمال افريقيا من الشاطىء الشمالي للبحر الأبيض. ويستهدف من هذا الرأي تقرير عودة الفرع إلى الأصل. أي إن الأوروبين هم الذين عمروا شمال افريقيا تحت اسم الأمازيغ، وعادوا إليها تحت اسم الفرنسيين أو الإسبانيين أو الإيطاليين. ولذلك فلا داعي للتفكير في غير «أوروبة» شمال افريقيا، والبحر بحيرة للربط، وليس للفصل.

لا يعدم الاتجاه الأول الأدلة (الشكلية على الأقل واللغوية) للتأكيد على أن الأمازيغيين قدموا من اليمن، أو منها ومن فلسطين، فيتحدثون عن لون الشعر والبشرة النحاسية والعيون السود ودقة الملامح العامة، وقصر القامة، لذلك

التشابه في بعض الكلمات الأمازيغية مع الكلمات الحميرية القديمة أو الكلمات التي نجدها حتى الآن في جنوب اليمن. . . ولا يعدم الاتجاه الأوروبي الأدلة على مقولته فيجدها كذلك في الشعر السبط وزرقة العيون ـ في الريف مثلاً ـ ولون البشرة المائل للشقرة وطول القامة.

المغاربة أصلاء في بلادهم:

ويبدو لي أن الاتجاهين مخطئان انطلاقاً من خطأ لا تسنده حجة.

ذلك أنه ليس من الطبيعي التأكيد، إلى درجة الجزم، بأن سكان العالم كلهم نشأوا عن رحلة. فإذا كان أصل الأمازيغ مثلاً من اليمن، فمن أين أصل سكان اليمن؟.

صحيح أن كثيراً من أجزاء العالم خضعت لموجات من الهجرات الجماعية، التي كان منشأها البحث عن الغذاء أو الهروب من الكوارث الطبيعية أو من طغيان الحيوان في بعض الأحيان. كان هذا في العصور القديمة ابتداء من العصور الحجرية المتأخرة. واستمر حتى العصر الحديث، فإعمار أمريكا شمالها وجنوبها وإعمار استراليا ونيوزيلاندة وغيرها من الجزر الكبرى والقارات جاء ـ بعد الاكتشاف ـ نتيجة الهجرة الجماعية من أوروبا وآسيا ونتيجة التهجير من افريقيا (ولو بصفة عبيد) ولكن هذه الظاهرة العرقية والسكانية لا يمكن أن تنطبق على جميع الأقطار والأقاليم خاصة في وسط المعمور الذي عرفته البشرية القديمة. فلا شك أن افريقيا شمالها وجنوبها كانت مسكونة منذ عرف الإنسان على وجه الأرض وكما أن اليمنيين أو الأروبيين كانوا أصلاء في بلادهم، فكذلك الأمازيغيون كانوا أصلاء في بلاد المغرب الممتدة من لوبيا (تسمى الآن ليبيا) حتى نهر السينغال. وامتد وجودهم من افريقيا جنوب الصحراء، مع اختلاط وامتزاج فرضته الإقليمية الجغرافية والتنقل البشري.

على أن تأكيدنا بأن السكان الأمازيغيين أصلاء في بلادهم لا يعني أنهم

ظلوا محاصرين في هذه الجزيرة الكبيرة بين البحر والصحراء الكبرى. بل إن هذه البلاد أخذت نصيبها من الهجرات المختلفة من الشمال والجنوب والشرق، فهضمت هؤلاء المهاجرين الذين أصبحوا أمازيغيين، على غرار ما كانت مصر تهضم المهاجرين إليها من آسيا وافريقيا وجنوب أوروبا ليتمصروا، رغم أنهم كانوا غزاة شرسين في بعض الأحيان (الهيكسوس مثلاً) وليصبح من بعضهم فراعين كبعض اللوبيين الذين دخلوا مصر من ليبيا، وبعض الأمازيغيين الذين هجموا على مصر وغزوها في فترات من عهد الفرعون (منوفتاح).

الهجرات المتبادلة والاختلاط العرقي:

اختلط سكان المغرب الكبير إذن بالمهاجرين في هجرات متبادلة عن طريق الصحراء مع الزنوج الأفارقة، واختلطوا ببعض القادمين من الشرق: الفينيقيين الذين هاجروا إلى شمال افريقيا واختلطوا بسكانها وأسسوا حضارة متشركة، انطلاقاً من قرطاج ومراكز تجارية على طول السواحل المغربية من تونس حتى اللكوس قريباً من (العرائش) على المحيط الأطلسي، بل إلى الصويرة وأكادير. وأثروا أيما تأثير في الثقافة واللغة والتجارة والفلاحة. كما أثروا، ولا شك، في المجتمع عن طريق التزاوج، خاصة وأنهم لم يكونوا يظهرون كغزاة ومستعمرين على غرار ما ظهر الرومان بعدهم، وإنما كانوا متحضرين متعاونين، وسيلتهم للتعاون: الثقافة والتجارة. أثر هؤلاء في الشعب البربري الذي كان يتمتع بقوة الهضم والتمثل باعتباره صاحب البلاد وأهلها. واختلط السكان الأمازيغيون أيضاً باليونانيين الذين قدموا إلى قرطاج في تونس أو قريني في ليبيا. واختلط السكان بالغزاة الرومانيين، ولو أنه اختلاط محدود. فقد هاجم هؤلاء «الامبراطورية» القرطاجية، ودخلوا معها في حروب طاحنة تبادلوا فيها النصر والهزيمة، وانتهى الأمر، بقضاء الرومان على قرطاجة، بعد ستمائة عام من الحكم في المنطقة. ولكن الحكم الروماني

واجه صعوبات كبرى من البربر الذين قاوموا الغزو، كما لم يقاوموا الاستقرار التجاري والثقافي الفنيقي.

ولعل الاختلاط العرقي مع الرومان كان أقل اختلاط عرفته المنطقة. ففي افريقيا كان قلة من الرومان، وحتى الجيش كان أغلبه من البربر وكانت رقعة الاحتلال محدودة. وكان استقرار الوافدين محفوفاً بأخطار المقاومة من السكان. ولذلك حاول بعض الحكام الرومانيين ضم مراكز الاحتلال في المغرب إلى منطقة الاحتلال في جنوب إسبانيا، لأنها كانت أكثر استقراراً، وحيث الاحتلال كان غير مستقر. لكل ذلك لم يكن الاختلاط السكاني مهماً. ولا كان تأثير الرومانيين وأتباعهم، الذين حملوهم معهم إلى منطقة المغرب كمحاربين أو بناة، ضئيلاً جداً.

التأثير العربي والأندلسي:

ونأتي بعد ذلك للتأثيرين الهامين في السكان: أولهما التأثير العربي من المشرق. وثانيهما التأثير الأندلسي المزيج من العرب والاسبان والمغاربة الذين اندمجوا في الأندلسيين (عرب واسبان) ثم عادوا إلى بلادهم، بعد انهيار الحكم الإسلامي في الأندلس، كأندلسيين يجمعهم المزيج الثلاثي.

دون أن ندخل في تفاصيل الحملات العربية يمكن أن نشير إلى الثوابت التي كان لها أثر في توطين العرب:

ـ لا شك أن كل حملة عسكرية عربية: ابتداء من حملة عمرو بن العاص، الذي حاول الاستمرار في الزحف من مصر على ليبيا، حتى موسى بن نصير الذي قفز من المغرب إلى الأندلس ـ كل حملة منها كانت تترك في طريقها مجموعات من العرب جاءوا مع الجيش فاستقروا واستوطنوا.

ـ تأسيس عقبة بن نافع لمدينة القيروان، كعاصمة إسلامية، كان مبعث استقرار لحامية عربية إسلامية، ما نظن أنها لم تغادر القيروان، ولكنها تابعت مسيرة الجيش ومسيرة عقبة ـ بعد أن تزاوجت مع السكان الأصليين وتوالدت ـ

حتى سبتة، ثم نحو الجنوب: الأطلس والساحل حتى السوس.

- توالت الفتوح والحروب، ولم تكن جميعها تترك القتلى، رغم خطورة الحملات العربية وما خلفته من قتلى في المعارك المتوالية، وإنما تركت بقايا الجيوش، واللاجئين والفارين منهم من القتل في عهود الولاة المتعددين.

- يذكر المؤرخون العرب - والعهدة عليهم في العدد الذي نعتقد أنه جزافي - بأن الولاة الأولين في العهد الأموي كانوا معززين بأكثر من مائة وخمسين ألفاً من العرب والمشارقة، جاز منهم أربعون ألفاً إلى الأندلس، وانبث الباقون منهم حول القيروان والحواضر. ويروي الوزان أن الجيش الذي أرسله عثمان حمل إلى افريقية عدداً كبيراً من العرب يناهز الثمانين ألفاً... وعندما أمن العرب أصبحوا مواطنين بهذه البلاد ممتزجين بالأفارقة... وامتزج الشعبان المختلفان فكونوا شعباً واحداً.

- أسهم الخوارج في نقل عدد كبير من عرب المشرق إلى المغرب.

- استمرار إرسال الجيوش في عهد العباسيين إلى المغرب كلما كانت ثورة أو تمرد،ولمقاومة الخوارج الذين عملوا على إنشاء دولة في المغرب. وقد كانت المنطقة في هذه المرحلة معرضة لثورات واضطرابات متعددة.

- في عهد الأدارسة نزح كثير من العرب إلى المنطقة المغربية وخاصة من وليلى حتى تلمسان، ومعروف أن عدداً مهماً من العرب وفدوا على إدريس من شيعة آل البيت الذين فروا من سلطة العباسيين، ولم يكن أمامهم إلا بلاد المغرب فاستعان بهم على الحكم وأسكن الأندلسيين منهم في عدوة الأندلس من المدينة الجديدة (فاس) التي بناها، وأسكن العُدوة الأخرى الوافدين من الشرق المنتسبين إلى القيروان.

- الحملة العربية الكبرى كانت في غزو عرب بني هلال وبني سليم للمغرب الكبير. لا تهمنا هنا الأسباب السياسية والجيوسياسية لهذا الغزو،

فذلك يرتبط بأحداث تاريخية كبرى بين سلطة الفاطميين في مصر وسلطة الصنهاجيين وانفصال بني زيري الصنهاجيين في المغرب الكبير عن السلطة الفاطمية، ـ وذلك ما سنشير إليه في موضعه من الجزء الثاني ـ وكان ذلك في الربع الأخير من القرن الرابع الهجري. ولكن الذي يهمنا هنا هو ما يرويه المؤرخون من أن الوزير أبا محمد الحسن بن علي البازوري أشار على المستنصر بالله الفاطمي بأن يتخلص من هذه القبائل التي كانت خطيرة على السلطة الفاطمية في مصر، كما كانت خطيرة من قبل على السلطة العباسية في الحجاز والعراق والشام. كان بنو سليم وبنو هلال يضمون مجموعة كبيرة من القبائل البدوية، شديدة البأس نزاعة للتدمير، فأدخلهم المستنصر إلى أفريقية (تونس) وعموم المغرب ليحاربوا الصنهاجيين. وقد دخل بنو سليم ليبيا وخربوا برقة واستقروا فيها، وسار بنو هلال حتى تونس. وفي معارك ضارية مع المعز بن باديس انهزمت جيوشه الضخمة أمامهم وسيطروا على معظم مدن تونس وفي مقدمتها القيروان.

كان ذلك في منتصف القرن الخامس الهجري ابتداء من سنة 443.

يهمنا في هذه الفقرة أن جيوش بني سليم وبني هلال انتشروا في المغرب، خاصة من حدود مصر حتى «حدود» المغرب الأقصى. وإذا كان المؤرخون يذكرون أن عدد الفرسان والمشاة الهلاليين بلغ نحو 60 ألفاً فإن إحصاءات المؤرخين القدماء لم تكن بذات قيمة علمية، ولكنها، مهما يكن، كانت لها دلالة على الكثرة، خاصة إذا عرفنا أنهم هزموا جيوش المعز بن باديس التي كانت تسيطر على افريقيا، وتقوم حاجزاً قوياً بين افريقيا والغزوات الصليبية التي كان يقوم بها سكان الساحل الشمالي من البحر الأبيض (امارات ايطاليا وصقلية بخاصة) بدافع من البابا على شواطىء تونس: المهدية وزويلة.

هؤلاء العرب كونوا نموذجاً جديداً من السكان. لم ينعزلوا، ولكنهم اندمجوا في المغاربة الأصليين والوافدين، وأصبح المجتمع المغربي يضم

عناصر امتزج فيها الأمازيغيون الأصليون والأفارقة الزنوج والعرب الوافدون من المشرق، والأندلسيون (المكونون من مزيج العرب والبربر والأسبان).

انضافت إلى ذلك الهجرات العديدة التي عرفها المغرب بعد ذلك في مختلف العصور، خاصة وأن المغرب لم ينطو على نفسه ولم ينعزل، بل إن تاريخه السياسي والعسكري يحكي انطلاقاً واسعاً في الجنوب حتى تومبوكتو وفي الشرق حتى حدود مصر وفي الشمال حتى صقلية شرقاً وشمال الأندلس غرباً. وكل هذه الحروب، التي دامت عدة قرون، جلبت مزيجاً من السكان. ثم جاءت الهجرة الأندلسية الكبرى بعد سقوط ممالك الأندلس حتى نهاية الوجود العربي بسقوط غرناطة سنة 1592. فقد هاجر معظم السكان الأندلسيين العرب المسلمين إلى المغرب من تونس حتى الرباط، وكثير منهم استقروا في المغرب الأقصى.

كل ذلك أسهم في تكوين الشعب المغربي.

لماذا لم يؤثر الغزاة الشماليون؟

ظاهرة أساسية هي أن الغزاة الشماليين من الرومان والوندال والبيزنطيين والبرتغاليين والإسبان والإنجليز والفرنسيين لم يستطيعوا أن يؤثروا في تكون الشعب المغربي.

لماذا؟

قد يعود ذلك إلى اختلاف في طبائع المستوطنين القادمين من الشمال عن الوطنيين من سكان البلاد الأصليين والذين اندمجوا فيهم. وقد يعود إلى الدين الذي لم يؤثر تأثيراً يذكر، فلم تستقر النصرانية في أي جزء من أجزاء المغرب العربي رغم الفتوحات المتعددة التي انطلقت من الشمال سواء على عهد روما أو العهود التي تلتها بعد الإسلام. وقد يعود إلى أن الغزاة لم يكونوا قادرين على الامتزاج لاستعلائهم ومحاولة اغتصابهم حرية ومقومات السكان الأصليين.

ولكن المهاجرين الآخرين العرب من الشرق ومن الأندلس والزنوج استطاعوا أن يندمجوا رغم أن العرب لم يكونوا مسالمين غير أن الإسلام جب ما قبله، فجعل المغاربة يقبلونهم رغم الحروب المتوالية التي لم تكن لتسهل العلاقات بين الشعبين ولأنهم لم يكونوا جميعاً محاربين فكثير منهم تخلفوا عن الجيش المقاتل إيثاراً لحياة مسالمة فاندمجوا بسهولة.

نستطيع من كل ذلك أن نستخلص أن القضية العرقية في تمييز السكان غير واردة. وأن الامتزاج كان قوياً بين كل العناصر التي تساكنت وتزاوجت في المغرب، سواء في الجبال أو في السهول أو على الشواطىء، وأن الألوان لم تكن لتميز، أو تنسب فريقاً من السكان إلى أصل يمني أو إلى أصل أوروبـي. فمن الامتزاج القوي جمعت كل خصائص الأجناس والأقوام لتظهر في الإنسان المغربـي شكلاً وموضوعاً.

وبذلك تسقط مقولة الأصل العرقي الأجنبـي لسكان المغرب، سواء كان هذا الأصل من اليمن كما تزعم كتب النسابين والمؤرخين المسلمين، أو كان هذا الأصل من أوروبا كما تزعم الرواية الأوروبية، التي لا نعتقد أن أي بحث علمي يسندها، وإنما جاءت لتؤكد ضرورة الانتماء الاستعماري بالانتماء العرقي. ويسقط مع هاتين المقولتين مقولة العرقية عموماً. فليس من أمة أو شعب يمكن أن يعود به التاريخ إلى عرق محدد، خاصة بعد أن اجتازت الإنسانية عصور العزلة، ودخلت في عصور الانفتاح على العالم والهجرات المتوالية للأسباب الدافعة إليها، وهي أسباب اقتصادية واجتماعية وأمنية، فكرست بذلك الاختلاط والامتزاج وتكوين شعوب جديدة من شعوب متعددة. يتفق ذلك ولا يختلف في كل الشعوب والأمم التي أنشأت حضارات متنوعة. وربما كان التنوع في العرق والاختلاط في الجنس من أسباب إبراز عبقرية الشعوب وانطلاقها الحضاري.

ونستطيع من كل ذلك أيضاً أن نستخلص أن الجغرافية هي التي منحت

الإنسان المغربي هذا التنوع في تكونه لأنها فتحت أبواب المغرب في الجنوب على الصحراء وما وراء الصحراء: افريقيا السوداء. والصحراء لم تكن جداراً عازلاً كما قلنا من قبل، وفتحت أبواب شمال المغرب على البحر. والبحر أيضاً لم يكن عازلاً، سواء للمغاربة أو الآخرين. وكان البحر في أضيق آفاقه (البوغاز) سبيل اتصال بأوروبا وفي أوسع إفاقه لم تكن تفصل يابسته الجنوبية عن يابسته الشمالية والشرقية غير بضعة أيام (في حساب الملاحة القديمة)، ولذلك أيضاً لم يكن جداراً عازلاً كما كانت المحيطات في القرون القديمة. ثم أمدت الجغرافية المغرب بانفتاح آخر على الشرق سبيله الصحراء (بحر العرب) والشمال أيضاً، وهي طريق هجرة القبائل العربية. ولم تكن الجبال عازلة أيضاً للشمال عن الجنوب، أو للشواطىء عن السهول أو لمنطقة الخصب عن منطقة الجفاف (الصحراء)، بل هناك الانفراجات التي كانت ممرات صالحة للتحرك عندما تلجىء المواطنين الظروف العسكرية ليتحركوا نحو رؤوس الجبال، أو تلجئهم الظروف الاقتصادية ليتحركوا نحو السهول والمراعي.

الإنسان المغربي إذن ابن موقعه الجغرافي.

التحدي ومواجهة التحدي

يمكن تلخيص تاريخ العالم بأنه دورات من التحديات وتحدي التحدي. فتحديات الطبيعة هي التي دفعت الإنسان ليبتدع وسائل الانتصار على خطورتها ومتاعبها. وتحديات الحيوان دفعت الإنسان ليتحداها بوسائل المقاومة. وتحدي الإنسان للإنسان هو الذي دفع الثاني ليواجه الأول ويتحداه. وتحديات المرض التي دفعت العقل ليبتكر كثيراً من الأدوية. . .

ويمكن أن تنطبق هذه النظرية على التطور الحضاري جميعه.

في مبحث تاريخ المغرب نجد أن الموقع الجغرافي للمغرب هو نفسه تحدي للشعب المغربي:

البحر الأبيض الذي يكون شبه بحيرة تتقارب شواطئها كلما اقتربت من شرقها فأحرى من غربها. والبوغاز منفذ بين المحيط والبحر يمثل أقرب مجاز بين قارتين. وهو لا يفتح الطريق البحري نحو المتوسط فحسب، ولكنه يكون استمراراً نحو الشواطىء المحيطية بين القارتين الأوروبية والإفريقية. ووجود مجموعة من الجزر في وسط البحر الأبيض وشرقه تسهل مهمة الاتصال بين شمال هذا البحر وجنوبه. والشواطىء الجنوبية تتراوح بين الرملية والصخرية، وبها مجموعة من الخلجان المتنوعة القابلة للرسو، ولحماية السفن من هول البحر. ونفس الأمر بالنسبة للشواطىء المحيطية. والجبال المنيعة والسهول المنبسطة الخصبة عامل مهم في طبع الموقع الجغرافي بجاذبية التحدي.

الموقع الجغرافي لشمال البحر الأبيض يتمتع بنفس المميزات. ـ وذلك إلى جانب مكونات أخرى سنعرض لبعضها ـ تجعل الإنسان هنا وهناك يرى

اكتمال ذاته وطموحاته في الطرف الآخر. وحتى إذا رآها شمالاً أو شرقاً أو غرباً تكون أقرب إلى تحقيقها في كلا الشاطئين من المناطق الأخرى.

وجود نظيرين من طبيعة منطقة واحدة أحدهما يواجه الآخر ويفصل بينهما بحر محدود الأبعاد والآفاق، من شأنه أن يخلق التحدي بين النظيرين. إذا كان الموج المتعاقب على الشاطئين يعبر عن هذا التحدي بفعل الطبيعة فإن الإنسان بالأحرى يمكن أن يعبر ـ ويمارس ـ هذا التحدي بصفة أوضح. ولأن ذلك أيضاً من طبيعة الجيران الذين تخلق بينهم الجيرة نوعاً من التنافس كثيراً ما ينقلب إلى تحدي.

وهذا ما مثلته المجموعات البشرية التي عاشت على الشاطئين بعقليات مختلفة، نتيجة التأثيرات الطبيعية والإنسانية والتاريخية المختلفة التي فرضت على كل منها طيلة التاريخ.

ويتبارى شرق البحر الأبيض مع وسطه وغربه في التحديات التي تواجه بها الشمال والجنوب. كل منها حَمَّله موقعه الجغرافي مسؤولية حققها في تاريخه. كل منها فرضت عليه الأوضاع، الداخلية والمحيطة به والخارجية، مسؤولية القيام بتحدي من نوع خاص يتفق وطبيعته ثم يتفق وطبيعة المرحلة التاريخية ضد الجنوب. وتعامل الجنوب مع هذه التحديات كذلك من موقعه الجغرافي وما فرض عليه هذا الموقع في فترات تاريخية مختلفة: واجه التحدي بالتجاوب الإيجابي تارة، وواجهه بتحدي مماثل. وكل منهما طبع تاريخ هذه البلاد بطابع اليقظة والحذر والمواجهة والانطلاق والانعزال والمغامرة والتقوقع والإسهام والبعد عن التعامل. صفات متناقضة تبدو غريبة من مجتمع تكون في ظل هذا الموقع الجغرافي. ولكنها ليست غريبة من الإنسان الذي كونه الموقع الجغرافي نفسه.

ويمكن أن نجمل هذه التحديات ونحن نقرأ التاريخ دون أن نغوص في التفاصيل التي تحدث عنها كل المؤرخين:

1 ـ التحدي الفينيقي

مرحلتنا التحدي بدأت من شرق المتوسط. تحكمت الجغرافية في أنها بدأت من الشرق، كما تحكمت دورة التاريخ.

من حيث التحكم الجغرافي نجد منطقة شرق المتوسط ـ سواحلها بالأخص ـ موطن ارتجاج حضاري تحكمت فيه الجغرافية أيضاً. ذلك أن مجموعة سامية من سكان السواحل الشرقية: السورية اللبنانية الفلسطينية، الذين استقروا في هذه المنطقة في الألف الثالثة قبل الميلاد لم يجدوا لهم راحة استقرار ـ ليست لهم قدرة على الحرب والمقاومة. ولا هم بقادرين، جغرافياً وبشرياً، على تكوين امبراطورية، والعصر عصر الامبراطوريات: المصرية والبابلية والحثية والفارسية فيما بعد. ولذلك كانت هذه الجماعة محاصرة لا تجد لها حظاً في الاستقرار والعيش بسلام. كانت هذه المجموعة البشرية مضايقة من القوات التي تتحكم في المنطقة. وبما أنها تسكن الساحل، فهو وحده منفذها للتحرر من ضغط القوات التي كانت تتحكم في المنطقة.

من حيث تحكم دورة التاريخ نجد أن العصر كان عصر الشرق: كل الدول الكبرى والامبراطوريات جاءت آنذاك من الشرق. الصين، الهند، مصر، البابليون، الأشوريون، الفرس. ويقترب التاريخ من الشرق فتكون الامبراطورية المقدونية ثـم الرومانية ... وكل الحضارات تركزت في الشرق. اقترنت بالإمبراطوريات التي ذكرنا أسماءها. كل الديانات:

الفرعونية المصرية القديمة والبوذية ثم الهندوكية والعقائد البابلية والأشورية، والأساطير التي ارتبطت بهذه الديانات، والتي أصبحت جزء منها وكونت في الوقت نفسه مجموعة نصوص أدبية ثم جاءت الديانات السماوية: كل الرسل والأنبياء التي تحدث القرآن عن قصصهم مع قومهم وشعوبهم. وانتهى الأمر بالوحي الإلهي إلى موسى ثم عيسى ثم محمد.

الشرق إذن كون دورة مهمة من دورات التاريخ قبل الغرب.

ولذلك كان على الشاطىء الشرقي للمتوسط ـ وهو الذي يهمنا في موضوع تاريخ المغرب ـ أن يلعب دوره في غرب المتوسط. وكان الفينيقيون في مقدمة من ألجأهم موقعهم الجغرافي ودورة التاريخ ليقوموا بهذا الدور.

ودورهم هذا كان هو بداية التاريخ المتحرك للشعب الأمازيغي في المغرب الكبير. به ارتبط مع حضارة الآخرين، وبه انفتح على عالم آخر، وبه استغل مواهبه ليتقبل التحدي ـ كلما وجد فيه انفتاحاً مسالماً على جانب من الحضارة ـ وليواجه التحدي بمثله كلما كانت المواجهة ضرورية للحفاظ على ذاتيته ومقوماته.

تحدي متبادل بين الفنيقيين والمغاربة:

الموقع الجغرافي ودورة التاريخ تحكمتا في طبع الفينيقيين بكثير من المقومات التي ستتحكم في نوعية التحدي الذي واجهوا به المغرب وواجههم به المغرب:

وجدوا في مكان غير قادر على استعابهم وتمكينهم من الحياة التي يريدونها: الطبيعة كانت ضد استقرارهم، ضد توحدهم فتوزعوا على عديد من «المدن» والمناطق والجزر الصغيرة القريبة من الشاطىء. من شأن ذلك أن يخلق بينهم نوعاً من المنافسة التي تحولت إلى صراع وحروب (نجد من أمثلتها صراع صور وصيدا). خوفهم من القوة الأخرى المعادية دفع بهم إلى نوع من الحياة لا يسير في اتجاه الحرب واستهلاك الطاقة بمقدار ما يسير في اتجاه العمل السلمي.

ومن ثمة اتجهوا إلى الكسب: **الزراعة** في الحدود الشاطئية الضيقة التي يقيمون عليها. **الصناعات** اليدوية المحدودة الدخل. **الصيد** الذي يوفره لهم البحر...

كل ذلك أكسبهم بعض المهارات، وفتح أفق تفكيرهم نحو آفاق أوسع للكسب، لتجريب مهارتهم، للبحث عن «المواد الأولية» في الشواطىء الأبعد من شواطئهم. ثم ـ وهذا هو المهم ـ لتصريف بضاعتهم. فكانت التجارة، ومع التجارة الملاحة.

مهنتان لا حد للطموح فيهما:

التجارة. والتجارة القديمة كانت تقوم ـ كما هي اليوم في بعض المجتمعات ـ على أساس التبادل العيني. وهي مهنة متطورة كلما تبادل التاجر بضاعته مع الآخر اندفع إلى نوع آخر من التجارة. وبذلك يزداد طموحه.

والملاحة تفتح أمام الملاحين مجموعة من الآفاق. البحر لا يعرف الساحل، والبحّار لا يقف إلا ليستريح، ثم ليفكر في المرحلة القادمة.

هكذا فكر الفينيقيون في الطواف حول افريقيا، كان شاطىء منها يدفعهم إلى شاطىء. وكان اكتشافهم لشاطىء يستطيع بشكله الطبيعي أن يستقبل سفنهم، يدفع بهم إلى البحث عن ترويج بضاعتهم.

التجارة خدمت الملاحة. والملاحة خدمت التجارة.

فكانت الحضارة الفينيقية حضارة ملاحة وتجارة.

والملاحة والتجارة والمهارة التي عرف بها الفينيقيون والتطلع المستقبلي والذكاء، دفع بهم إلى إنشاء دولة حضارية هي قرطاجة التي لعبت دوراً كبيراً في تاريخ المتوسط.

وقد لا يكون من الصعب تصور المنطق السلمي، لا العسكري، في هذه الحضارة.

رحلاتهم كانت مغامرة خطيرة، تزداد خطورة كلما ابتعدوا عن بلادهم وملجأهم. ولذلك فهم مضطرون أن يسالموا حتى لا يتعرضوا للإبادة من الغرباء الذين ينزلون على شواطئهم. وقد ابتدأوا من افريقيا شرقاً عن طريق البحر الأحمر. يضاف إلى ذلك طبيعتهم المسالمة التي تعلموها وتمرسوا بأخلاقها في مواجهتهم لجيرانهم. أما السبب الثالث المهم للمسالمة فهو مهنتهم التجارية. والنجاح في التجارة يمنع الصراع. وإلا أفلست رسالتهم في الحياة التي يتحملونها، وهم يغادرون شواطيء شرق المتوسط ليسيروا حذو الشواطيء الإفريقية حتى وصلوا إلى بوغاز جبل طارق.

حينما نقول إنهم سالموا الشعوب التي تعاملوا معها لا ننفي المناوشات والحروب الصغيرة التي يمكن أن تحدث بين قوم غرباء يفدون على شواطيء غريبة عنهم وعلى أقوام غرباء. فقد قامت بينهم وبين سكان الشواطيء الإفريقية مناوشات وحروب. وكانوا يستغلونها لتطوير نوعية تجارتهم، فبدلاً من الاقتصار على الاتجار في المواد المستهلكة والمستعملة تاجروا في الإنسان.

والتجارة التي قام بها هؤلاء الجوالون ـ ونحن نتحدث عن أكثر من أربعة قرون 12 ـ 8ق.م ـ دفعتهم ليكونوا شواطيء وأسواقاً تجارية ومدناً تساكنوا فيها مع الآخرين، واعتبرها التاريخ سلسلة من المستعمرات الفينيقية التي أصبحت مراكز مهمة للتبادل التجاري. وبحثوا عن كثير من المواد الخام، واكتشفوا منها كثيراً من المعادن. لم تكن هذه المكتشفات مواد للتجارة والكسب فحسب، ولكنها كانت كذلك مواد لبناء الحضارات التي أتت بعدهم.

لم تكن ـ ونحن نتحدث عن أسس هذه التجربة الفينيقية ـ بعيدين عن موضوعنا المغربي. فالتجربة التي مارسوها في مختلف الشواطيء والموانيء والمدن التي ارتادوها والتي بنوها هي التي طبقوها في المغرب، وقد طوقوه

من الشرق والغرب. فإذا كانت رحلتهم في المتوسط قادتهم إلى جبل طارق فإن رحلتهم المتوسطية قادتهم كذلك إلى «احتلال» شواطىء قادرة على استقبالهم وصالحة لذلك. دائماً نتحدث عن الشواطىء والسواحل. لأن مغامراتهم السلمية لم تدفع بهم إلى الداخل حتى لا يتورطوا مع الشعوب التي «يزورونها» وحتى يبقوا على شاطىء النجاة يمكنهم أن يرحلوا وأن يستمروا في رسالتهم كلما وجدوا أن ذلك أكثر نفعاً وأوفر سلامة. ولا ننسى أنهم قوم بحريون بطبيعة منشأهم ومهنتهم.

بقطع النظر عن شواطىء شبه جزيرة إيبيريا التي وصلوا إليها وكونوا فيها مستعمرة لهم (قادس)، وبقطع النظر عن استكشاف كثير من المعادن في الشواطىء الإيبيرية، فإن الشواطىء المغربية بما وفرتها الجغرافية فيها من مميزات كانت أشد إغراء لهم: الشاطىء التونسي كان أشد إغراء. وقبل تونس تعرفوا على لبدة وطرابلس. وبعد قرطاج في تونس استمروا يتعرفون على المواقع ويختارونها لإقامتهم تيبازا في الجزائر حتى اجتازوا المضيق وانساحوا مع شواطىء المغرب المحيطية: وادي اللكوس ومنها جنوباً حتى الصويرة.

مثل الاستعمارَيْن الاستغلالي ـ الاستيطاني؟

ـ ما طبيعة الوجود الفينيقي في المغرب الكبير؟

ـ ماذا صنع الفينيقيون في هذه المنطقة المغربية الشاسعة؟

ـ ما موقف الأمازيغيين منهم أثناء الفترة الطويلة التي عاشوا فيها بينهم؟

ـ ما موقف الآخرين (الشماليين) الذين مارسوا وجودهم، أو حاولوا ذلك، على الشاطىء الجنوبي في بلاد المغرب بالذات؟

تلك هي الأسئلة التي تبلور الإجابة عنها مضمون تاريخ المغرب في هذه الفترة الطويلة من حياته ابتداء من القرن الثامن ق م حتى تدمير قرطاجة

في منتصف المائة الثانية ق م وسنناقش تحدي التحديات في فصل آخر.

ربما كان من حسن حظ التاريخ ومن حسن حظ المغرب ومن حسن حظ الفينيقيين أنهم الأولون أو من الأولين الذين عرفهم الانسياح الاستعماري، على غرار ما عرف العالم أمماً أخرى فيما بعد. العالم عرف هجوماً قبلياً أو اجتياحاً مدمراً من قارة إلى أخرى، من جهة إلى أخرى، مثل ما عرفت مصر اجتياح الهكسوس الذي دمر جزء من الحضارة الفرعونية. ولكن الانسياح الاستعماري ذو طابع خاص كان الفينيقيون هم الذين ضربوا المثل لليونانيين والرومان والوندال. وربما كانوا المؤسسين للاستعمار الحديث بنفس العقلية التجارية والبحث عن المواد الأولية حتى تحول من الاستعمار الاستغلالي إلى الاستعمار الاستغلالي والاستيطاني معاً.

حتى مصر الفرعونية التي بنت حضارة مهمة في التاريخ، لم يكن من طبيعة حضارتها أن تتنقل بها في أرجاء المعمور شرقاً وغرباً فتعطي المثل للفينيقيين. انطوت في حضارتها على نفسها واكتفت بالوادي، ربما لأنها كانت حضارة نهرية ولم تكن حضارة بحرية. فهي تزدهر وتنمو، ويراوحها المجد والانهيار حتى النهاية (الموت) ولكنها لم تخرج من مصر، وما حولها من صحراء ليبيا لأنها لم تكن تستطيع أن تبتعد عن النهر المقدس. ولذلك لم تكن مثالاً للفينيقيين.

ولعل التاريخ لا يسعفنا بمعطيات مهمة نفسر بها طبيعة الانسياح الفينيقي: هل كان يهدف إلى الاستغلال، التجارة والبحث عن الموارد الأولية والمعادن؟ أم كان يستهدف الاستيطان واستبدال الشاطىء الشرقي للمتوسط بالشواطىء الجنوبية وبعض الشمالية؟ هل كانوا يفكرون بعقلية الذين أتوا بعدهم من المقدونيين حتى الفرنسيين والانجليز؟ أم كانوا يفكرون بعقلية تجارية، يخيمون على شاطىء الماء حيثما وجدوا المال والكسب، على غرار القبائل الرحل في الصحراء يخيمون حيثما وجدوا الماء والكلأ؟ أم إن أهدافاً

حضارية أكبر كانت تدفعهم إلى هذه الرحلة الطويلة، في المكان والزمان، الصعبة المراس، ولو أنها حاذت الشواطىء ولم تبرحها إلى أعالي البحر ولا إلى أعالي البر؟

ثم هل تطور هدف الرحلة من الاستغلال إلى الاستيطان؟ من التجارة إلى بناء الدولة؟ من الموقت السريع إلى الدائم المعتمد على قاعدة حضارية؟

في الجواب على الأسئلة الأساس السابقة ما يفتح لنا الطريق بمعطيات موضوعية للتعرف على طبيعة هذه الظاهرة في الانسياح التي تختلف عن الظواهر التي سبقتها (الهكسوس نموذجاً) والظواهر اللاحقة (الغزو والاستعمار الاستغلالي والاستيطاني وتوسيع رقعة الامبراطوريات من المقدونيين حتى الانجليز والفرنسيين).

ونجيب على الأسئلة:

هل اندفعوا بالخبرة أم بالمغامرة؟

طبيعة الوجود الفينيقي تختلف في المغرب في بدايتها عما انتهت إليه. فهم قوم لم يكونوا يملكون معلومات واضحة عن هذه الشواطىء، وبالتالي عن عمق (داخل) هذه البلاد، ولم يبعثوا بمستكشفين على غرار ما فعل اللاحقون، وإنما هدتهم الجغرافية إلى حيث وصلوا. كانوا كالأعمى ذي البصيرة يتحسس طريقه بعصاه، ولكنه يميز جودة المكان الذي يضرب فيه بعصاه كلما كان هذا المكان جيداً. وربما كانوا كالأعمى الذي يبصر فجأة كلما وقعت عصاه على مكان جيد. غير أن خبرتهم بالشواطىء، في بداية عملهم حينما بدأوا يبتعدون عن شواطىء صور وصيدا قليلاً فيجدون الأصداف واللآلىء (الخبرة) التي نمت فيهم وشجعتهم على مد الرحلة إلى شواطىء أكثر بعداً.

ومن الصعب أن نقبل الفكرة التي يقول بها بعض المؤرخين من أنهم خرجوا بحثاً عن المعادن في الشواطىء الإفريقية. ذلك لأن البحث عن

المعادن مرحلة فكرية حضارية متقدمة عن المرحلة التجارية التي كانوا يعيشون فيها. وإنما كان ـ فيما يبدو لي ـ وقوعهم على المعادن (القصدير في قادس نموذجاً) صدفة دفعتهم إلى أن يجعلوه من مهماتهم، على غرار ما كان وقوعهم على الاتجار في الإنسان (الرقيق) صدفة على الشواطىء الافريقية الشرقية في رحلتهم الطويلة حول افريقيا صدفة، لم تكن في حساب بحوثهم التجارية. فاتخذوا تجارة الرقيق ـ مؤقتاً ـ نوعاً من التجارة ما أظنهم مارسوه على الشواطىء المغربية. وإلا كان المغاربة دمروهم قبل أن يبلغوا هدفهم.

وإذن فطبيعة الوجود الفينيقي هي التجارة العادية التي بدأت بالأخشاب وانتهت بالمعادن. ولم تكن طبيعة قوم غزاة كالمقدونيين والرومان بعدهم، ولا طبيعة مستغلين استغلال استيطان كالفرنسيين والاسبان.

مدى اندماجهم في المجتمع المغربي:

وهذه الطبيعة هي التي تحكمت في العلاقة بينهم وبين الأمازيغيين.

اقترن ذلك باقتصارهم على الشواطىء، فلم يدخلوا معاقل الأمازيغيين، وخاصة الجبال والسهول الواسعة والصحراء. واقترن أيضاً بأن الأمازيغيين لم يكونوا شعباً بحرياً.

ولذلك فعوامل الصدام بين القادمين والمقيمين كانت قليلة.

هل كان من طبيعتهم أن يتعاملوا، إنسانياً أكثر، مع الأمازيغيين، أعني أن يتوغلوا في المجتمع الأمازيغي عن طريق المصاهرة والتزاوج؟

إذا احتكمنا إلى طبيعة الانسياح الفينيقي نكاد نجزم بأنهم اندمجوا إلى حد ما ـ وبحذر ـ في المجتمع المغربي. فليس من طبيعة الأشياء أن يظلوا طوال قرون مجتمعاً مقفلاً منكمشاً على نفسه، لا يقترب بالزواج والمصاهرة مع المجتمع المغربي الأمازيغي. ولكن التاريخ لا يكاد يسعفنا بنصوص تؤكد هذه الفرضية. ثم إن الأمازيغيين تعاملوا ودياً وحضارياً مع الفينيقيين

تاجروا معهم، وتعاونوا بدون شك في المجال الزراعي، ولو أنه محدود على الشواطىء المغربية، لأن الفينيقيين مزارعون أساساً، والأمازيغيون كذلك، وربما نقلوا تجاربهم الزراعية، واستفادوا من تجارب الأمازيغيين في استعمال العربات مثلاً. كل هذه الظروف تؤكد أن هناك تعاملاً بشرياً واجتماعياً بين الوافدين والمقيمين عن طريق المصلحة الاقتصادية أولاً التي تحولت إلى تزاوج وتصاهر.

وهنا يطرح سؤال آخر نفسه:

مجتمعان منفصلان لماذا؟

لماذا لم يتكون مجتمع مشترك بربري فينيقي طيلة هذه السنين، على غرار ما كان يريد الفرنسيون والإسبانيون من تكوين مجتمع فرنسي جزائري، فرنسي تونسي، فرنسي مغربي، ولو بالرؤية التنظيرية لا الواقعية التي أبت عليهم ذلك؟

لقد ظل المجتمعان منفصلين غير مندمجين، رغم الفرضية التي دفعتنا إلى القول بأنهما تصاهرا واختلطا عن طريق التزاوج. مع العلم أنه لم يكن هناك ما يفرق بينهما من دين أو لغة: (الفارق اللغوي يمكن التغلب عليه على مر السنين) وكان من نتيجة ذلك أن الفينيقيين تطوروا من التجارة إلى تكوين الدولة التي قامت بكل مقومات الدولة، وحاربت في سبيل البقاء حتى انهارت أخيراً كما سنرى، بينما الأمازيغيون بقوا حيث هم، يمارسون الفلاحة في مجتمعهم القبلي.

ثم سؤال آخر يعرض للمؤرخ ولا يجيب عنه إلا المؤرخ الذي يقرأ التاريخ بعقلية الاجتماعي:

ـ لماذا لم يهضم المجتمع الأمازيغي الفينيقيين ويبربرهم كما كان يفعل المجتمع المصري مثلاً عندما كان يهضم زائرين من الغزاة. قد لا يقاومهم، ولكن يحتويهم فيمصرهم، وربما أصهرهم بناته الجميلات (كيليوبترا

نموذجاً) ليزيد في تمصيرهم ولو كانوا قادة دولة؟.

المجتمع الأمازيغي حذر منغلق:

واضح أن المجتمع الأمازيغي كان أشد حذراً وأكثر اعتزازاً بنفسه. فهو لا يثق بالأجنبي، وإن وثق فهي ثقة ظاهرة. لا يغدر، ولكنه لا يقبل الاستغفال. حينما يشعر بالضعف أمام الغازي ينهزم (يصطنع الهزيمة)، ولكنه يظل ينتهز الفرصة ليرفع رأسه. وهو يقبل التعامل ـ في حدود المصلحة ـ مع الأجنبي، ولكنه يرفض المزيد إذا تعدى الأجنبي هذه المصلحة المشتركة إلى السيطرة أو الاستيلاء. لكل ذلك فهو لا يفتح أبواب بيته على مصراعيها إلى درجة الاحتواء والهضم بنفس العقلية والطبع اللذين يجعلانه لا ينهضم ولا يذوب، ولو دام وجود الآخر قروناً على شواطئه وفي سهوله.

ومع ذلك تكون شعب مشترك تعاون في الحرب والسلم:

الفينيقيون كانوا المثل الأول إذا جارينا التاريخ المكتوب. لقد تكون شعب مشترك في قرطاجة اختلط فيه الفينيقي بالبربري في القرية التي أصبحت أكبر مدينة وأوفر المدن المتوسطية حضارة وثقافة. أسهم في بنائها وتطويرها الفينيقيون والبربر. وحاربوا معاً اليونان ثم الرومان، وأنشأوا معاً الحضارة المنبثة في المدن الساحلية: طبرقة وبجاية وتونس وشرشال وطنجة وسلا واللكوس والرباط وغيرها من المراكز الحضارية. ثم قفزوا معاً نحو الشمال: سردينيا وكورسيكا إلى جنوب فرنسا. ويوم طمعت قرطاجة في تحدي القوات الصاعدة: اليونان ثم الرومان في عقر دارهم: صقلية ثم هاجمت إسبانيا وكونت فيها مملكة ثانية، فتحت على نفسها باب صراع دام انتهى ـ بعد الحروب البونيقية الثلاث ـ بنهايتها.

إذا لم يكن شعب الأمازيغ قد هضم الفنيقيين فظلوا محافظين على شخصياتهم رغم انفصال قرطاجة عن مركزها الأصلي: «صور»، فإن الفينيقيين ظلوا رغم الاندماج الجزئي يشعرون بالميزة ومن حين لآخر كانوا يعاملون

الأمازيغيين معاملة غير كريمة في استخلاص الضرائب والمعاملة القاسية أحياناً. هذا لا ينطبق على الدولة، ولا على كل العهود. ولكن بعض الحاكمين كانوا يتصرفون تصرفات غير لائقة. وكان ذلك سبباً في ثورات من الجيش ـ الذي كان معظمه من أصل أمازيغي ـ فعمل في بعض فترات الحروب المتوالية ضداً على مصلحة قرطاجة.

قرطاجة: دولة مغربية أم أجنبية؟:

يطرح بعض المؤرخين سؤالاً مهما:

هل كانت دولة قرطاجة مغربية وطنية أم أجنبية؟.

يدفع إلى هذا السؤال الاستمرارية (نحو ستمائة سنة) والتمازج بين العنصرين، والتشارك في كل العمليات التي أقامت الدولة من الجيش، وهو الأساس، حتى الاقتصاد. وقد قدم كل من الأمازيغيين والفينيقيين، رأس ماله: الأرض والمعرفة السابقة للأمازيغيين في الزراعة والغراسة، والمعرفة الحديثة للفينيقيين: استعمال الآلات مثلاً، ونظم التجارة التي أتى بها الفينيقيون، ونظم الحكم التي قدمها الفينيقيون، وربما استفادوا من النظام القبلي الأمازيغي الذي كان يعتمد على شيوخ القبيلة في التنظيم شبه الجمهوري (رئيسان ومجلسان منتخبان). إسهام قرطاجة بما نقلته من علوم وفنون وأبجدية، وإسهام الأمازيغيين بلغتهم، وبذلك أصبحت في البلاد لغة مشتركة مزيجاً بين الفينيقية والأمازيغية. الدفاع المشترك عن الدولة في وجه اليونان ثم الرومان.

كل ذلك يمكن أن يرجح كفة الرأي القائل بأن قرطاجة كانت دولة وطنية وليست دولة احتلال أجنبي.

الأمر قد يكون شبيهاً بالوافدين على مصر من خارجها الذين كونوا مع المصريين بعض الأسر الفرعونية داخل مصر. كونوها بالمصريين وبالعقلية المصرية التي احتوت الغرباء.

ويبدو لي أن هذا التشبيه محدود. فقرطاجة ظلت متميزة بحكامها وملوكها وقادة الجيش فيها (عملكرض ـ حنبعل ـ ازربعل) وبوضع السياسة واتخاذ القرار. والمغاربة كانوا شعباً محكوماً يؤدي الضرائب (وهذا إجراء طبيعي) ويتجند بنوه في الجيش ويعملون في الزراعة. ولكن الطبقة الحاكمة كانت من أصل فينيقي. رغم نهاية فينيقيا، وانفصال المغرب عن شرق المتوسط.

الأمر في نظري قد يكون أشبه ما يكون ـ في اختلاط المفاهيم ـ بالاحتلال الروماني لمستعمراته. ولكي نقترب من الواقع يمكن أن نقول: أشبه ما يكون بالاحتلال الفرنسي للمغرب الكبير، وخاصة الجزائر، التي كان يطبق فيها بعض الأنظمة الفرنسية في بعض فترات الاحتلال باعتبار الأرض «جزء» من فرنسا على حد زعمه، والشعب على مثال الشعب الفرنسي. الجزائر فرنسية، ولكنها ليست هي فرنسا. وخدمة الدولة للشعب الفرنسي لا ترقى إليها خدمتها للشعب الجزائري . وخدمة الشعب الجزائري لفرنسا لا يمكن أن تماثل خدمة الشعب الفرنسي للدولة الفرنسية.

هو إذن احتلال فينيقي للمغرب. تميز بتكوين الدولة القرطاجية بكل ما قدمته من حضارة ومدنية للمنطقة جميعها، وبكل ما قامت به من صراعات مع مراكز القوى الأخرى في حوض المتوسط. ولكنه احتلال من نوع خاص لا تمكن مقارنته بالاحتلال الروماني ولا بالاحتلال الفرنسي. من مزاياه أنه استمر نحواً من ستمائة عام تناوب فيه تعامل الشعبين بين العنف واللين، اقتصر على الشواطىء، وقريباً منها، ولم ينفذ إلى عمق الداخل. ولذلك ظلت مميزات الشعب الأمازيغي في جباله وسهوله ـ باستثناء السهول الشاطئية ـ قائمة. ثم إن مركز الدولة كان في قرطاجة (تونس) وبقية بلاد المغرب تابعة. ولو أن الدولة أنشأت مراكز وموانىء ومدناً في الشاطىء المغربي جميعه. ولذلك سهل تكوين الدول الأمازيغية في المغرب والجزائر وتونس نفسها بعد نهاية قرطاجة.

إذن الشعب الأمازيغي المغربـي لم يهضم ولم ينهضم. وإنما تعاون كلما كان التعاون ممكناً، وقاوم كلما فرض عليه وضعه ـ كشعب متميز ـ وفرض عليه تعامل الغير معه المقاومةَ حتى يحتفظ بشخصيته وتميزه ووطنه.

يتفق ذلك ولا يختلف في تعامله مع الفينيقيين والرومان والوندال، ومع الأوروبيين الغربيين كما سنرى أمثلة من ذلك فيما سيأتي من فصول هذا الكتاب.

ثم هناك سبب آخر في صعوبة الهضم والانهضام هو التفوق الاقتصادي والاجتماعي الذي كان عليه الفينيقيون. ولعله من الصعب أن يهضم شعب على درجة من البداوة شعباً آخر على درجة أعلى من التمدن. كانت قوة الفينيقيين في التجارة والملاحة إلى جانب الزراعة، وهما اقتصادياً أقوى من الزراعة مفردة. ولذلك فمن الصعب امتصاص شعب يعتمد على القوات الاقتصادية الثلاث ـ بما تفرزه من قوة وتطور اجتماعي ـ من شعب يعتمد على قوة واحدة: الزراعة. رغم القوة العددية والعسكرية النضالية.

ومع ذلك فما من شك في أن هناك تآثراً بين هذه القوات الثلاث: المغاربة كانوا يعرفون الزراعة والغراسة ووسائل السقي المتطورة. وتعلم منهم الفينيقيون بعض ذلك، حتى الزراعة التي صدفوا عنها زمناً طويلاً. والفينيقيون كانوا يعرفون استخدام المعادن وتركيب العربات، كما كانوا يعرفون الكتابة، ضرورة أنهم اخترعوا الأبجدية، وقد تعلم منهم المغاربة ذلك. وبقي هذا التآثر في الحدود المعقولة ما لم يمس السياسة، وإن وصل إلى الإدارة.

ألا يذكرنا ذلك بالتآثر على عهد الاستعمار الروماني والفتح العربـي والاستعمار الغربـي.

لنتذكر هذه الملاحظة حينما نقرأ فصولاً أخرى قادمة من هذا التاريخ.

ماذا صنعوا بهذه المنطقة؟

انجازات كبيرة يتحدث عنها المؤرخون. وليس من طبيعة هذا البحث إعادة الحديث عنها. ولكن القراءة في هذه الإنجازات تؤكد لنا:

1 ـ أن الفينيقيين أحدثوا مراكز استقرار تجاري وبحري ثم حضاري. ولعلهم بذلك غيروا من طبيعة المنطقة الجبلية والزراعية.

2 ـ فتحوا منافذ لتطلعات سكان الشاطىء الجنوبي نحو الشاطىء الشمالي. فاحتلال مناطق في إسبانيا وفرنسا وسردينيا وصقلية مثلاً لم يقم به إلا الجيش الأمازيغي، ولو أنه تحت قيادة قادة قرطاجنيين. أفلا يذكرنا ذلك بصفحة أخرى من التاريخ سنراها عندما قفز الجيش العربي الأمازيغي من الجنوب إلى الشمال يحمل الإسلام والعربية تحت قيادة أمازيغية أولاً ثم قيادة مشتركة.

ألا يذكرنا ذلك بمساهمة الجيش المغربي (المغرب الكبير) في الحروب الأوروبية الكبرى وحروب الشرق الأقصى في عهد الاستعمار الغربي؟ ماذا تفرض هذه المقارنة على تفكير المؤرخ من استنتاجات؟.

أغلب الظن أن المقارنة ليست تامة. ففي عهد قرطاجة كان الهجوم ـ أو الصراع ـ بين شمال البحر الأبيض وجنوبه ـ لصالح الجنوب جميعه، ودفاعاً عنه ولصالح الإمبراطورية التي اشترك في إقامتها القرطاجيون (فينيقيون وأمازيغيون) بينما كانت الحروب الحديثة لصالح الشمال ودفاعاً عنه، مهما يكن «التنظير» الذي اقترن بهذه المساهمة من أنها دفاع عن الحضارة والديمقراطية والمبادىء الإنسانية.

ولا يمكن مقارنة ذلك ـ مثلاً ـ بدفاع الأمريكيين عن الأوروبيين. فهؤلاء كانوا يدافعون عن تراثهم كأوروبيين أصليين، وعن مستقبلهم كأمريكيين يفكرون في إرث الحضارة والاقتصاد الأوروبي والبشري عموماً.

من هذا المنطلق تغلبت نزعة الانفتاح على العالم والإسهام في الاقتصاد العالمي ثم في الحرب. تغلبت هذه النزعة على النزعة الانعزالية التي كانت تسود المجتمع السياسي الأمريكي في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن، التي كانت تربأ بالولايات المتحدة أن تساهم في مشاكل العالم الاقتصادية فأحرى العسكرية رغم العلاقات العرقية التي كانت تربط معظم المهاجرين بأوروبا الغربية، وبالأخص بريطانيا العظمى. وقد بدأت تتخلص من هذه العقلية على عهد ويلسون، وبالأخص عند المشاركة في الحرب الكبرى الأولى. وظلت هذه النزعة مستقرة في ضمير كثير من الأمريكيين، رغم مساهمتهم في الحرب والكسب الذي حققته الولايات المتحدة من الانفتاح على العالم من خلال أوروبا، حتى الحرب العالمية الثانية التي وجد فيها الرئيس روزفيلت صعوبة في إقناع المجتمع السياسي الأمريكي، فأحرى رجل الشارع، بالإسهام في الحرب، دفاعاً عن الحضارة التي تلعب أمريكا فيها دوراً أساسياً. وتلك إحدى الحجج التي استخدمها للخروج بالولايات المتحدة ـ نهائياً ـ من عقلية «ما شأننا بالخارج. . .؟» إلى قيادة العالم وزعامة بناء العالم الجديد بعد 50 سنة من التوغل في شؤون دوله وشعوبه والتحكم في مقدراته.

3 ـ وصنع الفينيقيون أيضاً بهذه المنطقة أن شعبها تعلم على أيديهم «صناعة الزراعة» وكانت بدائية في أول الأمر. وتعلم على أيديهم «صناعة الدولة» وكانت قبلية أو شبه قبلية، رغم ريادة الشعب الأمازيغي في تكوين الدولة كما تقدم. وتعلم على أيديهم كثيراً من مظاهر الحضارة التي عرفتها المنطقة في مدنها المختلفة المنبثة على الشواطىء. وتعلم على أيديهم فن السياسة. فالعلاقات مع الدول الأخرى كانت في حدود الدفاع الذي يكون عادة رد فعل للغزو. ولكن الاتفاقات والعهود السلمية (تجارية وغيرها) عرفت في المنطقة بتأثير من القرطاجيين.

4 ـ وما من شك في أن أكبر إنجاز كان هو بناء حضارة متكاملة في مدينة قرطاج التي كانت مركز الدولة. والآثار ما تزال شاهدة على ذلك في بقايا هذه المدينة.

ربط الشمال بالجنوب:

5 ـ وما من شك في أن ربط الشمال بالجنوب ـ بالإضافة إلى ربط الجنوب بالشرق ـ من أكبر منجزات هذا التحدي. فلعله لولا قرطاجة لما اهتم اليونان بغرب مصر الذي كان يبدو لهم صحراء قاحلة لا تغنيهم عن جزرهم، ولا تطمعهم في حضارة كانت في يوم ما أزهى من حضارتهم كالحضارة المصرية، ولولا قرطاجة لما اهتم الرومان بهذه المنطقة التي حاربوا فيها واحتلوا أجزاء منها وتركوا فيها بعضاً من حضارتهم. ولولا ذلك لما كانت هذه الرابطة السلمية تارة والدامية في كثير من الأحيان بين شمال المتوسط وجنوبه وما وراء جنوبه من أفريقيا السوداء، وما تزال حتى الآن رغم ثلاثة آلاف سنة (تقريباً) من البداية.

تحدي الشرق للغرب:

التحدي الذي قام به الفينيقيون من شرق المتوسط إلى جنوبه وغربه وهم يؤسسون المراكز التجارية والحضارية ويؤسسون الدولة القرطاجية هل هو تحدي من الشرق للغرب؟.

لا نضع هذا السؤال اعتباطاً، أو لمجرد إثارة التفكير في منطق الأحداث، أو لمجرد تفسير منطلق جغرافي أو دافع تجاري يبغي المكسب ومقاومة الفاقة، ولكن نضعه ونحن نعيد النظر في طبيعة الشعب المتحدّي والشعب والأرض المتحداة. ونحن نعيد النظر أيضاً في الأرض التي نشأ فيها

هذا الشعب: الشريط الممتد على الشاطىء تحاصره الجبال من الشرق وليس أمامه من الغرب إلا البحر. وراءهم إلى الشرق دول قوية عرفت في تاريخها سلطة ونفوذاً وتوسعاً، مثل القوة الحيثية، وقوة العناصر الزاحفة من الشرق عن طريق إيران نحو منطقة سوريا ومصر. كما هاجمتها الدول والشعوب القوية التي كانت تزحف على الدول والشعوب الضعيفة أو تحاصرها، ولم تسلم منها حتى مصر ذات الحضارة التي تزعمها فراعين أقوياء يخشى جانبهم ويعلون في الأرض ويمارسون سلطة مدنية ودينية. والفينيقيون المحاصرون في هذا الشاطىء الضيق من الأرض الذي لا يضمن لهم معاشاً ولا يحقق مطمحاً من مطامحهم، ولا يرضي ذكاءهم وتفكيرهم المستقبلي. كان عليهم إذن أن يوسعوا رقعة وجودهم ونشاطهم، ولكن الأرض لم تسعفهم لطبيعتها وضيقها ومقاومة القوات الأخرى لهم، فكان البحر هو الملتجأ. وكا ما وراء البحر في الجنوب هو افريقيا. وكانت أقرب المناطق إليهم بحراً ـ بعد مصر ـ هي المغرب الكبير الذي ضمن لهم شواطىء شاسعة وخلجاناً وموانىء صالحة لرسو سفنهم ولبناء مراكز لتجارتهم ثم نفوذهم.

هو إذن تحدي منهم لطبيعة الأرض التي كانت أرضهم حتى انفصلوا عنها وتركوها نهائياً بعد أن أسسوا قرطاجة.

وهو تحدي منهم لهذا الغرب الإفريقي الذي لا شك أنهم عرفوا سكانه الأمازيغيين في رحلاتهم الاستطلاعية. عرفوا قوتهم وتمسكهم بأرضهم ودفاعهم عنها. وعرفوا كذلك صعوبة الأرض بأطلسها، أو أطاليسها، وعرفوا أيضاً أنه قد يأخذ منهم أكثر مما يعطي، ولكن حاسة التاجر المتجول فيهم تستطيع أن تخلق مجالاً واسعاً للتبادل بإشاعة روح الاستهلاك في الشعب الذي تتعامل معه، حتى أصبح الشعب الأمازيغي يستهلك هو الآخر متاع الحياة الدنيا وزينتها، مما كانت تحفل به تجارتهم، على نحو ما نرى عند الشعوب التي تعايش معها الاستعمار الغربي فأوجد فيها روح الاستهلاك في

مآكلها ومشاربها وملابسها وزينة رجالها ونسائها من الدخان والخمور حتى العطور. . . .

ويبدو أن تحدي الفينيقيين كان بغير حدود. فرغم ما يمكن أن تكونه البلاد الإفريقية من مجاهل، خشيها عمر بن الخطاب بعد ذلك فأوقف عمرو بن العاص حتى لا يزحف إلى ما وراء مصر، خوفاً من ضياع المسلمين في مجاهل افريقيا ـ شمالها على الأخص ـ رغم ذلك فقد كانت آفاق الفينيقيين واسعة. لا تشدهم إلى موطنهم الأصلي (الشاطىء السوري) عاطفة ولا ارتباط بوطن. البحر وطنهم. وحيثما وجدوا ضالتهم التجارية تبعوها حتى الشواطىء الأطلسية لهذا الساحل الإفريقي الواسع المدى.

تحدي حضاري ثقافي سياسي عسكري:

في خضم هذه المغامرة يأتي سؤال آخر:

ـ هل كان تحديهم حضارياً أو ثقافياً أو سياسياً عسكرياً؟.

كل التحديات التي عرفتها المنطقة يمكن أن تجيبنا عن هذا السؤال بأنه تحدي يجمع كل ذلك. فالدول والشعوب التي عرفتها المنطقة المتوسطية كلها (ربما باستثناء الوندال) دول وشعوب متحضرة، الفينيقيون منهم واليونانيون والرومان بقسميهم والعرب، ثم الشعوب والدول الأوروبية التي عرفتها المنطقة في العصور الوسطى والعصر الحديث كلها شعوب ودول متحضرة تحدت الجنوب وكان التحدي شمولياً، فيه الجانب السياسي العسكري الذي كان هو الجانب الأول عند الرومان والإسبان والبرتغاليين والفرنسيين والإنجليز مثلاً، وفيه الجانب الاقتصادي التجاري الذي كان هو الأول عند الفينيقيين. ولكن إلى جانب ذلك كان فيه الجانب الحضاري والثقافي والاستيطاني جميعاً.

وقد حققت هذه التحديات كثيراً من أهدافها، فاستفاد الأمازيغيون تجارة وزراعة وحضارة وثقافة وتنظيماً للدولة والجيش واستعمال السلاح واستعمال

العربات، بنفس العقلية التي استفادوا من حضارة الصحراء واستعمال الجمل للتنقل والحياة البدوية الصحراوية والدفاع عن أنفسهم والغزو ومطاردة الأثيوبيين الإفريقيين الذين حاولوا أن يمنعوهم من الاستقرار والتنقل في الصحراء.

استجابة للتحدي الإيجابي ورفض للسلبي:

هناك اذن فاعلية لامتصاص الجانب الإيجابي في التحدي الفينيقي. وتبدو هذه القابلية بالأخص في إسهام المغاربة الأمازيغ في بناء وتسيير والدفاع عن دولة قرطاجة والتمتع بكل طيبات الحضارة فيها، وفي المراكز التجارية والحضارية التي أسهموا في إقامتها في مجموع الشاطىء المغربي جميعه حتى أصبح الأمازيغيون كالقرطاجيين في ممارسة الحياة المتحضرة. بل المدن التي أنشأوها، ومنها قرطاجة نفسها، كانت عامرة بالأمازيغيين أكثر من الفينيقيين. وكانوا جميعهم يمارسون نفس الحياة ويتمتعون نفس المتعة.

وهناك جانب آخر من التحدي هو التحدي الثقافي: يبدو ذلك في اللغة التي أصبحت مزيجاً من البربرية والفينيقية. ويلاحظ كثير من المؤرخين أن الممارسات المدنية والدينية كانت واحدة لا تفرق فيها بين البربري والفينيقي.

ذلك شيء ضروري تفرضه قرون من الاختلاط والعمل المشترك. ولكن لم تكن هناك قابلية لتحمل سلبيات التحدي الفينيقي، والتحدي الروماني، وغيرها من التحديات حتى التحدي الإسباني والبرتغالي والإنجليزي والفرنسي والإيطالي. وهذا ما يفسر لنا الثورات التي قام بها المغاربة على قرطاجة نفسها وخاصة في آخر عهدها حينما ارتبكت سياستها، بسبب الحروب البونيقية والهزائم التي عرفتها. ثم اضطراب سياستها الداخلية التي كان الأمازيغيون فيها ضحية ظلم وغطرسة الحاكمين وقواد الجيش.

وتطبق هذه الملاحظة على مختلف التحديات التي عرفها المغرب الكبير من الشرق (العرب) والشمال (من الرومان حتى الفرنسيين) يمتص فيها

البربر الجانب الإيجابي (الإسلام والعربية مثلاً) والثقافة والحضارة التي تأتي مع الغزو أو الفتح الغيري، ويرفضون الجانب السلبي: الاحتلال والتحكم والاستغلال الاقتصادي والظلم والميز العرقي.

هل كان التحدي الفينيقي للمتوسط جميعه؟ :

سؤال آخر يفرض نفسه على مختلف التحديات التي واجهها المغرب، وبخاصة من الفينيقيين يتلخص فيما يأتي:

ـ هل كان التحدي الذي انطلق من شرق المتوسط موجهاً إلى جنوب المتوسط أولاً؟ أم كان للمتوسط جميعه: شماله وجنوبه؟.

رغم أن الفينيقيين لم يكونوا يتوفرون على رؤية جغرافية واضحة للعالم (الأبيض المتوسط) الذي أخذوا يقتحمونه متسللين قريباً من الشواطىء، فإن حاستهم البحرية ـ كشعب بحار ـ والتجارية كشعب يعيش على التجارة وتنميتها وتقنيتهم الصناعية دفعت بهم نحو الشاطئين الشمالي والجنوبي. ويذكر التاريخ أنهم نقلوا إلى شواطىء البحر المتوسط الغربية، مع ما نقلوه من محاصيل الشرق، منتوجات صناعاتهم. ولكنهم وجدوا في الشمال ما لم يجدوه في الجنوب. فأوهمهم الإغريق باعتبار المنطقة منطقتهم فاقتسموا معهم قبرص وكون الفينيقيون في الشطر الأكبر من الجنوب «قرطاجة» وقد كونوا مراكز تجارية وملاحية على الشاطىء الشمالي، وأدخلوا معارفهم وتقنياتهم وبضائعهم وتجارتهم والمعادن التي اكتشفوها، ولكنهم لم يستطيعوا أن يكونوا امبراطورية في الشمال نظراً للمقاومة الإغريقية ثم الرومانية بعدها. ولذلك ركزوا نفوذهم السياسي والسلطوي في الشاطىء الجنوبي.

التحدي إذن هو للجنوب المغربي أكثر منه للشمال. ولكن المتوسط اعتبر منذ القديم بحيرة لا يستغني شماله عن جنوبه. وكل تحدي للجنوب يعتبر تحدياً للشمال. استمرت هذه الرؤية منذ القديم على عهد الفينيقيين

واليونان والرومان، حتى العصر الحديث، مروراً بالعصور الوسطى حينما كانت إسبانيا والبرتغال تهاجمان الجنوب (شواطىء المغرب الكبير). وبرزت بالأخص في العصر الحديث حينما أخذت القوات الشمالية الفرنسية والإيطالية تدافعان عن نفسيهما وتحصنان وجودهما باحتلال الشاطىء الجنوبي، الأولى ضد التوسع الإنجليزي في شرق المتوسط والمحيط الهندي انطلاقاً من جبل طارق، والثانية ضد التوسع الفرنسي الذي كاد يجعل الشاطىء الجنوبي جميعه منطقة فرنسية، لو نجحت حملة نابليون على مصر، ولولا التوسع الإنجليزي الذي أفتك مصر من سلطة الإمبراطور المتهور.

ولكن تحدي الفينيقيين كان أيضاً للشمال الذي أدرك أن احتلال الجنوب هو تحدي للشمال وتهديد له. وهذا هو سر الحملة الرومانية على قرطاجة، وسر الحروب البونيقية الثلاث التي انتهت بتدمير قرطاجة واحتلال روما للمنطقة المغربية.

تحدي لغوي للقوات الناشئة: اليونانية ثم الرومانية.

ولكن: هل كان هذا التحدي محاولة للتصدي للقوات الناشئة؟.

القوات الناشئة تمثلت في القوة اليونانية المقدونية التي سيطرت سيطرة مطلقة على شرق المتوسط ابتداءً من صقلية. وهذه القوة ما كانت لتقبل التحدي من الجنوب. فمثلاً في قرطاجة التي احتلت صقلية فيما احتلت من شواطىء فرنسا (مساليا «مرسيليا») وإسبانيا (قاديس)، واصطدمت القوة اليونانية بالقوة القرطاجية في صقلية حتى لا يمتد نفوذها إلى شبه الجزيرة الإيطالية، وكان الإغريق يعتبرونها عالمهم. وبذلك بدأت الحروب البونيقية الثلاث.

التحدي الثاني من الشمال جاء من قوة روما التي خلفت القوة والحضارة اليونانية. وقد اعتبرت روما وجود قوة أخرى في جنوب المتوسط تبسط نفوذها على بعض مراكز الشمال تحدياً لها، فواجهت روما هذا التحدي

في عقر داره وفي المستعمرات الأخرى الشمالية في إسبانيا وفي غيرها وتوالت الحروب البرية والبحرية برز فيها قواد قرطاجيون كبار من أمثال هملكار وحنبعل، وانتهى وجود قرطاجة بالتدمير على يد الرومان المنتصرين.

مهما تكن الآثار الإيجابية والسلبية لوجود الفينيقيين على الشاطىء المغربي، فإن الشخصية المغربية عبرت عن نفسها أثناء وجودهم وبعد انهيار دولتهم «قرطاجة». الشعب المغربي لم يكن غائباً أثناء هذا الوجود. ورغم الشدة التي عامله بها بعض حكامهم في بعض فترات التاريخ، فإن هؤلاء الحكام كانوا يحسبون له ألف حساب.

ثم إن الشعب المغربي أسهم في بناء الدولة والدفاع عنها ليس كجيش مرتزق على غرار ما اصطنع القواد العسكريون المرتزقة بكثرة، ولكن كجيش نظامي وطني. حارب في كل الجبهات لتركيز قدم الإمبراطورية والدفاع عنها، وللحفاظ على شخصيته كلما أمكنه ذلك.

2 ـ تحدي الشمال

التحدي الثاني الكبير الذي عرفته بلاد المغرب جاء هذه المرة من الشمال.

الفينيقيون فتحوا باب التحديات في وجه المغرب، وما ندري ما إذا كانت الإمبراطورية الرومانية ستتجه نحو الجنوب لولا قرطاجة، أم إنها كانت ستحصر مطامعها في أوروبا والشرق لارث الاغريق، معتبرة شعوب الجنوب وبلادها من البلاد المتبربرة، التي لا يغريها في شيء أن يمتد نفوذ الإمبراطورية العظمى إليها؟ غير أنهم ولا شك كانوا على معرفة بما تنتجه هذه البلاد من مواد غذائية هم في حاجة إليها.

مهما يكن فإن باب التحدي فتح في وجه المغرب، وما كان له أن يسد، حتى كانت التحديات الجديدة على عهد القياصرة الجدد الذين قدموا من شمال المتوسط سواء عبر مضيق جبل طارق أو عبر وسط المتوسط.

غير أن تاريخ روما يؤكد أن عنصر المغامرة كون جزءاً كبيراً من طبيعة سكانها في مختلف فترات التاريخ. فقد تكونت شعوبها من عديد من الأقوام الذين وفدوا إليها. وللجغرافية أثرها في ذلك. إيطاليا جميعها شبه جزيرة منفتحة وسط البحر الأبيض. شواطئها متعددة وطقسها يساعد على السكنى والإبحار. ليست كبقية أوروبا الغربية والشمالية التي تحاصرها الثلوج والأمطار والبرد في كثير من فصول السنة. ولذلك كانت مغرية للإقامة والهجرة. وقد

تعرضت لاحتلال واستعمار، فأنشأ الفينيقيون لهم مستعمرات فيها وبخاصة في صقلية وعاصمتها باليرمو مدينة لهم. وأنشأ الإغريق لهم مستعمرات ومدناً في جنوب شبه الجزيرة وفي صقلية.

وقد استطاعت روما أن تهضم كل هؤلاء المهاجرين. وحولها نشأت شعوب وحضارات امتصت الحضارات قبلها، ومنها الحضارة اليونانية، وما وصل إليها من الحضارة الفينيقية.

روما تنتقم لنفسها:

ولعل روما، وهي تنتقم لنفسها من الهجمات التي تعرضت لها، أصبحت تعتدي على حضارات الآخرين وتهدم كل ما وصلت إليه قواتها، ولا تبني مكانها حضارات أخرى، وتسلب ثروات طائلة، وكانت على عهد الجمهورية تمثل الفشل المطلق في الاستفادة من الشعوب التي احتكت بها فلم تفد، ولم تستفد إلا قليلاً.

ورغم ذلك فقد اندفعت قواتها تحتل مناطق مهمة من العالم: في الشرق وصلت حتى سوريا والعراق، واصطدمت فيما بعد بالفرات، ولم يحقق المغامرون منهم مطامح الاسكندر ولا الإمبراطورية الفارسية.

وكعادة المغامرين الذين يقفون عند اتجاه يلجأون إلى الاتجاه الآخر، فانتقلت مغامرة روما نحو الغرب، وفتحت غرب أوروبا بما فيه فرنسا واسبانيا، وانحسرت إمبراطوريتها في شمال المتوسط من اليونان حتى اسبانيا.

روما كانت تحتذي مثالين كل منهما كان بينه وبينها ترة:

المثال الأول هو فينيقيا. وقد عرفنا أنها كونت لها مستعمرات على الأرض الإيطالية. وكونت إمبراطورية في جنوب المتوسط وشماله.

المثال الثاني كان اليونان، وبالضبط الاسكندر المقدوني الذي فتح

الشرق وطرق أبواب الغرب وكون إمبراطورية داعبت الشاطىء الجنوبـي للبحر الأبيض.

روما كانت موتورة من المثالين معا، في الوقت الذي كانت فيه مقتدية بهما معاً. وإذا كان من الطبيعي أن تمتد سلطتها إلى اليونان، في طريقها إلى الشرق من جهة، وانتقاماً من الحضارة اليونانية واستفادة منها ومن ثقافتها من جهة أخرى، إذا كان ذلك طبيعياً، فإن انتقامها من فينيقيا لم يكفها فيه احتلال سوريا فحسب، فهي تعرف أن قرطاجة ليست هي صور وأن القرطاجيين لم يعودوا هم الفينيقيين الأصليين، ولذلك امتدت مطامعها إلى قرطاجة مركز الإمبراطورية والحضارة القرطاجية في شمال افريقيا وبعض شواطىء أوروبا، انتقاما وتحطيماً للقوة التي يمكن أن تكون منافسة، وللحضارة التي سبقت زمانها وتخشى روما أن تكشف مستقبلها.

الملحمة الكبرى في التاريخ:

وبدأت الملحمة الكبرى في التاريخ بين روما وقرطاجة: بدأت في الشاطىء الشمالي، وبالضبط في صقلية التي كانت بها حكومتان تحاربتا، فناصرت قرطاجة الحكومة التي كانت تحتل القسم الغربـي من الجزيرة، وناصرت روما الحكومة الثانية. ثم انتقلت الحرب بين حكومتي الجزيرة إلى حرب (هي الأولى) بين روما وقرطاجة. ومن البر (صقلية) إلى البحر حتى انهزمت قرطاجة لأول مرة أمام قوة شمالية (روما). والهزيمة في صقلية ثم في البحر أطمعت روما في افريقيا. وكان ذلك بداية تحدي الشمال على عهد روما للجنوب على عهد قرطاج.

الملحمة الكبرى في التاريخ استمرت من سنة 264ق.م. إلى سنة 146ق.م. السنة التي دمرت فيها قرطاج. حرب ضارية دارت رحاها على ثلاث دفعات (الحروب البونيقية الثلاث) كانت سجالاً بين الشمال والجنوب. إذا كان النصر فيها لروما في البداية فقد سحقت قرطاجة

المحتلين. ثم استئنفت الحرب للثأر من روما ومحاولة استرجاع المناطق التي احتلتها في صقلية لتنهزم روما مرة أخرى في انتصار عظيم حققته قرطاجة في أرض ايطاليا نفسها. ومرة أخرى ينتقل النصر إلى القوات الرومانية بمحاولة الالتفاف على الإمبراطورية القرطاجية من اسبانيا وعزل القوات القرطاجية في إيطاليا بزعامة حنبعل. وانهزمت قرطاجة أخيراً وطلبت الصلح تحت شروط مخزية.

ظهر في هذه الحرب الطويلة أبطال مجدهم التاريخ من الجانبين في مقدمتهم عملكارض الذي قتل أثناء معركة استمرت ستة أعوام، وابنه حنبعل الذي قاد عدة معارك في إيطاليا وفي افريقيا، وانتهت به بطولته أن حارب في معارك خاسرة، وحينما أقفلت في وجهه أبواب النصر، وكاد خصومه يسلموه إلى روما انتحر مفضلاً أن يمتص السم الذي خبأه في خاتمه على أن يقع في يد أعدائه الرومانيين.

خسارة الحرب ـ نهاية حضارة:

كانت لهذه الحروب نتائج تاريخية مهمة:

أولاها: أن التحدي الشمالي بدأ، لأول مرة بصورة جدية وخطيرة للجنوب. فقد انهزمت قرطاجة شر هزيمة، وسقطت معالم المدينة التي قادت إمبراطورية عظمى في التاريخ، قوامها العلم والمعرفة والفن والحضارة، بعد قتال دام شارك فيه الرجال والنساء والأطفال. وانتهت المعركة بمأساة إنسانية واحراق المدينة وهيكلها وتحطيم ما بقي فيها مما لم تلتهمه النيران.

وبذلك احتلت روما كل بلاد المغرب من قرطاجة حتى المغرب (موريتانيا كما كان يسمى).

إذا كانت روما تعتد بإمبراطوريتها شرقاً ـ حيث توجد اليونان بلاد الحضارة والفكر ـ، وسوريا منبع فينيقيا وفارس، التي طمحت إلى احتلالها، منبع الحضارة الفارسية الأقدم والتي اصطدمت مع مطامح الاسكندر، وتعتد

بإمبراطوريتها في الغرب الأوروبي حيث الثروة الزراعية والمساحات الشاسعة، فإنها بعد اصطدامها بقرطاجة والحروب المدمرة بينهما، أصبحت تعتبر الجنوب من أهم المراكز التي يمكن أن تركز عليها في بناء إمبراطوريتها.

وهكذا نجد أن تحدي الشمال للجنوب بلغ مداه بعد هزيمة قرطاجة التي أطمعت روما في حضارتها وقوتها العسكرية من جهة، والتي كانت هزيمتها مبعثاً لانسياح الرومان في الأراضي المغربية وبناء المستعمرات فيها على نحو ما كانت تفعل قرطاجة حفاظاً على الإمبراطورية الرومانية، ودفاعاً عنها مخافة أن تنبعث من هذه الأراضي قوة أخرى يمكن أن تهددها في المستقبل.

أثر تحول تاريخ المغرب من قرطاجة إلى روما:

ما مبلغ هذا التحدي؟

ما أثره في تحويل هذه المنطقة الإفريقية الأمازيغية المتأثرة بلقاء ألف عام مع الحضارة الفينيقية، وستمائة عام مع السلطة والحضارة القرطاجية إلى عالم روماني شمالي أوروبي؟

ما أثره في السيادة الوطنية وفي مميزات الشعب الأمازيغي وتميزه؟ في عاداته وأسلوب حياته وتقاليده ولغته ودينه؟

الإجابة عن هذه الأسئلة تمثل جوهر التاريخ الروماني في المغرب الكبير.

احتلت روما بلاد المغرب. ولم يكن في إمكانها أن تحتل هذه البلاد دون منح الاعتبار للإمارات المغربية التي قام عليها زعماء وأمراء مغاربة بربر سنعرض لدورهم في صياغة التاريخ المغربي فيما بعد. ولكن روما استطاعت ـ وقد دمرت قرطاج ـ أن تحكم بعض المقاطعات حكماً مباشراً. ثم ضمت بعض المقاطعات التي كان يحكمها زعماء مغاربة بعد هزيمتهم في

حروب داخلية، رومانية، إلى حكمها المباشر. وانتهى الأمر بالمغرب إلى أن تحكم روما جميع أراضيه بما فيها موريتانيا (المغرب الأقصى). ولكن سلطاتها على شمال المغرب ظلت مضطربة فقد نشأت إمارات مستقلة في الشمال انتهى الأمر بها إلى الهزيمة على يد الجيش الروماني القادم هذه المرة أيضاً من الشمال (إسبانيا). وبذلك تكون الجغرافية والتحدي الشمالي يلعبان مرة أخرى لعبتهما ضد الجنوب (المغرب) فانهارت الإمارات المغربية في طنجة وأصيلة إزاء القوة العسكرية الرومانية.

المغرب حرر بلاده من الاحتلال الروماني:

الحكم الروماني العسكري السياسي استمر ـ بشكل أو بآخر ـ من سنة 146ق.م. حتى بدأت الثورات المغربية المتواصلة تحقق أهدافها منذ انفصال موريتانيا الطنجية عن السيطرة الرومانية سنة 180 ميلادية، وكانت بداية النهاية للاحتلال الروماني. استمرت الثورات تحقق تحرير المغرب الكبير منطقة بعد أخرى. مراحل يسجلها المؤرخون منها: جلاء الجيش الروماني عن المنطقة الشمالية الغربية من المغرب الأقصى سنة 285م وثورات أخرى تنتهي بمحطة مهمة سنة 372 يجلو فيها جيش الاحتلال عن جزء آخر من المغرب الكبير. وما كاد ينتهي القرن (396م) حتى انهزم الرومان هزيمة كبرى، واستولى القائد الثائر على أراضي المعمرين الرومان كما حدث بعد ذلك بستة عشر قرناً (أي بعد استقلال المغرب والجزائر وتونس) ووزعت هذه الأراضي على المواطنين.

غير أن العهد الروماني لم ينته نهائياً بالمغرب الكبير إلا بعد ضعف الدولة الرومانية التي خلفتها الدولة الرومانية البيزنطية.

أسباب ضعف الدولة الرومانية وانهيارها قد لا تخرج عن الأسباب العادية التي فصلها ابن خلدون في المقدمة. وقد يضاف لها سبب أساسي يمكن أن يدلنا عليها انهيار الإمبراطورية البريطانية في منتصف القرن العشرين

مع الفارق في الزمان والمكان والوسائل والعقليات، وهو الانتشار شرقاً وغرباً، الذي لا يسع الدولة المركزية، مهما عظمت قوتها، أن تستمر في الحفاظ عليه، والدفاع عن أجزاء الإمبراطورية في وجه الخصوم الذين يتطلعون إلى ابتزاز أجزاء من الإمبراطورية. وحدث هذا في جميع الإمبراطوريات الكبيرة، بما فيها إمبراطورية الإسكندر وإمبراطورية روما ثم الإمبراطورية الإنجليزية والفرنسية في العصر الحديث. ثم الثورات الداخلية، واستقلال بعض القادة والحكام والولاة بالأجزاء التي يحكمونها كما حدث في الإمبراطورية الرومانية والقرطاجية واليونانية قبلها، وكما حدث في الامبراطوريتين الإسبانية والإنجليزية بالنسبة للقارة الأمريكية، ولهما وللإمبراطورية الفرنسية بانتشار فكرة الاستقلال عند الشعوب التي كانت تضمها هذه الإمبراطوريات في العصر الحديث. وكما حدث بشكل واضح في الإمبراطورية العربية ثم الإمبراطورية العثمانية.

مهما يكن فإن الإمبراطورية الرومانية لم تندثر بانهيار إمبراطورية روما، وإنما انتقل جزء منها إلى الشرق التي اتخذت بيزنطة عاصمة لها، وظلت تعتبر المستعمرات الشرقية تحت شعار المسيحية مملكة لها حتى انهارت في الشرق تحت وطأة انتشار الإسلام وبعوامل الشيخوخة وظلم الشعوب المحتلة والسيطرة عليها.

فيما يخص المغرب تزامنت سلطة بيزنطة بسلطة الوندال الذين أنهوا الاحتلال الروماني. وذلك تحد آخر سنشير إليه.

ونبقى مع تحدي الشمال في مظهره الروماني لنثير بعض الحقائق:

أولاها: أن التحدي الروماني اصطدم بمواجهة هامة من الشعوب المغربية ظهرت في الثورات المتعددة التي أسهمت اسهاماً كبيراً في القضاء على الإمبراطورية الرومانية عموماً، وعلى وجودها في المغرب الكبير على الأخص.

وسنشير إلى هذه المواجهة في فصل قادم.

الرومان لم يتغلغلوا في الداخل:

ثانيها: أن الرومان لم يتغلغلوا في الداخل، بل ظلوا قريباً من الشواطىء المغربية والجزائرية والتونسية. وتشير أبحاث المؤرخين إلى أن سلطة روما لم تتجاوز الأطلس، وظلت محصورة بين الشواطىء الشمالية الغربية من البوغاز (طنجة سبتة) والشواطىء الغربية من شالة والقريبة منها كوليلى وفاس وتازة في المغرب الأقصى، وبعض الشواطىء الجزائرية، ولم يتجاوزوا بلاد القبائل. غير أن بعض المؤرخين يشير إلى أن الجيش الروماني بعد تنظيم الإدارة الرومانية في المغرب توغل في بعض مناطق الجنوب حتى الصحراء. وإذا صح ذلك - رغم أن بقايا الآثار لا تشير إلى ذلك كما تشير هذه الآثار في الشمال (طنجة والعرائش ووليلى وشالة) - فإن هذا التوغل كان مؤقتاً، وبمثابة حملة غير دائمة الاستقرار. لأن سلطات الإمبراطورية كانت تخشى الابتعاد عن المركز (طنجة) خاصة وقد كانت تعاني الانقسامات وانفراد القواد بمناطق يحكمونها على السلطة المركزية. ثم الثورات الاستقلالية التي كانت لا تترك فرصة طويلة لاستقرار الإمبراطورية.

وإذا راعينا أن سلطة الإمبراطورية ربطت شمال المغرب بإسبانيا حيث توجد قوة إمبراطورية هائلة، خوفاً من عوامل الانفصال والاستقلال في المغرب، نعرف أن التوغل نحو الجنوب الصحراوي كان مؤقتاً.

وقد لعبت الجغرافية دوراً كبيراً في بقاء سلطة روما على الشواطىء وقريباً منها. فاجتياز الأطلس لم يكن عملية سهلة على كل المحتلين الذين مروا من المغرب.

ولعله لولا قدوم الفرنسيين من جنوب الصحراء عن طريق الممرات الصحراوية في الجزائر (التي قضوا فيها ما يقرب من قرن قبل أن يجتازوا

الصحراء المغربية الجنوبية) وقدومهم من البحر، وقدومهم من الجزائر شرقاً عبر ممر تازة، لولا تطويقهم للمغرب هذا التطويق من الجنوب والغرب والشمال والشرق لما استطاعوا أن يواجهوا المقاومة العنيفة التي أبداها الأبطال المقاومون في الأطلس حتى سنة 1934. وحرب الريف تحت قيادة المجاهد محمد بن عبد الكريم مثال آخر يفسر عجز السلطة الرومانية عن السيطرة على المناطق الريفية. فقد استمرت هذه الحرب أزيد من خمس سنوات في وجه قوتين عسكريتين هائلتين، وبوسائل بدائية وتكوين عسكري متواضع، ورغم أن العدو كان يتمتع بفضاء عسكري واسع في البر (بقية سهول المغرب التي كان الفرنسيون يحتلونها) والبحر وقرب شواطىء الإمداد العسكري والغذائي (الإسبانية)، رغم كل ذلك فقد صمد المغاربة في الريف في القرن العشرين كما صمدوا في وجه الاحتلال الروماني في القرن الأخير قبل الميلاد والقرون بعده التي استقرت السيطرة الرومانية فيها على المغرب الكبير.

استفاد المغرب من ضعف الإمبراطورية الرومانية في التحرر من سيطرتها مثلما استفاد من عاملين آخرين.

أولهما: ثورات المواطنين والزعماء الذين استخدمهم الرومان لقهر المواطنين واخضاعهم.

وثانيهما: صعود قوة أخرى آتية من الشمال أيضاً هي قوة الوندال التي حاولت أن ترث روما كما ورثت روما الفينيقيين واليونانيين.

قد يبدو التاريخ القديم مرآة للتاريخ الحديث. فالإمبراطوريات الحديثة سلكت نفس الطريق القديمة. والشعوب التي تحررت حديثاً استفادت إيجابياً من ظروف مشابهة للظروف التي استفادت منها الشعوب المستعمرة قديماً. كما أنها خضعت لسلبيات ظروف مماثلة لسلبيات الظروف القديمة حينما وقعت في الاستعمار. فلولا الصراعات والتحالفات بين الدول الكبرى

الحديثة لما سهل عليها تكوين إمبراطورياتها، مثلما كانت الصراعات بين روما وقرطاجة قديماً، ولولا الانهيار وضعف السلطة والصراع الداخلي في الشعوب المستعمرة ثم بين قيادات السلطة التي تحكمت فيها قروناً (الفينيقيين) لما كان من السهل تدميرها والسيطرة عليها. ثم لولا الصراع الداخلي في الإمبراطورية الرومانية والحروب الأهلية وطمع الولاة في الاستقلال بسلطتهم لما سهل أيضاً القضاء على هذه الإمبراطورية. ألا يذكرنا ذلك برغبة السلطات الفرنسية والمعمرين الفرنسيين في الجزائر في بداية الستينات من القرن العشرين في الانفراد بالسلطة، وكان ذلك النقطة التي أفاضت الكأس في خروج الجزائر من الإمبراطورية الفرنسية، آخر جوهرة في تاج هذه الإمبراطورية؟.

3 ـ تحدي القبائل المتبربرة

دائماً نتوقف عند فكرة ابن خلدون في الدورات التاريخية التي تتعاور الدول والشعوب، فيرتفع بها التاريخ نحو القمة ثم ينزل إلى الحضيض لتخلفها دورة أخرى بقوم آخرين. لا يقتصر ذلك على الوضعية السياسية للدول ولكنه يمتد إلى التاريخ الحضاري. حضارة الدول والشعوب تتعرض للإنهيار بفعل الطغيان الإنْسَانِي، والتشبع الذي تصل إليه الدولة، خاصة إذا سيطر على تاريخها السياسي والحضاري أشخاص يعتبرون أنفسهم أبطالاً وسادة كباراً، لا يتركون للمواهب أن تستثمر وجودها للإسهام في بناء الحضارة وتسيير الدولة.

روما انهارت بفعل كل ذلك. وبفعل النزاعات الداخلية وطموح القواد الذين كان كل منهم يرى في نفسه القدرة على أن يكون إمبراطوراً أو يستقل بجانب من الإمبراطورية.

وليس المهم هو انهيار دولة لتخلفها دولة. ولكن هو إنهيار حضارة مادية وعلمية وقانونية سهر العلماء الرومانيون على إقامتها وتدعيمها منذ إنهيار مقدونيا، ثم الحروب البونيقية الثلاث حتى بداية القرن الخامس الميلادي.

هذه الحضارة، التي تجلت في التنظيم العسكري والسياسي والإداري ونظم الحكم، كما تجلت في القانون والفنون والآدب، انهارت تحت ضغط الفوضى والإضطرابات والمطامح والظلم المسلط على الشعوب التي كانت تحت سيطرتها من أوروبية وافريقية، وتحت ضغط الكنيسة ومحاولة الاستئثار بالسلطة.

مشاكل تعاقب الحضارات:

من الصعب جداً أن تخلف حضارة جديدة حضارة منهارة دون فترة من الفوضى والإضطراب والتخلف الحضاري. فالحضارة موكولة للدولة إلى جانب الشعب. والدولة عادة لا تنشأ بغير السلطة والحكم. ولكي تخلف سلطة أخرى يعتمد الجديد على تدمير القديم. ويكون القادمون ـ في الغالب ـ من صنف المغامرين الذين يبتغون السلطة ويسلكون إليها سبيل القوة والعنف والتدمير. ثم تأتي بعد ذلك مرحلة البناء بعد استقرار السلطة إن هي استقرت. فبناء الدولة بحضارتها لا يمكن أن يتم قبل الاستقرار.

هذه الظاهرة لا تختص بها الشعوب الضعيفة المحدودة السلطة، داخل الوطن الصغير، ولكنها تتعداهم لتعم الإمبراطوريات الكبرى. والإمبراطورية الرومانية مثال واضح.

كان من الصعب أن تخلف حضارة مشرقة الحضارة الغاربة. ولهذا كانت الفرصة أمام مجموعة من القبائل جرمانية متبربرة تجمعت في وسط أوروبا. ثم بدأت تنتشر ـ في غفلة عن التاريخ المتحضر ـ في أطراف أوروبا وجنوبها. ولم يكن من السهل أن يقف في وجهها وجود حضاري بدأ يتهاوى كالحضارة الرومانية.

الإنسانية لا تحتمل حضارتين. . . ؟

ويبدو أن تاريخ الحضارة الإنسانية لم يكن يحتمل حضارتين متوازيتين في فترة زمنية واحدة أو متقاربة. الحضارات كانت تنبعث في أقصى الشرق مثلاً (الصين) وفي شرق المتوسط (مثلاً مصر) وفي شمال المتوسط شرقاً (مثلاً اليونان) وفي وسط آسيا (الهند كمثل) وفي وسط المتوسط شماله (مثلاً روما) التي حاولت أن تكون ـ لأول مرة ـ بعد قرطاج ـ دولة واحدة تشمل شمال المتوسط وجنوبه. ولكن هذه الحضارات، التي كان بعضها يستفيد من

بعض لم تكن لتتكون وتتطور في وقت واحد. كانت تتعاقب وتتداول الحكم، كل في منطقته أو قارته، وتتداول الإنجازات السياسية والفكرية والحضارية عموماً.

وإذا كان ذلك قد يعزى إلى صعوبة المواصلات البرية أكثر من البحرية، وإلى ارتباط العمل السياسي والحضاري بالأباطرة الكبار، وبقواد الجيش الكبار، وبالذين يستطيعون أن يفرضوا سلطتهم الوحيدة ويتحكموا في الكبار والصغار على السواء، حتى يثور كابر على كابر، فيستأنف المسيرة، أو يبدأها من جديد، فإن كل هذه العوامل لم تمنع من تسرب حضارة أقصى الشرق إلى وسط الغرب، وحضارة المتوسط (اليونان مثلاً) إلى أطراف آسيا الغربية: إيران وأجزاء من الهند (ربما بسبب الفتح الإسكندري الذي طال هذه البلاد). ولكن ذلك لا يتفق في كثير من مظاهر الحضارات. حضارة مصر ـ مثلاً ـ ظلت منعزلة، لأنها كما سبق أن أشرنا كانت حضارة إقليمية ليست عالمية ونهرية ليست بحرية، حتى إذا جاء فرعون يطارد موسى في البحر، بعد أن طرده أدركه الغرق. وحضارة مرتبطة ارتباطاً كبيراً بالدين. فالفراعين آلهة يرغمون الناس على عبادتهم. ويشغلون أنفسهم، حتى في الجانب الحضاري من عملهم، بتقديس الذات وتلمس الخلود، سواء كان ذلك في البناء (الأهرام والهياكل المقدسة) أو في الفنون المنحوتة على الصخر أو المرسومة، أو في التحنيط للحفاظ على أجسام الملوك مقدسة لا يأكلها دود الأرض ولا تختلط عظامها مع ترابه. وكان التحنيط علماً وصناعة متقدمة ربما لم يرق إليه ـ في موضوعه ـ علم العصر وصناعاته.

المهم أن حضارة روما لم توازها حضارة في عصرها، ولم تقف في وجهها حضارة تخلفها في وسط المتوسط وغربه، بعد أن خضعت لعوامل التفتت والتمزق، فتركت فراغاً كبيراً في كل مظاهر الحضارة التي اضطلعت بها. وفي مقدمة ما تركت فيه الفراغ الوحدة التي حاولت أن تحققها لعالم المتوسط من شرقه إلى غربه، شماله وجنوبه.

ولم تستطع الإمبراطورية البيزنطية أن تخلفها، رغم أن هذه تأسست في الجزء الشرقي من الإمبراطورية، ما بين البوسفور والفرات، ورغم أنها نشأت لترث الإمبراطورية جميعها، ولكنها عنيت بالقسم الشرقي، وبالحروب مع الإمبراطورية الفارسية، ثم مع العرب. وقبل ذلك وأثناء ذلك انشغلت بالخلافات الدينية المسيحية. وكل ذلك منح الفرصة للوندال، فانتهزوا الفراغ في المنطقة الغربية التي كانت تقوم عليها الإمبراطورية الرومانية فهاجموا المنطقة بعد انهيار الإمبراطورية.

الفراغ الحضاري يمنح فرصة لحضارة الهدم:

ولهذا كان الفراغ يمنح الفرصة لمغامرين، لا تجمعهم وحدة فكر حضاري، أن يتجمعوا ليقوموا بمغامرة للحصول على السلطة. والفراغ بعث فيهم الجرأة لتتسع سلطتهم من وسط أوروبا إلى أطرافها وليركبوا البحر إلى الجنوب بعد أن أشبعوا رغبة سيطرتهم في الشمال.

والتاريخ يعطينا أمثلة خطيرة من ذلك. وقد تكون حركة المغول من هذه الأمثلة الواضحة.

انبعاث الحركة المغولية الموحدة في قلب آسيا هو مثل انبعاث الوندال في قلب أوروبا، جاء بين حضارتين: أولئك بين الحضارات الصينية والهندية والفارسية والعربية، وبين الحضارة الأوروبية التي بدأت بعصر النهضة في القرن الخامس عشر. وانبعاث الوندال جاء بين حضارتين: الحضارة الرومانية والحضارة العربية التي انطلقت من الجزيرة العربية بظهور الإسلام وبناء الحضارة الإسلامية المتطورة مادياً وفكرياً في الشام والعراق وفي الأندلس على يد الأمويين والعباسيين في المشرق والأندلسيين والمغاربة في المغرب.

ارث الوندال لروما ـ كسلطة وليس كحضارة ـ كان له انعكاس على المناطق التي كانت تحتلها روما ومنها المغرب. وقد جاءوا إلى المغرب بعد احتلالهم لاسبانيا.

مرة أخرى يلعب الموقع الجغرافي دوره الخطير كما سيلعبه في معظم فترات التاريخ السيء لهذه البلاد. ذلك أن احتلال اسبانيا (الرومانية) شجع الوندال على احتلال المغرب سنة 429م بعد أن استعان بهم فريق من الرومانيين ـ بقيادة بونيفاس على فريق آخر بقيادة «سيجسفولت» في أحد الصراعات التي كانت تقوم بين القياديين في الامبراطورية. وكان المغرب الضحية.

استبدال عدو بآخر:

تلك هي القاعدة التي نجدها تتكرر في كثير من مراحل التاريخ المضطرب لكثير من الشعوب، فلا يستعصى تفسيرها سياسياً ونفسياً. نجد هذه القاعدة تطرد خاصة عندما يكون العدو غريباً عن البلاد أو هما غريبان، ولم يستطع الأول منهما أن يمتلك مشاعر المواطنين ولا أن يحقق مصالحهم ويحتويهم. وقليلاً ما استطاع عدو محتل أن يفعل ذلك.

ألا تذكرنا هذه الظاهرة بمثيل لها سجلها التاريخ الحديث، وخاصة في الحربين العالميتين: شعوب عربية وإسلامية ومن العالم الثالث جميعه كانوا ضد الحلفاء ـ ولو عاطفياً، ولو تمكنوا لكانوا عسكرياً ـ لصالح المحور، لأنهم كانوا ينقمون على الاحتلال الانجليزي والفرنسي. ورغم أن الواعين منهم كانوا يدركون أن الاحتلال الألماني ـ لو تم ـ سيكون أخطر وأشد وقعاً، ولكنهم كانوا يتمنون انهزام عدو لمواجهة عدو آخر.

في منطقتنا هذه نجد بعض الأمازيغيين تحالفوا مع الرومان ضد الفينيقيين، رغم ما عرف عن الفينيقيين بأن احتلالهم كان مختلفاً. ومع ذلك

كان للتمييز العنصري أثره في كُرْهِ كثير من الأمازيغيين للفينيقيين. وكان الاحتلال الروماني أكثر خطراً من هذه الناحية من الاحتلال الفينيقي ولذلك تضامن بعض البربر مع الوندال للتخلص من الرومان. فالرومان لم يستطيعوا أن يجعلوا من البربر رومانيين. (وهذه نقطة سنحللها في فصل قادم) ولذلك كانوا ضدهم عندما جاءت المناسبة، وليست هناك مناسبة أقوى من ضعف روما وقيام خلافات قاتلة بين قياديها. وهناك خلافات دينية قامت بين الرومانيين أنفسهم: الكاثوليك ضد الرومانيين ويضطهدونهم. هذا الاضطهاد جعل هؤلاء الرومانيين ينحازون إلى الزاحفين الجدد القادمين من قلب أوروبا.

صراع بين الوندال والرومان:

وإذا كان الونداليون قد وجدوا سهولة لهذه الأسباب وغيرها في الاستيلاء على أجزاء من المغرب الكبير انطلاقاً من منطقة طنجة، فقد وجدوا صعوبة في الاستيلاء على مناطق من الجزائر: عنابة وقسطنطينة، ومن تونس: قرطاجة ولكنهم احتلوها أخيراً بعد تخريب قسطنطينة وإحراقها.

ورغم اتفاقية صلح عقدها جنسريك مع روما تقضي باحتلاله المغرب وجزء من الجزائر والإبقاء على تونس وقرطاج لسلطة روما، فقد نقض هذه الاتفاقية، بعد أن استنفد أغراضه منها. وقضى على النفوذ الروماني في المغرب الكبير بما فيه قرطاجة سنة 439. وكان سقوط قرطاجة دافعاً للوندال للتفكير في العودة إلى الشمال. وهذه المرة إلى روما نفسها.

صراع مرير قام بين الرومان والوندال يعود إلى ما قدمنا من صراع الحضارة الغاربة مع السلطة القائمة تدخلت فيه عدة عوامل جغرافية (الشمال والجنوب) وعرقية ودينية واقتصادية وحضارية. وقد استمر هذا الصراع عقوداً، انهزمت فيه القوة الرومانية في الغالب، رغم المحاولات الكثيرة

لاستعادة سلطتها بالقوة، أو للإبقاء على بعض النفوذ الديني أو الاقتصادي (الاستفادة من إنتاج القمح مثلاً) غير أن تصميم الوندال بعد أن قويت شوكتهم على الانفراد بالسلطة في المنطقة المتوسطية، جنوبها وشمالها، دفع بهم إلى مهاجمة إيطاليا من أطرافها حتى انتهى الأمر بالقائد الكبير جنسريك إلى احتلال روما مستغلاً الاضطرابات والنزاع على السلطة خاصة بعد اغتيال الامبراطور «فالنتينبان» سنة 455. وسقطت الامبراطورية الرومانية سنة 476.

لا تهمنا الوضعية الداخلية التي أفضت إلى انهيار الامبراطورية الرومانية بقدر ما يهمنا انعكاس ذلك على المغرب، خاصة بعد أن أصبحت الامبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطية) غير قادرة على الدفاع عن عاصمة الامبراطورية الغربية فأحرى عن بقية الامبراطورية في افريقيا.

وهكذا أصبح جنسريك سيد الموقف في البحر المتوسط شماله وجنوبه، فاحتل بقية الأقاليم في المغرب الكبير الذي كانت متروكة لروما بمقتضى اتفاقات الصلح ـ التي لم تكن تحترم كاتفاقات هذا العصر ـ.

انتهاء الوندال: دولة بدون حضارة:

انتهت قبائل الوندال التي نشأت من مجموعة من المغامرين في وسط أوروبا، ولم تنزل شواطىء افريقيا الشمالية إلا بعد قرون من المغامرات، انتهت بعد أن استتب بها الأمر في حوض المتوسط على يد أكبر قائد عسكري عرفه تاريخها، وهو جنسريك، إلى تكوين امبراطورية مهمة أصبحت لها مكانة في التاريخ، ولو أن ذلك كان بعد صراعات دامية شخصية وضد المتدينين «الكاثوليك» على الأخص، وضد الرومانيين والشعب المغربي الأمازيغي الذي لم يذل رغم العنف كما سنرى في فصل قادم، وأنجب الوندال عدداً من الأباطرة والقادة الكبار.

ولكن دولتهم كأية دولة تعتمد على القوة العسكرية وحدها لم تصمد أمام التناقضات الخطيرة التي كانت تواجهها. فهي دولة غريبة عن المنطقة،

استولت على المغرب الذي لم يكـد شعبه يتنفس الصعداء بعد موت القائد الطاغية جنسريك سنة 477 حتى بدأ يتحرك للتحرر من سلطة الوندال. وكانت سلطة الدولة هذه تقوم على معاداة الرومانيين واحتلال أراضيهم، ومعاداة الامبراطورية الرومانية الشرقية، ومعاداة الكنيسة وكل المتدينين، الكاثوليكيين، ومعاداة البابا نفسه. ودولة من هذا النوع لا يمكن أن تصمد أمام عوادي الزمان، خاصة وأن كل سندها كان السلطة والقوة العسكرية.

ورغم كثرة الأعداء والمحاولات التي قام بها الأباطرة البيزنطيون للانتقام من الوندال وكسر شوكتهم والعودة بالامبراطورية الرومانية إلى سابق مجدها في افريقيا، ورغم ظهور ملوك عقلاء بين خلفاء جنسريك كـ «صقر اسموند» (496 ـ 523) فإن المعركة الحقيقية لتحرير المغرب الكبير كانت على يد أبنائه الذين استردوا النفوذ على بلادهم ابتداء من المغرب الطنجي (الغرب والشمال) حتى قفصة في تونس. وأسفرت المعارك الأخيرة عن انهزام الوندال.

4 ـ من الامبراطورية الغربية إلى الامبراطورية الشرقية

التاريخ أيضاً ينتفض، ربما كانتفاضة الديك المذبوح يرقص لا من الطرب كما يقول الشاعر، ولكنها انتفاضة الروح كما يقول المثل العامي. فقد قامت الامبراطورية البيزنطية بمسؤوليتها في انقاذ الامبراطورية الرومانية الغربية. ورغم أنها تحملت كثيراً من انتفاضات أجزاء امبراطوريتها في الشرق، ورغم أن بساط التاريخ أخذ ينسحب من تحت أقدام القسطنطينية كما انسحب من تحت أقدام روما، فإن الشرقيين بحضارتهم التليدة لم يهضموا أن يقضي الوندال ـ والصورة عنهم أنهم أقوام همجيون لقطاء ـ على امبراطورية الغرب التي تجمع فيها مجد الإغريق الفكري، وفتوح الاسكندر العسكرية وحكمة وتجارة ودهاء الفينيقيين الحضارية. وفنون وقانون وعسكرية الرومان.

لهذا جمع البيزنطيون أسطولاً كبيراً، لم يعرف التاريخ له مثيلاً ـ إذا صحت الأرقام التي يرويها المؤرخون وما أظنها صحيحة ـ لتخليص افريقيا من الوندال، ولاسترجاع قرطاجة من الأقوام الذين دمروها، ولعلهم نسوا أن أبناء عمومتهم الرومان أحرقوها. وعرفت تونس معارك ضارية سنة 533م بين الوندال بقيادة جليمار والبيزنطيين بقيادة بليزار انتصر فيها البيزنطيون. وأفضت المعارك الضارية الأخرى إلى احتلال جيوش بليزار قرطاج. وانتهت الحروب باستسلام جليمار ملك الوندال. وكعادة المنتصرين في ذلك الزمان،

وفي كل زمن سيء ـ ولو انتمى لآخر القرن العشرين ـ أباد البيزنطيون بقايا السكان الوندال وانتهت مملكتهم في المغرب الكبير بعد أزيد من قرن (429 ـ 533) من احتلال المغرب والسيطرة على سكانه الأمازيغيين وقمعهم ومعاملتهم كشعب محتل وبعد حروب طويلة مع المحتلين القدماء (الرومان) بكل ما تجلبه الحروب، في ذلك الزمان وفي كل زمان، من تدمير وقتل وتخريب لكل مظاهر الحضارة، بل لكل وسائل الاقتصاد والغذاء والاستقرار.

وبذلك قام البيزنطيون أخيراً بما لم يستطيعوا أن يقوموا به أولاً. فانتقموا للإمبراطورية الرومانية الغربية بعد أكثر من نصف قرن على انهيارها.

لماذا لم يتوغل البيزنطيون في قلب المغرب؟

كل القادمين من الشمال والشرق لم يستطيعوا التوغل في المغرب، ومنهم البيزنطيون. الأسباب تؤكدها الجغرافية كما يؤكدها الإنسان.

أولاً: سلسلة جبال الأطلس التي تمتد من الغرب إلى الشرق فتقسم المغرب إلى قسمين. وكان من الصعب على المحتل اجتيازها، والنفاذ إلى ما وراءها. إطرد ذلك ولم ينعكس في تاريخ الاحتلال القديم والمتوسط منه والحديث. فلم يستطع أي من الفينيقيين ولا الرومان، الرومانيين والبيزنطيينن على السواء، ولا الوندال، ولا العرب، ولا البرتغاليون والاسبان والفرنسيون بعد ذلك أن يتخطوا الأطالس حتى تطورت وسائل الحرب في الاستعمار الحديث، ومع ذلك كان اجتياز الأطلس أكثر خطورة عليهم من اجتياز البحر والصحراء.

ثانيها: الخوف من الهزيمة في مواجهة أقوام (الأمازيغيين) لم تكن عندهم قابلية الانهزام والاحتواء، الخوف من ذلك جعلهم يفضلون البقاء قريبين من الشواطىء التي تمكنهم من أشياء ثلاثة:

(أ) الفرار إذا ما دعت الضرورة لذلك.

(ب) الارتباط بأجزاء الامبراطورية الأخرى في شمال المتوسط.

(جـ) نقل المعارك إلى البحر كلما تعرض احتلالهم لهجوم مضاد من خارج. كما حدث بالفعل بين القرطاجيين والرومان وبين الرومان والوندال.

ثالثها: الشواطىء الشمالية والغربية غنية بالانتاج الفلاحي. وقد كان الغزاة يعتمدون على هذا الإنتاج ليس فقط لتغذية الجيوش والمستوطنين، ولكن كذلك لنقل هذا الإنتاج إلى أجزاء من الامبراطورية. وقد كان المغرب دائماً مخزناً للحبوب بالنسبة لروما كما كان بالنسبة لفرنسا في العصر الحديث.

رابعها: عدم الاطمئنان إلى الإنسان المغربـي. فقد تواجه كل المحتلين، مهما تكن سياستهم أو مخالفاتهم مع بعض القبائل أو بعض الزعماء.

لكل هذه الأسباب نجد البيزنطيين لا يستخدمون الجيش ـ وبعضه من البربر ـ في الحفاظ على سلطتهم ـ بعد أن قضوا على الوندال، فحسب، ولكنهم كانوا يستخدمون الجيش في إقامة الحصون لتفصل «المغرب النافع» و «الخاضع» عن صحرائه حتى لا يتعرض نفوذهم للانتفاض من الجنوب، ولتكون هذه الحصون مراكز دفاع تعزز سياستهم الدفاعية بعد أن لم يعد في استطاعتهم إلا الدفاع.

وهي سياسة استعمارية اتبعها الاستعمار الحديث. ولو كان ذلك بأسلوب آخر يتلخص في فصل الصحراء سياسياً وعسكرياً واقتصادياً عن الشمال، وتمزيقها بين أنواع من النفوذ عانت منه وحدة المغرب الأمرين.

جاء البيزنطيون وشمسهم غاربة:

والبيزنطيون رغم ذلك حاولوا أن يستولوا على بعض ما كان للامبراطورية الرومانية في المغرب الكبير، ليستردوا نفوذ الامبراطورية الغربية ولكن نفوذهم لم يمتد إلى المغرب الأقصى إلا على أقصى شماليه (منطقة

سبتة) المرفأ الذي سهل احتلاله من البحر، ولكن لا يسهل الامتداد منه إلى الداخل على نحو ما يعرف التاريخ مرة أخرى مع البرتغال واسبانيا يوم احتل البرتغال سبتة (سنة 1415م). ثم سلمهـا إلى اسبانيا بعد ذلك بقرنين ونصف (حوالي 1660م).

والزمن لم يمهلهم كثيراً ليحتفظوا بهذه الامبراطورية. ذلك أن ميلاداً جديداً للتاريخ قد بدا في الأفق، ليحول المسار من شمال المتوسط إلى منطقة أخرى في العالم، سبق أن لعبت دوراً مهماً في الحضارة العقيدية التي انطلقت لتؤسس مسارات حضارية فكرية ومادية وحياتية. الدور هذه المرة كان على قلب الجزيرة العربية لينبعث منها الدين السماوي الثالث، يؤكد الدينين السابقين في جوهرهما ويصحح ما علق بهما من ترهات انطلقت من المنحرفين المحرفين. الدين هو الإسلام. والعالم الذي انطلق منه واليه هو الذي سبق للامبراطوريات القديمة المتوسطية أن غزته: من أطراف الهند حتى شرق المحيط الأطلسي.

لذلك فالامبراطورية البيزنطية كانت تجتاز مرحلة غروب شمسها، رغم الانتفاضة التي قامت بها في غرب مركزها، المغرب الكبير، بعد أن تحررت من نفوذها أجزاء الامبراطورية في الشرق: بلاد الفرس.

ولكن سيطرتها على أجزاء الامبراطورية في الغرب لم تحقق لها الأحلام التي كانت تراودها في إرث روما غرباً، كما لم تستطع أن ترثها شرقاً. فنفوذهم في الغرب (المغرب) لم يزد على مائة سنة إلا قليلاً من نهاية عهد الوندال سنة 533 إلى بداية الفتوح الإسلامية لبرقة وطرابلس من سنة 642 إلى 645 واستمرت الفتوح حتى المغرب الأقصى إلى أواخر القرن. ولكن نفوذ بيزنطة كان قد انتهى من بلاد المغرب.

كل العوامل تضافرت لتحرر المغرب من تحدي الشمال (ممثلاً في آخر المتحدين، وهم الرومان والبيزنطيون).

شيخوخة الدولة وصراع القيادات:

العامل الأساسي الأول: هو شيخوخة الدولة. يتجلى ذلك في انعدام الاستقرار داخل الحكم وانعدام الثقة بين الحاكمين والمحكومين. فقد تدهورت أوضاع الدولة البيزنطية بعد الامبراطور جوستينيان، الذي ظل يحكم الامبراطورية بقوة وحكمة أزيد من ثلاثين سنة (537 ـ 569) وهو الذي استعاد المغرب من الوندال.

وإذا كان جوستينيان قد شعر بالارتياح من استعادة «بعض» مجد روما من القبائل المخربة كما كانوا يدعونها التي قضت على مجد روما في الغرب، فإن اهتمامه بالجانب العسكري وتوزيع قواته بين الشرق والغرب جعلته يرهق الدولة، فلا هي احتفظت بالشرق ولا هي احتفظت بالغرب.

في الغرب (المغرب) لم يستطع أن يسترجع نفوذ روما إلا على جزء ضئيل من الشواطىء المغربية كما قدمنا. وكان المغاربة قد حققوا استقلال بلادهم، كلما استطاعوا أن يخلصوا جزء منها من الوندال بالحروب والثورات المنتظمة المستمرة. وكان انتهاء الدولة الوندالية مساعداً لهم على استرجاع استقلال الكثير من بلادهم في الداخل، وحتى على الشمال والغرب الشاطئيين. ولهذا فإن جوستينيان لم يحقق الحلم الذي راوده باستعادة مجد روما.

العامل الثاني: يتجلى في الصراع الداخلي. كانت الثورات والانقلابات مستمرة منذ أن مات جوستينيان: فوكاس يثور على موريق أو مريس ويقتله. وهرقل، قائد فوكاس على قرطاجة، يثور على فوكاس، ويبعث إليه جيشاً بقيادة ابنه ليعزله ويقتله ويتوج نفسه امبراطوراً. الفرس يثورون على الامبراطورية ويحتلون بعض الأجزاء منها: أرمينية والشام وفلسطين (القدس) ومصر.

وكانت بعض شعوب البلقان كالصقالبة والهان والآفار تتمرد على سلطة

بيزنطة. كما كانت الدولة تضطر إلى دفع إتاواة تهدد كيانها المالي للمحافظة على الأمن، أو على الأقل على الهدنة بينها وبينهم.

أما الفرس فقد أصبحوا يسيطرون على أرمينية ويحاصرون الاسكندرية.

العامل الثالث: الصراع الطائفي والمذهبي الديني، فقد كان الحكم البيزنطي ينتصر للكنيسة الكاثوليكية، ويتبادل معها التأييد. كنيسة (روما) دائماً تلعب دوراً سياسياً لصالح الدولة التي تؤيد الكاثوليكية ضد الأروسيين والروناتدسيين واليهود. ولكن بقايا هؤلاء لم يألوا جهداً في الخروج على السلطة التي استرجعت النفوذ الكاثوليكي لصالح الامبراطور. أما البربر فقد تخلصوا من المسيحية ولم يعد لها نفوذ عليهم. وتخلصهم من المسيحية ينهي علاقات أساسية كانت تربط الدولة (البيزنطية) بهم. وذلك ما سيسهل قبولهم للإسلام كما سنرى.

العامل الرابع: يتمثل في الفساد الداخلي والارتشاء وسلب الدولة ونهب أموالها. يلخص هذه الوضعية شارل أندري جوليان في كتابه (تاريخ افريقيا الشمالية ج 1 ص 375 الترجمة العربية) في فقرة جامعة فيقول: أما من الناحية السلبية فهناك جولايد «بليزار» في خزينة الدولة، ومحظوظية «سليمان» وقسوته، وعجز «سر جيوش» و «اربندوس» واغتصاب الضباط السامين والولاة للأراضي، ونهبهم للأهالي، أو مطاردة الناس باسم الدين، أو الفوضى في صفوف الجيش، أو ازدهار الاستعمار الذي آل بالفلاحين إلى شبه عبودية. وأخيراً نظام الحكم الذي تجلى خاصة في سياسة جبائية قاسية واستغلال عملي للأهالي، الأمر الذي قضى إلى الأبد على أسباب النهضة في افريقية.

العامل الخامس: إفلاس الدولة بسبب النهب والاستغلال وامتلاك القواد ذوي السلطة للأراضي وفرض الإتاوات. وكانت سيطرة الفرس على أرمينية ومحاصرة الاسكندرية ومنع أي مدد عن القسطنطينية أفقد الدولة كل

إمكاناتها المادية، ولم يبق أمامها إلا الاعتماد على المغرب لتزويد الخزينة المفلسة، وإعداد الجيش. ووضعية المغرب من الناحية المالية هي ما رأينا.

العامل السادس: الثورات المتوالية التي قام بها البربر ضد النفوذ البيزنطي، سواء في الأوراس أو في «الحدود» التونسية الجزائرية، وقاوموهم في طرابلس. وحاربوهم في كل مكان. وهذا ما جعل سياستهم نحو المواطنين المغاربة تتسم بالعنف والعدوان والغدر والقتل البشع.

كل هذه العوامل تضافرت لتوجد ظروفاً مواتية أمام الفتح العربي للمغرب.

التحدي الحضاري

نتوقف عند هذه المرحلة من التحدي السياسي لبلاد المغرب لأنها مرحلة متميزة عما قبلها مثلما تميزت المرحلة بعدها ـ مرحلة الفتح الإسلامي ـ عنها.

متميزة عما قبلها لأن المغرب الكبير انفتح على آفاق جديدة شرقية وشمالية، ولم يعد منحصراً أو متقوقعاً داخل «حدوده» ـ التي لم تكن تعرف غير نهاية الصحراء الكبرى وهي حدود غير قارة ـ والبحر المتوسط والمحيط الأطلسي. كان المغرب شبه جزيرة يتحكم فيه وضع جغرافي، البحر والصحراء بعض سماته، والجبال ـ الأطالس والريف ـ أكثر مظاهره مناعة، ولكنه لم يكن جزيرة محدودة الأفق كما كانت جزر أخرى: مصر ـ مثلاً ـ التي كانت تتجمع حول النهر لأنه مصدر الحياة، وإن توسعت قليلاً إلى ليبيا (لوبيا) فهو توسع عقدي ديني وليس حياتياً ولا اقتصادياً، وإن توسعت نحو الشرق أو الشمال «اليونان» أو الرومان فهو توسع عكسي. أي إن الهكسوس هم الذين قدموا إليها من الشرق، واليونان والرومان هم الذين قدموا إليها من الشمال.

شبه الجزيرة المغربية كانت أوسع أفقاً، سعة السهول والشواطىء والجبال والصحراء، وكلها امتدت من الغرب إلى الشرق، أي من المغرب الأقصى (أو موريطانيا الطنجية) حتى الصحراء الغربية التي تفصل ليبيا عن مصر.

والموقع الجغرافي ـ كما سبق لنا القول ـ لم يكن في صالح التقوقع، وانتظار الذي يأتي من الداخل. البحر كان مفتاح الأقوام البحريين للمغرب حدث هذا في التاريخ القديم: الفينيقيين والرومان والوندال وبعدهم الإسبان والبرتغال والإنجليز والفرنسيين ثم الأمريكيين (أثناء الحرب العالمية الثانية) والبر كان مفتاح الأقوام الصحراويين ـ البريين للمغرب، حدث هذا بالنسبة للعرب.

المغرب إذن كان جزيرة مفتحة الأبواب بشواطئه الواسعة، وآفاقه الشاسعة. ثم بإمكاناته البشرية والزراعية، وأكثر من هذا وذاك بموقعه الاستراتيجي كمركز للهجوم والدفاع في نفس الآن. ونعرف أن كل الحضارات والانتفاضات التاريخية ـ قديمة وحديثة ـ لم تكن تستثني الحرب ـ وهي مظهر وممارسة غير حضارية ـ من عملها، لكسب المواقع لاغناء حضارتها ـ مهما تكن قيمتها ـ والدفاع عن نفسها وأرضها والأرض التي انساحت فيها، والاعتماد على أرض الاحتلال للقفز منها إلى أراض أخرى.

مركز المغرب الاستراتيجي مكن للآخرين أن ينهضوا بحضارتهم:

وقد لعب المغرب بمركزه الاستراتيجي دوراً مهماً في تمكين القوات ـ التي تكونت في المناطق القريبة منه ـ من كل هذه المميزات والمصالح، على حسابه وحساب شعبه في كثير من الأحيان، فقد مكن الفينيقيين من بعث حضارتهم من جديد ـ بعد التحديات التي واجهوها في فينيقيا بلادهم الأصلية ـ في قرطاجة، والانسياح منها إلى مجموع شمال أفريقيا وشرقها، والقفز إلى الشمال والطمع في البلاد التي عرفت جانباً من الحضارة اليونانية في كثير من مناطق جنوب أوروبا حتى إسبانيا. ومكنهم من الحروب الطاحنة التي تداولوا فيها النصر والهزيمة مع روما، حتى دمرت قرطاجة نفسها. ومكن للرومان من أن يكونوا امبراطورية ضخمة على الشاطىء الجنوبي للبحر الأبيض تسند امبراطوريتهم الضخمة على الشاطىء الشمالي منه، وللدفاع عن الإمبراطورية

وعن الحضارة الرومانية ضد الغزاة. ومكن للوندال أن يحكموا منطقة كانت بعيدة عن متناولهم، لولا الموقع الجغرافي للمغرب. ومكن للروم البيزنطيين أن ينهضوا بالدفاع عن الحضارة الرومانية ضد غزو الونداليين إلى حين. ثم مكن للعرب والمسلمين أن يجتازوا المضيق نحو الأندلس، وكان يمكن أن ينطلقوا منه إلى قلب أوروبا لولا موقعة «بواتيي»، لولاها لأطبقت القوات العربية القادمة من الشرق، عن طريق تركيا، والتي أوقفت عند حدود النمسا مع القوات القادمة من المغرب عن طريق إسبانيا على جنوب أوروبا ووسطها. ولعب موقع المغرب الاستراتيجي ومركزه دوراً آخر في بداية عصر الانسياح الأوروبي في اتخاذ شواطئه معبراً للالتفاف حول أفريقيا بحثاً عن بلاد الأبازير وعن الذهب. ثم لعب نفس الدور في صراع النصرانية ضد الإسلام ابتداءً من الأندلس ومروراً بمعركة وادي المخازن، وبالمعارك المتوالية في الشواطىء الجنوبية للبحر الأبيض بالجزائر وتونس وليبيا ضد الإسلام الذي كافح المد النصراني الشمالي حتى سلم الجنوب من غزو الشمال باسم النصرانية. واستمر هذا الدور في صراع الدول الأوروبية على النفوذ العسكري والتوسع الاقتصادي بين الدول التي أصبحت كبرى في القرنين الأخيرين (18 ـ 19) ولتكسير النفوذ الإسلامي المتمثل في الخلافة العثمانية، فكان القفز إلى الجزائر من القوات الفرنسية، جواباً على ظاهرة خطيرة في التاريخ هي:

- النفوذ العثماني الذي امتد حتى حدود (المغرب الأقصى).

- التوسع الإسباني البرتغالي على الشواطىء المغاربية واصطدم في طرابلس بقوة إسلامية بحرية.

- النفوذ البرتغالي والإسباني في آسيا في القرن السادس عشر.

- النفوذ التجاري الإنجليزي الذي تحول من التجارة إلى الاستعمار ابتداءً من القرن السابع عشر.

التنافس بين الفرنسيين والإنجليز، والذي اشتدت حدته على عهد

نابليون الذي تجرأ على اعتراض طريق انجلترا في المتوسط فقفز إلى مصر، وهي طريق من طرق الهند.

هذه الظاهرات التي حركت التاريخ الأوروبي منذ بداية عصر النهضة جعلت مركز المغرب وموقعه الاستراتيجي يلعب دوراً أساسياً في تمكين أوروبا من النفوذ العالمي، وتمكينه من الانفتاح على أوروبا والعالم. وكل ذلك يحمل تحديات حضارية مهمة جداً.

التاريخ وحدة لا تقبل التبعيض. وإذا كنا نتحسس التحديات الحضارية في الماضي البعيد انطلاقاً من التحدي السياسي الذي درسنا حتى الآن نماذج منه، فإننا لا يمكن أن نتمكن من معرفة كنهه إلا ونحن نضع أمام أنظارنا التحديات الحضارية الحديثة. فهذه من تلك.

حضارة المغرب بين المادحين والهاجين:

وقبل ذلك نتساءل: ما هي قابلية المغرب لهذه التحديات سلباً أو إيجاباً؟.

من الصعب أن يعتمد الباحث على المصادر المتعددة التي كتبت عن تاريخ شعب من الشعوب، متأثرة بمنطق خاص قد يكون إيجابياً لصالح الشعب موضوع التاريخ، وقد يكون سلبياً لغير صالحه. والمغرب ليس بدعاً بين الشعوب التي كتب تاريخها تحت تأثير هذا المنطق الخاص، فقد كتب تاريخه بعض المغاربة فذهبوا في التمجيد مذهباً عاطفياً. ابن خلدون مثلاً يجعلهم أهل كل فضيلة، ويتابعه بعض الكتاب المعاصرين كالدكتور حسين مؤنس، وقد عاش فترة طويلة مع تاريخ المغرب منذ كتب أطروحته عن فتح العرب للمغرب فيقول في أحدث كتبه «تاريخ المغرب وحضارته»: إن البربر بالفعل شعب أصيل يتمتع بفضائل كبرى من شجاعة وشهامة وكرم وصبر على العمل واحتمال الشدائد. وهم كذلك أهل إخلاص وصدق وإيمان... وأزكتها فضائل الحضارة العربية التي جعلت من الشعب العربي البربري شعباً ممتازاً له مكانه من احترام البشر، ودوره في السير بالحضارة الإسلامية الإنسانية عامة واضح لا سبيل إلى إنكاره أو الإقلال من شأنه وشخصيته المتميزة.

في مقابل هذا المدح الذي لا يبعد كثيراً عن الأمداح الشعرية، نجد نوعاً من الهجو الشعري عند بعض الباحثين الغربيين الذين عنوا بتاريخ المغرب انطلاقاً من فكر استعماري، وإن لم يكن «استعمارياً» بالمفهوم السيء للكلمة، فقد كان منطلقاً من رؤية حديثة ـ أو متأثرة بالحداثة ـ لشعب قديم لم تكن ظروفه أقل سوء أو تخلفاً من ظروف شعوب أوروبية قبل عصر الحضارات اللامعة. ولذلك نجد مؤرخاً من أكثر المؤرخين الغربيين إنصافاً للمغرب شارل اندري جوليان يقول مثلاً: في كتابه «تاريخ افريقيا الشمالية» ط العربية ص 65: مهما رجعنا إلى تاريخ افريقيا الشمالية لاحظنا أن الأمور تجري كما لو أنه كتب على هذه البلاد أن تبقى قاصرة قصوراً وراثياً عن التمتع باستقلالها. فلقد بقيت دائماً خاضعة لمدنيات واردة من الخارج. وفي بعض الأحيان اقترن مصيرها بمصير هذه المدنيات... فالمدنيات المتتابعة التي طرأت من الخارج لم تكن بالنسبة إلى البربري إلا ثياباً متنوعة تستر جسداً وروحاً لا يتغيران.

أما الذين انطلقوا من تفكير استعماري متميز، وهم يدرسون تاريخ المغرب ـ شمال افريقيا ـ فإنهم ينتهون إلى نتائج أكثر وضوحاً: كل قيمة حضارية للمغرب جاءت من خارج: ابتداء من السكان الذين تكونوا من خليط أتوا من خارج المغرب، مهما يكن الاختلاف بين الباحثين في مرجعية هذا الخارج: الشرق أو الشمال أو الجنوب ـ كما سبق أن بينا ـ ولكنه ليس ذاتياً على كل حال. مروراً باللغة والثقافة عند قدماء البربر التي أتت من الشرق مع الفينيقيين أو من الشمال مع الرومان. وحينما لا تسعف الأدلة بعض هؤلاء المؤرخين بأن كل شيء قد جاء من الخارج يتشككون ـ المؤرخ قزال مثلاً يقول: إن السكان الأصليين لهذا الصقع لم ينتظروا قدوم التجار السوريين لممارسة التدجين والزراعة، ويضيف متسائلاً: «هل كان مرد بعض خطواتهم نحو التقدم إلى مبادرتهم الذكية؟ إننا نجهل ذلك «ويتنامى هذا التفكير الاستعماري عند كامبس (فيما ينقل عنه الأستاذ العروي في «مجمل تاريخ

المغرب»: لا تزال الصحراء وتخومها تعيش حتى اليوم في عهد ما قبل التاريخ. . . وما يزال سكان الريف المغربي يعيشون عيشة قبيلة ـ تاريخية ـ فعلى الباحث أن يلجأ لكي يفهمها إلى الانثروبولوجية الثقافية. أما مناهج التاريخ المعروفة فإنها لا تنفع إلا في تحقيق أحداث الحضارات الدخيلة من فينيقية ورومانية وإسلامية وفرنسية (ولعله نسي واسبانية وبرتغالية وإنجليزية. . .).

وإذا كان الأستاذ العروي يعقب على ذلك بقوله: لا شك أن لهذا الرأي أساساً في الواقع. فإنه ـ فيما يبدو ـ لا يقصد إلى أن المغرب كان صفحة بيضاء من كل معطى حضاري حتى جاءت الحضارات الدخيلة التي طبعته كل منها بِطَابِعهَا.

ويبدو أن الأستاذ العروي مأخوذ باستنتاجات هؤلاء المؤرخين لأنه يعترف بأنه غير مؤهل لنقد بحوث «كامبس» الأثرية (ص 46 من ترجمته) ـ فيؤكد (ص 47) «كون المغرب تلقى الحضارة من الخارج فهذا أمر صحيح وغير استثنائي. النقطة المهمة هي أن المغاربة قبلوا بعض المظاهر ورفضوا البعض».

وتتأكد نفس الفكرة بوضوح في ترجمة دوفان قرقوط لكتاب العروي حينما يقول في هامش «2» ص 27: أما أن تكون الحضارة قد جاءت في معظمها إلى المغرب من الخارج فأمر لا يمكن إنكاره. وليس واقعاً ينفرد به هذا الإقليم. النقطة الجوهرية هي أن المغرب قبل أوجها معينة ورفَض أخرى منها».

وكثير من الذين كتبوا عن عصور الحضارة القديمة من الذين نقلوا عن الدراسات الأجنبية التي تطبعها الرؤية الاستعمارية ينكرون أن تكون للمغرب حضارة قبل التاريخ المعروف: أي بداية من الفينيقيين، فيزعمون أن «مدنية العصر الحجري كانت بهذه البلاد (المغرب الكبير) أحط منها بكثير في البلاد

الأخرى» فمنهم من كانوا يسكنون الكهوف والمغاور وبها يدفنون. ونظام العائلة دخل بلاد البربر قبل المسيح بنحو خمسة قرون، بعد انتصاب الجاليات الفينيقية بمراكز الساحل المغربي. وكانوا يعتقدون في السحر ويقدسون الأفعى والقردة والأكباش، ويأكلون لحوم الوحوش والحشرات والنباتات. وكانوا يربون الماشية (لاحظ التناقضات: ولم تكن الأعمال الزراعية مفقودة بالمرة، وعرف بها الفول والقمح والزياتين والكروم الوحشية، ومعلوماتهم الزراعية أتت من مصر (قرطاجة في أربعة قرون لتوفيق المدني وعنه ينقل كثير من الذين كتبوا بعده بالعربية).

والأستاذ عبد العزيز بن عبد الله الذي يعمل جاهداً للتخلص من تأثير المؤرخين ذوي النزعة الاستعمارية، ولو أنه يستمد في مصادره الأساسية منهم. يقول في كتابه: تاريخ المغرب: ولم يعرف المغرب، على ما يلوح، عصور النحاس والبرونز والحديد لأن هذه المعادن دخلت إليه بواسطة مبادلات تجارية.

مجموعة من التناقضات عرفتها الكتابات الأجنبية والعربية ـ ومنها المغربية ـ ولو بالفرنسية، قد يعود ذلك إلى قلة المصادر المكتوبة أو المرسومة، وقد يعود إلى أن المغاربة لم يكونوا يكتبون تاريخهم، ولم يكونوا يسجلون الأحداث السياسية والاجتماعية والمظاهر الاقتصادية، على نحو ما فعل الآخرون بتاريخهم، بل حتى عباداتهم وتراثهم لم تكن، فيما يظهر، معروفة ولا مسجلة. غير أن المؤرخين المحدثين ـ الأوروبيين على الأخص الذين استهواهم البحث عن الماضي القديم قبل أن يعرف التاريخ طريقه إلى الكتابة ـ كانوا يخرجون من عقدة الجهل بالشيء إلى نفيه. وقد يكون عندهم مقبولاً علمياً، إلى أن يكتشف المغاربة تاريخهم فيكتبونه.

في خضم التناقضات باحث ينصف المغرب:

وفي خضم هذه التناقضات التي تنتهي بالإنكار الكلي للتاريخ ـ قبل

المكتوب ـ نجد بحثاً للدكتور سيكيل طراديل ماتيو عن «الحضارات المغربية الأولى» (ترجمة محمد التازي سعود ـ مجلة البحث العلمي عدد 6 سنة 1965) يقرن بين تاريخ أوروبا وشمال افريقيا ويؤكد أنه يبعد عنا بنحو ثلاثة آلاف سنة، بينما يصل تاريخ الشرق الأدنى ومصر لما بين أربعة وخمسة آلاف سنة. ويؤكد الأفق الذي يعتبر الأصل المشترك والتعاون الاساسي بين جميع الناس من غير اعتبار للأجناس والحدود الحالية. فهناك أصول مشتركة بشرية وثقافية. ويقول: قبل عشرات السنين لم نكن نعرف شيئاً عن المغرب قبل الرومان. واليوم لا يوجد شعب يقبل أو يستطيع التنازل عن الإرث التليد الذي تمثله إلى حد كبير جذوره السلالية والثقافية. وبالنسبة للمغرب فإن هذه العناصر التي يبلغ بعدها عدة آلاف من السنين هي جزء من الكنه العتيق للبلاد، وإن كان لا يزال كنهها حياً. وإن كان يظن أنه من الخطأ المغالاة في اعتبار هذا الكنه، وأن نتناسى أن شخصية المغرب الحالية تولدت من أساس تكون طيلة العشرين قرناً الحالية. ولكن يكون الخطأ أعظم إذا غضضنا النظر ولم نعتبر هذه الأسس البعيدة حينما نحاول معرفة التطور التاريخي وميزة البلاد وشخصيتها الحالية وتأثير كل هذا على المستقبل.

هذا الباحث يتخلص من أسر النظرة الاستعمارية التي تعتبر شخصية المغرب لم تولد إلا في العشرين قرناً الأخيرة، والذين يمسكون بهذه النظرية يهدفون إلى القول بأن المغرب لم يكن له وجود قبل الرومان، والمتعصبون دينياً منهم يزعمون أن شخصيته لم تتكون قبل المسيحية، مع أن التاريخ لا يسعفهم بأن المغرب كشعب أصبح مسيحياً في يوم ما.

هذا الباحث يعتمد على وثائق علمية. ويستخلص منها أن الزراعة والرعي لم تكن لبنة أولى في مجال التغذية فحسب، بل وحتى في إمكان خلق بداية لنظام اجتماعي. ويؤكد أن اكتشاف الزراعة وتأنيس بعض الحيوانات بدلاً من الاعتماد في العيش على القنص، حدث في منطقة تكون الآن قسماً من دولتي سورية والعراق الحاليتين. ومن هذه المنطقة انتشرت

المعلومات حتى وصلت للمغرب. وعرفت مراكز مغربية كثيرة أول حضارة للفلاحين والمزارعين. منها مغارة «كاف تحت الغار» بالقرب من تطوان، و «الغار الأكحل» على التلال الساحلية بمضيق جبل طارق و «مغار أشكار» «والخربل بطنجة»، و«مغارة دار السلطان» بالقرب من الرباط. والذي نعرفه حتى الآن يكفي لنعلم كيف ومتى دخل المغرب في مجموع هذه الحضارات.

وقد تركت هذه الجماعات أيضاً مجموعات من الأشياء صنعتها واستخدمتها تتكون من الخزف المزخرف برسوم الذي صنعته هذه الجماعات واستخدمته وأدوات حجرية وعَظْمِية . وكل المخلفات التي تركتها الجماعات المغربية الأولى تجعلنا نعتبرها من نوع الجماعات الأخرى التي ظهرت حول البحر الأبيض المتوسط في نفس العهد على الساحل الأندلسي وفي قسم كبير من إيطاليا وجزيرة صقلية وجنوب فرنسا.

ويخلص من ذلك إلى القول بأن هناك تياراً انطلق من السواحل الحالية لسوريا، واتجه غرباً عن طريق البر، ثم عن طريق البحر إلى أن بلغ جل أراضي غرب المتوسط بما فيها المغرب. ورغم غيبة التنقيبات المغربية الحديثة، وبحث المكتشفات بالوسائل الفيزيائية الكيميائية الجديدة، فإن الكاتب يعتبر أن الشبه الموجود بين حقبة الرعاة والفلاحين على الضفاف الغربية للبحر المتوسط المغربية منها، بلغ من القوة حداً يدعونا لكي نعطي للمغارات النيوليشية المغربية نفس تاريخ الأولى. . . ويمكن الآن أن نعتبر أنفسنا محظوظين بمعرفة شيء لم نكن نتوهم وجوده منذ بضع سنين، وهو هذه الوحدة الكبرى في البحر الأبيض المتوسط مع الرعاة والفلاحين الأولين، وعلاقتها بأصلها في المشرق في هذا التاريخ المحدد نسبياً.

المرحلة الأولى للحضارة إذن كانت مشتركة الأصل وكما وجدت في شمال المتوسط وجدت في جنوبه (المغربي). بحيث لم يكن هذا الجنوب بعيداً عن البذور الأولى للحضارة الممثلة بالأخص في الزراعة والرعي

واستعمال الأدوات ومنها الخزفية. وبالتالي لم يكن لشمال المتوسط فضل على جنوبه في هذا المجال.

تأتي المرحلة الثانية من هذا التطور الحضاري بعد ذلك بكثير. وحينما يشير إلى البعد الزمني بين المرحلتين، الذي قد يبلغ ثلاثة آلاف سنة، يؤكد أن المؤرخ لا يستطيع أن ينكر التطور الجوهري الذي حصل للسكان الأهليين، ولا يستطيع ملاحظة التأثيرات الخارجية على تغيير الأصول الحضارية القائمة، ويقول: ليس معنى هذا أن أي تغيير لم يقع بين حين وآخر وإنما يقصد التأثيرات الخارجية على الخطوط المهمة.

المرحلة التالية في الحضارة المغربية جاءت مع الفينيقيين. فتكوين المدن والمراكز مكنت السكان الأصليين من الوصول إلى التطور القروي. وبعد ذلك ببضعة قرون برزت حضارة مغربية متميزة على طول الساحل أو على جله. وابتداءً من القرن الثالث قبل الميلاد نجد في هذه البلاد خواص مميزة لهذه الظاهرة الجديدة يعد منها:

- وجود سلطة ملكية منظمة.

- وجود حياة التجمع والعمران بمدن جديدة أخرى غير تلك التي أنشأها الفينيقيون من قبل.

- استعمال شكل خصوصي في الكتابة يسمى الخط الليبي اختص به سكان المغرب الكبير.

- وجود صناعات مختلفة معدنية ونسيج وخزف ومخروطات.

أسهمت شعوب المغرب في هذه الحضارة لأنها لم تكن تعزل نفسها عن المشاركة. كانت لها مبادرات مهمة شجعها عليها طبيعة التعامل والاندماج التي عرفته بلاد المغرب بين الوافدين الفينيقيين والمغاربة الأصليين. تجلى هذا الاندماج في التعاون سلماً وحرباً. وقد أكد ماتيو في بحثه هذا الإسهام

الحضاري فقال: كان من نتائج المظاهر الحضارية (التي أشرنا إليها) وجود حضارة سميناها باسم الحضارة البونيقية الموريطانية لعدم وجود اسم أدل وأفيد. وتحدث بعد ذلك عن هذه المظاهر الملكية ووجود المدنية وخصوصية الكتابة المغربية والصناعات المختلفة.

كانت هذه المرحلة مهمة في تاريخ المغرب لأنه بقدر ما استفاد من الفينيقيين برزت قابليته لإنشاء حضارة مغربية متميزة سواء من جانبها السياسي بتكوين الدولة المنظمة واعتماد الملكية المستقلة. أو التجمع الحضاري والعمراني وبناء المدن والمراكز التي لعبت دوراً سياسياً واقتصادياً وعسكرياً، أو استعمال الكتابة كأداة للثقافة، أو تطوير المادة الخام إلى صناعات أساسية. أو تنظيم التجارة باستعمال العملة أو استبدال المواد الأولية بالمواد الأجنبية المصنعة أو تطوير الفلاحة للغذاء والتبادل في نفس الوقت.

المغرب بين أصالة الحضارة وتقبلها:

ولا نريد أن نقع في شرك مغالطة واضحة تشير إلى أن تقبل الحضارة من الخارج لا تعني بالطبيعة أن المغرب لم يعرف حضارة من قبل، لأن الخلط واضح بين المقولتين. فما من شعب إلا استمد من خارجه جوانب من الحضارة، رفض بعضها وقبل بعضها. فالحضارة الإنسانية نهر أبدي تأتي روافده من مختلف منابع الإنسانية وتتوزع مساراته في مختلف أنحاء المعمور، كلما تجمع نتاج هذه الروافد ليكون طاقة متفجرة تبحث لها عن منافذ. إذا كان المغرب لا يعتبر أصل حضارة متميزة كما تعتبر مصر أو الصين أو الهند أو اليونان مثلاً، فلا يمكن أن يزعم أحد أن كل ما عرفه من حضارات إنما جاءته من خارج على نحو ما يزعم الباحثون الاستعماريون، وهم مصدر كل الذين بحثوا هذا الموضوع من الباحثين المحدثين، مغاربة وأجانب.

ويؤكد البحث الذي لخصنا بعض فقراته أن المغرب لم يكن في الفترة الحضارية الأولى إلا جزء من مجموعة بشرية عمت حوض المتوسط. لم

يكن أقل منها حضارة، على نحو ما كانت الحضارة في بدايتها الأولى، ولم تكن قابليتها للتحضر أكثر من قابليته، حتى إذا جاء عهد التفتح الحضاري (المرحلة الثانية) بالنقلة النوعية التي أحدثها الفينيقيون، كان المغاربة أيضاً مستعدين للتعامل مع هذه الحضارة المتنوعة. ثم برزت حضارة مغربية متميزة لم يكن للرومان يد كبيرة فيها، إلا التأثير الذي كان من الضروري أن يحدث بسبب الاتصال والتعامل.

هناك إذن تحدي حضاري استجاب المغاربة لما اتفق مع المحافظة على شخصيتهم منه، ورفضوا منه ما اختلف. وكان قبولهم لما قبلوه عن طواعية واقتناع وتلقائية، وكان رفضهم لما رفضوه كلما اقترن ذلك بالإكراه والعنف العسكري والسياسي. وسيتفق هذا التعامل مع التحدي الحضاري والفكري المشع من خارج الذات في كل المراحل التاريخية التي عرفها المغرب الكبير حتى العصر الحاضر.

ولعلنا في غير حاجة إلى أن نشير إلى أن الرؤية الاستعمارية: من تحضر المغرب وقابليته أو عدم قابليته للاقتباس، واعتماده دائماً على الوافد من الحضارات، هذه الرؤية منبعثة من حقيقة يريدون إثباتها وهي أن بلاد المغرب لم تعرف حضارة ما حتى جاء الاستعمار فحمل إليها الحضارة الحديثة. وقد رفضت ـ بطبيعتها الجهلاء ـ أن تتقبل الكثير من مظاهرها. ولذلك كان على الاستعمار أن يعاملها «كشعوب» ـ بدائية أنصاف متحضرة ـ ويشكك كذلك في استحقاقها أن تكون «شعوباً».

ومن هذا المنطلق يمكن التعامل مع الروايات التي كتبها بعض المؤرخين الأجانب، وعنهم أخذ بعض المغاربة أنفسهم كتوفيق المدني، من إنكار كل أصالة حضارية عند المغاربة حتى وقعوا في خلط كبير بين مراحل التاريخ الحضاري التي مر بها المغرب، ولم يمر بها وحده، وإنما كان ضمن مجموعة البحر المتوسط، كما أن الوافد من حضارة المشرق زراعية أو

صناعية أو اجتماعية بعد ذلك أشعت على المنطقة كلها، فاستفاد منها شمال المتوسط وجنوبه على السواء. حتى إذا جاءت الحضارة الفينيقية في المرحلة الثانية كانت كذلك مبعث إشعاع تعامل معها المغاربة متقبلين ورافضين على نحو ما عرفنا. وكان هو نفس الموقف الذي وقفته شعوب شمال المتوسط التي وصلها النفوذ القرطاجي واشعاع قرطاج الحضاري.

التحدي الحضاري الروماني ننظر إليه من خلال روما نفسها ودورها في التاريخ الحضاري والسياسي في عالم ما قبل المسيحية وما بعد المسيحية، ومن خلال موقعها ومركزها الجغرافي، ومن خلال المرحلة التي انبعثت فيها كدولة جمهورية ثم امبراطورية، وهي المرحلة التي غابت فيها الشمس عن حضارات أخرى سبقتها، صارع بعضها بعضاً حتى أنهت اليونانية منها الفارسية بعد أن ضم الإسكندر بلاد فارس إلى امبراطوريته.

ثم انتهت اليونان بعامل الثورات والحروب وبعامل التوسع الذي قد يستطيعه رجل كالإسكندر، ولكن لا يستطيع المحافظة عليه الذين ورثوا امبراطوريته كما حدث في مختلف الإمبراطوريات التي قامت على الفردية العسكرية والسياسية.

والحضارات قديمها وحديثها يمهد بعض لبعض وتسلم فيها القيادة فيها السابقة للاحقة. الأمر لا يتعلق بالأفراد داخل الشعب الواحد، أو المجموعة الشعبية، كما حدث في بلاد الفرس أو اليونان فحسب، ولكنه يتعلق أيضاً بالشعوب، قد تتجاور أو تبتعد. وإذا كان ضعف القوة السياسية أو العسكرية، أو تفسخ الحضارة في دولة ما يُطمع فيها القوة الصاعدة، فإن هذه القوة الصاعدة قد تطمع في تحطيم قوة أخرى تستشعر منها منافستها وهي في أوج قوتها.

من هنا يأتي مركز روما التاريخي بين قوتين: إحداهما غاربة بسلطتها السياسية وقوتها العسكرية وهي اليونان، رغم عظمة حضارتها الفكرية

والسلطوية والفنية التي ورثت بعضاً منها روما. وثانيتهما قرطاجة التي استشعرت روما قوتها ونفوذها فصارعتها في مراحل ضارية من الحروب (البونيقية) حتى دمرتها وأحرقت عاصمتها.

بذلك خلا لها الجو شرقاً وجنوباً وغرباً. نشيرت نفوذها شرقاً حتى بلاد ما بين النهرين وشمالاً حتى نهر الراين وغرباً حتى جبل طارق وجنوباً حتى شلالات النيل. وأصبح البحر الأبيض، أخيراً في عهد الإمبراطورية بفضل قيصر وأكتافيوس أغسطس، بحيرة رومانية بحوضيه الشرقي والغربي. هذا الحوض الغربي، الذي بالرغم مما تحالف عليه تباعاً من عوامل إغريقية وبونيقية وأخيراً رومانية، بقي على سماته البربرية الأولى «كما قال أحد المؤرخين المحدثين (تاريخ الحضارات العام ج 2 ص 262 ط العربية).

ماذا استفاد المغرب من قرطاج:

من الواضح أن المغاربة شاركوا في إمداد الحضارة القرطاجية بالفكر والعمل والإنجاز والمواد الأولية الحيوية. فقد لعبت دوراً مهماً في التجارة التي يمكن أن نقول إنها عالمية، نظراً للموقع الجغرافي والاستراتيجي، وللمواد الأولية التي استغلتها في بلاد المغرب، والتي استوردتها من جنوب البحر الأبيض وسوقتها في شماله. ورغم الموقع الجغرافي الضيق الذي احتلته، فقد كانت تراقب السواحل المغربية، سواء منها الواقعة على البحر الأبيض أو على المحيط وكثيراً من الشواطىء الجنوبية لأوروبا. وبذلك استطاعت أن تنمي النشاط التجاري، سواء منه الاتجار في المواد الأولية ـ المأكولات ـ أو المعدنية. ومن المؤرخين من يزعم أنها كانت تتاجر حتى في الذهب المستخرج من السودان والعاج المجلوب من أفريقيا الوسطى والجلود. وبالطبع كانت تجارة العبيد من أنواع التجارة التي نشطتها قرطاج.

وطورت هذه المواد التي تناولتها التجارة بعض الصناعات كصناعة السفن والأدوات المصنوعة من الحديد والنحاس والبرونز والأسلحة وأدوات

الزينة وأواني الفخار، وصناعات الخشب والنسيج والدباغة.

وعرفت بلاد المغرب الزراعة والغِراسة قبل القرطاجيين. ولكن هذه المهنة ازدهرت في عهد قرطاج فعرفت البلاد أنواعاً من الأشجار: الزيتون والكروم وبعض الفواكه، بالإضافة إلى زراعة الحبوب التي ستعرف ازدهاراً على عهدهم والعهد الروماني، حتى أصبح المغرب مخزن حبوب تعتمد إمبراطورية روما عليه في غذائها، كما ستعتمد عليه الإمبراطورية الفرنسية فيما بعد.

وما من شك في أن قرطاج، التي استطاعت أن تؤسس هذه الإمبراطورية الواسعة، وأن تقوم بهذه التجارة المشرقة كانت تعتمد على نظام للحكم مدني وعسكري: كان لهم إذن نظام شبه ملكي، وتطور إلى جمهوري، ينتخب فيه الرؤساء، ومجلس نيابي يختار فيه مجلس للشيوخ.

وكونت قرطاجة جيشاً قوياً، فرق منه بحرية. كان قوامه المواطنون الأمازيغيون والمرتزقة والعبيد وهو الذي قام بالفتوح الإمبراطورية وبمقاومة خصومها وبالحروب الخطيرة التي خاضتها ـ ومنها الحروب البونيقية الثلاث ـ التي واجهت فيها الإمبراطورية الرومانية. وبرزت في صفوف الجيش القرطاجي أطر عسكرية مهمة يعتبر «حنبعل» أبرز وجه فيها.

ويمكن أن يعتبر الدين أقوى مظاهر الحضارة لأي شعب، وخاصة في العصور القديمة التي كانت العبادة جزء من الحياة، أو عليها تقوم الحياة، مثلما كان الأمر عند قدماء المصريين واليونانيين والصينيين. غير أن الديانة لم تكن ـ فيما يبدو ـ عند القرطاجيين بهذه المثابة. فقد نقلوا ديانة الفينيقيين وآلهتهم. كانوا يعبدون آلهة متعددة. وتتجسد الألوهية في الأوثان التي كانوا يعبدونها، ولو أضفوا عليها الصورة البشرية. وتأثرت الديانة والعبادات القرطاجية باليونانيين تارة، وبالعبادات الأفريقية تارة أخرى.

وتأثرت بعض الأقاليم ـ وخاصة بعض الشرائح الاجتماعية البربرية فيها ـ باستعمال اللغة البونيقية في النقوش الحجرية. وقد نقشت على نقود

بربرية كتابات بونيقية. ولكن اللغة البونيقية لم تبق مستعملة حتى نسختها العربية. وإنما كانت مستعملة استعمالاً محدوداً في العهد القرطاجي.

تأثير الحضارة القرطاجية على المواطنين المغاربة من ليبيا حتى المغرب كان محدوداً.

يعود ذلك أولاً إلى أن قرطاج لم تحتل بلاد المغرب كاملة. فباستثناء تونس، التي كانت مركز الحكم القرطاجي، لم يكن نفوذ قرطاج يتعدى بعض المراكز الساحلية كما قدمنا في الجزائر والمغرب. ولذلك من الصعب أن نبحث عن أثر الحضارة القرطاجية في هذه البلاد جميعها. ومع ذلك فقد تسربت بعض العادات والتقاليد والصناعات والأفكار والمعتقدات إلى السكان. وتأثر بعض حكام الجزائر (نوميديا) بالأخص بهذه الآثار انطلاقاً من إقامتهم في قرطاج وزواجهم من قرطاجيات.

ومع أن تأثير هذه الحضارة لم يكن طويل الأمد، فقد بقيت جذورها عميقة. والمهم من كل ذلك أن عالماً جديداً انفتح أمام المغاربة بفضل الوجود القرطاجي: انفتح نحو الحضارة الشرقية (الفينيقية) أو بقاياها التي استمرت عند القرطاجيين، وانفتح بعد ذلك نحو الشمال على أثر الاحتلال الروماني الذي خلف الوجود القرطاجي.

وهذا الانفتاح نحو الخارج سيظهر أكثر فاعلية وتأثيراً في الفتح الإسلامي الذي أتى من الشرق، ثم في الاتصال العربي الذي أحدثه المغرب عندما أسهم في فتح الأندلس، وفي هجرة الأندلسيين إلى المغرب بعد المد الصليبي في الشمال. ثم يتوقف هذا التأثير بضعة قرون ـ بالنسبة للمغرب الأقصى ـ تميزت بالعزلة عن الشرق والشمال منذ امتداد الإمبراطورية العثمانية حتى «حدوده» مع الجزائر. ومنذ وقوفه ضد المد النصراني الشمالي الذي توقف عند سبتة ومليلية في القرن الخامس عشر، وعند وقوفه ضد الغزو البرتغالي ـ الحليفي في وقعة وادي المخازن سنة 1578.

غزاة أم فاتحون أم مبشرون؟

مرة أخرى تتحكم أيضاً الجغرافية، ويتحكم التاريخ أيضاً.

موقع المغرب كجزيرة، تفصلها الصحراء عن افريقيا، وضعه في ملتقى أنظار العرب. وهو ملتقى يتحكم فيه الحدس والتوقع أكثر مما تتحكم فيه المعرفة. كان العرب قبل الإسلام وأثناء البعثة المحمدية، بل أثناء عهد الخليفتين أبي بكر وعمر، قد تعرفوا على أطراف الجزيرة: بلاد الشام ثم العراق معرفة لقاء. كانت بلاد الشام على الأخص المجال الذي تنفتح عليه الصحراء العربية في الميدان التجاري. وكان الشعراء يزورون الغساسنة العرب الذين استوطنوا حوراء والأردن وفلسطين ولبنان. وكان منهم ملوك حاربوا البيزنطيين يجد شعراء الجزيرة عندهم مكاناً وعطاء. وكانت لهم صلة بالحيرة في العراق، وهي موطن الملوك اللخميين. ثم كانت لهم صلة ببلاد فارس عن طريق العراق والخليج. أما اليمن فهي المنفتح الجنوبي ومنه إلى جزء من افريقيا: الحبشة. وكانت للعرب صلة محدودة بمصر. ولا شك أن تاريخ هذه الصلة يعود إلى الفراعنة وإلى عهد موسى. ومهما تكن محدودية هذه الصلة، فمصر كانت معروفة لدى العرب. وقد ذكرت في القرآن مرتين.

وحينما بدأت البعثات والسرايا والهجمات على عهد النبي ﷺ اتجهت شمالاً: إلى الشام. كانت غزوة «مؤتة» التي بدأت برسالة صلة ودية مع هرقل امبراطور المملكة البيزنطية، وتحولت إلى معركة خاسرة، كان ذلك في السنة الثامنة من الهجرة. وكانت بعد ذلك غزوة «تبوك» في الطريق إلى دمشق

كنتيجة لغزوة مؤتة وانتهت بالصلح. ثم اليرموك. المهم أن معظم الغزوات التي قام بها المسلمون في عهد أبـي بكر وعمر كانت تدور في فلك الجزيرة شمالها وشرقها. وكانت متجهة إلى مقاومة سيطرة الروم البيزنطيين على أطراف المدينة، كما كانت متجهة إلى تحصين الإسلام من شرق الجزيرة (فارس) الذي كانت تقوم فيه ديانة غير سماوية، وامبراطورية كانت تنساح على أطراف الجزيرة، وتحتل العراق بلاد الملوك العرب.

الصراع بين الفرس والروم، التاريخي، كان له أثر على مستقبل الإسلام وأرض الإسلام في الجزيرة وأطرافها. ولذلك كانت دعوة النبـي ﷺ إلى ملوك الفرس وأباطرة الرومان، والمقوقس بطريك الإسكندرية دعوة إسلام وسلام لا حرب. غير أنهم كانوا، وقد اعتادوا على بناء الامبراطورية بالحرب، يتحولون إلى حرب العرب. وكان رد الفعل قوياً لدى العرب الذين كانوا حديثي عهد بالإسلام، وقد منحهم قوة إيمان بها كانوا يحاربون.

المغرب كان بعيداً عن المعرفة العربية:

المغرب إذن كان بعيداً بعد صلة ومعرفة عن العرب. وحتى فتح مصر رأى فيه عمر مجازفة لم يكن راضياً عنها في بداية الأمر، فأراد أن يصد عمرو بن العاص عن ذلك. ويبدو أن البحر كان يخيف العرب لأنهم بريون صحراويون لم يركبوا البحر ـ في مغامرة عسكرية ـ إلا لماماً.

ولكن فتح مصر ونجاح عمرو في السيطرة عليها بسهولة ويسر، بعد الصلة الودية التي عقدها النبـي مع حاكمها بطـرك الإسكندرية، بدأت هذه الصلة بالرسالة التي بعثها إليه. وقدرة العرب على التعامل مع الشعب المصري وعلى استيئلاف الكنيسة والاستيطان بمصر، أعطى لهذه البلاد مركز الثقل، في الفتح العربـي لبلاد المغرب جميعها.

ويمكن أن نقول أن تأثير فتح مصر على فتح المغرب ليس كل شيء، فلو كان شمال افريقيا مفصولاً عن مصر ببحر ما خاضه العرب آنذاك. يعني

هذا أن الصلة البرية ـ وهذا عامل جغرافي أيضاً ـ بين مصر وبقية شمال افريقيا كان مما شجع العرب على تخطي الصحراء الغربية (بين مصر وبرقة) فاحتلها بعد سنتين من احتلال مصر. هذه السرعة أيضاً مدينة للوضع الجغرافي.

المردودية الاقتصادية:

ذلك عن البعد الجغرافي، ولكن عاملاً آخر له صلة بالجغرافية كذلك فتح الانظار على بلاد المغرب. ذلك أن فتح الشام والعراق وبعض بلاد فارس وضع أمام العرب أمثلة من بلاد لها مردودية اقتصادية مهمة. وقد خرج العرب من صحراء قاحلة فوجدوا بعض المردودية الاقتصادية التي تساعدهم على نشر الإسلام في بلاد يمكن أن تعتمد على نفسها، وترد على مركز الخلافة من فضلها ما يساعد على تنظيم الدولة الإسلامية وإقامة هيكلها والدفاع عنها ضد التحديات التي تواجهها بعد أن اتسعت رقعتها وناجزت امبراطوريتين عظيمتين: فارسية وبيزنطية.

وفتح مصر أكد هذه الحقيقة. فمصر آنذاك غنية بمياهها (النيل) وثمارها وعراقة تاريخها. ولذلك فإن ما وراء مصر قد يكون من نفس المستوى الاقتصادي.

العامل الجغرافي والاقتصادي إذن له أثره الكبير في اتجاه الفتح.

الصراع مع الامبراطورية البيزنطية:

أما العامل الثالث فهو الصراع الذي عرفه الفاتحون مع مركز الامبراطورية البيزنطية في المشرق دلهم على أن هذه الإمبراطورية قد اتسعت رقعتها بعد أن استولى البيزنطيون على المغرب وقضوا فيه على النفوذ الوندالي فانتقموا من الوندال لما فعلوه بالحكم الروماني. وكان من الطبيعي أن يتحكم هاجس الوجود البيزنطي أينما كان في الوجود العربي الناشىء الذي يقوم على الدعوة الإسلامية. بينما البيزنطيون يحمون المسيحية،

وينصبون أنفسهم دعاة لها متمردين في ذلك حتى على سلطة روما الدينية.

البيزنطيون في المشرق كما في المغرب لم يكونوا فقط خصوماً سياسيين وعسكريين يخشى على ديار الإسلام منهم، سواء كان نفوذهم في سوريا أو في شمال افريقيا، ولكنهم أيضاً خصوم دينيون ينصبون أنفسهم لتبني السلطة المسيحية والدفاع عنها ضد الإسلام كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً. كما نصبوا أنفسهم لوراثة الإمبراطورية المغربية الرومانية ومستعمراتها، ومن ثمة جاءت حربهم وقضاؤهم على الوندال.

وجود البيزنطيين إذن في المغرب كان مما يدفع بالعرب إلى أن يتحمسوا لفتح هذه البلاد حتى لا تطوقهم هذه السلطة الوارثة للعهد الروماني، وهو عهد كان يسيطر على الدنيا المعروفة آنذاك من بلاد الفرس حتى مضيق جبل طارق.

ومن المؤكد أن العرب كانوا يجهلون كل شيء عن شعوب ما وراء مصر. ولكن الهاجس البيزنطي كان قوياً نتيجة الحروب التي تمت معهم في شمال الجزيرة، فماذا عن السكان الأصليين أصحاب الأرض التي أقدم العرب على فتحها؟ كانوا لا يعرفون شيئاً عما تركه القرطاجيون في هذه البلاد وما تركه الروم، ولكنهم يعرفون قليلاً عن النفوذ البيزنطي، ولكن السكان الأمازيغيين كانوا مجهولين لديهم.

هل هم مشركون وثنيون كما كان العرب الذين عرفتهم الجزيرة قبل الإسلام؟ هل دخلتهم اليهودية كما دخلت بعض سكان يثرب؟ هل دخلتهم النصرانية كما كانت منتشرة في الشام والعراق؟ هل هم مجوس كما كان الفرس الذين رحلوا إليهم فاتحين؟ هذه الأسئلة، وغيرها كثيرة، كان من الضروري أن يلقيها أي فاتح على نفسه وهو يهم بفتح بلاد شاسعة، كما يمكن أن يتصور فاتح عَبَرَ البحر الأحمر، فانفتحت في وجهه بلاد شاسعة كمصر، فلا يمكن أن يكون وراءها إلا أرض أكثر شساعة.

غير أنهم، وقد كانوا يعرفون أن النفوذ البيزنطي انتقل إلى بلاد المغرب، لا شك أنهم كانوا يتصورون أن أهل هذه البلاد، بقطع النظر عن هويتهم، عرفوا النصرانية واعتنقوها من الفاتحين. وما من شك في أن المسيحية التي انتشرت في بعض جهات المغرب، واليهودية التي عرفها بعض المغاربة قبلهم. كانتا مما يطبع استراتيجية الفتح العربي بطابع خاص. فسيواجهون قوماً مؤمنين. وسيكون تعاملهم معهم مختلفاً عن تعاملهم مع مشركين وثنيين. ولكن هذا التصور لم يكن ـ فيما يبدو ـ يطبع الفكر العربي الفاتح. ولذلك لا يظهر في حساب استراتيجية الفتح.

ثم إنهم كانوا يجهلون كل شيء عن تشبثهم ببلادهم وشدة بأسهم في الحرب، وتعاملهم مع الموقع الجغرافي المتنوع: الشواطىء والجبال والسهول الخصبة والصحراء، وهو تنوع استفادوا منه كثيراً في الدفاع عن الوطن، كلما أقدم غاز من هؤلاء الغزاة الذين وفدوا من الشرق أو من الشمال، ومن البحر خاصة، على المغرب. ولم يكونوا يعرفون أن الغزاة من الفينيقيين والرومان والوندال والبيزنطيين لم يتعدوا المناطق الشمالية من بلاد المغرب. ويأتي هذا العامل الجغرافي، الذي كان العرب يجهلونه أيضاً، ليطبع الفتح العربي بالبطء الشديد وبالانتكاسات الكبرى التي لم يعرفها في أية بلاد أخرى.

المشروع الإسلامي الكبير

لماذا إذن غامر العرب بفتح بلاد لا يكادون يعرفون عنها شيئاً؟

الجواب عن هذا السؤال الكبير يدخل في المشروع الإسلامي الكبير. ويمكن إجماله في النقط الآتية.

الـدعـوة:

1 ـ الدعوة إلى الإسلام أخذت وجهتها عن طريق الفتح. ولم تكن

الدعوة لتبلغ أهدافها بغير ذلك. فقد حاول النبـي عن طريق الكتب المرسلة إلى الملوك والرؤساء. ولكنها ـ رغم أهميتها ـ لم تأت بالنتيجة المرجوة العملية، ولو أنها كانت لها نتيجة إيجابية في التعريف بالإسلام، وبأن هناك دعوة جديدة تخرج من قلب الجزيرة العربية يقوم عليها رسـول من الله يدعو إليها ملوك الأرض المعروفة آنذاك، وتحمل بعض هذه الرسائل نوعاً من التهديد «أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن توليت فإن إثـم الأكاريين عليك» (من كتابه إلى ملك الروم الذي حمله دحية بن خليفة الكلبـي) «سلام على من اتبع الهدى وآمن بـي. إني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك» (من كتابه إلى كسـرى ملك الفرس).

الدعوة إلى الإسلام إذن بدأت سلماً عن طريق الرسل والكتب. ولكنها تطورت إلى الفتح. وكان مقدراً للفتح ألا يتم سلماً. ولذلك كان مع الفتح استعدادٌ للحرب وقد وقعت في معظم البلاد التي فتحت.

المواجهة مع القوات الموجودة:

2 ـ المواجهة مع القوات الموجودة والمحيطة بالجزيرة آنذاك. وتلك استراتيجية مهمة جداً تنبه لها العرب. فقد كانت المنطقة التي تحيط بالجزيرة تضم قوات أمبراطورية تصارعت (بعضها على الأقل) وكان ببعضها ملوك كبار، وكانت بها ديانات مختلفة بعضها سماوي: النصرانية واليهودية (ولو أن هذه ديانة غير متحركة دون سلطة دنيوية) والمجوسية التي تسيطر على امبراطورية ضخمة. الإسلام في وسط هذه القوات المتجذرة (البيزنطيون متجذرون في القسطنطينية ومنتشرون في بقاع أخرى من الشام حتى شمال افريقيا. الكسرويون في الشرق (بلاد فارس) ولهم مع الروم ترات ضخمة النجاشي في الحبشة. وزير هرقل في مصر. الغساسنة في الشام ولهم ملوكهم الذين ينافحون للدفاع عنه. اللخميون في العراق. فكيف يمكن أن يبقى الإسلام وهو محاط بهؤلاء الخصوم الذين تقوم سلطتهم على الحرب

ومستعدون للدفاع عن ملكهم ونفوذهم ضد أي كان وضد أية دعوة جديدة، ولو كانت ديناً سماوياً؟

اتبع العرب إذن تكتيكاً مهماً في الدفاع عن الإسلام وهو الهجوم.

3 ـ شمال افريقيا كان مما يدخل في هذه الاستراتيجية، لأن البيزنطيين كانوا موجودين هناك، ولو كان هذا الصُّقع من الأرض مما لا ترقى إليه سلطة منافسة كالعرب والإسلام. فلعل العرب كانوا يترددون طويلاً قبل أن يقدموا على اجتياز حدود مصر إلى بقية شمال أفريقيا. تأثير العامل الجغرافي يظهر مرة أخرى في أن أرض المغرب، ابتداء من برقة، امتداد لمصر، نفس الصحراء ونفس الامتداد الطبيعي الذي لم يكن يختلف في شيء عما وجدوه في مصر.

لا يهمنا أن نتتبع بالتدقيق فترة الفتح كما يتتبعها كتاب اليوميات. فقد كتب عنها كل الذين كتبوا تاريخ المغرب الإسلامي أو تاريخ الفتوح الإسلامية من عرب ومغاربة وأوروبيين ولذلك يمكن أن نجمل هذه الفترة التي استمرت سبعين سنة في نقط محدودة.

الاضطراب السياسي المركزي وأثره في الفتح:

أولها: تجاوز فتح المغرب كل الفترات التي فتح فيها العرب بلاداً أخرى. فقد بدأ على يد عمرو بن العاص بعد أن انتهى من فتح مصر، سنة (21هـ/ 642م)، وانطلق إلى برقة في السنة بعدها. وهذه الحملة تمت بالصلح وأداء الجزية على أن يرحل عنهم. استمرت الفتوح حتى انتهت على يد موسى بن نصير حينما استولى على طنجة وإقليمها سنة (91هـ/ 709م). فهذه فترة طويلة.

ثانيها: المراحل التي مر بها الفتح الإسلامي كانت جد عسيرة، سواء على المستوى المركزي، أو على مستوى الأرض التي فتحوها. فقد بدأت والأمر يومئذ مستقر في المركز، ولكن سرعان ما اضطرب المركز نفسه.

الخصومات على الخلافة والحروب الداخلية، وما سمي يومئذ بالفتنة الكبرى. ثم تحولت الدولة إلى ملك وعصبية. فكان الولاة والقواد يتغيرون، ومنطق الفتح يتغير. إذا كان في البداية قد طبع بطابع نشر الإسلام والقضاء على الامبراطوريات التي كان من شأنها أن تقاوم الإسلام، فقد تحول إلى غزو وأسر وجمع الأموال التي ينقل بعضها لمركز الدولة ويتصرف في الكثير منه الولاة. ثم اتسم هذا العهد بالدسائس السياسية، فما من قائد له مكانة إلا كان يعمل على هدم منافسه، ولو كان في مكان بعيد. والدولة الأموية اعتمدت على الولاء، فكل من ملوكها كان يسعى ليكون له أنصار من القادة والنابهين في الدولة، وكل منهم كان يخشى سطوة قائد كون له مركزاً في إقليم ما. وهذا ما يفسر كثرة الولاة الذين تولوا أمر الفتح في هذه المدة، رغم أنهم جميعهم من الشخصيات الكبرى يبدأون بعمرو بن العاص، ونجد من أشهرهم عبد الله بن سعد بن أبـي سرح وعقبة بن نافع ومعاوية بن حديج وأبو المهاجر دينار وزهير بن قيس البلوي وحسان بن النعمان وموسى بن نصير. بعضهم عمل قائداً ثم والياً، وبعضهم ولي الأمر عدة مرات. وكان مع هؤلاء القواد الكبار محاربون كبار في مقام القيادة. وفي البداية كان في قافلة الفتح صحابة وتابعون.

بلاد شاسعة معقدة جغرافياً وبشرياً:

ثالثها: البلاد شاسعة ومعقدة جغرافياً وبشرياً. تتكون من السواحل وسلسلة جبال الأطلس والسهول الخضراء والسهول الصحراوية. والتوغل في هذه المناطق عسكرياً بجيش غير مدرب على هذا النوع من الاختراق العسكري محفوف بكثير من المخاطر. ثم إن السكان متنوعون: البربر من أهل البلاد الأصليين تمرنوا على الدفاع عن أرضهم وهويتهم. وكان من الصعب اختراقهم عسكرياً، ولو بقوة عديدة هائلة، إذا صدقنا الأرقام التي يذكرها المؤرخون المسلمون، وتتجاوز أحياناً حد المعقول: عشرات الآلاف، وتقاتل

مئات الآلاف (الأرقام لم تكن لها دلالات عند المؤرخين العرب على الأخص). والبربر أنفسهم كانوا مجموعة قبائل، إذا قسمهم النسابون العرب إلى البتر والبرانس فإن في كل قسم منها عشرات الأفخاد والقبائل. وإذا كانت في بلاد المغرب إمارات تجمع بعضهم، فإن الأكثرية الساحقة لم تكن تنتظم في هذه الإمارات. ولذلك كانوا يتعاملون مع الحياة المضطربة التي تخلفها الغزوات المتكررة معاملة تمليها مصلحة الدفاع عن الوطن والقبيلة والنفس. فمن الصعب اقتحام أماكنهم حينما يلجأون إلى الجبال، أو القضاء على مقاومتهم السرية حينما يلجأون إليها، إذا ما شعروا بألا قدرة لهم على المواجهة. وقد اتفق ذلك ولم يختلف حتى في العصر الحديث حينما واجههم الاستعمار فواجهوه سواء في المناطق التي يتحصنون فيها كجبال الأطلس والريف، وحتى في المدن حيثما كانت المقاومة تنتقل إلى المدن في المغرب أو الجزائر أو تونس.

إلى جانب البربر كان هناك سكان من الروم البيزنطيين. وهؤلاء كانوا يتعاملون مع المغاربة كخصوم. ويستولون على المناطق الشمالية والساحلية، بينما المغاربة البربر كانوا يسكنون الجبال والمناطق الوسطى. ثم كان أحدهما يلجأ إلى الآخر فيتحالفون على الغير، كما حدث عدة مرات ضد العرب الفاتحين. ومأساة عقبة بن نافع الفاتح الكبير كانت نتيجة تحالف اتباع كسيلة مع البيزنطيين، فأحاطت جيوشهم المتحالفة بجيش عقبة بعد أن حقق انتصارات كبرى حتى وصل إلى سوس. وفي طريق عودته إلى القيروان أحاط به الحلفاء فقاتل حتى اشتهد سنة 64هـ/ 684م.

فـاتحون متـرددون:

وتوزع السكان بهذا الشكل إلى جانب تنوعهم، وتنوع مراكز التجمع الجغرافي وضع الفتح العربي في ظروف صعبة. لأنه لم يكن يستطيع أن يحقق انتصاراً ساحقاً ينهي به معركة فتح المغرب، إلا وتعرض للهزيمة بسبب انتفاض

البربر أو الروم ويبدو أن العرب أدركوا هذه الصعوبة منذ البداية . فقد كانوا يلجأون أحياناً إلى الاكتفاء بالمصالحة وأخذ الجزية والعودة من حيث أتوا ، فيقضون بذلك على المرحلة التي قطعوها في طريق الفتح . وقد يكون السبب هو نشر الإسلام بين الذين يسلمون ويتركون البلاد لأهلها بصلح وجزية اكتفاء بمن أسلم منهم، حدث هذا في عهد عمرو بن العاص نفسه، الذي قاد أول مرحلة في الفتح إلى برقة ثم صالح أهلها على أن يؤدوا الجزية وعاد إلى مصر وقد يكون هناك سبب آخر وهو خوفه أن يبتعد عن مركز إمارته في مصر فتخلى عن الاستمرار في الفتح ، ولو بجزية ، وصلح . وحدث ذلك أيضاً على عهد عبدالله بن سعد الذي قاد حملة مظفرة على سُبَيطلة بجنوب تونس (سنة 27 هـ/ 648 م) ثم اكتفى بالغنائم الكثيرة ، ولم يكمل عمله بالحرب حتى قرطاجة ، وعاد أيضاً إلى مصر . وحدث ذلك أيضاً على عهد القائد معاوية بن حديج السكوني الذي حارب البيزنطيين في سوسة (تونس) سنة 45 ـ 665 م ورغم أنه انتصر وغنم فقد عاد إلى مصر .

ولم يبدأ الفتح الحقيقي المستمر إلا في عهد عقبة بن نافع بعد أن صرف الفاتحون نحواً من ثلاثين سنة في المحاولات الناجحة التي تفشل أخيراً .

وقد يعود ذلك إلى الصعوبات الجغرافية والبشرية التي أشرنا إليها . كما قد يعود بعضه إلى الاضطراب السياسي في المركز رغم استتباب الأمر أخيراً لمعاوية الذي بنى الدولة الأموية، ثم إلى الخلافات بين القيادات في المراكز المتقدمة للفتح . ومصر كانت هي المركز الأول والمحطة الرئيسية التي يعود إليها القواد الفاتحون بعد أن يقوموا بالمهمات التي كانت محدودة في مسيرة الفتح . ثم يعود إلى عودة النزعة القبلية فالأمويون مقدمون على من عداهم بعد أن أصبح الأمر في يد معاوية، وأصدقاؤه وأنصاره في معركته من أجل الخلافة مقدمون على من عداهم ولو كانوا أمويين . ولذلك كان القواد يعزلون لأن غيرهم يطمح إلى مركز القيادة . حتى عقبة بن نافع القائد الكبير لم يول في مبدأ الأمر أمر افريقية التي كان لهُ فضل فتحها وبناء مراكز الدولة فيها، وذلك لحساب معاوية بن حديج نصير الخليفة معاوية بن أبي سفيان أيام قتاله

لعلي بن أبـي طالب. ثم يعزل عقبة بن نافع بعد أن ولي أمر افريقية، (ولايته الأولى) لصالح مسلمة بن مخلد وهو أموي كبير (المحسوبية والقبلية كانت تفعل فعلها حتى في ظروف صعبة كظروف الحرب).

انعدام مخطط عسكري:

رابعها: انعدام مخطط محكم في التعامل مع المنطقة جغرافياً وبشرياً. فقد كان العرب في بعض الغزوات يهاجمون المغاربة المتجمعين في الوسط ويتركون الشمال الذي كان يحتله البيزنطيون. عمرو بن العاص كانت له رؤية عسكرية نافذة، فقد احتل مصر من شمالها حينما زحف على الإسكندرية مركز البطـرك. رجل الـدين وعامل هرقل. فأنهى بذلك قضية مصر. أما الفاتحون الذين زحفوا على بلاد المغرب فلم تكن عندهم هذه الرؤية. ولو أن الأمر يختلف نظراً لتعقد المنطقة وصعوبتها كما قلنا. ولذلك اتجهوا إلى الوسط، ولن يتجهوا إلى الشمال حيث تجمع البيزنطيين، لم يتجه ـ مثلاً ـ عبد الله بن سعد إلى قرطاجة عاصمة الروم ليقضي على نفوذهم، ويستريح من خصم قوي، وكان يمكن بذلك أن يستريح من إمكانية الحلف بين البيزنطيين والبربر، وهو ما حدث بالفعل، بل كان يمكن أن يستميل البربر إليه بذلك لأنه سيريحهم من عدو خطير. عقبة نفسه اتجه إلى النواحي الصحراوية الداخلية انطلاقاً من ليبيا واستولى على كثير من الواحات ثم وصل إلى تونس فاستولى على قفصة وبلاد الجريد. ثم بنى القيروان، وحينما أوغل عقبة في بلاد المغرب الأقصى اتجه نحو الجنوب إلى بلاد سوس بعد أن احتل طنجة، وأبو المهاجر نزل أيضاً في قرية دكرور.

هذا الاتجاه نحو الوسط يتفق، وقد يختلف، فإننا نجد مثلاً معاوية بن حديج هاجم الروم في الشمال حتى دفعهم للهروب بالأسطول الذي حملهم لحرب المسلمين واستولى على سوسة. وأبو المهاجر توجه أيضاً إلى الشمال لمحاربة البيزنطيين وضـرب معاقلهم البحرية. ونجد عبد الله بن سعد يصطدم

في معركة مع جرجير الذي قتل في معركة خطيرة وغنم فيها المسلمون غنائم ضخمة. قد يكون هذا الاتجاه تخوفاً من البحر، فلم يكونوا يعتمدون على أسطول حربي، ويواجههم محاربون بحريون، ولو أنهم خاضوا معارك بحرية كانتصار عبد الله بن سعد في معركة الصواري البحرية سنة 34. وقد يكون ذلك لأنهم بدو في الأساس، وما تزال البداوة متحكمة في تفكيرهم العسكري، وقد يكون خوفاً من الاصطدام مع الروم في البداية. ولذلك يرغبون في أن يصفوا حسابهم مع أهل البلاد الأصليين ثم يتخلصون إلى الروم. كل الاحتمالات واردة غير أن التاريخ العسكري في هذه المرحلة يسجل أنهم أضاعوا وقتاً أطول مما كان ينتظر، وخضعت المرحلة لتقلبات سياسية نتيجة تعاقب الخلفاء على المركز من عهد عثمان بن عفان (24هـ/ 644م) إلى عهد سليمان بن عبد الملك (96هـ/ 715م) ويسجل التاريخ أنهم خلقوا عدوين في نفس الآن. وكانت إساءة بعضهم للبربر لا تغتفر، ولذلك كانت النكسات كما سنرى.

خامسها: الملاحظة السابقة تسلمنا إلى ملاحظة أخرى، وهي أن العرب استعدوا البربر أكثر مما كان يلزم. وذلك نتيجة لكونهم لم يكونوا يعرفونهم ولم يقدروهم حق قدرهم. كما كانت المعارك ضارية في الصحراء والوسط ضد البربر. حتى عقبة نفسه الذي يعتبر من أكثر الفاتحين تشبثاً بالإسلام اتجه إلى العنف مع البربر. رغم أن البربر اعترفوا بالجميل للعرب في البداية لأنهم جاؤوا ليخلصوهم من الروم. أدركوا ذلك بعد موقعة سبيطلة. ومالوا إلى عقبة وهو يدعو إلى الإسلام وينشىء المساجد والرباطات. ولكن البربر عندما تيقنوا من المعاملات السيئة التي قام بها بعض الولاة قلبوا ظهر المجن، ولم يكن ذلك تراجعاً عن إسلام من أسلم منهم أو ارتداداً كما يزعم بعض المؤرخين، وإنما كان دفاعاً عن الوطن وعن كرامتهم. وهذا ما يسلمنا إلى الملاحظة الآتية:

استعداء «كسيلة» والحروب القاتلة:

سادسها: اشتهرت فترة الفتح العربـي لبلاد المغرب بحادثين خطيرين في مقاومة العرب ـ وربما الإسلام ـ اقترنتا بشخصيتين مغربيتين: زعيم بربري «كسيلة» وزعيمة بربرية «الكاهنة».

أما كسيلة فقد كان زعيماً من زعماء قبيلة أوروبة. وتبدأ قصته مع أبـي المهاجر، خصم عقبة الذي خلفه في ولايته الأولى على أفريقية وأهانه. فلما عاد عقبة والياً على أفريقية للمرة الثانية في عهد يزيد بن معاوية بدأت مغامراته الكبرى لصالح الفتح الإسلامي، ومعها أخطاؤه الكبرى القاتلة، ومنها نبعث قصة كسيلة وحربه للعرب والمسلمين.

وتعود أخطاؤه إلى أنه أصبح يتصرف بعصبية وحدة. ويحارب بغير داع إلى الحرب، وينتقم من خصومه وأعدائه وأحياناً في غير خصومة ولا عداوة، ويغامر دون أن يستمع إلى نصيحة دون استراتيجية عسكرية، وينخدع أحياناً دون أن يدرك خطورة الذي يخدعه. كل ذلك لا يطعن في إخلاصه المتناهي للإسلام وشجاعته وتضحيته وعمله الكبير في إقامة مراكز الإسلام: مدن ومساجد ورباطات.

هذه الصورة، التي نعتقدها أقرب إلى الحقيقة، عن عقبة بن نافع هي مفتاح الفترة الخطيرة التي مر بها الفتح الإسلامي على يد كسيلة الزعيم البربري القبلي، الذي أسلم فيما تؤكد معظم الروايات، ولكنه كان كأي زعيم قبيلة لا يتنازل عن زعامته ولا يقبل الاستهانة بكرامته. كان مستعداً أن يحالف كزعيم، ولكنه غير مستعد أن يهان سياسياً أو شخصياً.

تبدأ قصته مع أبـي المهاجر حينما غزا قبيلة أوروبة وخاض معركة مع زعيمها كسيلة فانتصر عليه ثم صالحه بعد أن أظهر الإسلام. وأبو المهاجر كان قائداً ليناً يصطنع السياسة ويتجنب العنف. ولعل كسيلة كان ذا طبيعة

أصيلة بربرية يرتاح للسياسة، ولا يقاوم الفكرة إذا اقتنع بها. وإذا كان أبو المهاجر قد حافظ له على مكانته وأقنعه بالإسلام فاقتنع وأسلم، وأشركه في القيادة فقد كسب القائد العربـي والإسلامي مكسباً عظيماً.

غير أن الأمور السياسية لم تكن تسير في المغرب سيراً سليماً فالاضطرابات التي حدثت في مركز الدولة، والتي انبعثت من القبلية منذ الخلاف بين الهاشميين والأمويين، انعكست في كل مكان انتقلت إليه السلطة الإسلامية. ذلك أن عقبة بدأ عمله السياسي والعسكري مع عمرو بن العـاص وهو ابن خالته ـ عندما كان والياً على مصر وجربه في فتح برقة فاكتشف فيه رجلاً شجاعاً وقائداً ممتازاً، إلى جانب صفاته كمناضل مسلم يهتم بنشر الإسلام والتمكين له. وظل يتردد بين بلاد المغرب ومصر حتى أقره معاوية بن أبـي سفيان على المنطقة فبنى القيروان وأنشأ المسجد الجامع بعد أن فتح مناطق شاسعة محتذياً الجنوب الصحراوي بين برقة وأفريقية (تونس).

نكبة عقبة وأخطاؤه بعد عودته:

سند عقبة ـ إلى جانب شجاعته وريادته وبنائه القيروان ـ كان هو قرابته من عمرو بن العاص والي مصر. فلما توفي عمرو وولى مصر مسلمة بن مخلد، طمع في ولاية أفريقيا والمغرب، فسعى إلى عزل عقبة، ودفع معاوية بن أبـي سفيان إلى ذلك فعزل عقبة وولى مسلمة. واستعمل هذا على القيادة، التي كان يشغلها عقبة، أبا المهاجر ديناراً وهو مولى له. وكانت الفرصة للرجلين لإهانة عقبة والحط من كرامته.

هذا خلق سياسي كان ـ ولعله ما يزال ـ سائداً فاللاحق يهين السابق وينتقم منه، بل ويحطم عمله. وقد قام مسلمة وأبو المهاجر بكل ذلك، فلم يكتفيا بعزل الرجل وإعادته إلى دمشق في أسوأ حال، ولكنهما استغنيا عن القيروان التي أصبحت مركزاً إسلامياً مهماً، بل دمراها وأحرقاها وبنى أبو المهاجر لنفسه مدينة أخرى قريبة من القيروان.

هذا الحادث الذي كان ـ وما يزال ـ يتكرر كان له أثر خطير في الفتح العربـي للمغرب.

فقد عاد عقبة إلى ولاية المغرب من جديد، في بداية عهد يزيد. وتلك إحدى أخطاء الحكم المركزي، فإن التكفير عن الخطأ لا ينبغي أن يتم بالعودة إلى نفس الصواب. كان يمكن الاستفادة من عقبة في مكان آخر. وإذا اقتضت السياسة عزل مسلمة وأبا المهاجر فكان ينبغي تعويضهما بغير عقبة تجنباً للانتقام، ولا بد أن ينتقم عقبة ـ وهو الرجل الصالح ـ لنفسه ولكرامته. ويقول المؤرخـون إنـه أعـاد القيـروان إلـى سابق عهدهـا، وقضى على مرتبة أبي المهاجر. وهذا شيء طبيعي. ويضيف المؤرخون أنه استمر في طريق الفتح الذي اختطه في ولايته الأولى، فسار من القيروان جنوباً مبتعداً عن الشواطىء التي يتركز فيها البيزنطيون. ومعنى ذلك أنه كان يصطدم في كل خطواته بالبربر ويفتح ديارهم ويستعمل العنف في احتلالها والسيطرة على سكانها، حتى وصل إلى طنجة. ثم ابتعد مرة أخرى عن شواطىء المحيط موغلاً في الجنوب محيطاً بشبه جزيرة المغرب الأقصى حتى سوس وجزولة. وكل هذه المناطق حافلة بالسكان المغاربة.

عمل عظيم وشجاع قام به عقبة. ويمكن للمؤرخ الحديث أن يناقشه في سلامة هذه الاستراتيجية، ولكن النتيجة كانت مهمة، رغم ما قدم من تضحيات بشرية ومتاعب عسكرية واصطدامات بالسكان كان يمكن أن يتجنب الكثير منها.

غير أن الخطأ الأكبر كان في الانتقام من رجلين عظيمين أحدهما عربي (غريمه أبو المهاجر)، والثاني حليف أبـي المهاجر وهو كسيلة. فقد ساقهما معه في رحلته الطويلة مكبلين بالحديد ـ كما تحكي الروايات ـ ويضيف بعض المؤرخين ـ ويجب أن نحذر من حظ الأسطورة القصصية فيما يروون ـ أن أبا المهاجر كان ينبه عقبة إلى قضيتين:

أولاهما: الاصطدام بالبربر. كان يحاول أن يثنيه عن الاصطدام بهم، فقد كان الكثير منهم يسلمون بالدعوة لا بالحرب.

وثانيتهما: الإفراج عن كسيلة واستمالته، فله مكانة عند قومه، ولا ينبغي تكبيله وإهانته في الوقت الذي كان ينبغي الاستعانة به كما فعل أبو المهاجر نفسه.

ولكن عقبة وثق في قوته وفي نجاحه الذي حقق به ما لم يكن يحلم به، حتى وطئت أقدام فرسه شاطىء المحيط بعدما وطئت شاطىء البوغاز. وما من شك في أن الطريق التي سلكها إلى أقصى المغرب كانت محفوفة بالمخاطر، وكانت مما يمكن أن ينبهه إلى مخاطرها غريمه أبو المهاجر.

إذا كانت هذه الأخطاء جميعها قاتلة، فإن خطأ آخر، لم يكن أقل منها خطورة، وهو النصيحة التي قدمها إليه يوليان حاكم منطقة طنجة وسبتة. كان ممثلاً للبيزنطيين بدون شك، ولكنه حينما رأى قوة عقبة التي وصلت من أقصى شرق المغرب إلى أقصى غربه، ووجد فيه استعداداً لنفس المسيرة ولتجنب مناطق الروم البيزنطيين، أسلم يوليان هذا، وجامل القائد العربي وبذل له نصيحة خطيرة هي الاستمرار في فتح جنوب المغرب على الطريق الداخلي. ومعنى ذلك أنه أطال طريقه العسكرية، وهي محفوفة بالصعوبات الجغرافية. فهي طريق جبلية، ومناطق آهلة بالسكان البربر. وبذلك استطاع بهذه النصيحة المدسوسة أن يبعد القائد العربي عن منطقته وإن اعترف بنفوذه على الشمال صورياً، وأن يغرقه في حروب الاستنزاف.

وقد حققت هذه الأخطاء جميعها الغاية منها. فلم يكد يصل عقبة إلى السوس حتى كان جيشه الضخم قد استنزف وقتل منه عدد كبير، وحقق عداوات كثيرة في البلاد التي فتحها، وعاد كثير من أفراد جيشه قافلين إلى القيروان ومصر نظراً لطول مدة القتال.

وكل هذه المقاتل كان ينتظرها خصوم هذا الفتح الكبير الذي لم يكن له

مثيل في طول طريقه وصعوبة أهدافه وكثرة خصومه إلا الفتوح الكبرى في التاريخ، فتوح الرومان والبيزنطيين والمغول.

نهاية كسيلة بعد حروب طاحنة:

وكانت الفرصة سانحة للرجل الذي اتخذه عقبة ـ مجاناً ـ خصماً خطيراً هو كسيلة. فقد استطاع هذا القائد، التي تبالغ الروايات العربية في الإهانات التي ألحقها به عقبة، أن يكون جيشاً من أنصاره في كل منطقة مر منها جيش عقبة متوغلاً في الجنوب المغربي، حتى إذا أنهك الجيش العربي، وأخذ طريقه عائداً إلى الشرق، شن عليه كسيلة حرباً لا هوادة فيها فطوق جيشه جنوب بسكرة وقاتل عقبة ـ وقد تضامن معه أبو المهاجر ـ حتى استشهدا. أما كسيلة فقد شفا غليله من جيش خصمه. وقد استعان في ذلك بالروم الذين ساعدوه عسكرياً و«إعلامياً»، واستولى على القيروان بعد أن انسحب العرب منها (سنة 65هـ ـ 668) وبذلك انتهت معركة خطيرة بسبب الأخطاء السياسية والعسكرية التي أشرنا إليها.

ولم تنته المشكلة بسهولة فقد مر المركز باضطرابات سياسية أخرى أجلت أمر كسيلة سنوات حتى عين على المغرب زهير بن قيس البلوي فخاض معارك خطيرة مع كسيلة (الذي يقال إنه ظل على إسلامه، ولكنه كان يحارب من أجل السلطة) وانتهت هذه المعارك بمقتل كسيلة وكبار رجاله سنة (69هـ ـ 688م).

هذا الحادث الخطير الذي اقترن بكسيلة يطرح عدة ملاحظات:

ضحايا بشرية ووقت ضائع:

1 ـ المسؤولية: وهي قضية قد لا يفصل فيها التاريخ المكتوب، وقد كتب على مبعدة من زمن الأحداث. ولو فصل فيها لما كان للفصل أثر في تقويم مرحلة الفتح العربي للمغرب. ومهما يكن فإن الرأي فيها لدى

المؤرخين العرب الأقدمين ومن نقل عنهم يتسم بالعاطفة أكثر مما يتسم بالتفكير المنطقي. مركز عقبة في الإسلام وجهاده في نشر الإسلام، وشجاعته في القتال وبلوغه إلى شاطىء المحيط واستشهاده وبناؤه للمدن والمساجد والرباطات يضع شخصيته لدى المؤرخين خارج مجال النقد. بعكس ذلك كسيلة الثائر الذي أثار المشاكل القتالية ضد المسلمين وتحالف مع الروم وخاض معارك خطيرة قتل فيها عدد من المسلمين، واحتل القيروان وحكمها، وكان سبباً في انتفاض جموع من القبائل البربرية وهو في طريقه من مقر قبيلته أوروبة حتى سهل القيروان. هذا الرجل طبعاً لا يرحمه التاريخ ليس فقط بتعداد أخطائه السياسية أو العسكرية، ولكن كذلك لأنه ثائر على الدولة ـ ولم تكن هناك بعد دولة ـ ولأنه حارب المسلمين، وكان سبباً في ردة كثير من القبائل.

2 ـ ولكن الأخطر من كل ذلك أن هذا الحادث أخر انتهاء الفتح الإسلامي للمغرب نحواً من 33 سنة. فلم ينته هذا الفتح حتى أواخر القرن، مع نهاية ولاية موسى بن نصير فاتح الأندلس مع طارق بن زياد سنة (96هـ ـ 714م) (استولى على طنجة وإقليمها سنة 91هـ ولكن لا يعتبر عهد الفتح قد انتهى إلا سنة 96هـ) وبذلك ضاع على عملية الفتح ثلث قرن.

لا ردة. ولكن تمرد على السلطة:

3 ـ قد لا يكون مهماً ضياع الوقت فليس كثيراً على بلاد شاسعة وصعبة المراس ومتنوعة المشاكل كالمغرب أن تفتح في نحو 75 سنة حتى الغزو الفرنسي بكل إمكاناته العلمية والتقنية والعسكرية والسياسية لم يستطع أن يخضع الجزائر وتونس والمغرب في فترة أقل، إذا حسبنا سنوات القتال المتقطعة والمقاومة التي لم تكن لتهدأ حتى تنبعث من جديد. أفلا يمكن أن يقول مؤرخ فرنسي إن المغاربة ارتدوا عن الاستعمار الفرنسي عدة مرات؟. في حين أن المغاربة لم يكونوا، فيما يظهر، يرتدون عن دين الإسلام وإنما كانوا يتمردون على السلطة العربية، كلما أمعنت في الانتقام، وفي جمع الأموال

والغنائم. ليس المهم إذن هو الزمن، ولكن المهم هو الضحايا البشرية العديدة التي اقترنت بهذا الفتح. والمهم أيضاً هو ما اقترن بطول المدة من مشاكل عقدية صورها المؤرخون في عدد المرات التي ارتد فيها البربر. ولم تكن ردة وإنما كانت تمرداً، فقد وضعت هذه الأحداث الإسلام في موقع التشكك. قد يكون ذلك ناتجاً عن التناقض الذي وجده البربر بين ما يقوله الإسلام كما أخذوا يتعلمونه من العرب الفاتحين، وما يقوم به هؤلاء الفاتحون من حروب دموية كانوا في غنى عنها. وقد اقترنت هذه الحروب بكبار الفاتحين كعقبة وموسى، ثم ما مارسه بعض هؤلاء الفاتحين من جمع الغنائم الكثيرة كما فعل أولاد عقبة وأولاد موسى بن نصير.

ولذلك فمسألة الردة عن الإسلام مما لا يمكن أن يفصل فيها التاريخ انطلاقاً من الأحداث التي يرويها المؤرخون.

4 ـ من المؤكد أن السنوات التي قضاها العرب في الفتح ـ وهي سنوات عسكرية دامية ـ أخرت التطور الإسلامي لهذه البلاد من حيث التعرف على الإسلام وعلومه وحضارته ولغة قرآنه. ويبدو لي أن لهذه الأحداث آثاراً، استمرت في التاريخ المغربي جميعه، تجلت في استقلاله عن الخلافة مبكراً. فقد نشأت دول مستقلة ومذاهب مستقلة ولما يمر على نهاية الفتح سبعون سنة. فالدولة الرستمية في الجزائر، والدولة الإدريسية في المغرب ودولة الأغالبة في تونس، ثم الدول التي نشأت بعد ذلك في الأندلس والمغرب وقطعت صلاتها بمركز الخلافة في بغداد أولاً ثم في القسطنطينية ثانياً، كل ذلك كان نتيجة حتمية للثقة التي ظلت مفقودة بين بلاد المغرب وبين مركز الخلافة في دمشق ثم حينما انتقلت إلى بغداد.

وللتاريخ مسار لا يختلف أو ينحرف إلا لماماً

الكاهنـة بعد كسيلة:

الحادث الثاني الخطير هو حادث الكاهنة. سيدة من الأوراس من قبيلة

البتر وكسيلة كان من أَوْرَبة (البرانس). وهما القبيلتان البربريتان الكبيرتان في المنطقة المغربية تتقاسمان النفوذ من الشرق إلى الغرب. وكانت الكاهنة زعيمة في الأوراس. لا يفصل بين ثورتها وثورة كسيلة كبير وقت (كسيلة انتهى سنة 69هـ على يد زهير بن قيس البلوي والكاهنة قامت بثورتها على عهد خليفته حسان بن النعمان الذي ولي سنة 74هـ ـ 693م، ودامت ثورتها حوالي ست سنوات وانتهت بمقتلها في معركة ضارية في الأوراس نفسها سنة 80هـ ـ 699هـ).

ست سنوات امتحنت فيها الحملة العربية الإسلامية على بلاد المغرب. فقد استطاعت هذه الزعيمة أن تجمع حولها كثيراً من القبائل البربرية وأسندها البيزنطيون. دارت بين الفريقين حرب طاحنة مكلفة بشرياً واستراتيجياً وانهزم فيها العرب بعد أن تركوا في ميدان المعركة وجوهاً بارزة من المحاربين. وانسحب حسان ببقية جيشه إلى برقة مرة أخرى. لم تتابعه الكاهنة. وإنما استولت على كل تونس والجزائر. ولم يستطع حسان أن يعود محارباً إلى المنطقة إلا بعد خمس سنوات أمده في نهايتها المركز ـ وقد كان مشغولاً عن المغرب بحروب أخرى ـ بمدد مهم من القوات المقاتلة، فاستطاع أن يقتحم المنطقة التي تستولي عليها الكاهنة ويخوض معها معركة بالقرب من صفاقس (تونس) فالتجأت إلى الأوراس. وتتبعها حسان حتى انهزمت وقتلت.

وهذا الحادث الذي لم يكن يقل خطورة عن حادث كسيلة يطرح بدوره عدة ملاحظات:

الكاهنة استغلت ضعف الاستراتيجية العربية:

أولاها: أن ثورة الكاهنة لم تنطلق من فراغ. ولم تأت نتيجة هوس كانت تتمتع به هذه السيدة التي بالغ المؤرخون في وصفها بالسحر والديموغوجية. وإنما هي نتيجة لعدة عوامل:

1 ـ ثورة كسيلة ونهايته. نجاح كسيلة في بداية ثورته وهزيمته للعرب

وتحكمه في المركز الرئيسي للحكم العربي (القيروان) نحو ست سنوات، ثم نهاية ثورته تركت بدون شك آثاراً سياسية ونفسية في القبائل البربرية، ولا شك أن فكرة الثأر كانت متحكمة في هذه القبائل. ولذلك لا يستبعد أن تكون ثورة الكاهنة ثأراً لثورة كسيلة.

2 ـ البيزنطيون ظلوا في الميدان: تحالفوا مع كسيلة، ولم يكد ينهزم حتى بحثوا عن زعامة جديدة يتحالفون معها، وجدوها في الكاهنة. ولا نغفل عن خبرة البيزنطيين المتأصلة من عهد الرومان، فالحرب ليست جميعها سلاحا وجندا ومجابهة، ولكنها كذلك تحالف وخدعة. وقد جرب الرومان قبلهم التحالف مع العناصر المختلفة في بلاد المغرب. صراعهم مع الفينيقيين، وهما معاً قوتان حربيتان بحريتان ربيبتا حضارتين مهمتين، اعتمدا على السلاح كما اعتمدا على تسخير الآخرين في الحرب. وقد خبرا معاً القبائل البربرية عسكرياً وحضارياً ونفسياً. وأدركا أن البربر معتزون بشخصيتهم وقوميتهم وبلادهم، ومحاربون أقوياء صامدون. وهذه الصفات هي التي تعرف عليها البيزنطيون فاستغلوها في حربهم ضد العرب. كانوا يسخرون معرفتهم هذه في الحلف الذي أقاموه مع البربر سواء على عهد كسيلة أو على عهد الكاهنة. وقد ساعدوها استراتيجياً وعسكرياً على الأقل بمحاصرة الشواطىء التي لم يكن العرب يستطيعون اللجوء إليها في تراجعهم في وجه الثورات البربرية. كما لعلهم ساعدوهم بالرجال والسلاح. وأهم مساعدة هي أن البربر أمنوا جانبهم في حربهم مع العرب. فكانوا يحاربون في جبهة واحدة.

3 ـ العرب غفلوا عن هذه الاستراتيجية، فكانوا يواجهون في أغلب المراحل خصومهم جميعهم: البربر والبيزنطيين في نفس الآن. ولذلك كسبوا معارك كلما استطاعوا أن يواجهوا خصماً واحداً. انتصروا على البربر حتى وصلوا إلى سوس الأقصى على عهد عقبة ـ سواء كان قد وصل بنفسه أو لم يصل ـ وانتصروا على البيزنطيين في بداية عهد حسان بن النعمان الذي قاتل

البيزنطيين في قرطاجة وطاردهم حتى فر الناجون منهم بسفنهم إلى صقلية وجزر أخرى في البحر المتوسط، وفر آخرون إلى بنزرت وبونة (عنابة). وواجه عقبة البربر في طريقه الجنوبي من القيروان حتى طنجة مبتعداً عن الشواطىء التي كان يعمرها البيزنطيون مفضلاً الاصطدام مع البربر. ولكن العرب مع ذلك كانوا يرون في البربر خصوماً يجب أن تفتح بلادهم عنوة. ولو اتجهوا إلى الشواطىء حيث القوة البيزنطية وتحالفوا مع البربر بدلاً من قتالهم في مواجهة البيزنطيين لحققوا هدفين.

1 ـ استمالة البربر للإسلام.

2 ـ الاستعانة بهم في القضاء على البيزنطيين.

وكان يمكن أن يحققوا ذلك، لأن البربر كانوا يرغبون في التخلص من البيزنطيين لو وجدوا سبيلاً إلى ذلك في «الضيف الجديد». وقد سبق لهم أن استعانوا بالمهاجم الجديد في مطاردة القديم.

غير أن حسان بن النعمان فضل أن يحارب في بداية عهده البيزنطيين ومن تحالف معهم من البربر. وإذا كان قد انتصر عليهم معاً في معركة قرطاجة فقد جنا ـ نتيجة لذلك ـ حربه مع الكاهنة. وقد استفاد من هذه الغلطة عندما عاد ليقضي على الكاهنة (سنة 76هـ ـ 695م) اتجه إلى قرطاج وقاتل البيزنطيين حتى طردهم. ثم تخلص إلى الكاهنة.

4 ـ الخطة الهجومية التي اتبعها حسان ضد الكاهنة. فقد علم بأن الكاهنة تجمع حشوداً من البربر فانتقل إليها بجيوشه من القيروان إلى قلب الجزائر. جيش حسان كان ما يزال منهكاً من حرب الروم في قرطاجة، ولا يستحمل مطلقاً خوض معركة أخرى يعرف مقدماً أنها ستكون شرسة في ميدان فسيح. ولكنه مع ذلك أقدم على المركب الصعب فذهب إليها بجيوشه ليبدأها بالقتال في غرب الجزائر الحالية.

قد يكون حسان قارن بين الانتظار حتى تأتيه فينهض لمقاتلتها، وبين

الإقدام على مقاتلتها في مكان تجمع جيوشها فاختار الخطة الثانية. ولكنها خطة خاطئة فيما يبدو. فقد حارب بجيش مفلول منهك أولاً. وأطال طريق الحرب بكل ما تتطلبه من تموين ونقل، وانتقل إلى الخصم في مكان تجمعه، ولـم يحسب حساباً للخصم الذي هزمه قبل قليل من الوقت، وهو البيزنطيون الذين كان من الضروري أن يحسب حساب تحالفهم مع الخصم البربري، ولو كانوا منهزمين، بل لأنهم كانوا منهزمين كان يجب أن يقدر أنه ما يزال في إمكانهم التحالف مع الخصم الجديد.

هذا الخطأ الاستراتيجي أيضاً كان مقتلاً من مقاتل الفتح العربي.

ولكن الفتح العربـي سواء في المغرب أو المشرق كان يتسم بالإقدام والشجاعة أكثر مما يتسم بتدبر العواقب ووضع استراتيجية محكمة.

ثانيهـا: أن حسان بن النعمان لم يستفد من أخطاء عقبة بن نافع. فكل أخطاء عقبة ـ التي أتت بعد إصاباته المثالية وعمله في الفتح العظيم ـ كان يجب أن تكون دَرْساً وعبرة للذين أتوا بعده يجب أن يتجنبوها حتى لا تتكرر الهزيمة النكراء التي لقيها سلفه على يد كسيلة.

ثالثها: الموقـع الجغرافي لم يستغله العرب. بيان ذلك أن الفتح العربـي لشمال أفريقيا اعتمد على ثلاثة مراكز أغلبها في شرق هذا الشمال الإفريقي:

ثلاثة مراكز للعرب كلها في الشرق:

الأول: مصر وقد حصنها عمرو بن العاص، وخاصة بعد أن فتح الإسكندرية وتحالف مـع البطريـق وانتقل إليها كثير من العرب. فأصبحت بذلك المركز الأول للوجود العربـي في شمال أفريقيا.

الثاني: برقة. ولقربها من مصر كان من السهل حمايتها. لأن البيزنطيين لم يكونوا متجهين إليها. ولأنها لم تكن مركزاً بربرياً مهماً.

الثالث: القيروان التي بناها عقبة. ثم جددها بعد أن هدمها أبو المهاجر، وبنى فيها مسجداً وانتقل إليها كثير من العرب في مقدمتهم التابعون.

أما بقية مناطق المغرب فلم يستطع العرب أن يركزوا فيها قوة ولا أن يعمروها بحيث تصبح مركزاً لتجميع قواتهم المحاربة وعاصمة للحكم العربي. ولذلك كانت طريقهم في الحرب طويلة. وكانت الحرب مكلفة في الرجال والعتاد. كان الخصم ينطلق من مراكز قريبة من الشواطىء بالنسبة للبيزنطيين ومن الجبال (سلسلة الأطلس) بالنسبة للبربر. من حدود تونس حتى المحيط، ومن السهول الواقعة بينها وجنوبها. الخصم إذن يحارب في مكان تجمعه القبلي ويدافع عن عقر داره. يتجولون فيها ويعرفون سهولها وجبالها وقبائلها. والعرب يأتون من بعيد ويشقون أرضاً كلها مجمع للخصم. لهذا كانت الحرب أشبه ما تكون بحرب رومل ومونتجومري أثناء الحرب العالمية الثانية في الصحراء الليبية المصرية، لا يكاد ينتصر رومل حتى يدفع بمونتجومري إلى حدود الإسكندرية، ولا يكاد ينتصر مونتجومري حتى يدفع برومل إلى طرابلس. مثل ذلك حدث للعرب. لا يكاد ينتصر البربر في معركة ما حتى يدفعون بالعرب إلى القيروان أو برقة، لأنهم لا يجدون مكاناً يلتجئون إليه.

استراتيجية الأرض المحروقة:

وقد عرفت الكاهنة هذا الضعف العربي فكانت تحارب بطريقة الأرض المحروقة حتى لا تترك لهم مجالاً للارتكاز أو للتمويل. وقد تكون تضررت هي الأخرى من ذلك وأضرت بالبلاد، ولكنها كانت تحارب بعقلية «عليّ وعلى أعدائي يا رب».

هل كانت تدرك عسكرياً أهمية هذه الاستراتيجية؟.

طبعاً لم تكن تدرك بالعقل المنظم عسكرياً، ولكنها كانت من الذكاء ـ كما يروي المؤرخون وكما يؤكد ذلك صنيعها ـ بحيث تدرك بالفطرة، وبالعقلية العسكرية التي لا شك أنها مارستها قبل الحرب مع العرب كل

وسائل الحرب التي يمكن أن تفيد في هذه البلاد.

رابعها: أن حسان بن النعمان لم يستطع أن يُخَذِّل عن الكاهنة أنصارها، ولا أن يستميلهم كما كان يفعل البيزنطيون كلما حاربوا البربر، وقد كانوا يستميلون إليهم بعضهم فيحاربون إلى جانبهم. خاصة وقد كان المسلمون من البربر يمكن أن يقوموا بهذه المهمة، لو كانت الثقة تحكم العلاقات بين العرب والبربر. وقد استعمل بالفعل جماعات من البربر المسلمين،بعد أن استأمنوه فلم يقبل أمانهم إلا بعد أن أعطوه آلافاً من رجالهم المحاربين الذين استعملهم في المعركة الأخيرة كما يروي بعض المؤرخين. وقد كانت الكاهنة غير محصنة من هذا الجانب:

أولاً: لأنها امرأة، وما عرفت امرأة تسود على قبائل الرجال من المحاربين الأشداء من قبائل متفرقة.

وثانياً: لأنها كانت شديدة البطش حتى إن بعض مسلمي البربر وصفها لحسان، حين سمع بها، قائلاً (كما يروي بعض المؤرخين): إن جميع من بأفريقيا منها خائفون... وإذا كانت هذه الجملة تضيف: وجميع البربر لها مطيعون، فإن الطاعة الناتجة عن الخوف من السهل اختراقها.

ولكن يبدو أن القادة العرب لم يكونوا يعرفون من فنون الحرب إلا القتال. أو هكذا يمكن أن نفهم من التاريخ المروي.

نهاية المقاومة البربرية وتجدد البيزنطية:

بانتهاء قصة الكاهنة انتهت تقريباً المقاومة البربرية للفتح العربي الإسلامي. وفترة المد والجزر لم تكن تخلو من إيجابيات: في مقدمتها إسلام كثير من البربر الذين حافظوا على إسلامهم، سواء رحلوا مع المنهزمين ثم حاربوا معهم، أو بقوا حيث هم محافظين على إسلامهم أو هاجروا إلى مناطق آمنة.

وقد كان هؤلاء هم عدة المراحل التالية من الفتح الإسلامي الذي ظل يسير على القدمين معا:

1 ـ الحذر من البيزنطيين الذين لم يكونوا ينهزمون إلا ليعودوا إلى الحرب من جديد محصنين بالبحر الذي يمكنهم من فضاء واسع. وقد كانوا يعرفون أن سيادة العرب على شمال افريقيا بعد سيادتهم على مراكزهم الشرقية سيكون القضاء النهائي على دولتهم، وسيكون مصيرها «الامبراطورية» مصير الإمبراطورية الرومانية الغربية التي انهزمت في منطقة البحر الأبيض، أي في شماله وهم معرضون للهزيمة في جنوبه. عادوا إلى افريقية ونزلوا في قرطاجة فاستعادوها وكبدوا المسلمين خسائر مهمة في الأرواح. ولكن حسان بن النعمان عاد ليخوض ضدهم المعركة الحاسمة. وكانت هذه المعركة سنة 82هـ 701م انتصر فيها المسلمون وطردوا الروم.

قرطـاج الضحيـة:

وقرر حسان أن ينهي هذه المعارك المتكررة فخرب قرطاجة وأقفل القناة التي توصل إليها الماء. وإذا كان تخريب المدينة عملاً عسكرياً، فإنه خطأ تاريخي كبير. ارتبط بناء المدينة بالفينيقيين وارتبط تخريبها بالعرب. وحينما يسجل التاريخ هذين الحدثين يسجل معهما مفاهيم كثيرة لا يمكن للمؤرخ أن يتخطاها. فقرطاج التي عرفت أمجاداً حضارية واقتصادية خمسة عشر قرناً لا يمكن أن تخرب في معارك تبادل فيها المتحاربان النصر والهزيمة.

ولكنها الحرب تفرض أنواعاً من التفكير المتراوح بين الصواب المؤدي إلى النصر، والخطأ المؤدي إلى الهزيمة. وتؤكد في الأخير سلبياتها اللامتناهية. كان يمكن لحسان أن ينتصر في النهاية على البيزنطيين ولو أتعبوه دون أن يهدم قرطاجة، لأن دولة الإسلام ناهضة ودولة الروم غاربة. كما كان للكاهنة ـ وقد أدركت أنها منهزمة في النهاية ـ أن تنهزم دون أن تحرق الأرض وتدمر العمران خلفها وهي ذاهبة.

ولكنها الحرب التي دمرت هورشيما وبرلين وعشرات المدن التاريخية

في القرن العشرين هي التي حكمت أن تدمر قرطاجة في بداية القرن الثامن. وأن تحرق الكاهنة الأرض خلفها حتى لا ينتصر عدوها انتصاراً ساحقاً.

2 ـ محاربة بقية البربر والوصول إلى الشاطىء الذي وصله من قبل عقبة وتدعيم الحكم العربي في الأرض التي لا تعرف حدوداً.

نهاية معركة المغرب بداية فتح الأندلس:

موسى بن نصير هو الذي أنهى معركة المغرب بعد أن مهد له عقبة أولاً ثم حسان بن النعمان.

عقبة خطط للوصول إلى البوغاز والمحيط. وزهير البلوي أنهى المعركة مع كسيلة وحسان أنهى المعركة مع عنصرين خطيرين، أو هما ثلاثة: البيزنطيين الذين كانوا أخطر عدو في المنطقة، وكانوا القوة المرجحة للصراع بين العرب والبربر. وجودهم أطال فترة الفتح وسبب كثيراً من الخسائر في صفوف العرب والبربر معاً. والكاهنة التي كانت ثورتها أخطر ما واجهه المسلمون وأكثرها خسائر بشرية. ثم المقاومة العنيفة لعموم البربر.

جاء موسى بن نصير، وقد أصبحت الظروف مواتية لاتمام الفتح والوصول إلى شاطىء المحيط، والبداية في عملية فتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد وكانت عملية مهمة لصالح استقرار الفتح في المغرب. لأنها اعتمدت على عنصري العرب والبربر. وما من شك في أن البربر كانوا أكثر بكثير (10 آلاف إلى 300 من العرب كما يروي المؤرخون والأرقام عندهم غير ذات مصداقية ولكن لها حظ من دلالة).

المهم في عملية الفتح أنها شغلت البربر والعرب معاً بموضوع آخر عما يمكن أن نسميه الآن حروباً داخلية.

رغم أن عقبة وحسان مهدا الطريق لموسى بن نصير، فقد كان عليه أن يسلك الطريق الطويلة نفسها، ابتداء من زغوان قريباً من القيروان، مروراً بجنوب الجزائر على سفوح الأوراس حتى نواحي وهران. ثم انطلقت جيوشه إلى

جنوب المغرب وشماله حتى فتح تافيلالت ودرعة والسوس جنوباً وطنجة شمالاً. وانتهى أمر الفتح سنة 91 هـ.

ينتهي فتح العرب للمغرب الكبير على يد موسى بن نصير بمجموعة من الملاحظات يخص بعضها الفتح وبعضها يخص شخصيات الفاتحين وخاصة موسى بن نصير:

الحرب... المنافسة... الغنائم:

1 ـ ولي موسى قيادة الحملة العربية على المغرب في ظروف سياسية خاصة. في مركز الخلافة كان الفتح في المغرب والمشرق هو الذي يميزها. ولم يكن الفتح فقط عملية سياسية تكرس مركز الدولة في وجه التيارات التي كانت تعارض حكم بني أمية، ولكنه إلى جانب ذلك كان مصدر ثروة للدولة. وكانت بين الولاة منافسة قوية ناتجة عن التطاحن بين المرشحين للفوز برضى الخليفة والولاة الكبار في الأقاليم. ولذلك كان كل منهم يجهد نفسه ويرهق الشعوب التي يفتحها أو يلي عليها، بجمع الأموال والغنائم وسبي الرجال والنساء، للفوز برضى الخليفة وتركيز نفوذه وسلطته في وجه خصومه ومنافسيه.

وموسى بن نصير من هؤلاء الذين وصلوا إلى السلطة في وجه منافسة قوية. ويكفي أن نعرف أن من منافسيه وخصومه الحجاج بن يوسف. وكان قد اتهمه بالعبث في أموال الدولة عندما كان موسى يقوم بمهمة مساعد لوالي البصرة: بشر بن مروان.

وحينما ولي أمر المغرب، بعد الرجل القوي حسان بن النعمان وقبله عقبة، حاول أن يبرهن على كفاءته فأشهر الحرب التي لا هوادة فيها، حتى ولو لم يكن الأمر يدعو إلى الحرب. فقد انكسرت شوكة البربر في التجارب الحربية السابقة. ومع ذلك كانت سبيل موسى إلى إتمام الفتح هي الحرب الطاحنة التي أضرت بالدولة وبمسيرة الفتح. وحاول أن يبرهن ـ إلى جانب

الكفاءة ـ عن قدرته على جمع الغنائم والأموال والسبي. وهذا الحرص الشديد فتح شهية المؤرخين لذكر أرقام خيالية عن عدد سباياه وغنائمه وأمواله، الشيء الذي لا يتفق حتى مع عدد سكان هذه المنطقة، وبالتالي لا يتفق مع الإمكانات العملية لجمع هذه الغنائم والسبايا وإرسالها إلى مركز الولاية (مصر) ثم مركز الخلافة. ومهما يكن الرقم العددي مبالغاً فيه فإن الفتح كان يستهدف السيطرة المطلقة على المنطقة وشراء المنصب من الوالي على مصر والخليفة في دمشق بكثرة السبايا والغنائم والأموال.

المفاهيم الإسلامية في الفتح تغيرت:

2 ـ تلك أخطاء معظم الولاة على افريقيا مهما يكن حظهم من صلاح وتقوى. قد يعود ذلك إلى مفهومهم للدولة وللفتح الإسلامي وللشعوب التي يفتحون بلادها. وهي مفاهيم لم تكن قد تحددت إلا عندما كان النبي يحارب دفاعاً عن الإسلام ضد الذين يحاربونه ويمنعون دعوته، أو في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر، عندما كانت الحرب مشروعة لتخليص بعض أجزاء البلاد العربية الشام والعراق التي كان يحتلها الروم، وبلاد فارس التي كانت الدعوة إلى الإسلام تسبق كل حرب، فإن قبلوا الدعوة يحفظ عليهم دينهم وأموالهم وأرضهم، ويدفعوا الجزية لقاء حماية الدولة الإسلامية لهم. وإن امتنعوا وحاربوا كانت الحرب دفاعاً عن الإسلام لا انتقاماً من المحاربين.

هذه المفاهيم تغيرت بعد ذلك ابتداء من عهد بني أمية التي أصبحت الدولة ملكاً عضودا يقوم على العنف والبطش والغزو قبل أن يكون لمجرد نشر الإسلام، والعدول عن القتال إذا ما تحقق الهدف.

كبار البربر اعتنقوا الإسلام دون عناء:

3 ـ في عهد موسى اعتنق رؤساء القبائل الإسلام وانتشر الإسلام بين البربر في مختلف أنحاء المغرب. وابتداء من عهد عقبة أخذ البربر يسلمون كلما أتيحت لهم الفرصة للإسلام بالدعوة دون حرب. وكان للسياسة

الحكيمة التي بدأها عقبة ببناء القيروان ومسجدها الكبير أثر في ذلك فقد كان داعية للإسلام، وجهاده مرتبط بالإسلام. وحيثما وصل في جهاده كان يؤسس المساجد والرباطات حتى إن المؤرخين يذكرون أنه ترك «شاكراً» أحد رجاله في منطقة على ساحل المحيط. وقد أسس شاكر هذا رباطاً تهافت عليه البربر ليسلموا. ويقولون أنه أسس جامعاً في وادي درعة. وبنى مسجداً في الإيجليز قرب موقع مراكش.

وبعث حسان بن النعمان رجالاً إلى القبائل الكبرى يدعون أهلها إلى الإسلام. واتجه الكثير منهم إلى الإسلام بشكل عادي. وحتى الرؤساء الكبار الذين يذكرهم التاريخ أسلموا دون كبير عناء كما هو الأمر بالنسبة لطارق بن زياد، وكسيلة الذي حارب المسلمين وهزمهم يقول عنه المؤرخون العرب انه أسلم، وإنما حارب دفاعاً عن كرامته.

وقد انتشر الإسلام كذلك على عهد أبي المهاجر. ويذكر المؤرخون أن إسلام البربر ارتبط بقبائل كبرى: جزولة مثلاً التي أسلمت في عهد عقبة وأوروبة التي أسلمت بإسلام كسيلة.

والتحق البربر بالجيش الإسلامي بكثرة منذ عهد عقبة وبالأخص منذ عهد حسان بن النعمان. وحارب بعضهم في الجيش الإسلامي ضد المقاتلين من البربر، وضد البيزنطيين. وذلك لا ينفي القول بأن بعضهم حارب في صفوف البيزنطيين ضد المسلمين. كما أن البيزنطيين حاربوا ـ أو أعانوا على الحرب ـ في صفوف البربر ضد العرب. ثم كان لهم موقف متميز عند فتح الأندلس، فكان مع طارق إثنا عشر ألفاً من البربر. كانوا بطبيعة الحال مسلمين راسخي الإسلام حتى إنهم قبلوا المغامرة في أرض غير أرضهم لنشر الإسلام والدفاع عنه. ولم يكونوا مرتزقة. إذ لم يكن من الطبيعي أن يأتمن طارق هذا العدد الضخم من المرتزقة في فتح إسلامي يعتبر مغامرة كبيرة في ما وراء البحر، ولم يكن موسى ليقره على ذلك حتى لو عزم.

هنا نجد مقولتين ينبغي مناقشتهما:

أولاهما: ما يقوله بعض المؤرخين الأجانب من أن الذين أسلموا في أول الأمر كانوا من البتر وليسوا من البرانس. وأظن أنهم مدفوعون إلى هذه المقولة بعقلية قبلية أكثر منها علمية. فمن المعروف أن قبائل البتر كانوا أقلية (أربع قبائل صغيرة نسبياً) بينما القبائل الكبرى السبع من البرانس. وإذا كان كسيلة الأوروبـي من إحدى قبائلها. فذلك مما قد يسوغ القول بأن الذين أسلموا في البداية كانوا من البتر، رغم أن الكاهنة كانت زناتية من إحدى قبائل البتر. ولكن الواقع أن الإسلام كان يجد مكانة عند هؤلاء وأولئك كلما كانت الظروف السياسية والعسكرية مواتية.

إسلام البربر فطري:

ثاني المقولتين أن الإسلام كان سطحياً. لا أحد يستطيع أن يجزم بذلك. فالثقافة الإسلامية (بالإسلام) لم تكن عميقة إلا في عهد النبـي والخلفاء، وعند العرب القريبين من مركز النبوة ومن الذين قرأوا القرآن وفهموا مبادئه. وكلما ابتعدنا عن العصر وعن المكان ظهرت السطحية في المفاهيم. يتفق ذلك ولا يختلف بالنسبة للأديان والمذاهب والإيديولوجيات. وخاصة في عصور الأمية والاعتماد على «الثقافة» الشفوية.

ولهذا فقد كان إسلام البربر كإسلام العرب والفرس وغيرهما من الشعوب التي أسلمت، كل بحسب قدرته على الفهم والإدراك للفكر الديني. وإذا كان البربر فطريين، أي إن الأديان السماوية (النصرانية واليهودية) لم تتعمق في الشعب، ولم يكونوا على صلة حميمة مع الغزاة البيزنطيين حماة النصرانية فقد كان إسلامهم فطرياً، أي مثل إسلام القبائل العربية نفسها التي لم تكن لها صلة مباشرة مع النبـي أو مع الخلفاء الراشدين.

هل ارتد البربر 12 مرة؟

ونأتي إلى مقولة ثالثة تشكك في تعامل البربر مع الإسلام وهي أن البربر ارتدوا اثنتي عشرة مرة. مقولة قديمة قالها ابن أبـي زيد القيرواني ونقلها عنه ابن خلدون فأصبحت «حقيقة» تاريخية. وهنا يأتي «العدد» ليؤصل المقولات التاريخية. ويبدو أنه كلما كانت هناك حرب بين العرب والبربر اعتبرها المؤرخ ردة.

ومن المؤكد أن الفتح العربـي وجد صعوبة في بلاد المغرب لم يجد مثيلا لها في مصر، وقد يكون وجدها في بلاد فارس. والمثالان الواضحان هما انتفاض كسيلة وحرب الكاهنة. وبقية الحروب كانت مسيرات حربية تنتهي بإسلام البلاد التي تفتح، إن عنوة أو صلحاً. وبعض القبائل كانت تسلم عن طواعية وبعضها كانت تسلم عن خوف. وذلك ليس خاصاً بالبربر، ولكننا نجده في جميع البلاد التي فتحت فتح دين ـ البلاد التي فتحها النصرانيون على عهد الرومان مثلاً ـ أو فتحت فتح سياسة كجميع الفتوح الإستعمارية.

ولكن الصعوبة جاءت من الأخطاء في استراتيجية الحرب (مثلا: السرعة والرغبة في إنهاء الفتح حتى يصل القائد إلى تخليد عمله لدى الوالي والخليفة مع أن البلاد واسعة ومتشعبة، وكانت الجغرافية تتحكم مثل ما لم تتحكم في مصر مثلاً) ثم جاءت الصعوبة من الأخطاء التي ارتكبها الفاتحون ابتداء من عقبة حتى موسى بن نصير كما أشرنا إلى ذلك من قبل. فقد كان الفتح عندهم مقترناً بالعنف والشدة والإبادة. وقليلة هي اللمحات التي يذكر المؤرخون أن الفاتحين قاموا بها إزاء البربر بتعليمهم الإسلام والدعوة إليه، إلا اللمحات القليلة المحدودة التي أشرنا إليها ممثلة في إنشاء المساجد والرباطات. وهي قليلة بالنسبة لبلاد واسعة الأرجاء يعمرها شعب كبير يتكون من مجموعات هائلة من القبائل.

يبدو من كل ذلك أن البربر لم يرتدوا اثنتي عشرة مرة. وأغلب الذين

حاربوا ضد المسلمين لم يكونوا قد أسلموا من قبل، ولم تتح لهم الفرصة ليسلموا، حتى إذا خفت حدة الحرب ضدهم بعد أن اشتغل موسى بفتح الأندلس، واتجه بتفكيره العسكري القوي نحو بلاد أخرى عمهم الإسلام. وأصبح الإسلام هو الدين الوحيد ـ باستثناء أقلية يهودية حافظت على اليهودية ـ ولم يبق للنصرانية التي كان البيزنطيون يعملون على نشرها ظل في ديار المغرب جميعها.

الحذر الذي وجد بحدة عند البربر كان ضد العنف الذي اصطنعه العرب. وليس ضد الدين الذي أتوا به. وإذا كانت هذه النتيجة قد ترضي بعض الأجانب الذين كتبوا عن تاريخ الفتح العربي للمغرب، فإنها لن ترضي إلا جانباً من مقولاتهم التي تؤكد أن إسلام البربر كان سطحياً. وبقي سطحياً حتى العصر الحاضر، الذي اكتشف فيه الأوروبيون الاستعماريون، ومعرفتهم بالإسلام محدودة أو منعدمة، هذه السطحية. . . . !؟

مركزية الحكم أسقطت أوراق الإمبراطورية العربية

في التاريخ المعروف تجتاز الفتوحات مرحلة الحرب ثم مرحلة الإخفاق ـ النهاية ـ أو مرحلة الاستقرار. وقد عرفت بلاد المغرب فتوحات متعددة ومختلفة التوجهات كما قدمنا. وتاريخ الفتح فيها لم يكن بدعاً بين التواريخ المعروفة في العالم، بل ان بلاد المغرب في تعاملها مع الفاتحين تتميز بخصوصيات لم تحدث في كثير من الفتوحات المماثلة:

في مقدمة هذه الخصوصيات خصوصية الجغرافية. الموقع الجغرافي ـ الاستراتيجي ـ الذي تحكم في صياغة التاريخ تحكم، وبشكل فعال، في ظاهرة الفتح (بالمفهوم العام للكلمة الذي يشمل الاستعمار).

خصوصيات المغرب في الفتح والحكم العربي:

الموقع الجغرافي جعل المغرب ممتنعاً عن كل فتح بري أو انسياح كما عرفنا في الهجرات الزاحفة لشعوب غرب أوروبا الكلتيين، والزحف التتري المغولي. إذن لم تكن هناك هجرات زاحفة من الجنوب، وقد لا تكون الصحراء وحدها السبب الوحيد في ذلك. والفتوح أو الهجرات الكبرى: الفينيقيون والرومان والوندال والبيزنطيون ثم البرتغاليون والإسبان والفرنسيون في العصور «المتوسطة» أو العصر الحديث جاءت عن طريق البحر. وركوب البحر مغامرة لا تتقنها إلا الشعوب البحرية. أما العرب فلم يكونوا شعباً بحرياً. وبعد فتح العرب لمصر ـ ولم يكن البحر الذي يفصلها عن شبه

الجزيرة العربية مغامرة كبرى ـ بدأت ظاهرة الانسياح أو الهجرة. وبذلك تحطم الحاجز الجغرافي الطبيعي.

وتظهر بعد ذلك خصوصية جغرافية أخرى هي البعد عن مركز الفتح (مقر الخلافة) كلما أمعن الفاتحون في المسيرة التي كانت ستصل بهم إلى المجهول: البحر المحيط. ورغم أن برقة تبعت ولاية مصر في البداية، ورغم أن قواد الفتح (عبد الله بن سعد مثلاً) كانوا يستمدون سلطتهم من والي مصر، باعتبار مصر الولاية الكبرى في اتجاه بلاد المغرب، التي فتحها العرب خارج نطاق شبه الجزيرة، رغم ذلك فإن قواد الفتح وولاة الحكم أثناء الفتح وبعده كانوا يستمدون السلطة من مركز الولاء: دمشق ثم بغداد. وبذلك كانت الأرض التي يفتحونها ـ بكل صعوبات الفتح التي تحدثنا عنها ـ تبتعد شيئاً فشيئاً. ويصعب الفتح فيها ويتعثر كما ابتعدت الجيوش العربية، وكلما أوغلت في المغرب الأوسط ثم المغرب الأقصى لتتحكم الخصوصية الجغرافية الأولى: الجبال والسهول، ولتتحكم الخصوصية الثالثة التي سنتحدث عنها: الإنسان، في الوقوف في وجه الفتح.

الخصوصية الثالثة: الإنسان المغربي. ولا نحتاج أن نعيد ما يتحدث عنه المؤرخون والاجتماعيون من أن الأمازيغيين يعتزون بحريتهم وكرامتهم ويأبون الخضوع للأجنبي ويحاربون بشراسة دون ذلك. فإذا فاقت القوة الغازية قوتهم التجأوا إلى الجبال، تاركين السهول تارة للأجنبي. ومنقضين عليه كلما شعروا بقوتهم أو استهانوا بقوة خصومهم. وتجربتهم في الفتوح المختلفة منحتهم خبرة في التعاون مع العرب. ولذلك كان الصراع المستمر الذي سماه بعض المؤرخين ارتداداً لمدة اثنتي عشرة مرة.

هذه الخصوصيات جعلت الفتح العربي الإسلامي للمغرب يجتاز مراحل تعثر، كان من الصعب الانتصار فيها، حتى إن الفتح تطلب أكثر من سبعين عاماً. وهو ما لم يتطلبه الفتح العربي في بلاد أخرى شرقية: بلاد

الفرس وخراسان، وغربية: الأندلس مثلاً. ولذلك يمكن القول إن الفتح نجح نجاحاً باهراً في شقه الإسلامي، وفشل في شقه العربـي، أي تَمَكُّن العرب من الحكم المباشر بولاة من مركز الخلافة وعلى شكل تبعية وولاء لهذا المركز.

تجلى هذا في المرحلة التي تفصل انتهاء الفتح بولاية موسى بن نصير، عن قيام الدولة المغربية منذ سنة 164هـ وهي المرحلة التي تعرف عند المؤرخين بعصر الولاة[1].

الظاهرات السلبية في حكم ولاة الخلافة:

تمتاز هذه الفترة بعدة ظواهر سلبية لم تكن في صالح الحكم العربـي، ولا في صالح الخلافة، ولا في صالح الاستقرار:

1 ـ ظاهرة عدم الاستقرار. الولاة لم يكونوا يستقرون غير بضع سنوات أو بضعة أشهر، نظراً للمطامع التي تثير كثيراً من الدسائس في البلاط الخليفي. فقد كانت الغنائم، من أموال وسبايا التي كان يرسلها الفاتحون إلى الخليفة، تسيل لعاب الطامعين في الحكم ليتولوا السلطة علهم يحصلون على مثل ما حصل عليه سابقوهم. ولذلك كانوا يدسون للولاة عسى الخليفة يغيرهم، وكثيراً ما يفعل. وقد بدأ هذا النوع من الدس في عهد الفتوح نفسها، فكان الخليفة يغير أحياناً القائد وهو في أوج المعركة كما حدث في نكبة موسى بن نصير نفسه.

(1) يشمل عصر الولاة نحو 32 سنة على عهد الأمويين تبدأ بعبد الله بن موسى بن نصير سنة 95هـ/ 714 م وتنتهي بحنظلة بن صفوان الكلبـي 124 ـ 127هـ/ 742 ـ 745م ثم تمر المرحلة بحوادث تسلط على السلطة بداية بعبد الرحمن بن حبيب 127هـ وأخيه وابنه، وتمر بفترة المهلبيين في شبه استقلال ابتداء من عمر بن حفص (151 ـ 154هـ) على عهد العباسيين وتنتهي بنشأة الدول المغربية: الرستمية في الجزائر 164 هـ/ 781 م والأدريسية في المغرب 172 هـ/ 728 م والأغلبية في تونس 184 هـ/ 800م.

ومن مظاهر عدم الاستقرار: انتقاض بعض المتزعمين على الولاة، والسيطرة على المناطق المغربية، في محاولة لبناء دولة مستقلة أو شبه مستقلة. كما فعل آل حبيب، وكبيرهم عبد الرحمن بن حبيب حفيد عقبة بن نافع الذي ثار على الوالي حنظلة بن صفوان الكلبي، ودخل حبيب وابنه وأخوه في مغامرة انتهت بمقتله بسيف أخيه وقتل أخيه بسيف ابنه. ثم مقتل الابن في معركة أخرى لينهي مقتله قصة بني حبيب الثائرين على الولاة.

2 ـ الولاة لم يكونوا يدعون إلى احترام الشعب، سواء العرب المستوطنين أو الوافدين أو الأمازيغيين، رغم أن الوافدين كانوا يكونون الجيش الحامي والمحارب. فقد كانت عقد خطيرة تتحكم في الولاة:

عقدة حكم شعوب مفتوحة وعليها أن تؤدي الخراج. في حين يتمتع العرب بالاعفاء ويستفيدون من خيرات البلاد أرضاً ومحصولاً وأموالاً. من هنا كان البربر يطمحون إلى المساواة مع العرب ما دام الإسلام يسوي بينهم. والولاة والوافدون العرب كانوا يستأثرون ويرفضون المساواة بسكان البلاد الأصليين. ورغم أن عمر بن عبد العزيز أقر المساواة، فإن عهده كان قصيراً ولم يستطع الخلفاء الذين أتوا بعده أن يرثوا أخلاقه وأسلوبه في الحكم.

من مظاهر اللامساواة أن الولاة كانوا يحتفظون بالعرب كلما كانت هناك حرب ويقدمون إلى الصفوف الأولى البربر. وقد فطن إلى ذلك الأمازيغيون فزادوا حقداً على الولاة.

الأمازيغيون كانت لهم تجربة مع القرطاجيين والرومان والوندال والبيزنطيين الذين كانوا يستبدون بخيرات البلاد ويطاردون السكان الأصليين الذين يعتصمون بالجبال. ومهما تكن الحماية التي توفرها الجبال لهم فلن تعوضهم عن خيرات السهول. ولذلك لم يكرروا التجربة فينتقلون إلى الجبال تاركين السهول والوديان للعرب الوافدين، وإنما طالبوا بحقهم في الحكم وعدم الاستئثار بخيرات البلاد. وحاربوا دون ذلك، وتطور الأمر إلى

عداوتهم للحكومة المركزية انطلاقاً من عداوتهم للولاة.

وهذا ما سيفسر لنا سهولة قيام الدولة المستقلة التي وجد زعماؤها قابلية واستعداداً انفصالياً عند الأمازيغيين.

3 ـ الصراع القبلي بين العرب في المشرق انتقل إلى المغرب. فقد كان الجيش الوافد من الشاميين أو المحسوبين على الشام باعتبار الخلافة كانت في دمشق. فلما تحولت الخلافة من بني أمية إلى بني العباس وفد جيش آخر يدين بالولاء للخلافة الجديدة، وبذلك بدأ صراع بين الجيشين انعكس على الطاعة للولاة.

ومبدئياً كان هناك خلاف بين العرب المقيمين والعرب الوافدين تحول إلى صراع، لأن المقيمين أصبحوا يعتبرون المغرب بلدهم ـ وقد تأقلموا فيه ـ فهم أجدر بالسلطة والاستئثار بالخيرات، والوافدون يشعرون بأنهم وفدوا لحماية البلاد، ومن أجل السلطة. كان هناك صراع بين فريقين من العرب، وكانت تغذيه القبلية والولاء للحكم المركزي أو عدم الولاء. وكان هناك خلاف بينهم جميعاً وبين الأمازيغيين.

زاد في تأريث الغضب ضد العرب الخوارج الذين كانوا يعادون السلطة مبدئياً. ويميلون عقدياً إلى المساواة بين المسلمين. ومن هذين المنطلقين وجد فيهم البربر ضالتهم فتمذهب بعضهم بمذهب هذا الفريق أو ذاك من الخوارج، وحاربوا معهم ضد السلطة الرسمية. وبذلك زاد الاضطراب واللااستقرار حدة في المغرب.

4 ـ السلطة المركزية (الخلافة) لم تقدر شساعة المنطقة وعدم تمكن الولاة من الحكم وتحقيق الاستقرار. كان فهم الخلفاء للحكم والسلطة محدوداً. فتكفي البيعة وعدم الثورة وعدم قيام سلطة جديدة تدعو لنفسها بالخلافة، يكفي ذلك ليعتبروا المنطقة تحت حكمهم ما دامت تؤدي الضرائب (الخراج). ثم كانوا قصيري النظر ليقدروا مدى ما يتطلبه حكم منطقة تصل

إلى المحيط الأطلسي (وهل كانوا يعرفون أين يقع هذا المحيط؟) ولذلك يكفي أن يولوا والياً ثم يعزلونه بعد بضعة أشهر أو بضع سنوات، إذا ما أخل بإرسال الإتاوات إلى مركز الدولة، أو إذا ما سعى أحد المقربين إليهم بالوشاية به. ولذلك كان الوالي يتخبط في مشاكله حتى إذا غلب على أمره قتل، أو تخلى في هدوء كما فعل حنظلة بن صفوان الكلبي بعد أن لم ينفعه الوعظ في صد عبد الرحمن بن حبيب عن اغتصاب السلطة.

التجاء الخوارج للمغرب وأثره في تدمير الحكم المركزي:

5 ـ ثورة الخوارج وجدت في المغرب مرتعها. زاد هذا المرتع خصوبة التناقضات العربية والعربية الأمازيغية، والظلم الذي كان يحيق بالمغاربة من الولاة، وضعف الولاة أنفسهم، وعدم اطمئنانهم على مركزهم، ثم بعد الشقة بين مركز الدولة والأقطار المغربية. ولعل الخوارج لم يجدوا نجاحاً في المذهب والأتباع مثل ما وجدوه في بلاد المغرب، حتى إنهم كادوا يقيمون دولة رسمية تنفصل عن مركز الخلافة لولا أنهم لم يكونوا يتحلون بالليونة. وكان أفقهم السياسي محكوماً بالبعد الديني المذهبي. ثم توزعهم بين الصفرية والإباضية على الأخص. وذلك ما أوقع بينهم خلافاً حاداً انتهى إلى الحرب الداخلية.

وقد استطاع الخوارج أن يسيطروا على القيروان، وهي حاضرة العرب والإسلام في تونس والمغرب عموماً في نهاية سيطرة بني حبيب. فقد عرف الصفريون من الخوارج ضعف آخر هذه العائلة، التي ظل أحدهم يقتل الآخر، فاندفعوا إلى القيروان، وقضوا على سلطة آل حبيب، واستولوا على المدينة، وعاثوا فيها فساداً. وليست هذه هي المرة الأولى التي تخضع هذه المدينة الإسلامية (شبه المقدسة) إلى التدمير والإهانة، لترمم وتبني من جديد، استعداداً ليدمرها آخرون. (على غرار ما كانت عليه قرطاجة. المدينتان معاً تعاقبهما البناء والهدم نظراً لمركزهما الاستراتيجي. مركزهما في الحكم والتفاف القوة

البشرية والعسكرية حولهما، واعتصام الدولة بهما). ولم يستقم الأمر للخوارج الصفرية في القيروان. فقد هاجمهم الأباضيون فانتصروا عليهم وأخرجوهم من المدينة، ليهاجمهم بعد ذلك والي أبي جعفر المنصور ويهزمهم. واستطاع هذا القائد «ابن الأشعث» أن يحرر المنطقة من طرابلس حتى إقليم الزاب من الخوارج الذين لجأوا إلى تاهرت بقيادة عبد الرحمن بن رستم. وهناك نشأت الدولة الرستمية.

وجود الخوارج شمل منطقة شاسعة من طرابلس حتى الجزائر، ولم يتجاوزوا الجزائر إلى المغرب الأقصى إلا بشكل فردي ومحدود في الجنوب، حيث أسسوا دويلة في سجلماسة: دولة بني مدرار، التي لم يكن لها دور يذكر. ورغم أن كثيراً من القبائل الأمازيغية انضمت إليهم مذهبياً وسياسياً وعسكرياً، فقد كان خطهم السياسي أن يبسطوا نفوذهم في الأقاليم الأقرب إلى مركز الخلافة: طرابلس أولاً ثم تونس، ثم الجزائر، التي لجأوا فيها إلى قرية تاهرت لمناعتها بعد هزيمتهم في تونس.

ولهذه الظاهرة سبب هو الاستيلاء على المركز الأساسي للعرب طرابلس والقيروان، ليحاصروا المغرب من بوابتيه.

ولهذه الظاهرة نتيجة هي أن تأثيرهم في التعريب ـ سنتحدث عنه في فصل آخر ـ كان في المناطق التي نشروا فيها نفوذهم أكثر من المناطق التي كان نفوذهم فيها أقل.

والنتيجة الثانية هي أن الخوارج انهزموا في المشرق، فلم يبق لهم وجود رغم قوتهم المذهبية والسياسية وشدتهم في الحرب وثوراتهم في مختلف المناطق: البحرين وعمان والعراق وخراسان. انهزموا ولكنهم استطاعوا أن يقلصوا نشاطهم في «تاهرت» وأن يكونوا دولة أباضية صغيرة. والدولة هي ما كانوا يحلمون به منذ نشأتهم ومحاربتهم للأمويين والعباسيين في كل مكان. ورغم أن المدينة كانت صغيرة فقد وفدت عليها جموع من المشرق (فارس

والعراق) ومن المغرب (الأندلس) لأنها الملجأ الوحيد الذي بقي للخوارج. وقد استطاعوا أن يبنوا هذا الملجأ المدينة والدولة في قرية جبلية صغيرة، ولم يكونوا يستطيعون ذلك لو حاولـوا في تونس أو طرابلس.

الجغرافية تحكمت في التاريخ هذه المرة أيضاً.

التناقضات عمقت اضطراب الحكم:

6 ـ انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين وضع المغرب العربي ـ كمنطقة بعيدة عن مركز الحكم ـ في قمة الاضطراب الناتج عن التناقضات القبلية ثم التناقضات بين العرب والفرس الذين كانوا سند العباسيين واستولوا شيئاً فشيئاً على السلطة. الولاة تغيرت طبيعتهم واهتز ولاؤهم للدولة التي اهتزت لأول مرة في التاريخ الدولي للعرب ـ بعد الفتنة الكبرى ـ والجيش اهتز ولاؤه، وتغيرت ملامحه من العربية إلى الفارسية، ومن شعار الجهاد عند العرب الفاتحين ـ ولو أنه مجرد شعار ـ إلى الارتزاق. والمرتزق لا يؤمن بالدولة. وإذا كان خراسانياً غير عربي آنذاك ـ لا يدين بولاء لخليفة أموي.. ولا لعباسي.

ولذلك فتغير طبيعة الدولة ورجالها وانعكاس ذلك على الولاة، زاد في عمق الاضطرابات التي عرفتها فترة ما بين الفتح وتأسيس الدولة المستقلة.

كانت لهذه الظاهرة نتائج حتمية هي:

ـ الفوضى واستمرار الحروب غير المنتجة. الحروب التي عرفتها بلاد المغرب في عهد الفتح أنتجت ترسيخ قدم الإسلام. والحروب التي استمرت على عهد الولاة بثت الفوضى السياسة والتدمير العمراني والتمزق المذهبي.

ـ لم تحقق بلاد المغرب أي انجاز سياسي أو علمي أو حضاري في هذه الفترة المظلمة من تاريخها التي دامت نحو ثلاثة أرباع القرن.

ـ النتيجة الإيجابية أنها مهدت الطريق لنشأة دول منفصلة بنت المغرب

إسلامياً وسياسياً وعمرانياً وثقافياً، ووحدت سكانه عرباً وبربراً هي: الرستمية في تاهرت، والإدريسية في المغرب، والأغلبية في تونس.

نعتبر هذه النتيجة إيجابية لأن إمكانيات الدولة العربية المركزية آنذاك لم تكن تسمح لها بإدارة دولة واسعة الأرجاء تجمع ما بين خراسان والمغرب والأندلس. ثم إن نظم الحكم لم تكن قد تطورت لتجعل من حكومة تستقر في دمشق أو بغداد تحكم حكماً مباشراً وبواسطة الولاة المنتفعين والجيوش (المرتزقين) التي تقطع المسافات البعيدة دون إيمان بالشعار الإسلامي ولا ولاء لرأس الدولة، ثم تحارب حتى الموت دون أمل في الحياة أو العودة إلى الوطن أو الاستفادة من الغنائم.

المركزية تدمر دولة الامبراطورية:

خلاصة يمكن أن نخرج بها من تاريخ المغرب في هذه الفترة هي أن «دولة الامبراطورية» محكوم عليها بالفشل والانهيار، ما لم تصطنع لها نظاماً لا مركزياً. الامبراطورية العربية لم تفطن لهذه الظاهرة إلا بعد أن كانت المركزية أحد الأسباب الرئيسية في انهيارها، بعد أن نشأت ـ بالرغم عن المركز دول مستقلة تدين شكلياً بالولاء للخليفة. دولة الخلافة في دمشق أو بغداد أو اسطنبول لم يكن تستطيع أن تحكم من المركز امبراطورية تجمع بين حدود الهند وشواطىء المحيط الأطلسي.

ولذلك تخبطت الامبراطورية المركزية، وكان ذلك من أسباب تدهور الوضع في عهد بني أمية الذي لم يدم أكثر من 89 سنة. وتدهور الوضع في عهد بني العباس الذي انتهى قبل أن ينتهي رسمياً.

المركزية دفعت الفاتحين إلى أن يستبدوا بالرأي والحكم والمال في المغرب، أبعد نقطة عن مركز الخلافة. ودفعت بحكم الولاة أن يكون أكثر فوضى وعدم انتظام. ودفعت أكثر من ذلك بالبلاد إلى مزيد من الفوضى حتى انتهت هذه الفوضى بتكوين دولة إسلامية، لم تنتم للخلافة إلا بولاء شكلي.

فسقطت بذلك أوراق الامبراطورية العربية الإسلامية، ولم يعد لها وجود حتى اليوم.

الأمر ليس أمر العرب أو المسلمين، ولكنــه أمر المركزية في إدارة الامبراطوريات الواسعة. وقد اتفق ذلك في الامبراطوريات الغربية، الامبراطورية البريطانية، التي لم تكن تغرب عنها الشمس، انهارت لأنها كانت تدار من لندن، رغم حرية المبادرة التي كان يتمتع بها حكام المقاطعات الموزعة في العالم. الامبراطورية الفرنسية التي عجزت عن حكم الجزائر في بداية الاحتلال، حتى كان المستوطنون الأروبيون في الجزائر يتحكمون في سلطة المركز (باريس)، ثم كادت تمزق الدولة في بدايةالستينات من القرن العشرين على أثر ثورة الجيش في الجزائر ضد الحكم المركزي ـ ورئيسه محرر فرنسا الجنرال دوكول ـ رغم قرب المسافة والتنظيم الإداري والعسكري المحكم.

التجاء انجلترا إلى نظام الكومنويلث وفرنسا إلى ما كان يسمى الاتحاد الفرنسي (لحفظ ماء الوجه فقط) لم يمنع من تفتت الامبراطوريتين. والتاريخ الحديث يمنح التاريخ العربـي القديم بعض العذر في أنه لم يستطع أن يحتفظ بامبراطورية كبرى رغم اسم الإسلام والطابع الديني للخليفة والخلافة.

الديانات والفكر الديني في المغرب

من المؤكد أن بلاد المغــرب القديم لم تنتج حضارة فكرية عميقة كما انتجت مصر وبابل والهند والصين، شأنها في ذلك شأن المنطقة الغربية من البحر الأبيض شماله وجنوبه، باستثنـاء اليونان وروما، اللتين يمكن اعتبارهما شرقيتين، أفاضتا على الغرب أكثر مما هما من بلاد البحر الأبيض. ومصر تأثرت في بعض فترات تاريخها الحضاري العقـدي الفرعوني بالجنوب كما تأثرت بالحضارة اللوبية، وبعض ملوكها انتقلوا من الصحراء الليبية إلى جنوب مصر، رغبة في الوصول إلى الماء. ولكن الحضارة الفكرية المصرية عموماً لم تشع خارج مصر الفرعونية كما كانت ـ وما تزال ـ معروفة. لهذا يمكن أن نقول: إن الفكر الديني في المغرب لم يتأثر بالديانة الفرعونية. قد يعود ذلك إلى انعزال الفكر الديني المصري من منطلق ديني، وقد يعود إلى الحاجز الصحراوي بين مصر وبلاد المغرب. وارتباط الحضارة الفرعونية بالماء الذي كان يعوض الفضاء الصحراوي والبعد عن النيل يعتبر مغامرة حياتية، لأنه مصدر الغذاء والخصب، ووسيلة مواصلات من الجنوب، حيث المعابد التي تجسم أرواح الآلهة، إلى الشمال، حيث خلدوا أجسامهم وأرواحهم في الأهرامات وجسدوا بعض آلهتهم في تمثال أبـي الهول.

هذا التقوقع حول النيل كما شرحناه في فصل آخر من الأسباب التي زكت تقوقع المغاربة حول الأطلس بسفوحه باعتباره أيضاً مصدر الحياة والغذاء والماء، ومركز حماية كلما طمع الطامعون في الهجوم على سواحل هذه البلاد وسهولها الخصبة، التي كانت عند بعض الغزاة مخزن حبوب كما

كانت السواحل مصدر ثراء ومقراً استراتيجياً للاستيلاء على جنوب البحر الأبيض كمحطة أسياسية للاستيلاء على شماله.

المغرب لم يقتبس ديانات قديمة:

من هنا يمكن أن نقول إن العزلة التي عاش فيها سكان المغرب الكبير ـ رغم الفضاء الصحراوي الجنوبي الفسيح الأرجاء ـ حرمته من اقتباس ديانات متقدمة عرفها جزء من شمال افريقيا هو مصر. وهذه العزلة جعلتهم يعتمدون على أنفسهم في اكتشاف الديانة التي يدينون بها، ضرورة أن الدين جزء من تكوين العقلية، وجزء من الحضارة الفكرية والنفسية والمادية لكل الشعوب مهما تكن بدائيتها.

ولا نلغي من حسابنا الصلات التي أقامها البربر مع مصر في كثير من عهود الدول الفرعونية، وخاصة أثناء الأسرتين 22 و 23 الفرعونية ووصلت عناصر لوبية بربرية إلى عرش مصر في بداية الألف الأولى قبل الميلاد. ولكن هذه الصلاة التي تطورت تدريجياً حتى مكنت الليبيين من عرش مصر لم يكن لها فيما يبدو، أثر في تسرب أفكار دينية فرعونية نحو بلاد المغرب.

على أن المواطنين المغاربة كانوا على جانب من الحضارة المادية والفكرية لا بأس بها[1] بل إنها لا تقل كثيراً عن الحضارة المادية التي عرفتها بلاد الشرق الأوسط. فهناك التنظيم القبلي واعتبار القبيلة الوحدة المركزية، وهناك المجال الزراعي ـ إلى جانب الرعي ـ والزراعة عربون الاستقرار، بالرغم من أن الرعي عربون التنقل. ولكن الزراعة تؤكد الاستقرار أكثر مما يؤكد الرعي الهجرة والتنقل. وهناك مجموعة من الصناعات الأولية كالأدوات الحجرية والصوانية وصناعة الفخار. ويؤكد الباحثون الأجانب أنه في عصور ما قبل التاريخ تعاقبت فترات الحضارات المحلية كالحضارة الوهرانية التي

(1) تحدثنا عن الحضارة المغربية في فصل سابق وهذه الفقرة اقتضاها سياق الحديث عن التدين.

امتدت إلى المغرب وشرقاً إلى برقة وحضارة جحفة الضبع في برقة التي اتجهت غرباً إلى تونس والجزائر وإلى سواحل المغرب. والحضارة القفصية التي امتدت غرباً حتى المغرب وشرقاً حتى برقة.

ومن مظاهر هذه الحضارات النقوش التي رسمها الإنسان معبراً فيها عن أفكار ورسم أنواع الحيوانات (الكبش مثلاً في شكل خاص).

وتؤكد حضارة العصور القديمة أن الإنسان فيها كان يبحث عن الأمان على حاضره ومستقبله، ويعمل للتقرب من القوى الخفية المتحكمة في حياته وفي البيئة المحيطة به.

الإنسان المغربي كان مؤخوذاً بقوة غيبية:

من كل ذلك يمكن أن نستنتج ـ والاستنتاجات في هذا الموضوع قائمة على فرضيات غير ذات ثبوت ـ أن الإنسان المغربي كان يفكر عقدياً في قوى غيبية. وإذا كانت الآثار الباقية من النحت والرسم لا تشير إلى عبادة خاصة، فإننا يمكن أن نساير بعض المؤرخين الغربيين، الذين يعتمدون على فرضيات يستنتجون منها أن الأفارقة عموماً ـ ومنهم الأمازيغيون ـ كانوا يعبدون الجماد والحيوان، وأن القوى الخفية ـ التي كانوا يستشعرونها ـ كانت تتصور في شكل جن، يستلهمون منه آلهة متخيلة يعبدونها. ويؤكد ابن خلدون ـ دون سند علمي ولا تدقيق في ما يقصد بالمجوس ـ أن دينهم المجوسية، إلا في بعض الأحايين يدينون بدين من غلب عليهم.

ديانة قرطاجة:

العهد القرطاجي يمكن أن يكون قد أثر تأثيراً خاصاً في الوضع الديني. ذلك أن القرطاجيين الفينيقيين كانت لهم ديانة متطورة. كان لهم آلهة في بلادهم الأصلية «صور». وتطور الفكر الديني عندما انتقلوا إلى افريقيا فاختلطت الآلهة الأصلية بالآلهة الإفريقية المتعددة. ومع كل هذا التعدد كان

لهم إلههم الأكبر «بعل حمون» فشخصوه في بعض النصب بافريقيا «تونس». وبعل حمون هذا لا يخلو من تأثير مغربـي بربري. وقد بقي من معابد قرطاج معبدان حتى الآن في سوسة وقرطاج. وفي المعابد كهنوت يشرف عليه مجموع من القديسيـن والكهنة ينظمون طقوساً دينية منها تقديم القرابين إلى الآلهة حيوانية وبشرية. كما أن الجنائز تقام وفق طقوس دينية.

المهم من كل ذلك أن هذه الديانة القرطاجية بكل التأثرات التي تأثرت بها سواء كانت مصرية أو افريقية كان لها ظل على الفكر الديني البربري. وذلك رغم أن الاختلاط كان محدوداً بين البرابر والقرطاجيين، سواء على النطاق الجغرافي أو البشري أو المهني. فالقائدان حنبعل وصدر بعل، وجيوشهما البربرية القرطاجية، لا يمكن أن يكونا غير متأثرين بالديانة القرطاجية.

مسيرة اليهودية في المغرب:

وتبدأ مسيرة الديانات السماوية باليهودية. وهي الطائفة التي بقيت آثارها الثقافية ومجموعات من معتنقيها في المغرب الكبير منذ العهد القرطاجي حتى هاجر أغلبهم إلى إسرائيل بعد تأسيسها، وخاصة بعد استقلال المغرب العربـي. وقد كانوا يظنون أن الحكم الأجنبـي يحميهم. فلما انهار الحكم الأجنبـي لجأ الكثير منهم إلى حكم أجنبـي آخر في إسرائيل. إذا كان التاريخ الحقيقي لهؤلاء اليهود لا يبت في أصلهم ومغربيتهم، فإنه يؤكد أن مجموعة غير بربرية وفدت على المغرب: برقة وجربة وطنجة حتى فاس ووادي درعة وأعماق الصحراء. ويوجد في هذه المناطق جميعها وغيرها سكان يهود برابرة. فهل هم بقايا هؤلاء الوافدين؟ المؤرخون يتحدثون عن قبائل بربرية يهودية ظلت موجودة في المغرب حتى جاء الإسلام. كما يتحدثون عن مجيء يهود أجانب إلى المغرب في العهد الروماني. ويتحدث بعض المؤرخين عن عدم وجود يهود مغاربة أصلاً. ويستبعد بعضهم يهودية المغاربة الأصليين، ولو أنهم كانوا يعيشون في قبائل بربرية ويتحدثون

لهجاتها ويمارسون عاداتها الاجتماعية[1].

من الصعب أن يثبت التاريخ أن بعض المغاربة تهودوا بتأثير من مجموعات يهودية هاجرت إلى المغرب. ـ على عكس ما يشير إليه لوطورنو ـ فاليهودية دين مغلق، ولم تكن هذه المجموعة لتستطيع التبشير باليهودية. ومع ذلك فقد وجدت طائفة من اليهود تمغربوا وتحدثوا البربرية ثم العربية. وليس هناك ما ينفي مغربيتهم على النطاق البربري أو العربي. فالقضية ليست قضية عرق، ولكنها قضية تساكن واندماج اجتماعي واقتصادي، ويؤكد بعض المؤرخين اليهود أن بعض المغاربة تهودوا ليخلص من ذلك أن اليهود المغاربة ليسوا كلهم من اليهود الوافدين الذين تمغربوا. لأن اليهودية لم تصبح ديناً مقفلاً إلا بعد التلمود (القرن الخامس والرابع ق م) أما قبل ذلك فقد كانت اليهودية مباحة لغير العبرانيين. وإذا كان هذا الرأي لا يتفق مع تحريم الزواج بالأجنبيات عند اليهود ومع نزعة التفرد التي سلكها أنبياؤهم وتميز بها العبرانيون منذ البداية ويعتقدون أن روح «يهوه» الإله حالت فيهم. وقد أصبحت الديانة بذلك قبل أي شيء آخر داخلية وفردية وذاتية. كل ذلك ينتهي بنا إلى أن اليهود الوافدين لم يسمحوا للمغاربة أن يتهودوا لأنهم أجانب فلا يتزوج منهم اليهودي، ولأن اليهودية فردية وذاتية فلا تتعداهم إلى غيرهم، ولأن روح «يهوه» حالت فيهم فلا تحل في غيرهم.

---

(1) يؤكد روجي لوطورنو في كتابه «فاس» ج 1 ص 72 ط الترجمة العربية: في حديثه عن فاس كان بعض اليهود وهم بكل احتمال من زناتة اعتنقوا اليهودية في تاريخ يعسر تحديده. وكانوا كثيرين حسب النصوص العربية، وكما تدل عليه المبالغ المالية التي كانوا يؤدونها برسم الجزية، والتي كانت تبلغ 130 ألف دينار وقد سمح لهم الإمام إدريس بأن يؤسسوا لهم حارة في العالية (فاس) هي مخطط حارة «فندق اليهودي» ما يزال هذا الحي يحمل هذا الاسم حتى الآن. وينطق عند السكان حتى الان «فندق اليهودي» فلم يعد يسكن فيه يهود بعد أن انتقلوا إلى حارة «الملاح» في فاس الجديدة في عهد المرينيين على اختلاف بين المؤرخين في تاريخ سكناهم بهذا الحي. ويبدو أنهم نقلوا إلى هذا الحي الخاص بهم لحماية الأحياء الإسلامية من الخمور التي كانوا يعصرونها ويبيعونها للمسلمين. ولعل ذلك سبب ما تعرض له بعضهم من إذاية وليس لديانتهم.

وسواء صح أن اليهودية لم تصبح ديناً مقفلاً إلا بعد التلمود أو لم يصح ذلك كما تؤكد المبادىء التي تحدثنا عنها، وسواء تهود المغاربة أو تمغرب اليهود الوافدون، فإن المغرب عرف اليهودية قبل أن يعرف الإسلام، وتسربت إلى بعض المناطق من المغرب بعض الأفكار الدينية، وخاصة منها التي تعبد الله، مهما يكن تصور اليهود لله، ومهما تكن الفكرة التي انتقلت للمغاربة من هذا التصور. فلم يكن المغاربة بذلك بعيدين عن الله، كما لم يكونوا بعيدين عن التصور الديني الذي تركه القرطاجيون، والذي تركته الوثنية والفطرية فيهم، ثم لم يكونوا بعيدين عن بعض الأفكار المسيحية التي انتقلت إلى المغرب مع البيزنطيين.

المسيحية تقارب المغرب ولا تتعمق في الشعب:

والذي يهمنا أن الدين السماوي ـ ممثلاً في اليهودية في هذه الحقبة ـ لم يكن غريباً عن المغاربة عموماً. وأن شيئاً آخر، غير الوثنية وغير الآلهة المجسدة التي بقيت في الفكر المغربي والممارسة الدينية، تعرف عليه المغاربة إذا كان اسمه اليهودية في حقبة ما فسيصبح اسمه المسيحية بعد ذلك.

وكان الغزو الروماني قد توغل واستمر مدة طويلة، حدث أثناءها حدث مهم في التاريخ الديني والفكري هو نشأة المسيحية، وانتقالها غرباً نحو المنطقة التي تسيطر عليها الامبراطورية الرومانية، وفي هذه المستعمرة الواسعة الأرجاء تكونت على مر القرون «جزيرة» مسيحية أتتها المسيحيون القادمون من الشرق كما أتت روما وكانت مستقلة في مسيحيتها حينما تنصّرت روما، واتخذ الامبراطور قسطنطين المسيحية دينه ودين الدولة، عندما انتصر سنة 324 م بعد الاضطهاد الخطير الذي عرفته المسيحية على عهد سلفه «ديوكليسيانوس». وكانت المسيحية قد انتشرت بكثرة في الشرق الأوسط وقرطاجة. ولكن تمسح الامبراطور منحها نفساً قوياً. فقد وضع السلطة في يد المسيحيين وتلقب بالحبر الأعظم حتى يستطيع القضاء على الوثنية.

وانتهى الأمر بخنق الوثنية اقتصادياً بمصادرة وتدمير ممتلكاتها. ومع ذلك فإن كلمة المؤرخين التي تقول: إن الرومان لم يحملوا إلى المناطق المغربية التي احتلوها ديانتهم وأنظمتهم، تبقى هذه الكلمة صحيحة لأنهم لم يكونوا يحترمون الشعوب، ولكنهم كانوا يهتمون باحتلال الأرض واستغلال خيراتها. وقد قيل أيضاً، إن بلاد المغرب كانت خزان الحبوب لروما.

تركزت الكنيسة الرئيسية في قرطاجة واستغلت مراكز اليهود وبعض العقائد الفينيقية الإلهية للانتشار، فانتشرت في طرابلس وكونت لها مراكز مهمة في تونس نظراً لقربها من المركز الرئيسي، ثم في شمال الجزائر ويضعف انتشارها جغرافياً شيئاً فشيئاً حتى طنجة. وكانت المراكز المسيحية (الكنائس) مرتبطة بالمركز الرئيسي في قرطاجة.

ويؤكد المؤرخون الغربيون أن المسيحية لم تجد في مكان ما من النجاح ما وجدته في افريقيا. ففي أواخر القرن الثاني وجدت جماعة كبيرة نشيطة من المسيحيين في المدن والأرياف جعلت من قرطاجة مركزها الرئيسي ومقرها الأكبر.

ويجب أن نتذكر أن النفوذ الروماني في أوسع مراحله (منتصف القرن الثالث م) قد شمل شمال ليبيا وتونس والنصف الشمالي من الجزائر والنصف الشمالي من المغرب. ولم يستطع أن يقترب من الأطلس ولا المناطق الجبلية عموماً، حيث كان السكان المغاربة محصنين ينتهزون كل فرصة للانقضاض على قوات الاحتلال. كان إذن هناك حاجز مهم جداً بين المحتلين الرومانيين وبين المغاربة. واستمر هذا الحاجز في عهدي الوندال والبيزنطيين. حاجز بشري وحضاري وفكري. وإذا كان ليس عرقياً كما يلاحظ بعض المؤرخين فهو حاجز سياسي. لأن المغاربة كانوا ينفرون من المحتلين ولا يقبلون التعامل معهم. وفي المقابل كان الرومان المحتلون يعتبرون المغاربة «متوحشين». وهي الكلمة التي تسربت من الفكر والقول إلى الكتابة حتى في

أقلام المؤرخين، وبقيت كلمة معترفاً بمدلولها حتى في أقلام المؤرخين المحدثين.

نستخلص من ذلك أن المسيحية لم تجد مجالاً للانتشار بين المغاربة وفي المناطق التي كانوا يسكنونها بعيداً عن الأرض المحتلة، أي في الجبال والصحراء.

وكونت المسيحية لها مركزاً مهماً ومستقلاً. وارتبطت بالنفوذ السياسي إلى جانب النفوذ الكنسي والكهنوتي، حتى انتشرت في معظم المدن والقرى وبين مختلف الطبقات الساكنة من المستوطنين. ثم إنها عاشت ـ كما عاشت في كثير من البلاد الأخرى ـ مراحل صراع بين السلطة والكنيسة حينما تكون السلطة غير متدينة، متمسكة بعبادة الامبراطور في روما. فكانت تسلط اضطهاداتها نحو المسيحيين حتى إن بعض الحاكمين كانوا يقطعون رؤوس المسيحيين ويحرقونهم أو يرمون بهم إلى الحيوانات الكاسرة. وكان المسيحيون في ظروف أخرى يضطهدون غير المسيحيين و «الكفار». وفي هذا المجتمع نشأت ثقافة مسيحية، ومناضلون بالفكر والخطابة والقلم من أجل المسيحية. وتكون مجتمع مسيحي بكل إيجابياته وسلبياته تمتع بالاستقرار أحياناً وبالصراع في كثير من الأحيان مع المسيحية وضدها.

هذا المجتمع الذي استمر قروناً في بلاد المغرب لم يستطع أن يخترق المجتمع المغربي المحافظ، رغم الوسائل التبشيرية التي أتقنتها الثقافة المسيحية منذ البداية، ثم رغم الاضطهاد الذي قام به المسيحيون لنشر المسيحية بالقوة بين غير المسيحيين.

وهذا يحيلنا على موقف مماثل آخر في تاريخ المغرب هو موقف الاحتلال الغربي الحديث. الذي استمر زهاء قرن وثلث قرن في الجزائر، وأزيد من سبعين سنة في تونس وأربعاً وأربعين سنة في المغرب ونحوها أو قليلاً منها في ليبيا. وهو استعمار استيطاني يشبه إلى حد ما الاستعمار

الروماني والوندالي والبيزنطي، ويختلف عنه في أنه غير انعزالي فقد جاء بعد أن لم يعد الجبل والصحراء يلعبان دوراً كبيراً في التوزيع السكاني بالمغرب. إذ استطاع المغرب أن يؤسس نفسه على أساس استقرار الدولة ووحدتها بكل مقومات الدولة، فأصبح المواطنون سادة في بلادهم. ورغم الغزوات المتقطعة والهادفة التي تعرضوا لها فقد قاوموها في الشواطىء والسهول والجبال والصحراء على السواء. ولم تكن المقاومة سلبية باللجوء إلى الجبال والصحراء وترك الشواطىء والسهول للغزاة. ولذلك بقي المواطنون منتشرين في المدن والقرى على السواء. فلما جاء الاستعمار الجديد لم يعزلهم ولم ينعزل عنهم، بل سكن بينهم في المدن كما في القرى والمزارع.

وكان هذا الاستعمار سياسياً وإدارياً وعسكرياً واقتصادياً، ولكنه إلى جانب ذلك كان استعماراً مسيحياً لعبت فيه الكنيسة والرهبان والقديسون دوراً مهماً سواء في تمهيد الأرض للاستعمار أو في بث الأفكار المسيحية والتبشير بالدين بين السكان بكل وسائل التبشير. غير أن المسيحية لم تستطع ـ رغم كل إمكاناتها الفكرية والمادية والظروف المواتية ـ أن تضع لها مكاناً في بلاد المغرب طيلة هذا التاريخ، الذي يعتبر ـ بالنظر إلى إمكاناته وتطور العصر ـ أطول من تاريخ الاستعمار الروماني والوندالي والبيزنطي.

التاريخ يذكر موقف منه بموقف ليثبت حقيقة قديمة، تتجدد في الحقيقة الجديدة. وهي أن المغاربة ظلوا بعيدين عن التأثير المسيحي فلم يتمسحوا في عمومهم ولم تضع المسيحية قدماً ثابتة لها في بلادهم، إلا بين الأفارقة الذين كانوا شعباً تكون في أفريقيا من الوافدين من مختلف الجنسيات وبقايا الفينيقيين القرطاجيين وبعض المغاربة الذين اختلطوا بهم واندمجوا. ومن هؤلاء تكون حكام ومثقفون وقديسون وخطباء وسياسيون. ولعل أشهر الذين جمع بين هذه الصفات جميعها أغسطينوس، الذي ولد في نوميديا (الجزائر) من أب مشرك وأم مسيحية، وتطور في عمله الثقافي والسياسي

والديني حتى أصبح أكبر زعيم مسيحي في بلاد المغرب. وارتبط به تاريخ المسيحية في هذه البلاد في نهاية القرن الرابع.

لماذا لم يتمسح المغاربة؟

سؤال قد تجيب عنه بعض أحداث التاريخ الطويل لشعب هذه البلاد، ومن ضمنها أحداث تاريخ الفتح العربي. إنهم يقاومون الغزو. ويرفضون كل ما يأتي به الغزاة، خاصة إذا حاول الغزاة أن يفرضوا عليهم ذلك بالقوة.

نعم تكونت طبقة مختلطة تدعى «الأفارقة» نتجت عن اختلاط بعض الوافدين الغزاة ببعض السكان الأصليين على الشواطىء واندماجهم بفعل التزاوج والتساكن. وعن هذه الوضعية نشأت طبقة لا تمثل شعب المغربيين ولا بلادهم، وإنما هي أقرب إلى الوافدين الأجانب في ثقافتها ولغتها المختلطة وتقاليدها ونشاطها في الجيش والإدارة وخدمة الدولة. وبعض هؤلاء تمسحوا واضطهدهم الحاكمون باعتبارهم متمردين على عبادة الامبراطور كما اضطهدوا الرومانيين والبيزنطيين على السواء.

والملاحظة الأساسية أن تمسح هؤلاء لم ينعكس على بقية شعب المغرب. ولذلك لم يستسلم للمسيحية، ليس لأنه لم يجد فيها راحة القلب والضمير كدين يُخلصه من عبادة الآلهة التي تخلف بعضها عن العهد القرطاجي أو تقديس الأوثان والحيوان، ولكن لأن حاجزاً سميكاً كان يقف بين دعاة المسيحية، وهم أجانب يمثلون القوة والاحتلال والعنف، وبين الشعب المغربي الذي يتعشق الحرية.

وسيفسر لنا هذا الموقف من المسيحية الموقف من الإسلام. فقد قاوم المغاربة المسلمين العرب الوافدين نحو سبعين سنة في كل المراحل التي استعمل فيها هؤلاء القوة والعنف ولغة الحرب، ولو لغير ما ضرورة، كما أوضحنا ذلك في عهود عقبة وأبي المهاجر وحسان بن النعمان وموسى بن نصير. وبعضهم كان يسلم ويحارب مع المسلمين كلما وجد المسجد والمعلم

الذي يعلم مبادىء الإسلام دون عنف ولا حرب، وذلك في بعض الفجوات التي تأتي بين حربين. وكانت هذه الفجوات السلمية في صالح الإسلام فأسلم معظم سكان هذه البلاد.

تسرب أفكار الألوهية إلى المغرب:

ملاحظة أساسية في هذا الموضوع هي أن اليهودية والمسيحية، لم تغزوا المغرب غزواً مطلقاً ولم تهود وتنصر المغاربة الأمازيغيين، كلهم أو معظمهم على نحو ما فعل الإسلام بل بقيتا على الهامش: اليهودية لأنها دين منغلق كما شرحنا، والمسيحية لأنها استأثرت ـ أو استأثر بها ـ المستوطنون الوافدون، أو الأفارقة المتنسلون منهم، وبعض الأتباع والعملاء الذين عملوا معهم ضداً على شعبهم، فكانت هي أيضاً في جزيرة معزولة في الشمال أو مناطق الاحتلال على العموم، رغم ما عاشت فيه من صراعات داخلية بين المسيحيين والسلطة. وبينهم مع بعضهم، رغم ذلك فإنهما ـ اليهودية والمسيحية ـ لم تمرا مر الكرام على الفكر المغربي الديني. كان لهما ـ بدون شك ـ تأثير غير مباشر على الفكر المغربي الذي نعتقد أن بعض الأفكار المشتركة بين المسيحية واليهودية تسربت إلى الفكر المغربي. فمن الطبيعي أن نحواً من خمسة قرون من المسيحية وقبلها الفترة الطويلة (منذ العهد اليوناني ـ الروماني) التي عاشها اليهود في بلاد المغرب، من الطبيعي أن تؤثر هذه الفترة الطويلة في تسرب أفكار الألوهية والوحدانية والعالم الآخر إلى الفكر المغربي. وإذا صح هذا الذي نستنتجه فسيكون له تأثيره على سرعة انتشار الإسلام في ظل السلام حتى عم المغاربة جميعهم، وتحمسوا له فأصبحوا فاتحين باسم الإسلام للأندلس ثم الحماة الأقوياء للإسلام في التاريخ الطويل منذ بداية القرن الثاني الهجري.

ظهور الإسلام وانتشاره:

هذه عوامل يمكن أن نسميها خارجية، ولكن العامل الأكبر، الذي

يمكن أن نسميه داخلياً، هو الإسلام نفسه. فقد دأب بعض الفاتحين على أن يصحبوا معهم نفراً من الفقهاء والقراء من أعيان التابعين يعلمون الناس أمور دينهم. فعل ذلك عمر بن عبد العزيز حينما بعث إلى افريقية مع أبي المهاجر عدداً من التابعين لتعليم البربر أمور دينهم، فتفرقوا في الولاية وكان عملهم إيجابياً. وقام بمثل هذا العمل موسى بن نصير حينما ترك مع طارق بن زياد سبعة عشر رجلاً يعلمون الناس أمور دينهم. وقبله حسان بن النعمان الذي كانت له سياسة مدنية كتنظيم البلاد إدارياً ومالياً وجعل اللغة العربية لغة رسمية. ويدخل في هذه السياسة عملية نشر الإسلام بالدعوة لا بالحرب. وقد وزع الفقهاء في مختلف أنحاء البلاد التي دانت للعرب لتعليم الناس قواعد الإسلام. واستمال المسلمين البربر إليه فجندهم ووزع على الفلاحين الأراضي التي كان الروم يحتلونها. وهذا عامل اقتصادي يعتبر من تعاليم الإسلام، ولكنه إلى جانب ذلك كان عامل استقرار. وإذا اجتمع هذا العامل الاقتصادي إلى جانب العامل الفكري والنفسي وعامل السلم بينهم كان له الأثر الكبير على تمسكهم بالإسلام وبعدهم عن كل عمل ثوري. وحسان هو الذي قام بعملية مهمة حينما أمر ابني الكاهنة، بعد أن أسلما، على جيش مهم، يقول المؤرخون إنه كان يضم اثني عشر ألف مقاتل. فهذه الثقة التي يضعها القائد الوالي في رجلين قاتلت أمهما العرب والمسلمين قتالاً مريراً كان لها أثرها ليس فقط في الرجلين ولكن في أتباعهما بعد أمهما.

وما من شك في أن البربر الذين اقتربوا من الإسلام أو سمعوا عنه أو أسلموا بالفعل وجدوا فيه دين السماحة والخلق الكريم والمساواة والسلم، والدين الذي يربط الإنسان بالله مباشرة دون صنم أو حيوان يتقرب به إليه. وهذا الوضوح والجدية مما يتفق مع الفطرة التي كان البربر يعيشون عليها.

وقد امتازت بعض فترات الفتح بالإعمار الإسلامي نذكر بالقيروان وبمسجده وهما من إنجاز عقبة، وهو عمل مهم جداً في استمالة البربر إلى الإسلام. فللمسجد أثره في النفس، وخاصة التي تتعلق بمعبود ما. فإذا وجدوا فيه الله انجذبوا إليه دون صعوبة تذكر. ونذكر كذلك ببناء جامع الزيتونة في مدينة تونس الذي بناه عبد الله بن الحبْحاب سنة 116هـ.

وبمقابلة بسيطة بين الاحتلال. والاستيطان الذي كان يميز حياة الروم والوندال والبيزنطيين فيطردون أو يطاردون البربر إلى رؤوس الجبال والصحراء، وبين المعاملة الإسلامية التي اتبعها بعض المسلمين الذين كانوا يؤاخونهم ويعاملونهم معاملة حسنة ـ بعد نهاية الحرب طبعاً، ومتى أسلموا ـ بهذه المقارنة التي لا شك أن زعماء القبائل كانوا يدركونها، كان الإسلام ينتشر بينهم. لم يكن ذلك في وقت وجيز طبعاً كما حدث في مصر أو بلاد الشام فبلاد المغرب ليست مصر ولا الشام حتى في التجارب التاريخية. ولكن في الوقت الذي يسمح به التعقد الجغرافي والمساحة الواسعة ـ المتنوعة والبعد عن مقر الإسلام: مكة والمدينة ودمشق، وكذلك التعقد البشري والقبلي والتاريخي. فقد سبقت الإسلام غزوات مدمرة. ومن الصعب أن يلغيها الفتح الإسلامي من حسابه فيقطف الثمرة دون الصعوبة التي صادفها، سواء في إقرار سلطة الحكم الإسلامي، أو إقرار الدين نفسه. وسنرى أن إدريس استثمر هذا التقبل الكبير للإسلام لأنه كان رجل سلم ودعوة لا رجل حرب.

وسنرى أن المسلمين المغاربة شاركوا في التفكير المذهبي الإسلامي (الخوارج) رغم أن الأصل فيه سياسي، ولو أنه اتخذ طابع العنف. وذلك ما يمكن أن يجمع بين طبيعتي شعب المغرب: الفكر والسيف.

وسنرى كذلك أن الدول التي قامت في المغرب بعد ذلك قامت على

أساس إسلامي: خلافة المسلمين أو إمارتهم، أكثر منها علمانية أو ملكاً عضودا كما كان الأمر في المشرق على عهد الأمويين ثم العباسيين والدول التي خلفتهما. فرغم أنهما قامتا باسم الخلافة، فقد كانت السلطة والحكم وفكرة الملكية هي الدافع الأكبر، فكان معاوية ملكاً أكثر منه خليفة، ولكن زعماء الدول الإسلامية في المغرب كانوا خلفاء وأمراء المسلمين أكثر منهم ملوكاً.

تعريب المغرب
الإنسان ـ اللغة

ظاهرة حضارية مهمة جداً اقترنت بالفتح الإسلامي شرقاً وغرباً. تتميز بالتنوع. فهناك بلاد أسلمت ولم تتعرب، كمعظم بلاد آسيا من إيران وتركيا حتى الهند وأندونيسيا والصين وبلاد أفريقيا السوداء، باستثناء السودان، لأن الإسلام دخلها متأخراً، وعن طريق التبشير لا الفتح. وبلاد أسلمت وتعربت كشمال أفريقيا والأندلس. ولا يدخل في هذا التنوع البلاد العربية الأصل كبلاد الشام والعراق.

نماذج من الهجرات الفاعلة أو المدمرة:

هذه الظاهرة تخضع لتجربة التاريخ: تاريخ الهجرات الحضارية والبشرية وتاريخ استقرار الشعوب، فقد مرت بلاد الحضارات القديمة بموجات من الزحف والهجرة والاختلاط. تحكم في ذلك عدة عوامل منها: العامل الاقتصادي. أقوام تهاجر طلباً للقوت والمرعى. وتهرب أحياناً من غضب الطبيعة ومن طغيان الحاكمين. ولكن الهجرة تستدعي الهجرة حتى تصبح الشعوب المهاجرة مستقرة أحياناً في غير وطنها الأصلي، مندمجة في الأوطان الجديدة دون أن يستطيع التاريخ نسبتها إلى أصلها، أو نسبة وطن من الأوطان التي هاجرت إليها وغزتها إليها، كما حدث للقرطاجيين الذين سكنوا شمال أفريقيا ـ وهم من فينيقيا (صور) في بلاد الشام ـ واستقرت فيها مدينتهم، وحاربوا من أجلها، حتى ذابوا (مع تميز) في المجتمع بعد الحروب التي عانوها ضد الرومان، وبعد تدمير مركزهم الأساس. وكما حدث بنسبة أقل للبيزنطيين الذين هاجروا أيضاً كمستعمرين وحاربوا وحوربوا. وكما حدث لشعوب أوروبا الغربية. فقد هاجر الكلتيون (شعوب أقصى غرب أوروبا)

نحو الشرق حتى وصلوا إلى الدانوب وشمال البلقان، وتوغلوا في مقدونيا وأنشأوا مدينة أنقرة الحالية. كانت موجاتهم من أبرز الأحداث البشرية التي غزت امبراطوريات واسعة وقضت على مدنيات مهمة ولكنهم لم يستطيعوا أن يكونوا امبراطورية متجانسة. ويبدو أن السبب في ذلك قدرة شعوب هذه البلاد وحضاراتها على الصمود كل هذه القرون من السنين التي واجهوا فيها الهجرة الزاحفة لشعوب غرب أوروبا الكلتيين أو الغاليين.

هجرة حضارية. . . مدمرة:

نموذج آخر نأخذه من الفتوح الرومانية، والتاريخ يؤكد أن روما تلميذة لمقدونيا. فقد سن الإسكندر الأكبر سنة الإمبراطورية في البحر المتوسط، بلاد اليونان مركزها العسكري والسياسي كما كانت مركزها الفكري والفلسفي. الإسكندر هو الفاتح الكبير الذي شرق حتى طوى بين جناحيه الإمبراطورية الفارسية وتركستان وجزء من الهند، وغَرَّب حتى وصل إلى جبل طارق، وداعب في طريقه شواطىء مصر، بلاد التاريخ الفرعوني القديم. ولكنه اسكندر واحد وحياة واحدة لم تتكرر، أخذ المشعل من يده بعد نحو قرنين من الزمان أبناء روما الذين بنوا مجد المدينة التي أصبحت تاجاً على مفرق البحر المتوسط، والتي غربت فأخضعت البلدان الغربية وضمتها في وحدة الإمبراطورية الرومانية. انطلق الفتح الروماني ابتداءً من الاستيلاء على إيطاليا ودلماتيا وغاليا وإسبانيا. والشاطىء الجنوبي للبحر الأبيض كان مغرياً لسببين:

أولهما: مصر التي داعبها الفتح الإسكندري.

والثاني: «الإمبراطورية» القرطاجية التي دخل معها في حروب طاحنة، الحروب البونيقية التي انتهت بتدمير قرطاجة ولكنها كلفت روما كثيراً من الجهد والوقت والطاقة البشرية.

ولا ننسى العامل الجغرافي. فالبحر الأبيض يكون بحيرة لا تبعد شواطئه الجنوبية عن شواطئه الشمالية وبخاصة بين إيطاليا وتونس مركزي الحضارتين القرطاجية والرومانية. وبين المغرب وإسبانيا. ثم الجزر التي تنبت قريباً من

شواطئه الشمالية والجنوبية من صقلية وسردينيا وقبرص حتى جزر البليار. وكل ذلك يجعل من البحر مجموعة بحيرات متقاربة ويشجع سكان شماله على احتلال جنوبه مثلما يشجع سكان جنوبه على احتلال شماله. ولا ننسى أيضاً العامل الاقتصادي. فالجنوب الغني بزراعاته وتجاراته كان يطمع المغامرين الشماليين لاحتلاله. اتفق ذلك ولم يختلف على مر الزمان. فالتاريخ الاستعماري الحديث إنما كان حكاية للتاريخ القديم.

ثم كان أيضاً في شمال المتوسط ما يغري بالمجد. فبلاد اليونان التي أنجبت سقراط وأفلاطون وأرسطو، أنجبت أيضاً الإسكندر المقدوني الفاتح الكبير الذي يغري اسمه باحتلال بلاده.

أنتجت هذه الحروب المستمرة والثابتة والموحدة، رغم الفترة الطويلة التي قضتها روما في الحرب والاستقرار، أنتجت امبراطورية متسعة يقول عنها أحد المؤرخين «إن تاريخ الإنسانية جمعاء لا يقدم لنا أي مثل آخر عن جمهورية استمرت طيلة أجيال عدة، بمثل هذا الثبات وهذه الوحدة في النتائج، إن لم تكن دائماً في الأساليب، سياسة تؤدي إلى فتوحات على مثل هذا الاتساع» (تاريخ الحضارة العام ج 2 ص 106).

بقطع النظر عن الأسباب الخاصة بروما التي دفعت إلى هذا التوسع، والأسباب العامة التي تدفع بكل توسع عسكري وسياسي، فإن الانسياح الروماني لا يخلو من أسباب تتصل بالتوسع الاقتصادي والاستراتيجي والدفاعي. فروما كانت تدافع عن نفسها وهي تكون امبراطورية بهذه السعة. ولكن روما لم تفرض دينها ولا نظمها.

مهما يكن فروما أعطت لمستعمراتها بعض ما عندها، ولكنها لم تكن فاعلة في انقلاب حياتهم. بل إن التاريخ يتهمها بأنها «كانت تهدم دون أن تبني شيئاً جديداً متيناً يتناسب مع ما تستولي عليه. وتقتل، أو على الأقل تخنق، حضارات ولا تهتم لإقامة حضارات أخرى مكانها، وتسلب وتفقر وتستثمر، دونما اعتبار لما تعرض له ممتلكاتها من أخطار. وتقتطع دون

تعقل من مال أصبح مالها، فتستنزفه وتعرض مستقبلها للخطر. ولن يظهر عملها الإيجابي كوصية على العالم ومنظمة له وكمربية أيضاً في أكثر من منطقة من مناطقه إلا بعد ذلك في عهد الإمبراطورية، وبفضل الإمبراطورية (نفس المصدر ص 100).

هجرة التتار والمغول المدمرة:

نموذج آخر من الهجرات المدمرة والمؤثرة في التاريخ، وهذه المرة من الشرق، هي الهجرة المغولية التتارية ـ معظمهم من الرعاة والقناصين والصيادين ورجال الحرب ـ التي انطلقت من مجموعات قبلية مغولية شغلت دنيا الناس من منتصف القرن الثاني عشر وطيلة القرن الثالث عشر. انطلقت هذه الهجرات ابتداءً بزعامة جانكيز خان (1167 ـ 1227) الذي أسس امبراطورية واسعة الأرجاء انطلاقاً من قبائل غير متحضرة، فاستولت وحكمت كثيراً من المناطق التي عرفت الحضارة قبل ذلك بآلاف السنين. وقد استولى المغول بزعامته على كل القبائل التي تنتسب إلى قبيلته، وعلى القبائل التتارية ووحد منغوليا كلها تحت سيطرته وشرقت غزواته فاحتل الصين الشمالية وكل البلاد المجاورة. وغرب حتى احتل خوارزم ثم أفغانستان والقسم الأكبر من إيران. وانطلقت قوافله إلى المناطق القزوينية وجورجيا وأرمينيا وأذربيجان. . . وقد امتدت امبراطوريته من بكين حتى نهر الفولغا. وأثناء هذه المدة (أقل من 20 سنة) فتح كوريا وانقض على باقي إيران، وأرسل جيوشاً إلى أوروبا: بلغاريا وروسيا الجنوبية وأوكرانيا وبولونيا ومورافيا وهنغاريا وكرواتيا، ووصلت جيوشه حتى شواطىء الأدرياتي. واستمرت غزوات خلفاء جنكيز خان من أبنائه حتى احتلوا البلاد الإسلامية الشرقية جميعها، وسقطت بغداد والجزيرة والشام على يد أحد أبنائه. وبذلك سقطت الخلافة العربية.

هذه الحملة الكبرى التي قامت بها قبائل التتار والمغول كانت حملة مدمرة احتلت مناطق شاسعة ما بين أوروبا الوسطى ومعظم آسيا حتى الصين، وحاولت الاستيلاء على اليابان، قامت بها شعوب متخلفة حضارياً كان الهدف

منها الاستيلاء على الممالك والشعوب والسلب والقتل. ولم تمر الحملة، التي توزعت أجنحتها العسكرية على مناطق مختلفة، بمنطقة أو مدينة إلا حطمت وقتلت وأحرقت وأذلت الشعوب والقبائل. ولكن الأمر تطور بهم إلى بناء حضارة مادية بعد أن تخلوا عن سياسة التدمير، واتبعوا طرقاً جديدة في التنظيم والإنتاج الزراعي والبناء والإدارة مستفيدين مما تعلموه من الصين من أساليب حضارية. فكان ما يعرف بالحضارة المغولية بعد عصر هولاكو الذي انتهى في الستينات من القرن الثالث عشر (1265).

أين تقع الهجرة العربية من هذه الهجرات؟ :

ثلاثة نماذج من الانسياحات البشرية والحملات العسكرية ليست وحدها الكبرى في التاريخ، ولكنها الأكثر دلالة على التطور السلبي للحضارة البشرية، بما قد يكون فيها من بعض الإيجابيات وكثير من السلبيات. فأين يجد الفتح العربي مكانه من بين هذه النماذج؟.

الموقع الجغرافي للفتح العربي يشبه إلى حد ما الموقع الجغرافي للنماذج التي أشرنا إليها من التاريخ. شبه الجزيرة العربية يقع في وسط العالم المعروف آنذاك بين الحضارات التي عرفها التاريخ: شرقاً الفارسية والهندية، وإن ابتعدنا قليلاً فالصينية. وغرباً مصر وشمال أفريقيا وإسبانيا التي عرفت حضارة مقترنة بالقرطاجية ثم الرومانية والبيزنطية. ثم شمالاً وقد عرف الشمال الرومان والبيزنطيين.

فتح مصر ـ مثال متميز:

الفتح العربي عرف في طريقه سابقة لا شك أنها أثرت فيه. فالمقاومة، القوية الشرسة أحياناً، التي وجدها في شمال أفريقيا، باستثناء مصر، لا شك أن لها نسباً مع المقاومة التي عرفها القرطاجيون والرومان والوندال والبيزنطيون على اختلاف النوعية والشدة والقوة. وهل المؤرخ يستطيع أن يتنبأ بما إذا كان العرب سيجدون نفس المقاومة التي وجدوها لو لم يسبق أن

تعرضت هذه البلاد إلى الحملات الاستعمارية التي تحدثنا عنها من قبل؟.

مثال مصر متميز. تتحكم في هذا التميز الجغرافية ثم التاريخ. وكلاهما جعل مصر مسالمة إزاء الغزاة والفاتحين. الأرض المنبسطة التي لا ملجأ فيها إلا إليها، والنيل الذي لا مهرب منه إلا إلى الضياع، جعل مصر قبل العرب بألفي سنة قابلة لكل فتح يأتي من الشرق أو الشمال دون مقاومة إلا مقاومة دفاعية باستثناء الحملة التي قام بها تحوتمس الثالث ورعمسيس الثاني لصد الغارات ومطاردة المغيرين حتى الفرات، وكما أن الهكسوس لم يجدوا مقاومة عنيفة من الشعب المصري لم يجدها عمرو بن العاص وهو يفتح مصر فتستقبله بشيء من الترحاب. ولكن مصر التي استقبلت الفاتحين من الشرق حتى بعد العرب كالطولونيين والأخشيديين والأيوبيين ومن الغرب الفاطميين ويمكن اعتبار الحملة الفرنسية في آخر القرن 18 من هذا النوع، كانت تثق في نفسها، فكانت تهضم الفاتحين ولا تنهضم لهم. باستثناء الفتوحات الاستعمارية الغربية. ولذلك أصبح الهكسوس مصريين، كما أصبح العرب والأيوبيون والفاطميون وعائلة محمد علي. وهو نوع من التعايش تعرفه الحضارة المصرية انعكس على العهد العربي، فأصبحت مصر عربية مسلمة. لا تكاد تجد نفسها حتى اليوم في غير الفضاء العربي الإسلامي مع احتفاظها على دين الأقباط (المسيحية الإفريقية) والعروبة في نفس الآن.

من الواضح أن الهجرات والغزوات التي عرفتها شعوب أوروبا كان من أسبابها الوضعية الاقتصادية والغذائية والهروب من العدوان الحيواني والبشري، وقد يكون من أسبابها انعدام الأمن الطبيعي فحيثما حدثت كارثة طبيعية فرت الجماعات منها. ومن الصعب ـ ربما ـ أن يتوصل التاريخ إلى الأسباب الطبيعية التي دفعت الجماعات إلى التنقل في العصور القديمة. وقد يكون من أسبابها انهزام قبيلة في وجه حرب تشنها قبيلة أخرى.

والهجرة تدفع إلى الهجرة. فالشعوب المهاجرة تتغلب على أخرى، وقد يجتمع حولها الأسرى والعبيد والمقهورون. ومع تطور الأحداث تتعاظم الجماعات الغازية الزاحفة.

الحملة العربية حملت الإسلام والعروبة:

أما عن بلاد المغرب فالحملة العربية رغم العنف المتبادل الذي عرفت به، والذي تحدثنا عنه من قبل، كانت تختلف عن الحملات الاستعمارية السابقة لأنها كانت تحمل رسالة دينية هي الإسلام. ورسالة حضارية لغوية هي العربية والعروبة.

تحدثنا عن الإسلام في فصل سابق. ونضيف أنه كان يحمل في رسالته الأساسية الوحدانية ضد الشرك، والألوهية ضد الوثنية، وضد عبادة الأشخاص (وفي هذه النقطة يستجيب لعقلية المغاربة) والأوثان والخرافة الملتصقة بالدين كاعتماد السحر والأساطير، التي كان لها أثر في بناء المجتمع وفي شن الحروب، وفي السيطرة على الآخرين باستعمال القوة الغيبية. وتعتبر الكاهنة مثالاً لاختلاط القوة بالعنف بالطمع بالسلطة باستخدام الخرافة والسحر للسيطرة على المجتمع. والإسلام أيضاً كان يستهدف توحيد البشرية ضمن عقيدة واحدة هي العقيدة التي انتهت إليها الديانات السماوية، وهو في جوهره ـ ولا نتحدث عن الممارسة ـ لا يستهدف حكماً مركزياً، بمقدار ما يستهدف مركزية العقيدة وتوحيد المسلمين حولها. وفي هذه النقطة يختلف الفتح الإسلامي عن الفتوح الأخرى التي تستهدف الحكم وسلطة الحاكم وخدمة البلاد المفتوحة بمصالح الحاكمين.

الفتح الإسلامي في جوهره لم يكن استعماراً ولا استغلالاً، بينما كانت الفتوح الأخرى أشبه ما تكون بالفتوح الاستعمارية الحديثة. ولو أن الفتوح الاستعمارية كانت تتميز ببعض الإصلاحات التي مارستها، ولو لصالح المستوطنين، وبعض ما تسرب من مظاهر حضارتها للبلاد المستعمرة.

الهجمات العربية مستوطنة:

وأما العروبة والعربية، فأساسها أن العرب قوم مستوطنون يخرجون للفتح. ولكن الجنود ـ باستثناء الرؤساء ـ قد لا يعودون، وخاصة إذا بعدت المسافة، وطالت المدة، ووجدوا مرتعاً خصباً وتعايشاً مع السكان وتزاوجا وتناسلا. يتكون إذن جيل جديد وهذا ما حدث في كثير من البلاد التي فتحوها، وخاصة في شمال وغرب المنطلق. ثم إن فكرة الفتح العربـي لم تكن تقوم على فتح عرقي، بل تقوم على فتح فكري حضاري نوعاً ما. ولذلك فكل من أسلم يندمج في الجيش الفاتح، ولو كان من أهل البلاد الأصليين. وحينما أسلم عدد كبير من الأمازيغيين في عهد عقبة ثم في عهد حسان وأبـي المهاجر من بعده، انضموا إلى الجيش الإسلامي وتعايشوا مع هذا الجيش، حتى إذا استقر الوضع ـ نوعاً من الاستقرار ـ كانوا هم العمدة في فتح الأندلس ونقل الإسلام إليها. بل حارب كثير منهم في صفوف المسلمين وتحت راية الإسلام مواطنيهم الذين كانوا مشركين.

وكانت الهجرات العربية عسكرية منذ اتصال العرب بالمغرب. وإذا تتبعنا تاريخ هذه المرحلة نجد أن الفاتحين، ابتداءً من عمرو بن العاص، كانوا يفتحون البلاد بعدد ضخم من الجنود. لا نستطيع أن نقبل الأرقام الضخمة التي يتحدث بها المؤرخون. ولكن مع ذلك تعتبر مؤشراً على ضخامة العدد الذي حارب إلى جانب الفاتحين. ويؤكد ذلك أن الجندية لم تكن جهاداً في سبيل الله فحسب، ولم تكن واجباً تفرضه الدولة فحسب، ولكنها كانت كذلك وسيلة للاسترزاق تشجع عليها السلطة الحاكمة لإشغال الناس المسلمين عن التفكير السياسي والقبلي (العمل والنقمة والانتقام). ثم إن المعارك الطاحنة التي دارت في المغرب قريباً من قرن، والمسافات الشاسعة التي قطعها الفاتحون حتى وصلوا فيما تروي الرواية العربية إلى السوس الأقصى، هذه القرائن تؤكد أن عشرات الآلاف من العرب انتقلوا كجنود على

مراحل متعددة إلى بلاد المغرب. ابتداءً من فتح عمرو بن العاص برقة وطرابلس سنة 21 هـ ثم في عهد عبدالله بن أبي سرح سنة 25 هـ وهكذا مع بقية قواد الفتح.

ومن الأساليب التي كان يتبعها العرب الفاتحون أنهم كانوا يرسلون السرايا إلى مختلف الجهات انطلاقاً من الخط الرئيسي للفتح. وسواء الجيش الرئيسي أو السرايا فقد كان يبقى منهم العدد الكثير، عجزاً عن مواصلة الحرب أو لجوء إلى الراحة. ولا يحكي التاريخ عن الأوضاع الاجتماعية لهؤلاء الوافدين العرب على المغرب. ولكن الطبيعة البشرية والعربية تكاد تؤكد أن كثيراً منهم كانوا يتزوجون بربريات كلما تخلوا عن الغزو أو كانت المرحلة أو المنطقة مرحلة أو منطقة سلام.

ويمكن أن نستخلص من ذلك عن تاريخ هذه المرحلة أن آلافاً من العرب سكنوا في كل منطقة من مناطق المغرب واستقروا بها وتزوجوا وانسلوا، وقد كونوا فصيلة خاصة من العرب يسميهم بعض المؤرخين العرب البلديين والمجليين. هؤلاء الفاتحون استقروا في بلاد المغرب وتناسلوا، وانضم إليهم أبناء عمومتهم المهاجرون من البلاد العربية وكونوا لهم جالية كبيرة لها مصالحها الاقتصادية وظروفها الاجتماعية وتطلعاتها السياسية.

التعايش والتناسل بين العرب والبربر:

وقام بين العرب والبربر جو من التعايش بعد استتباب السلام. كان البربر يحترمون كثيراً من المجموعات العربية التي عاشت بينهم ويصاهرونهم، بل ينتسبون إليهم في قبائلهم. فالقيسيون واليمنيون وأسماء القبائل العربية ما يزال لها وجود في العائلات المغربية. وقد كثرت هذه المجموعات الوافدة على المغرب، من برقة حتى المحيط، من جراء النزاعات العربية والقبلية والسياسية في المشرق، سواء على عهد بني أمية أو حينما انتقل الحكم إلى بني العباس، الذي لم يعد في جوهره حكماً عربياً

نظراً لاستيلاء الموالي شيئاً فشيئاً على المراكز الحساسة في السلطة. ولهذا كانت مجموعات عربية تبتعد عن هذه الخلافات التي تمسها أو تمس مصالحها لاجئة إلى بلاد المغرب. وهي المنفذ الذي بقي مفتوحاً أمام البلاد العربية بعد أن أصبح الشرق ـ بلاد الفرس والترك ـ هو مقر الحاكمين الحقيقيين. (وينتقل الصراع في عصر الولاة إلى المغرب فيتحول التعايش إلى تدابر خطير بين العرب والعرب، ثم بين العرب والبربر، لينتهي بثورات بربرية على الحكم العربـي).

وقد مر بنا أن أبناء بعض الفاتحين العرب قد استقروا في المغرب. وكونوا لهم مركزاً اجتماعياً مهماً. وفضلوا بلاد المغرب تهرباً من الخلافات بين العرب في المشرق على مستوى الطبقة الحاكمة. وكانت هذه الخلافات تنعكس على الولاة وعائلاتهم، يزيد في حدتها الأحقاد والمنافسات بين الذين يصلون إلى الحكم والولاية وبين منافسيهم الذين لا يصلون. استقر بعض أبناء وأحفاد هؤلاء في بلاد المغرب وصاهروا المغاربة الأمازيغيين. ووفد عليهم كثير من أبناء قبائلهم، وتكونت حولهم جماعة لم تلبث أن تعايشت ثم اندمجت في المغاربة. وتكون جيل جديد من الإنسان المغربـي الذي لا يمكن أن تنسبه إلى عرق معين.

المهاجرون فراراً من التصفيات القبلية والسياسية:

ثم إن الصراع الذي وجد في المشرق على عهد بني أمية والتصفيات الخطيرة التي عرفها عهدهم لكل خصومهم السياسيين من الذين كان لهم مركز سياسي وإسلامي على عهد الرسول وخلفائه الراشدين، دفع بالكثير من بقاياهم إلى الهجرة إلى بلاد المغرب وتبعهم مشايعوهم. بعضهم طمعاً في السلطة وآخرون فراراً بحياتهم. ومن هؤلاء جماعات كبيرة هاجرت بعد «موقعة الحرة» التي وقعت بين الحكم الأموي والثائرين من أهل الحجاز على الأمويين (سنة 63هـ ـ 682م) ومعظم المهاجرين كانوا من الأنصار اليمنيين.

ثم جاءت هجرة أخرى بعد ذلك بنحو عقد من السنين بعد مقتل عبد الله بن الزبير وتصفية الأمويين لأتباعه. فقد هاجر الكثيرون من المشايعين له الذين كانوا يريدونه خليفة إلى بلاد المغرب فراراً من عملية التصفية. وكان هؤلاء وأولئك وأتباعهم من الذين أسهموا في تعريب الإنسان بالمغرب.

وستستمر هذه الظاهر على عهد بني العباس حينما تكونت دول يرأسها عرب في بلاد المغرب.

هجـرة الخـوارج:

وقد تكون المرحلة الثانية للهجرات العربية التي حققت نوعاً من التعايش ـ كلما كان التعايش ممكناً ـ ونوعاً من الاندماج بين العناصر العربية والبربرية. المرحلة الثانية كانت مع لجوء المذهب الخارجي للمغرب فراراً من مركز الدولة أولاً، ولأن بلاد المغرب كانت خصبة وقابلة للتكيف، ولم تتأهل فيها المفاهيم الإسلامية الحقيقية السنية. جماعات من الخوارج هاجرت على اختلاف نظرياتهم: الصفريون والإباضيون.

المهم في موضوعنا هذا هو أن الخوارج لم يأتوا إلى بلاد المغرب بدافع نشر المذهب فحسب، ولكنهـم لجأوا إلى المغرب فراراً من الحرب التي شنتها عليهم الدولة، والتي شنوها على الدولة. القوتان غير متكافئتين. فكان على هؤلاء المتمردين أن يطوقوا الدولة من الخارج، أي أن ينشروا المذهب في بلاد المسلمين البعيدة عن السلطة المركزية المباشرة للدولة. وربما استطاعوا أن يكونوا في هذه البلاد دولة خارجية تنازع الدولة السنية سلطتها ومشروعيتها.

ولذلك انتقلت جماعات من العرب الخوارج واللاجئون إليهم فراراً من تتبع السلطة المركزية وقمعها[1] والأسلوب الذي اتبعه الخوارج ـ ككل

(1) لا يذكر المؤرخون أن جماعات كبيرة من الخوارج الصفرية والأباضية انتقلت إلى بلاد المغرب. ولكن يذكرون أفراداً و «دعاة» يكونون في البصرة ثم يرحلون إلى =

أسلوب يتبعه مذهب مضطهد ـ يعتمد على السرية وعلى تجميع الأتباع حول فكرة جذابة جديدة. ومن شأن ذلك أن يساعد على التعايش والتداخل. ولذلك أثره على تعريب الإنسان.

والحروب الخطيرة التي عرفتها بلاد المغرب باسم الخوارج شارك فيها بربر وعرب من الجانبين. والحرب، كالسلم، تقرب بين المتحاربين وتربط أواصر التعايش بينهم وتستمر هذه الأواصر بعد نهايتها.

ثم إن هذه الحرب كانت سبباً في تنقل عشرات الآلاف من بلاد الشام ومصر لمحاربة الخوارج. يذكر المؤرخون مثلاً أن الخليفة هشام بن عبد الملك (105 ـ 125) قال بعد «معركة الأشراف سنة 121» التي قتل فيها عدد كبير من أشراف العرب المقيمين في المغرب على يد الصفريين: «والله لأغضبن لهم غضبة عربية ولأبعث لهم جيشاً أوله عندهم وآخره عندي. ثم لا تركت حصن بربري إلا جعلت إلى جانبه خيمة يمني أو قيسي» ثم يذكرون أن جيش كلثوم (أحد قواده) بلغ ثلاثين ألفاً من أهل الشام ومصر: عشرة آلاف من بني أمية وعشرون ألفاً من بيوتات العرب. . . .

وإذا كنا لا نعتمد لغة مثل هذا الكلام الذي نسبه المؤرخون للخليفة لأنه ظاهر الصنعة، ولا نعتمد هذه الأرقام لأن المؤرخين دأبوا على التعبير بالرقم الضخم لمجرد التهويل، فإن ذلك مؤشر على كثرة العدد ونوعية الجيش من العرب. وعلى مزيد من الهجرة العربية من قبائل معينة (اليمنيين والقيسيين) في تعريب الإنسان بالمغرب.

= الأمصار. ويذكرون مثلاً أن «جبل نفوسة» أصبح دار هجرة للمذهب الأباضي، ويتحدثون عن الثورة الخارجية التي قام بها البربر بكثير من التفصيل. ولكن عملاً كهذا يتم به تحويل المنطقة المغربية إلى دار هجرة للمذهب وإلى منطقة ثائرة استدعت عشرات الآلاف من الجنود لمقاومتها لا يمكن أن يكون قد قام بها أفراد ودعاة. وإنما كانت هناك رحلة منظمة ـ ربما يرحلون سراً ـ للخوارج إلى بلاد المغرب. وذلك ما يجعلنا نؤكد أن هذه الهجرة كان لها أثر في تعريب الإنسان المغربي.

فتح الأندلس صعد وتيرة الهجرة:

وقد تكون المرحلة الثالثة لهذه الهجرة جاءت بعد فتح الأندلس. فقد شارك العرب (على قلة) والبربر (على كثرة) في هذا الفتح لأسباب أمنية وسياسية. لم يكن موسى يعرف قيمة الأندلس ولا أهمية هذا الفتح حتى قام طارق باجتياز البحر وحقق انتصارات مهمة. عند ذلك لامه موسى وأوقفه عن الاستمرار. وجمع جيشاً من جيشه واجتاز البحر هو أيضاً إلى معبر آخر هو ما يعرف الآن بجبل موسى. وتعاون الجيشان حتى فتح المسلمون جنوب الأندلس ووصلوا إلى اشبيلية وطليطلة. وبذلك اكتشفوا بلاداً واسعة وغنية. فغيروا رأي الذي كان داعياً إلى فتح الأندلس وهو كسب المغانم والعودة إلى المغرب. وصمموا على أن يجعلوا من الأندلس ولاية شاسعة للخلافة. كان هذا الفتح في مفتتح العشرية الأخيرة من القرن الأول ابتداء من 711م.

اعلموا بذلك الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك فأصبح للعرب مطمع ومطمح آخران، وأرضاً شاسعة يجدون فيها الغنيمة والبعد عن المشاكل التي كانت تحفل بها المناطق المشرقية القريبة من مركز الخلافة. ووفدت على الأندلس وفود مختلفة كل منها في بضعة آلاف تصل أحياناً على قول المؤرخين عشرة، واستقرت كل منها في ناحية.

ومعروف أن بلاد المغرب أيضاً كانت لهم مطمعاً ومطمحاً. ومما لا يكاد الشك يرقى إليه أن بلاد المغرب لم تكن معبراً إلى الأندلس فقط، ولكنها كانت مستقراً لهم أيضاً. فالذين هاجروا إلى الأندلس رسب الكثير منهم في المغرب لما وجدوه من حسن ضيافة ولأن بعض المهاجرين وجد من قبيلتهم في تونس أو الجزائر أو المغرب ما يغريه بالاستقرار. ومرغبات الاستقرار والتوقف عن الاستمرار والمغامرة إلى بلاد الأندلس كثيرة جداً.

ولذلك يمكن أن نتأكد من أن فتح الأندلس كان من أسباب هجرة العرب إلى المغرب ومما أثر في تعريب الإنسان المغربي.

تكوين الدولة الإسلامية في المغرب جلب كثيراً من العرب:

المرحلة الرابعة جاءت مع تكوين الدول الإسلامية الأولى في المغرب العربي[1]. ونبدأ بالدولة الرستمية. فقد جاء عبد الرحمن بن رستم (يدعى الفارسي رغم أنه في الغالب عربي) إلى تاهرت (قرية بربرية قديمة في جبل نفوسة في الجزائر) يتزعم الأباضيين هناك بعد معركة مع جيوش العباسيين في طرابلس. وفي القرية التي جددها أنشأ الدولة الرستمية سنة 140هـ 758م حيث توافدت عليها جاليات من الأندلس ومن البصرة والكوفة وكان معظم القائمين على المنصب عرب. وما من شك من أن هذه الجاليات كانت ممن استغوتهم الدعوة الخارجية الأباضية وفروا بها من حكم العباسيين في المشرق. وهي الفترة التي فر فيها بقية البيت الأموي، ومنهم عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) الذي سينشىء الدولة الأموية في الأندلس، والتي سيفد إليها أنصار الأمويين من القبائل العربية مروراً بالمغرب، وسيرسب في المغرب عدد غير قليل منهم.

وتأتي دولة الأغالبة في طرابلس وتونس نتيجة اتفاق بين هارون الرشيد وإبراهيم بن الأغلب على إقامة ولاية ـ أو دولة ـ لقاء ضريبة سنوية تدفع للدولة في بغداد وإبراهيم بن الأغلب من تميم. أسس الدولة سنة 184هـ 800م واعتمد على قوة عربية من قبيلته. وقد وفدت على البلاد مجموعات كبيرة من العرب منهم الجنود الرسميون. والفرس المستعربون، واستخدموا كذلك سكان البلاد، المستعربين. وكما قام المغاربة والعرب بفتح الأندلس

(1) لا نتحدث الآن عن الجانب السياسي والدولي للمغرب في عهد هذه الدول فلذلك حديثه في الجزء الخاص بمغرب الدولة من هذا الكتاب: وإنما نقتصر على أثر تكوين هذه الدول في استقدام العرب من المنطقة الشرقية.

فكان ذلك مبعثاً لهجرة عربية إلى المغرب، تطلعاً إلى ثروة الأندلس وإلى الوطن الجديد. أسهم الأغالبة في فتح صقلية بالجند العربـي البربري فكان فتحها أيضاً مبعثاً لهجـرة عربية إلى تونس إذا لم يكن من أجل نشر الإسلام فمن أجل الغنيمة. وقد تضاعف الجيش العربـي بتونس في عهد الأغالبة. وكان لذلك أثره في تعريب الإنسان بالمغرب العربـي.

والدولة الثالثة التي نختارها في هذه الفقرة هي الدولة الأدريسية التي نشأت في المغرب الأقصى وفي نفس الفترة تقريباً. وقد نشأت بشكل مغاير لما نشأت عليه دولة الأغالبة وشبيه بما نشأت عليه الدولة الأموية بالأندلس. نشأت بعد مذبحة فخ التي أقامها العباسيون ضد العلويين في عهد الهادي سنة 169هـ 786م فقد فر جماعة من حفدة علي بن أبـي طالب منهم من لحقه جنود العباسيين فقتل وأقلهم نجا. وكان من الناجين ادريس بن عبد الله الذي فر من كل مكان يمكن أن تطاله فيه سلطة العباسيين حتى وصل إلى المغرب الأقصى، ولم تكن سلطة العباسيين قد استقرت استقراراً كاملاً في هذه البلاد لتمرد الولاة عليها . لم يكتب لادريس الأول أن ينشيء دولة فكان ذلك من نصيب ابنه إدريس الثاني. واعتمدت الدولة على القبائل البربرية التي وجد فيها الإدريسان النجدة والسند والاحترام لآل البيت. ومن هذه القبائل أوروبة وغمارة وقبائل زناتة، ثم وفدت وفـود عربية كبيرة علـى إدريس الثاني، وخاصة بعد أن أنشأ مدينة فاس سنة 196م ـ 811م وفدت هذه الوفود من عرب المشرق وعرب افريقيا (تونس) وعرب الأندلس. وقد اتخذ منهم ادريس رجال الدولة وأعوانه على إقامة الحكم وتسيير الإدارة والقضاء وجزء من جنده، مع أن معظم هذا الجيش الذي قام بمجهود كبير في تثبيت دعائم الدولة من تلمسان حتى فاس هم من قبائل أوروبة وغمارة وكان من العرب الوافدين قيسيون وازديون.

ونظراً لاجماع المغاربة والعرب الوافدين على زعامة إدريس وطاعته، فإن أي خلاف لم يحدث بين العرب الوافدين والبربر، كل قام بدوره في إقامة

أسس الدولة ومحاربة خصومها، على خلاف ما حدث في دولة الأغالبة من صراع الجند، وصراع المجندين ضد الدولة. هذه الوحدة التي تجلت في عهد إدريس الأول، ولعل سندها التقدير الإجماعي لرئيس الدولة وهو من الدوحة النبوية، حقق اندماجاً بين العنصرين. وكان ذلك من مظاهر تعريب الإنسان بالمعنى الذي ألمحنا إليه، أي تبربر العرب وتعرب البربر، الشيء الذي أصبح معه من الصعب التعرف على من هو العربي ومن هو البربري (عرقيا). واللغة وحدها لا يمكن أن تكون مميزة. رغم أن القضية ليست في حاجة إلى تمييز لأن العرقية ملغاة في مجتمع حقق الإسلام فيه التحضر والوحدة الكاملة.

تهميش القبائل العربية ألجأها إلى الأطراف:

وتأتي المرحلة الخامسة وقد جسدتها هجرة القبائل العربية الحاشدة إلى بلاد المغرب.

ولهذه الظاهرة أسباب لا تنتمي إلى العوامل القبلية والاقتصادية والسياسية فحسب. فقد أصبحت القبائل العربية بعد تكون الدولة الملكية (الخلافية) الإسلامية تعيش على هامش الحياة التي ألفتها. أصبح الملك طابع الدولة منذ عهد معاوية ثم بالأخص في عهد العباسيين. والملك يعتمد على طبقة معينة من الأتباع والأنصار وعلى قبلية سافرة، ومنهم تتكون الإدارة ورجال السلطة. بعض هؤلاء ينتمون إلى النابهين من رجال القبائل كان الخلفاء يستغلون مواهبهم وانتماءاتهم القبلية. ويستغل هؤلاء طبيعة القبلية فيهم فيدس المحظوظ من قبيلة ما لغريمه من القبيلة المنافسة، وقد يكون من قبيلته. والانتقام والتصفية طابع سياسة الخلفاء على عهد بني أمية. أما على عهد بني العباس فقد استولى الموالي من الفرس على الدولة. وبذلك بدأت تنسلخ من طابعها العربي، وتهمش العرب: قبائلهم والنابهين منهم شيئاً فشيئاً إلا حينما تعتمد عليهم الدولة في التعبئة العسكرية للحرب. كما كان

الأمر أيضاً على عهد بني أمية. حتى آلت الدولة أخيراً إلى من يسميهم المؤرخون أعاجم.

تهميش القبائل العربية في مراكز الخلافة والسلطة ألجأها إلى الأطراف من البلاد العربية فلجأت إلى الصحراء وتوزعت بين الأقاليم البعيدة عن مركز الخلافة والقريبة منها، طلباً للرزق وبعداً عن الصراع من أجل السلطة مع الذين أصبحت السلطة بين أيديهم من الفرس والأكراد والأتراك. ولكن طبيعة الصراع لا تختفي، وإنما تتجه اتجاهاً آخر، فيصارع بعضها من أجل السيطرة الشخصية ومن أجل السلب والنهب وفرض العنف والقمع، ربما تعويضاً عما فقدته من سلطتها القبلية بعد تكوين الدولة. وإذا كانت بعض هذه القبائل المهمشة قد لجأت إلى بادية الشام والعراق والحجاز، فإن بعضها هاجرت إلى مصر وبرقة لتجد مستقراً جديداً لها يمكنها من الوجود والنفوذ والعيش وفرض نفسها بالقوة. فهذه البلاد رغم تبعيتها السياسية للدولة، كان الولاة فيها عرباً، وكانت للعرب سابقة إذ ترسب فيها الفاتحون من جيوش الفتح ومن المهاجرين الذين وفدوا على هذه البلاد أثناء الفتح.

الأسباب السياسية والاقتصادية والقبلية لهجرة بني هلال وبني سليم:

أصبحت هذه البلاد مطمحاً لكل ذي سلطة، ولو كانت غير رسمية، ولكل ذي طموح، ولو كان من نوع طموح قبائل دفع بها التهميش وفقر المنتجع إلى التجول في الآفاق للغزو والإغارة والسلب والنهب.

فهذا الجانب من العامل الاقتصادي يمكن أن نسميه سلبياً. أما العامل الإيجابي فهو أن بلاد مصر والمغرب عرفت بغناها وكثرة إنتاجها وطيب هوائها. ولذلك فهي ترضي طموح قوم أضناهم الفقر والعوز، وأضرت بطموحهم سيطرة الدولة على المناطق المنتجة من البلاد العربية: الشام على عهد الأمويين والعراق على عهد العباسيين ثم ما دخل تحت هاتين

الإمبراطوريتين من بلاد غنية ومنتجة. فلم يبق إلا البعد إلى جهات يصعب تحكم الدولة وإقرار الأمن والسلطة فيها.

أما العامل السياسي ـ بالإضافة إلى سيطرة الدولة في الشام والعراق وما والاهما ـ فقد تجلى في موقف الفاطميين عندما قاوموا القرامطة في عمان والبحرين، وكان بنو هلال وبنو سليم يشايعون هؤلاء القرامطة، رأى الفاطميون أن يتخلصوا منهم ففتحوا أمامهم أبواب جنوب مصر (الصعيد) وأقطعوهم الأراضي. ولكن روح القبلية والرحلة فيهم لم تتخل عنهم فعبروا شرقي النيل إلى غربه، ووصل فريق منهم إلى برقة. وبذلك فتحت أمامهم الطريق إلى الجانب الأكثر غنى والأطيب هواء، إلى افريقيا (تونس) ثم الجزائر.

ما يزال العامل السياسي يلعب دوره. فقد بنى الفاطميون دولتهم في مصر بعد أن تخلوا عن بلاد المغرب إلى بني زيري. وإذا كان من طبيعة الهلاليين وبني سليم التمرد والفوضى والسلب والنهب، فقد كان من الأوفق سياسياً أن يرمي بهم الفاطميون من مملكتهم إلى مملكة خصومهم بني زيري (أصبحوا خصوماً بعد أن مالوا إلى الاستقلال عن الفاطميين) ساعدوهم على الهجرة من مصر إلى بلاد افريقيا وكان لهم قدم فيها (في برقة) (كان ذلك في الثلاثينات والأربعينات من القرن الخامس الهجري منتصف القرن الحادي عشر الميلادي).

يطيل المؤرخون في وصف التخريب الوحشي الذي قام به بنو هلال وبنو سليم بتونس خاصة وبالعواصم الإسلامية الكبرى فيها (القيروان مثلاً) واستيلاؤهم على منطقة واسعة من طرابلس حتى شرقي الجزائر. وكان لعملهم العنيف أثر في ضعف ثم نهاية دولة بني زيري. ولعل الفاطميين كانوا سعداء فشفوا غليلهم من خصومهم ووارثي دولتهم في افريقيا.

الأثر الكبير لهجرة الهلاليين والسليميين في تعريب المغرب

يهمنا الآن من هذا الجانب التاريخي الأثر الذي تركته هجرة عشرات الآلاف من العرب الأقحاح إلى المغرب في تعريبه إنساناً ولساناً. فقد كانت هذه الهجرة استيطانية. ورغم ما كانوا يثيرونه من رعب بين السكان البربر والعرب الذين بدأ الاختلاط يجمعهم على صَعيد واحد، فقد كانوا يصاهرونهم ويتعايشون معهم. وقد بدأت المصاهرة من رجال الدولة (بني زيري) حينما كان بعضهم يزوج بناته من سادة هؤلاء العرب الوافدين. ثم إن الخشية منهم كانت تدفع بالبعض إلى الإصهار إليهم. ومع الزمن اندمجوا في الشعب، فأثرت الأجيال الجديدة منهم في تكوين مجتمع مختلط. لم يلبث أن انصهر في مجتمع واحد، عربي بربري، تبربر فيه العرب وتعرب البربر، بعد أن عفى التاريخ على أسباب ومظاهر التغريبة الهلالية والسليمية.

وما تزال قبائل وعائلات تحمل لقب الهلالي والسليمي والسلمي حتى الآن.

التأثير الأندلسي في التعريب :

والمرحلة السادسة تمثلها الهجرة العكسية التي حدثت من الأندلس إلى المغرب. فبقطع النظر عن الهجرات المتبادلة التي كانت تتم بين المغرب والأندلس طيلة القرون الثمانية التي كانت الأندلس فيها عربية مسلمة، وخاصة في المرحلة التي أصبحت تحت حكم المرابطين ثم الموحدين وجزء من المرينيين. وقد كان الأندلسيون ينتقلون إلى مركز الخلافة: مراكش وفاس حيث كان المركز بلاطا للإدارة والعلم، والبلاد جميعها مجالاً للتجارة والسكنى. بقطع النظر عن ذلك فقد كان المغرب موئلا وملاذا للمهاجرين الأندلسيين الذين طردهم القشتاليون من الأندلس في حملة الإبادة التي شنتها الصليبية ضد الإسلام والمسلمين. فقد بدأت قواعد العرب في الأندلس تسقط في يد الإسبانيين على إثر حروب طاحنة غير متكافئة، لأن الإسبانيين كانوا يعتمدون على أرض خلفهم وعلى عون كبير من البابوية والدول

الكاثوليكية. ولذلك كانوا يهاجمون ولا يخشون اندحاراً. وان اندحروا يعتمدون على أرضهم في الشمال ينسحبون إليها ثم يعودون. أما المسلمون فقد كانوا يحاربون، فإذا انهزموا هاجروا كما حدث في العصر الأخير لمعظم الفلسطينيين. ثم ان النصرانية كانت تقوم بحرب إبادة وتصفية جسدية. وإلا هجروا المنهزمين خارج المنطقة المحتلة.

منذ انهيار صرح الدولة الأموية في الأندلس بدأت القلاع والمدن الكبرى تسقط في ظل حكم ممزق موزع بين ملوك الطوائف. ومنذ أواخر القرن الخامس سقطت طليطلة في يد النصرانية سنة 478هـ (1085م).

ولكن نصر الزلاقة الذي أطال حياة العرب في الأندلس أربعة قرون لم يكن ليمنع سقوط كثير من المناطق تباعاً في يد النصرانية ابتداء من شمال شرق الأندلس ثم في الغرب (البرتغال) حتى سقطت قرطبة (سنة 633هـ 1236م) ثم اشبيلية بعد ذلك بعشر سنوات ثم بقية المراكز الشرقية والغربية حتى لم يبق من الأندلس إلا منطقة غرناطة.

هجرة الأندلسيين إلى المغرب:

كل العرب والمسلمين الذين كانت تطاردهم قوى النصرانية كانوا يهاجرون نحو الجنوب. ولكن الذين يضيق بهم المقام أو يتوقعون هجوماً آخر كانوا يهاجرون نحو المغرب العربي.

الهجوم على منطقة غرناطة اتسم بشيئين:

أولهما: التنصير أو القتل والتعذيب لمن بقي من المسلمين.

ثانيهما: التهجير لمن لم يقبل التنصير.

فقد وضع القشتاليون مخططاً خطيراً للقضاء على الإسلام والمسلمين بهاتين الوسيلتين. ولذلك أقفرت المناطق الإسلامية ـ ابتداء من الشمال والشرق والغرب من سكانها العرب. فكل حاكم (ملك) من ملوك الطوائف

كان يهاجر إلى العدوة الأخرى ويهاجر معه كل (شعبه). ومن الأمثلة التي يقدمها لنا التاريخ الأخير للأندلسيين في بلادهم هجرة سكان منطقة البشراء. وكل من بقي من المسلمين في مالقة هاجروا إلى باديس. وسكان المرية هاجروا إلى تلمسان، وسكان الجزيرة هاجروا إلى طنجة. وأهل رندة هاجروا إلى تطوان. وبعض سكان أرباض غرناطة هاجروا إلى قبيلة غمارة، وأهل البيرة وبرجة هاجروا إلى ما بين طنجة وتطوان. وسكان بليش هاجروا إلى سلا. وكثير من سكان غرناطة هاجروا إلى بجاية ووهران وقابس وصفاقس وسوسة. وأهل طريفة هاجروا إلى آسفي وآزمور. ونعرف أن المجاهد المنظري هاجر ومن معه إلى منطقة تطوان وهو الذي جدد المدينة. وجازت إلى المغرب جمهرة كبيرة من العلماء قبل سقوط غرناطة وبعدها، وجموع كبيرة من سكان وادي آش بعد أن انهزم مولاي الزغل واستسلم. ثم غدر به النصارى فهاجر ومعه جمع كبير إلى وهران ثم إلى تلمسان. أما عند سقوط أبي عبد الله آخر ملوك غرناطة والتجائه إلى المغرب فقد هاجر معظم المسلمين، إلا من تنصر أو بقي يخفي إسلامه حتى ضاق عليه حصار محاكم التفتيش فنجا بنفسه ودينه نحو بلاد المغرب.

ويلاحظ أن المهاجرين لم يختاروا المدن فحسب، بل منهم القرويون الذين اختاروا القرى والبادية (أو الأرياف) ولذلك نجد الأسماء العربية في المناطق المختلفة من المغرب، سواء أسماء الأشخاص أو أسماء الأماكن.

ويلاحظ أيضاً أن المهاجرين كانوا من مستويات مختلفة في الثقافة والعلم والعمل والحرف. ومن الطبيعي أن يؤثر المثقفون والعلماء بلغتهم المثقفة والعلمية، وأن يؤثروا كذلك في تزكية الثقافة العربية والإسلامية. والثقافة وسيلة لتنمية التعريب وتنمية الرصيد اللغوي بقدر ما هي وسيلة لتنمية المعرفة. والحرف نفسها لها أثر في التعريب. وقد نقلوا معهم كثيراً من الحرف بأدواتها وأسمائها ولغة التعامل بها.

أثر التعليم والثقافة في تعريب اللغة:

ومن هذه الملاحظة نخلص إلى المرحلة السابعة في التعريب، دون أن نكون ملتزمين بالتوقيت الزمني. وهي المرحلة التي أسهم فيها التعليم والثقافة والمعرفة في تنمية التعريب. والتاريخ يسجل ظاهرة كبرى وهي أن الفتح اقترن بكتائب من المعلمين وقراء القرآن والمفقهين في الدين، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً. وكان هؤلاء طبعاً يعلمون ويلقنون بالعربية. وكان أول شيء يلقنونه ويحفظونه القرآن.

يضاف إلى ذلك نشأة المسجد. والمسجد لم يكن بيت صلاة فحسب، ولكن بيت قراءة وتعليم كذلك. ومنذ إنشاء مسجد القيروان ما بين سنتين 50 و 55 على يد باني المدينة عقبة بن نافع، تأصل بناء المساجد في كل مدينة أو قرية فتحها المسلمون أو بنوها. ولذلك كان في بلاد المغرب مجموعة من المساجد تحولت إلى مدارس علمية ثم تلتها رباطات جهادية وعلمية. وقد عرفت بلاد المغرب بمجموعة من الرباطات على الشواطىء يقيم فيها الأساتذة والطلبة المجاهدون. عرفت هذه الرباطات من حدود مصر حتى طنجة. وبرزت من بين المساجد الكبرى جامعات ابتداء من مسجد القيروان إلى جامع الزيتونة بني سنة 116هـ إلى جامع القرويين (بني سنة 245هـ ـ 859م).

ونشأة المدينة وتعميرها كان من العوامل الأساسية في تعريب الإنسان واللسان. ذلك أن مجتمع المدينة مجتمع ضيق ويقبل تكتل السكان وجوارهم وتنمية المصالح المشتركة وتجمعهم في المسجد والسوق والحفلات والمظاهر الاجتماعية والسياسية. ثم خضوع المجتمع المديني للإدارة وتراتيبها وللسلطة السياسية، منذ الفتح العربي. والحكم الإسلامي تميز بإنشاء المدن في مختلف الأقاليم المغربية، وتطوير القرى إلى مدن وتعميرها بالمهاجرين العرب.

بالإضافة إلى نشأة المدن وتنميتها، والمسجد وتحويله إلى مدرسة وجامعة، عرف المغرب العربي نوعاً من الاقطاع على هامش الدولة. فقد كان زعماء قبائل عربية يفدون إلى هذه البلاد سواء في عهد الفتح، وبخاصة في عصر الولاة، وتترضاهم السلطة بمنحهم إقطاعية كبيرة إتقاء لتحول نفوذهم القبلي وزعامتهم إلى طمع في السلطة. ويستمرىء هؤلاء الوافدون مركزهم وإقطاعيتهم فيكونون شبه إمارة. وحولها يجمع صاحب الإقطاعية أتباعه من العرب والبربر وينظمها في شكل إمارة مستقلة استقلالاً داخلياً. وتدين بالطاعة للوالي ولمركز الخلافة كما حدث في «النكور» التي استخلصها لنفسه صالح بن منصور الحميري. ويذكر المؤرخون عدداً من البيوتات العربية أو المستعمرية التي أقامت لها إقطاعية في المغرب التف حولها الأتباع من الوافدين ومن البربر فتكون منهم مجتمع شبه مدني يهتم في حدوده الضيقة، بالاقتصاد والتعليم والسياسة على قدر ما تسمح له مصالحه الخاصة من الاهتمام بالسياسة.

ولا نغفل تعريب البادية (الأرياف) المغربية. فكثير من القبائل اختارت الزراعة لأنها كانت مغرية بثمارها وحبوبها وسعة آفاقها حيث يمكن تقسيم الأراضي وسكنى كل قبيلة أو فخذ من قبيلة في جزء من الأرض ومعايشة سكانه الأصليين. وهذا ما يفسر تميز بعض المناطق الكبرى في المغرب العربي بسكان عرب، وخاصة المناطق الفلاحية الخصبة.

تعريب الإدارة وإقرار العربية لغة رسمية:

المرحلة الثامنة (ولا نخضع للترتيب التاريخي لأنها تشمل المرحلة كلها من بداية الفتح حتى استقلال المغرب بدوله) تتمثل في العمل الإداري والتعليمي. فقد نقل العرب النظام الإداري الذي اتبعه الأمويون ثم العباسيون. بدأ عقبة ببناء دار الإمارة في القيروان بعد إنشائها. وجاء حسان بن النعمان فدون دواوين الدولة وأقر العربية لغة رسمية. وبعث عمر بن عبد العزيز إلى بلاد المغرب بعثة تعليمية قوامها عشرة من التابعين وأوصاهم أن يتفرقوا في البلاد ويدعوا إلى الإسلام ويعلموا المسلمين دينهم.

وكان لهذه البعثة أثر في نشر الإسلام وتعليم من أسلم مبادىء الدين.

ولم يكد يستقر الوضع السياسي حتى اشتغل العرب والبربر جميعاً بالتعليم والعلم. وقد لعبت جوامع القيروان والزيتونة والقرويين دوراً كبيراً في الثقافة والعلم، فأصبحت جميعها منارات للعلوم الإسلامية في المغرب العربي. قادت الحركة العلمية ـ ومنها علوم العربية والعلوم الإسلامية ـ منذ نشأتها حتى العصر الحديث. وامتد إشعاعها جنوباً نحو افريقيا، وشمالاً نحو الأندلس وأوروبا عموماً، حتى أصبحت من أهم معاقل المعرفة في العالم الإسلامي.

وحينما نقول تعريب الإنسان لا نقصد تعريباً عرقياً بقدر ما نقصد الاختلاط والامتزاج بين العرب والبربر.

حقاً إن العرب ـ الرؤساء منهم على الأخص ـ كانوا يشعرون بنوع من الاستعلاء على الشعوب التي يفتحونها. أتاهم ذلك من طبيعة السلطة، ومن أنهم كانوا يحاربون لنشر الإسلام، حتى إذا انتصروا بدا لهم أنهم الغالبون وأن الشعوب التي انتصروا عليها مغلوبون. ولذلك يشعرون بالكبرياء وبحق الغالب على المغلوب. وقد سبب هذا الاستعلاء عدداً من المشاكل بين المغاربة والعرب الفاتحين. فبقطع النظر عما يسميه المؤرخون الارتداد، حتى أعده أحدهم اثنتي عشرة مرة، فإن مشاكل قامت بين الفريقين نتيجة محاولة العرب بالاستئثار بمال الدولة وأرض الشعب وخيراته. فالمغاربة حين أسلموا اعتبروا أنهم والعرب سواء. ولذلك لا حق لهم في الاستئثار بالسلطة والمال والأرض. وهذا ما يفسر لنا الاضطرابات التي حدثت في عصر الولاة، والاستجابة، غير متحفظة، للمذهب الخارجي، لأنه كان ثورة على الدولة يرفع شعاراً إسلامياً، ولكنه متطرف: لا حكم إلا لله. ويتنازل عن كبرياء الولاة والحاكمين.

هذا الاستعلاء وهذه الاضطرابات لم تقف في وجه الاندماج الذي

حدث ـ وهو ما نسميه بتعريب الإنسان، حدث الإندماج بين العرب والبربر، فتعرب البربر وتبربر العرب عن طريق التزاوج والتعايش واللغة والأسماء. ولذلك تجد كثيراً من القبائل البربرية تحمل أسماء عربية وتنتسب إلى أرومة الأشراف، وكثيراً من الأشخاص والعائلات العربية تحمل أسماء بربرية.

وهذا الامتزاج والاختلاط حل المشكل العرقي في المغرب، ولو أنه ظل يطفو على السطح من حين لآخر في شكله القبلي.

تعريب اللغة مع تعريب الإنسان:

ويأتي تعريب اللسان مع تعريب الإنسان.

من الطبيعي أن يقدم الفاتحون لغتهم أثناء اللقاء، سواء كان هذا اللقاء سلمياً أو حربياً. يتفق ذلك ولا يكاد يختلف. وفي مختلف العصور وبين كل المجموعات، إلا في البلاد التي لم يكن فيها الفتح ـ أو الاستعمار ـ استيطانياً. بالنسبة للفتح الإسلامي سادت اللغة العربية في مختلف البلاد الغربية التي فتحتها جمهرة من الجيوش العربية واستوطنتها جمهرة من المستوطنين، من مصر حتى المغرب. ولم تسد في البلاد الشرقية ابتداء من إيران، أو بلاد فارس ـ رغم ما داخل اللغة الفارسية من كلمات ومضامين عربية إسلامية على الأخص ـ وتركيا حتى الصين، لأن الهجرة كانت عكسية فيما يخص بلاد فارس. فقد دخل العراق كثير من الفرس مقدمين أنفسهم لخدمة الإسلام حتى استولوا على الدولة العباسية. ونفس الشيء بالنسبة للأتراك والأكراد الذين استولوا على أجزاء من الدولة الإسلامية وكونوا دولاً إسلامية حتى آلت الخلافة إليهم.

تعريب اللغة في المغرب له سبب آخر هو أن اللغة الأمازيغية لم تكن لغة علم وحضارة. لغة منطوقة. الكتابة بها محدودة. ولم يكن من ممكناتها أن تصمد أمام لغة تستند إلى القرآن وتعليم الدين. كثير من المؤرخين يؤكد أن المغاربة أقبلوا على تعلم القرطاجية إقبالاً كبيراً. والقرطاجيون كنعانيون

لغتهم هي العربية أو قريبة منها. ولذلك لم تكن العربية غريبة عن أسماعهم وحسهم اللغوي فتعلموها بسهولة. ولعل الكثير من الألفاظ العربية التي انتقلت إلى الأمازيغية انتقلت من اللغة القرطاجية، ثم جاءت العربية فأسهمت في ذلك إسهاماً كبيراً. وانتقلت بالأخص عن طريق الإسلام وكتابه (القرآن).

زاد في هذا التأثير أن اللغة اليونانية التي تعلمها بعض المثقفين والسادة قبل قرطاجة واللاتينية التي صاحبت الغزو الروماني والبيزنطي اضمحلتا من بلاد المغرب، لأن المغاربة رفضوا الرومان والبيزنطيين كما عرفنا، فظلت العربية قريبة منهم عن طريق القرطاجية التي صححتها العربية والقرآن بصفة خاصة.

ثم إن الفتح الإسلامي اقترن بالأساتذة والمعلمين والمسجد كما اقترن بالقرآن، كتاب العربية الأكبر، والمرجع الأول للإسلام. بالإضافة إلى استيطان الجنود والمهاجرين. ولم يكن من نوع الاستيطان الذي عرفته هذه البلاد في العهد الاستعماري الأوروبي الحديث، ولا في العهود الاستعمارية الرومانية والوندالية والبيزنطية. فقد كان هؤلاء كما عرفنا يعيشون بعيدين عن المجتمع المغربي. يحاصرون المغاربة، ولكن المغاربة يحاصرونهم من جهة أخرى بالعزلة، يعزلونهم ويعتزلونهم. ولذلك لم يؤثروا في القيم الكبرى: الدين واللغة والعادات والتقاليد والفنون والآداب. أما العرب فقد أثروا في كل ذلك عن طريق الاستيطان الحقيقي والامتزاج بالشعب المغربي عن طريق التزاوج والتساكن والتعايش. وكان الإسلام الذي يؤاخي بين معتنقيه المؤثر الأول في هذا الامتزاج.

كان للسياسة فعلها في الخلاف بين العرب والمغاربة الأصليين. ولكن هذا الخلاف كان أيضاً بين العرب والعرب. العرب القاطنين، ومعهم الذين استعربوا من المغاربة، والعرب الوافدين الذين يفدون للقتال أو للحكم والإدارة. ولكن هذا الخلاف سواء بين المغاربة الأصليين والعرب عموماً،

وبين العرب المستوطنين والوافدين، ظل في حدود السياسة، لم ينعكس أثره على القيم الأخرى ومنها الإسلام واللغة.

أثر في تعريب اللغة أشياء أساسية منها:

ـ القرآن باعتباره سند الدين وكتابه. وأصبح ـ مع الزمن ـ حفظ القرآن واجباً على الإنسان المسلم، ليس فقط من أجل الصلاة، وكان على المسلم ـ ولو كانت لغته البربرية ـ أن يحفظ قصار السور على الأقل ليصلي بها، ولكن كذلك كان أساس التعليم. فالطفل يبدأ تعلمه بحفظ القرآن أو أجزاء منه. وخطبة الجمعة تلقى في الغالب بالعربية قد لا يفهمها أغلب المصلين، ولكنها تقترن بآيات وأحاديث ودعوات. والمسلم يحفظ بعضها، ولو لم يفهمها.

ـ التعليم ـ بداية من أصول الإسلام ـ كان بالعربية. وإذا كان قد بدأ بالمبعوثين المعلمين مع الجيوش الفاتحين أو بعدها، فقد اقترن التعليم بالمسجد. حيثما وجد مسجد يوجد معلم ومدرس وواعظ، حتى تكونت مدارس لتلقين علوم العربية، وجامعات بعد ذلك عرفتها تونس في جامع القيروان ـ وهو من أولى الجوامع في المغرب العربي، وعرفتها الجزائر في مساجد قسنطينة وتلمسان، وعرفها المغرب من الجنوب حتى الشمال من بلاد سوس حتى فاس (القرويين) والبصرة وسبتة في شمال المغرب. ثم اتسعت دائرة المدارس العلمية فشملت كل مدينة أسست أو قرية عمرت: مراكش ـ تمكروت ـ ايلغ في الجنوب. تطوان والقصر الكبير في الشمال، وجدة والمدارس الصغيرة في الإقليم الشرقي.

ـ إسهام المغاربة في علوم الإسلام والعربية. فقد أسهم علماؤهم في ليبيا وتونس والجزائر والمغرب في دراسة النحو واللغة والفقه والأصول والفتاوى الفقهية. وما تزال كتبهم عمدة في هذه الدراسات، كما أسهموا في كتابة التاريخ والرحلات. وكان لكل دولة كتابها المنشؤون الذين يبدعون في

كتابة الرسائل الرسمية. فأصبحت الكتابة بذلك مهنة إدارية مهمة توازي الوزارة.

ـ الإدارة: العرب هم الذين كانت بيدهم السلطة وهم الذين كانوا يديرون البلاد ويعينون المشرفين على الإدارة والجيش من العرب في الغالب، ويكاتبون السلطة المركزية بالعربية، ابتداءً من عهد الفتح حتى عصر الولاة. ثم في عهد الفاطميين الذين كانوا عرباً. وبعد هجرتهم إلى مصر كانوا يتعاملون مع «ولاتهم» بني زيري بالعربية، قبل أن يستقل هؤلاء. وقد بدأ حسان بن النعمان بوضع أسس الإدارة على غرار ما كانت في المشرق. وهي سنة تتفق ولا تختلف حتى في عصر الاستعمار الغربي. الإدارة منقولة بلغتها وقيمها وشكلها، وتنظيم ماليتها: الضرائب والجزية، على غير المسلمين، والخراج. وتنظيم القضاء، وقد كان إسلامياً. واستمرت هذه الأسس قائمة على عهد الولاة حتى بدأ مغرب الدولة يتكون على عهد الدول المستقلة فاتخذت كل منها إدارة خاصة مستمدة مما كان موجوداً ومعتمدة على اللغة والتراتيب الإدارية التي أوجدها العرب.

الشخصية المغربية
ضاعت...؟ ذابت...؟ نمت وازدهرت...؟

ليس افتياتاً على التاريخ القول بأن المغرب كانت له شخصية خصوصية متميزة، وأن الشعب، مستعيناً بجغرافية الوطن وتاريخه، كون هذه الشخصية الخصوصية المتميزة التي حافظ عليها ـ أو حاول ذلك ـ طوال فترات التاريخ المتعاقبة. وهي فترات لم تكن سهلة يسيرة كما رأينا.

تتكون شخصية الشعب أو الأمة، على غرار ما تتكون شخصية الفرد من عوامل التكوين الأساسية: العنصر والبيئة والثقافة بالمفهوم الواسع ـ بما فيها الفنون والتقاليد والمعتقدات والأساطير ـ والدين واللغة والسلطة السياسية والوطنية (ومنها السلطة القبلية والجهوية) ثم التاريخ الذي يصنعه الشعب، على فترات من الزمن، ويكون هو نفسه عاملاً من عوامل تكوين الشخصية والحفاظ عليها.

وقد تكونت الشخصية المغربية من كل هذه العوامل التي ليس من الضروري أن نحللها. فالمغاربة عنصر متحد منذ كانوا. لا يهمنا المنبع، كما ذهبنا إلى ذلك في بداية هذا الكتاب، فقد عرفتهم الأرض وعرفوا الأرض. وليس من الضروري أن يكونوا قد عمروا الأرض وكانت خلاء قادمين من خارج، شرق أو غرب. فقد نشأوا في أرضهم، وكونوا شعبهم. ومهما كانت أوجه الشبه العرقي التي تجمع بينهم وبين عرب جنوب الجزيرة، أو بينهم وبين أفارقة جنوب الصحراء، أو الأوروبيين فإن ذلك لا يقوم دليلاً على أن

منبع الإنسان المغربي هو الجزيرة العربية أو أفريقيا أو أوروبا.

وقد تقدم لنا أن أوضحنا معالم من هذه الشخصية عند قراءتنا للتاريخ المغربي في هذه الفترة المهمة، التي نعتبرها فترة التكوين. ولكن في فترة التكوين هذه تعرض الشعب المغربي لتحديات خارجية، بالإضافة إلى التحديات الداخلية، تحدثنا عنها في فصل سابق ونذكر ببعض ما يؤثر منها في الشخصية الوطنية ومن شأن هذه التحديات أن تكون مدمرة للشخصية الوطنية كما حدث في كثير من البلاد الأخرى.

ما مدى تأثير هذه التحديات في الشخصية المغربية؟ هل ضاعت أم ذابت أم نمت وازدهرت؟.

من المؤكد أن شخصية الشعوب لا يمكن أن تظل جامدة متقوقعة، خاصة الشعوب الحية التي يمكن أن تعطي بقدر ما تأخذ. العامل الجغرافي، على نحو ما بينا في بداية هذه الدراسة، كان له أثره في محاصرة شعب المغرب الكبير بين الصحراء والبحر، وكان له أثره في فتح منافذ للاعتصام بها كالجبال (الريف والأطلس) وكأطراف الصحراء، كلما تعرض الشعب للخطر، وذلك يعني نوعاً من العزلة والمحاصرة الذاتية. رغم أن هذا العامل قوي التأثير فإنه لم يستطع أن يمنع الاتصال على الأقل، الذي بدأت عوامله، منذ تأسيس قرطاجة سنة 814ق.م حتى الفتح الإسلامي نهاية القرن السابع، تعاقبت على الحياة والتعامل بين السكان الأصليين والوافدين ظروف إيجابية وظروف سلبية. ولذلك كان التأثير قوياً في الحالتين معاً. واضح ذلك في الظروف الإيجابية، وليس أقل منه وضوحاً في الظروف السلبية. لأن السلبية معناها الاحتكاك والمقاومة والحذر. ولكل ذلك أثره في تطور الشخصية، تأخذ عناصر جديدة من الآخرين تؤثر في تحولها الإيجابي نحو النمو والازدهار.

هذا الحكم المسبق يستمد عناصر تأييده من النقط الآتية:

التأثيـر القرطاجـي:

1 ـ التحدي القرطاجي والروماني لم يلمس الأرض فحسب. ورغم أن الاحتلال اقتصر في الغالب على المغرب النافع. أي المناطق الساحلية والقريبة منها، ورغم أن كثيراً من المغاربة الذين لم يقبلوا الاحتلال أو لم يستطيعوا مقاومته التجأوا إلى الجبال أو أطراف الصحراء، فإن الأرض المحتلة لم تبق خلاء. كان هناك كثير من المغاربة الذين عملوا في التجارة وفي الموانىء على عهد القرطاجيين، وكان هناك كثير من القرطاجيين الذين أصهروا إلى البربر وتعاملوا معهم سياسياً واقتصادياً وثقافياً. استفادوا منهم وأثروا فيهم بدون شك، فقرطاجة وحضارتها وثقافتها وتعاملها مع الأرض والبحر والإنسان لم تكن هي فينيقية، ولكنها كانت شيئاً آخر أخذ من المغرب بعض مكوناته، وأعطى للمغرب والمغاربة بعض مكوناته.

ورغم أن المغاربة تعلموا الزراعة والغراسة ـ مثلاً ـ قبل القرطاجيين، فإنهم استفادوا من التجارب القرطاجية، وأضافوا إليها استعمال العربة والكتابة والتنظيم المدني. ويؤكد كثير من المؤرخين على التأثير اللغوي الفينيقي في اللغة البربرية.

المهم من كل ذلك أن القرطاجيين لم يقدموا للمغاربة كل المظاهر الحضارية والثقافية التي كان هؤلاء يتوفرون عليها، ولكنهم، مهما يكن، قدموا كثيراً من تجاربهم التي استفاد منها المغاربة. دون أن ندخل في جدل عقيم عن مبلغ التأثير والتأثر، وهل التأثير ينفي الأصالة، أي ما كان يتمتع به المغاربة من مظاهر حضارية؟.

وفي هذا المجال يمكن أن نقول: إن المغاربة استفادوا من الطرق الحربية التي أتقنها القرطاجيون، باعتبار الحرب كانت إحدى وسائلهم للانتشار التجاري. وكان المغاربة يجندون ويحاربون في صفوف القرطاجيين كما حاربوا من بعد في صفوف الرومان ثم العرب. (هل ذلك يذكرنا بحربهم

في صفوف المستعمرين المحدثين: الفرنسيين والإسبان؟) في ضوء ذلك هل يمكن أن نعتبر «حنبعل» مغربياً ـ تونسياً وقد ولد في قرطاج، وحارب تحت راية والده «عملقار» ثم قاد جيشاً مشتركاً من القرطاجيين والمغاربة ضد الرومان حتى في عقر دارهم (غرب أوروبا وإيطاليا)؟ إذا كان موطن الميلاد ليس من الضروري أن يمنح الجنسية، فإنه من الصعب أن ننفي التأثير المغربي على رجل ولد في المغرب وحارب بين المغاربة، ومعهم، ضد أحد أعدائهم.

التأثيـر الرومانـي:

2 ـ ونأتي إلى التأثير الروماني لنجد أن روما أثرت في المغرب كما أثرت في مختلف أنحاء الإمبراطورية: أثرت في تكوين المدن. لم تكن منشئة المدن، فالمغاربة كانوا قد خرجوا من طور البداوة المطلق إلى طور تقتسم فيه الحياة البادية والحاضرة. ثم إن قرطاج كانت مثلاً رائعاً قبل روما بقرون كما كانت بجاية وأوتيكه وتونس وبنزرت وسوسة وشرشـال وطنجة وسلا واللوكوس وغيرها من المدن التي لعبت دوراً في التاريخ. ومع ذلك كان لروما أثر في اتساع دائرة المدن.

وذلك يؤكد ظاهرة أخرى وهي الإكثار من الفرص لاختلاط الرومان بالبربر. المدينة تسهل ذلك أكثر من البادية قطعاً. والاختلاط يتيح فرصاً أكثر للتأثر.

وأثر الرومان، على غرار القرطاجيين، في صناعة الحرب وتكوين الجيش وقيادته. وقد حارب المغاربة في صفوف الرومان كما حاربوا في صفوف القرطاجيين، كما قلنا. وكانوا يكونون أغلبية مهمة في الجيش الروماني، سواء كانوا عملاء أو مرتزقة أو مجندين بالقوة أو أجراء.

وكما انتشرت اللغة اليونانية ثم القرطاجية بين المغاربة وأثرت في البربرية ـ وهذا شيء طبيعي ـ فقد انتشرت اللغة اللاتينية إلى حد ما، وخاصة

في الطبقة المتعلمة من المغاربة على عهد الرومان. وقد كان من بين الشعب المغربـي من يرغب في الاندمـاج في الرومان والتعاون معهم على نحو ما رأينا في الاستعمار الغربي الحديث. وكان هؤلاء لا يتأثرون باللغة اللاتينية فيتعلمونها فحسب، ولكنهم يتأثرون بالعادات والتقاليد والمعتقدات. . .

التأثير العربـي الإسلامي:

3 ـ ثم نأتي للتأثير العربـي الإسلامي ولعله أكبر تأثير على وجه الإطلاق رغم القرون التي عرفتها الغزوات والاحتلال على عهود القرطاجيين والرومان والبيزنطيين والوندال (مدة ألف وستمائة سنة أي منذ قدم الفينيقيون إلى بلاد المغرب) والتأثير الإسلامي العربـي لم يقتصر على التبشير بالإسلام حتى أسلم المغاربة، وحسن إسلامهم كما يقول المؤرخون، ولكنه تعدى ذلك إلى احتكاك له إيجابياته مهما تكن سلبياته.

فقد أتى العرب بتنظيم للجيش، وبولاء للسلطة المركزية التي يوجد مقرها في دمشق ثم بغداد على بعد آلاف الأميال. وفكرة السلطة المركزية ـ التي لها طابع ديني ودنيوي في نفس الآن ـ فكرة مهمة لم تكن بمثل هذا البعد في عهود ما قبل الإسلام.

ثم هناك أفكار أساسية مالية مثلاً مثل الخراج ومثل الجزية على من تحميه الدولة ولم يسلم (لا نتحدث عن التطبيق العملي الذي كان مخلاً بكل هذه المبادىء تقريباً).

وهناك فكرة الجهاد التي اندمج فيها المغاربة الذين أسلموا. فكل من أسلم أصبح مطوقاً بواجب الجهاد، ولو ضد قومه وقبيلته إذا ما انحرفت عن الإسلام. ومعنى ذلك أن الإسلام فوق القومية والوطنية والقبلية. ثم الجهاد خارج الوطن كما تجلى في فتح الأندلس بمجرد ما استتب الإسلام في المناطق التي أسلمت والجهاد قبل ذلك في جزر البحر الأبيض كصقلية. وقد

شارك المغاربة في هذا الجهاد بحظ كبير ويتجلى ذلك في قيادته على يد طارق بن زياد، وبعدد الجنود المغاربة الذين قادتهم الحملة لفتح الأندلس.

وهناك المدينة التي تلتف حول المسجد. والمسجد، بما له من قدسية الصلاة وقراءة القرآن وتعليمه، يمنح للمدينة مركزاً خاصاً له طابع ديني إسلامي أكثر مما للسوق ذي الطابع التجاري.

ثم هناك التعامل مع الحكم المحلي. فبقطع النظر عن مرحلة الفتح التي وجد فيها العرب صعوبة كبرى استمرت نحواً من سبعين سنة، نجد أن مرحلة الولاة لا تقل صعوبة، ولكن من منطلق جديد. فقد شعر المغاربة بحقوقهم كاملة كمسلمين يعطيها لهم الإسلام. وكلما خرج وال من الولاة عن تعاليم الإسلام فيما يخص هذه الحقوق، واجه تمرداً وثورة وصلت أحياناً إلى حد قتل الوالي واختيار آخر بدلاً عنه. وكان ذلك بداية تمرد على السلطة المركزية.

يمكن أن نقول عن هذه الظاهرة إنها ظاهرة سياسية، بمعنى أن المغاربة لم يقتصروا على قبول الإسلام والحكم الإسلامي الذي كان حتى نهاية عصر الولاة في يد العرب. ولكنهم بدأوا يفكرون ـ ويعملون ـ سياسياً. تمردوا على الخراج لأن المسلم لا ينبغي أن يدفع ضريبة على الإنتاج. ثم تطور تفكيرهم السياسي هذا تطوراً مهماً جداً مع تسرب أفكار الخوارج الثورية، والعقدية في آن، إلى المغرب. الخوارج تداولوا الحكم في المغرب ـ رغم عدم الاستقرار ـ مع ولاة الدولة الأموية ثم العباسية. وكان للمغاربة دور كبير في استغلال الفكر الخارجي لصالحهم. وكان حظ السياسة في انتمائهم الخارجي أكثر من حظ المذهب والعقيدة. فقد كان هذا الانتماء وسيلة للثورة على السلطة الرسمية التي كانت تضطهد البربر سياسياً ومالياً وعسكرياً. وبما أن الخوارج الذين قدموا من المشرق كانوا ضد الدولة، فقد وجدها المغاربة فرصة ليكونوا ضد تصرفات الولاة الذين يأتمرون بأمر الدولة المركزية رسمياً على الأقل.

وسيكون لهذا العمل السياسي أثره في نشأة الدول المغربية وبعضها كانت دولاً خارجية كالدولة الرستمية الأباضية في الجزائر، ودولة بني مدرار الخارجية الصفرية في تافيلالت وسجلماسة بالمغرب. وبعض هذه الدول ـ صغيرة وكبيرة ـ كانت سنية.

وبهذا العمل السياسي انتقل المغرب السياسي من عهد الفتح إلى عهد الدولة.

شخصية المغرب فرضت وجودها:

في ظل كل هذه التحديات والتأثير الخارجي كانت شخصية المغرب موجودة وفارضة نفسها. ويمكن أن نقول: إن الشعب المغربي كان موجوداً بشخصيته المتميزة أثناء المد القرطاجي حتى إن بعض المؤرخين يفكرون في أن دولة قرطاج كانت مغربية، وليست فينيقية. لأنها لم تحتفظ بفينيقيتها العرقية والوطنية، ولو أنها احتفظت بحضارتها أثناء القرون الستة التي حكمت المغرب. بل إنها تأقلمت مع المغرب والمغاربة. وأصبح من الصعب التفريق العرقي بين المغربي والفينيقي. ورغم أن هذا القول قد يكون مبالغاً فيه، إلا أن المغرب والشخصية المغربية كان لهما ضلع في نهضة الدولة وبقائها في وجه الحروب الطاحنة حتى انهارت أمام صعود امبراطورية قوية جديدة هي الإمبراطورية الرومانية. المغاربة حاربوا في صفها، وأحياناً حارب بعضهم ضدها، وذلك شيء طبيعي حينما تتحكم المصالح في الدولة، فإن بعض الذين تتضرر مصالحهم قد يتخلون عن الولاء طمعاً في أن الخصم قد ينصفهم.

في العهد الروماني يختلف الأمر. فإن الرومان كانوا مستعمرين ومستغلين بكل معاني الاستعمار والاستغلال. ولا يمكن أن نقول إن المغاربة أصبحوا رومانيين أو أن الرومانيين أصبحوا مغاربة. نظراً للتباعد الكبير بين الشخصية المغربية المستقلة التي تطمح إلى التحرر وتبتعد كل ما أمكنها ذلك عن الاندماج.

غير أن الرومان كانوا بدون شك أكثر تحضراً من القرطاجيين، وأكثر فاعلية، بما استفادوه من اليونان فكرياً وعمرانياً وفنياً، وما استفادوه أيضاً من البلاد التي احتلوها وطعموا حضارتهم بما استفادوه. ولكنهم مع ذلك كانوا يعاملون الشعوب والبلاد التي احتلوها معاملة دونية. والمناطق التي احتلوها استوطنوا فيها، ولذلك استفادت من حضارتهم. وأثر ذلك ولا شك على بعض المغاربة الذين قبلوا الاندماج، وعموماً ـ بصفة أقل ـ على مختلف المغاربة الذين كانوا حذرين من الرومانيين وخصوصاً قاتلوهم للتخلص من احتلالهم.

هل يمكن أن نخلص من ذلك إلى أن الشمال ظل شمالاً والجنوب ظل جنوباً، ولم يندمجا، ولو التقيا. لأن الاندماج بينهما كانت تحول دونه طبيعة تكون الشماليين وطبيعة وشخصية تميز الجنوبيين؟.

سؤال نلقيه للتفكير. وقد يأتي وقت نستطيع أو يستطيع غيرنا الإجابة عنه.

ويمكن أن نلاحظ أن استمرار وجود الشخصية المغربية ـ ولو متأثرة ـ أثناء الفتح الإسلامي جعلها تحتفظ بخصوصيتها في العهد الإسلامي منذ الفتح وحتى الزمن الحاضر.

ـ كان عصر الفتح والولاة متميزاً في المغرب عنه في مختلف البلاد التي فتحها العرب ودخلها الإسلام.

ـ لم يندمج المغرب في الإمبراطورية العربية. فسرعان ما تكونت فيه إمارات، ثم دول مستقلة تميز بعضها بالسيطرة على الأندلس وغرب أفريقيا.

ـ الفكر الإسلامي في المغرب أيضاً كانت له خصوصياته حتى في قضايا الفقه وخصوصاً المعاملات. وباستثناء المد الخارجي (نشاط الخوارج) لا

نكاد نجد ما يطبع شعوب الشرق الإسلامي من خلافات مذهبية معتدلة ومتطرفة. فالمغاربة الذين أسلموا اعتصموا بالمذهب السني رغم حبهم وتقديسهم لآل البيت. والمذهب المالكي ظل غالباً في مختلف بلاد المغرب.

ـ وتتجلى هذه الخصوصية النابعة من الشخصية المغربية أيضاً في الصراع الخارجي. وإذا كانت الجغرافية قد تحكمت في تكوين ما يمكن أن يسمى الغرب الإسلامي بكل الصراعات التي عرفتها الأندلس والمغرب عموماً، فإن الوجود الإسلامي القوي في المغرب العربي جعله مطمحاً ـ بخصوصية ـ للقوة النصرانية التي تكتلت ضده في حروب متوالية كان آخرها السيطرة الاستعمارية المعاصرة.

نستخلص من كل ذلك أن الشخصية المغربية لم تضع ولم تذب، وإنما اغتنت واستفادت وازدهرت ونمت طوال مراحل التاريخ.

وخلاصة أخرى أساسية وهي أن المغرب لم يولد مع الفتح الإسلامي، ولم تكن بداية وجوده مع الإسلام أو مع الدول الإسلامية التي نشأت، وإنما كان له وجود بشخصيته المتميزة وبخصوصياته الواضحة منذ عرف الحياة. ولا نريد أن نحدد تاريخاً لمعرفته الحياة على بساط الأرض المغربية، ولكنا نستطيع أن نقول إن اليونانيين عرفوا المغرب في فتوحاتهم واتصلوا بالمغاربة وكان لهم وجود متميز، وعرفه الفينيقيون قبل الميلاد بنحو ألف سنة. وملحمة القرطاجيين مع المغاربة لم تكن مع شعب لم يكن له وجود.

نعم كان شعب المغرب مجموعة قبائل كبرى تتوزع إلى قبائل صغرى وتتجمع في البتر والبرانس. وكان التجمع القبلي ـ وما يزال حتى العصر الحاضر ـ لا يمنع من وجود شعب متكامل متميز له خصوصياته. وكل شعوب العالم مرت ـ وبعضها ما يزال ـ بمرحلة القبلية. والجغرافية كانت

تلعب دورها في التكوين القبلي كما تلعب الهجرة والأحلاف أكثر مما يلعب العرق أو الجنس. ولذلك فمن خطل الرأي تبني الفكر الاستعماري ـ بقصد أو بغير قصد ـ الذي ينكر على المغرب وجوده كشعب لمجرد القبلية التي تحكمت في مسيرته السياسية بدون شك، ولكنها لم تتحكم في مسيرته الوطنية. ومن هو الشعب أو الأمة التي لم تعرف القبلية ولم تتحكم في بعض مظاهر حياتها؟.

وحينما نعرف بالمغرب أو ندرس تاريخه لا يمكن أن نقزمه فنعتبر شخصيته تكونت مع الإسلام. ولكننا نعتبر وجود هذه الشخصية المتميزة قبل الإسلام ربما بآلاف السنين. ونعتبر هذه الشخصية تبلورت ونمت وازدهرت وأخذت طريقها الأكثر تميزاً مع الإسلام وبالإسلام.

وفي ظل الإسلام خرج المغرب بوضوح كامل من طور الشعب المتشبث بالأرض إلى مغرب الدولة.

ومغرب الدولة هو ما سيكون موضوع الفصول القادمة من هذا الجزء.

عصر نشأة الدولة والدويلات

ـ تمهيد:

ليس من السهل أن تمر بلاد في مثل الظروف الجغرافية والتاريخية والقبلية والسياسية والاجتماعية والثقافية التي توفرت في المغرب العربي من المرحلة التي مرت بها في عهد ما قبل الإسلام، وفي عهد الفتح الإسلامي وعصر الولاة، مما يمكن أن نسميه عهد الفوضى السياسية إلى عهد تكوين الدولة واستقرارها.

مهما تكن الرؤية البدائية للدولة في العصور الوسطى، ومهما يكن الدستور الذي وضعه النبي ﷺ عندما هاجر إلى المدينة، ومهما تكن تجربة الأمويين القصيرة التي حولوا فيها الخلافة إلى ملك، وبداية التجربة السياسية التي استفاد فها العباسيون من النظم الفارسية، فإن المغرب لم يكن قد استفاد مما صنعه القرطاجيون والرومان، لأنهم كانوا مستعمرين، لم يهدفوا إلى تنظيم المغرب كدولة، ولم يتعلم الشعب المغربي منهم شيئاً من نظمهم التي كانوا يطبقونها في قرطاج وروما. ولم يحاول الفاتحون ولا ولاة الخلافة الإسلامية أن ينقلوا للمغرب نموذج النظم التي طبقوها في المشرق، لأن المغرب لم يكن في رأيهم إلا بلاداً مفتوحة يحكمها وال للخليفة يستغل فيها الأرض والشعب والحكم، بتفويض من الخليفة لا صلة لشعب البلاد التي يحكمها بما يطبقه من نظم ومن أحكام.

هكذا وجدت بلاد المغرب نفسها محكومة دون نظام للحكم، ولو في إطار التبعية، إلا الحكم الفردي الذي يسير على أساسه الوالي للخليفة،

والقائمون معه على الحكم من ضباط جيش وجباة أموال، وربما قضاة أحكام.

هذه إحدى النقط الأساس التي تدين عصر الولاة. أي عدم تنظيم المنطقة الواسعة التي يحكمونها تنظيماً يجسد كيان البلاد، ويؤهل سكانها للمساهمة في تسيير أنفسهم ولو لصالح الخلافة، ويضمن وحدة هذه البلاد، ويخرجها من عهود القبلية والتمزق الذي جاء الإسلام ليحرر المجتمعات المؤمنة منه، لصالح الإسلام والخلافة الإسلامية.

ثم إن العامل الجغرافي ظل يتحكم في نشأة الدولة بالمغرب. فإذا كانت مصر قد حظيت، منذ فتحها عمرو بن العاص، بشبه حكم ذاتي، فإن قربها من مركز الخلافة نسبياً لم يكن ـ رغم ذلك ـ سبباً في التحامها وإدماجها. ثم شخصية عمرو بن العاص والثقة التي كان الحكم الخليفي يضعها فيه مكن مصر من هذا المركز في الحكم، أي الحكم الذاتي إذا كانت مصر بهذه المثابة، فإن ما وراء مصر، من برقة حتى المحيط، ظل تحت تأثير العامل الجغرافي المعقد، وشبه المعزول. إذا لم تكن جبال الأطلس والريف لم تستطع ـ رغم قساوتها ـ أن تفصل أجزاء هذا المغرب الكبير، فإن الصحراء في الجنوب والبحر في الشمال والغرب قد استطاعا أن يكونا من المغرب شبه جزيرة. ومع ذلك فهي غير معزولة، يجتازها المغامرون من الشرق، وتسبح فيها مجموعات هائلة من القبائل، المتفرعة عن أصليها الكبيرين: البتر والبرانس، بكل ما كان بينهما، وفروعهما الكبيرة، من لقاءات وصراعات وتناقضات.

فهذه الظروف الجغرافية ـ طبيعية وبشرية ـ كان لها أثر في نشأة الدولة، وتنوع هذه النشأة. وفي تطور الدولة وتنوع هذا التطور.

ثم إن الإسلام الذي تمكن، إلى حد ما، كدين، في كثير من القبائل لم يستطع أن يتمكن كدولة، لأنه لم يقدم النموذج في عصر الولاة كما قدمنا، ولأن الدولة في المغرب لم تكن واردة بعد الإسلام ما دامت الخلافة قائمة، كحكم مركزي. ولا سبيل للشعب ـ أو القبائل ـ إلى التفكير في قيام دولة

وليس أمامها النموذج الذي لم يقدمه الحكم الأجنبي قبل الإسلام وأثناءه.

ولعل النظام القبلي في هذه الفترة لم يكن ليسمح بتكوين دولة بسبب النعرة القبلية ـ ولا نقول العنصرية ـ ولا سبيل لإحدى هذه القبائل الكبرى أن تفرض سلطانها على المجموعة الأخرى، حتى ولو كانت من القبائل الكبرى كصنهاجة وأوربة ومصمودة وكتامة [وكلها من البرانس] ونفزاوة ونفوسة ولواتة [وكلها من البتر]. الزعامة التي كانت تترأس هذه أو تلك من هذه القبائل لم تكن تستطيع أن تفرض نفسها على القبائل الأخرى أصولاً أو فروعاً.

هذا التنافس القبلي الذي كان يبلغ أحياناً حد الصراع يفسر لنا ظاهرة مهمة في نشأة الدولة، وخاصة على عهد النشأة، وهي أن المغرب، أو مجموعة من قبائله، كان في حاجة إلى زعامة «غيرية» تستطيع أن تستقطب المجموعات القبلية، ليس استقطاب قوة وعنف وتعال واحتقار، كما فعل معظم الولاة، ولكن استقطاب «رأي» ومذهب وعقيدة وأخلاق. كما يتضح ذلك من الانصياع والتعامل مع الوافدين الذين تزعموا نشأة الدولة، مذهبية [الخوارج والعبيديون] أو دينية سنية [الأدارسة] أو سياسية [الأغالبة].

التاريخ لم يتساءل: لماذا وجد بنو مدرار [الصفرية] وبنو رستم [الإباضية] الأنصارَ الكُثْرَ في المغرب من طرابلس حتى سجلماسة؟ ألا أنْ يزعم أن بعض زعماء القبائل أخذوا المذهب في المشرق وعادو به إلى المغرب لينصروا المذهب، متخذين لهم زعماء من الدعاة المشارقة، ومناصرين لهم في تكوين دولة هنا ودولة هناك من المواطنين المغاربة. والتاريخ لم يتساءل: لماذا استطاع الأدريسان، الأول والثاني، أن يكونا الدولة الإدريسية التي حولت تاريخ المغرب، وزرعت شيئين مهمين:

أولهما: نشأة الدولة القوية السنية المعتمدة على كثير من القبائل الكبرى، والزحف بالإسلام شرقاً، انطلاقاً من وليلى وفاس، حتى أطراف الدولة الرستمية.

وثانيهما: نشر الإسلام والقضاء على الجيوب المنعزلة: يهودية ونصرانية وعلى بقايا العبادات البدائية.

لماذا استطاع الإدريسان أن يحققا هذا النصر الذي لا يستهان به في المغرب الأقصى، رغم فشل الدولة في الاستمرار، وما كان لها أن تستمر بعد أن حققت ما يمكن أن تحققه دولة نشأت من عدم، وفي ظروف غير مكتملة لنشأة دولة واستمرارها؟

يمكن أن نجيب على هذه التساؤلات التي يفتعلها التاريخ، انسياقاً للمؤرخين مع فكرة المعجزة، بأن القبائل المغربية كانت في حاجة إلى زعامة قوية، «غيرية» لا تستمد قوتها من السلطة، ولكن تستمدها من «الأخلاق». المذهب أخلاق. الإسلام أخلاق. والقرب من النبي أخلاق. ثم طريقة التعامل والأسلوب المعتمد على الإقناع أخلاق. و«الأمان» أخلاق. وأهم تعبير عن الأمان هو المصاهرة. وقد كانت القبائل في المشرق والمغرب تستعمل هذا الأسلوب في إحداث التقارب بين القبائل والشعوب. حتى الإمارات الأوروبية في العصور الوسطى وعصر النهضة استخدمت هذا الأسلوب في التوحد، أو في تقريب مسافة الخلف بين الإمارات، أو القضاء على أسباب الحروب والنزاعات. واستعملت هذا الأسلوب بأخطر مما استعمله العرب والبربر وكانوا ـ حتى وقت قريب ـ يهبون إقليماً من المملكة أو من المستعمرات كصداق للعروس في المصاهرة. وقد تعاهد إدريس مع قبيلة أوربة فتزوج كنزة. وكانت نعم الزوجة الصالحة التي لعبت دوراً مهماً في ترسيخ قدم الدولة في عهد ابنه إدريس الثاني.

هذا الدور لا يتحدث عنه التاريخ بالدقة الضرورية. ولكن له وجود في التحليل التاريخي.

هكذا كانت نشأة الدولة في المغرب ضعيفة متفرقة متعددة المذهب والانتماء، تعكس الوضع السياسي في المشرق وليست ظلاّله، متمردة، ولكن

لها انتماء صوري في أغلبها، عضوي في نموذج منها. متقوقع نتيجة انعدام الثقة والخوف من المصير، محاط بكثير من المتاعب والأخطار. ولكنه صامد، ومؤسس وموحد للمغرب الإسلامي، وفي الوقت نفسه مستعد للانفصال عن المشرق: وعن الخلافة الإسلامية.

وعصر النشأة يتمايز بالمذهبية التي عرفها المشرق: الخوارج والسنة والشيعة. ولكنه انتهى باستلام المذاهب من السنة ليأخذ عصر التأسيس طابع مذهبية أخرى ميزت عصر المرابطين عن عصر الموحدين كما سنرى.

قضايا أساسية في نشأة الدولة وتكوينها

انتهينا في القسم الأول من هذا الكتاب إلى استشراف الشخصية المغربية. بعد الذي مر بالمغرب العربي من تقلبات تاريخية، وبعد الذي عرفته الشخصية من تجارب خطيرة كان يمكن أن تذوب معها، وهي تتلقى ضربات خارجية تمثلت في الزحف الفنيقي والروماني والوندالي والبيزنطي، ثم وهي تقاوم الفتح العربي كلما كان هذا الفتح متسماً بالغزو والعنف والقمع، ثم وهي تستجيب للإسلام والعربية، ويعتنق المغاربة الإسلام ويدافعون عنه وينشرونه في الآفاق المغربية، وينتقلون به إلى البلاد الأندلسية.

وكانت هذه التجربة الحافلة بالصراع، والتي تَعَاورها المد والجزر والهزيمة والنصر، مبعثَ نمو وازدهار للشخصية المغربية، لتسهم بعد ذلك في بناء تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية، وليكون المغرب العربي الجناح الغربي المتحرك في الحفاظ على الإسلام في وجه الغزوات الصليبية. الذي لم يستطع الجناح الأندلسي المحافظة عليه أمام المواجهة القوية منذ سقوط قرطبة سنة 1236 م حتى سقوط غرناطة سنة 1492م، والمحافظة على اللغة العربية والعلوم الإسلامية والعربية في أوسع منطقة جغرافية من البلاد التي تعربت ـ كلياً أو جزئياً ـ مع الإسلام.

وازدهار الشخصية المغربية ونموها كان له أثر إيجابي في الميدان السياسي، كما في الدعوة الإسلامية وخدمة الثقافة الإسلامية والعربية وحضارتهما. فقد مرت الدولة الإسلامية في المشرق بالظروف الطبيعية التي

مرت منها كل الدول الكبرى في تاريخ البشرية، وفي زمن مثل الزمان الذي عاشت فيه. ابتدأت خلافَة وانتقلت ملكاً عضوداً. ثم تطورت مع الفتح الواسع الأرجاء إلى إمبراطورية كبرى. وابتدأت دولة عربية انبعثت من قلب الجزيرة العربية، وقامت على كاهل الأطر العربية سواء في الدعوة إلى الإسلام، يوم كان الإسلام يحتاج إلى الدعوة والتبشير، وعلى الأطر المدنية لتسيير الدولة، وكانت الدولة تعتمد على أطرها العربية باعتبار أن أكثرية المسلمين منهم، وباعتبار أن الدولة لم تكن في حاجة إلى توسع في الأطر السياسية والإدارية. ثم قامت عل كاهل الأطر العسكرية لأن الولاة العسكريين كانوا يختارون من خيرة المجاهدين المسلمين، من الصحابة أولاً ثم من التابعين، والجنود كانوا كذلك من القبائل العربية التي كان الكثير منهم يحارب من أجل الإسلام، وبعضهم أصبح محترفاً، أو مجنداً من مركز الدولة ـ دمشق أو بغداد ـ.

مرت الدولة الإسلامية بهذه الظروف التوسعية التي لم تكن كلها إيجابية، ولا كانت سلبياتها أكثر من إيجابياتها. ولكنها طبيعة ازدهار الدولة ثم شيخوختها وانحلالها نالت من الدولة ـ الامبراطورية ـ الإسلامية كما نالت من قبل من الامبراطورية الرومانية، التي انقسمت هي الأخرى إلى إمبراطوريتين شرقية وغربية. ومن بعد من إمبراطوريات أخرى حتى العصر الحديث على اختلاف في ذلك. والإسلام لم يعصم الإمبراطورية الإسلامية من التفتت. وربما كان ذلك لأن القائمين على هذه الإمبراطورية تركوا الإسلام جانباً، وتعاطوا مع الحكم بالسياسة لا بالإسلام.

وقد يكون التفتت الذي أصاب الدولة الإسلامية في صالح الإسلام والمسلمين، ما دام المسلمون لم يكونوا قادرين ـ ولا كانت طبيعة الحكم قادرة على تمكينهم من ذلك ـ على الحفاظ على الإمبراطورية الإسلامية الكبرى في ظل حكم بدأ تحت ظل الخلافة، وسرعان ما تحول عن حقيقتها ومضمونها، ولو احتفظ باسمها. وما كانت الخلافة لتحكم من الهند حتى المغرب.

هل كانت الخلافة قادرة على صيانة الدولة ـ الإمبراطورية ـ الإسلامية بعد التوسع الكبير الذي عرفه الإسلام بالحكم الإسلامي في المشرق والمغرب، ولنلق نظرة على الخلافة ومنهجها في الحكم حتى نستطيع أن نجيب على هذا السؤال.

اضطراب أمر الخلافة:

الخلافة اصطلاح سياسي إسلامي لم يعرف قبل وفاة رسول الله ﷺ بعد أن فكر الصحابة فيمن يتولى الأمر من بعده. وقد أخذت الكلمة من القرآن، ومعروف أن النبي ﷺ كانت له مهمتان: الأولى تبليغ الوحي من ربه، وهذه مهمة انتهت بوفاته. والثانية الإشراف على تنفيذ شريعة الله تنظيراً وعملاً، والحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه. وهذه هي المهمة التي أصبحت معطلة بعد وفاة الرسول ﷺ. فكان لا بد من أن يختار من يتولى أمرها. وكان اجتماع السقيفة من كبار الصحابة للاتفاق على من يتولى هذا الأمر. وما من شك في أن وفاة الرسول كانت مثيرة للأفكار والنفوس، حتى أن بعض الصحابة اهتزت نفوسهم كأنهم لم يقرأوا من قبل قول الله تعالى: «**وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم**» ولكن مفاجأة الموت لم تلبث أن تبخرت، وعاد الصحابة إلى رشدهم. ومع ذلك فكروا، وهم يديرون أمر الخلافة، هل يكون الخليفة من آل بيت الرسول كعمه العباس بن عبد المطلب، وابنى عمه علي بن أبي طالب وأخيه عقيل، غير أن الاتجاه الغالب انتهى إلى أن الخليفة لا تشترط فيه القرابة، فاختاروا أبا بكر لأنه كان أقرب إليه من حيث الصلة في الدين، فقد كان أحد شيوخ الصحابة الكبار في السن، وفي العمل من أجل الإسلام. وكان من أوائل الذين آمنوا، وكان صاحبه في الغار، وهو يهاجر من مكة مطارداً من خصومه. وأشارت إليه الآية الكريمة: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، وكان مركز ثقة

عند النبي ﷺ فاستخلفه في فترة مرضه ليصلي بالناس. ثم نشأت فكرة القرابة القبلية، فكان اختيار أبي بكر ثم عمر من بعده، لأنهما من قريش، أو تصادف أن كانا من قريش، ويروى أن أبا بكر قال: إن العرب لا تدين لغير هذا الحي من قريش.

إذا كانت هذه الأفكار قد ترددت في بداية الخلافة فإنها كانت إحدى الأسباب التي نمّت الفتنة بعد عمر، حتى أصبحت كبرى الفتن التي أصابت المسلمين. ونشأت عنها الطوائف السياسية والدينية التي ارتبطت بالسياسة. نشأة الخوارج والشيعة بمختلف فروعهما ـ إذن ـ نشأة سياسية أكثر منها دينية، ومرتبطة أساساً بالخلافة وبمن يتولى تسيير أمور الدولة.

الخلافة كانت مركزاً للدولة ـ ولو أن كلمة الدولة لم تكن معروفة بالمفهوم الذي اصطلح عليه في عهد العباسيين ـ والخليفة كان رئيس الدولة باعتباره خليفة رسول الله في تسيير أمورها. ولكن في عهد الخليفتين الأولين حدثت أشياء خطيرة أحياناً، مهمة أحياناً أخرى: خطورتها تأتي من الردة التي راودت كثيراً ممن كان إسلامهم على شفا جرف، فكانت ردة بعضهم عن الإسلام، لأنهم اعتبروا إسلامهم مرتبطاً بمحمد. وبعضهم لم يقبل أن يدفع الزكاة لأنهم كانوا يدفعونها لمحمد. فلما توفي وجدوا في وفاته فرصة للتخلص. ولا شك أن بعض أعداء الإسلام وخصومه كانوا وراء هذه الردة فانشغل الخليفة بمحاربة المرتدين. وكانت تلك بداية فتنة خطيرة ضد الإسلام، نجح أبو بكر بالتخلص منها بمحاربة المرتدين والممتنعين عن دفع الزكاة.

حدث آخر حدث بالأخص ابتداء من عهد أبي بكر ثم عمر، وهو الفتوح الإسلامية في أطراف الجزيرة: العراق التي كانت تحت سلطة الفرس، والشام وكانت تحت سلطة الروم البيزنطيين، واستمرت الفتوح في عهد عمر بن الخطاب في بلاد الفرس والروم، ثم اتجهت غرباً نحو مصر، وفتحُ مصر كان مفتاحاً لفتح المغرب العربي كما أوضحنا في القسم الأول من هذا الكتاب.

بذلك أخذت الإمبراطورية الإسلامية تتكون وتتسع، وأصبحت المركزية ثقلاً على الدولة يصعب التحكم في أطرافها كما عرفنا بالنسبة للمغرب العربي. وكانت الصعوبات غير متناهية، يصعب على الدولة أن تعالجها من مركز الخلافة، سواء معالجة سياسية باختيار الحكام والقواد العسكريين والإداريين، والقيام بتركيز سلطة الدولة والتحكم في أموالها، أو معالجة إسلامية بتثبت أركان الإسلام، وقد ارتبطت بتركيز أركان الدولة. فحينما كانت الدولة قوية ومسيطرة كان الإسلام قوياً، والعكس صحيح. هذه المركزية كان يمكن التخلص من متاعبها لو أن الخلفاء في العهد الأموي والعهد العباسي اتبعوا السنة التي اتبعها النبي ﷺ. كان يعين عمالاً على المناطق التي اعتنقت الإسلام بالفتح، ويعين شخصية من زعماء المناطق التي اعتنقت الإسلام بالدعوة. ولذلك كانت هذه اللامركزية مانعة من اصطدام المركز بالأقاليم من جهة، وتمكين الأقاليم من القيام بمسؤولياتها الدينية والدنيوية في إطار الإسلام.

هذه المشاكل الكبرى ـ مشاكل النمو ـ ومشاكل تحول الإسلام من دين فحسب، ودولة محدودة المسؤولية إلى دين ودولة كبرى، وتحول الخليفة من رجل يهتم بشؤون الدين والحفاظ عليه والحكم بين الناس، إلى رجل دولة يرعى شؤون الدولة ويحافظ عليها ويزيد في اتساع رقعتها، وضعت الأطراف ـ أطراف الإمبراطورية الكبرى ـ في مركز الاختبار:

حكام الامبراطورية أمام الاختبار:

بدأ هذا الاختبار بالولاة الذين يتولون الفتح ثم الحكم، ويصبحون بالممارسة مستقلين نسبياً، لا يربطهم بالمركز إلا الخراج، يدفعونه سنوياً أو بالمناسبة، وإلا الغنائم والأسلاب التي تكثر بحسب رغبة الوالي في تقديم الدليل على حزمه وقوة سلطته وارتباط الولاية بالمركز.

ثم تطور هذا «الاختبار» بالصراع بين مراكز القوى المختلفة، سواء في

مركز الدولة أو في مركز الولاية. فهناك قواد عسكريون ورجال دولة مدنيون ينفس بعضهم على بعض، ويدس بعضهم لبعض رغبة في المنصب. وقد قدمنا نماذج من هذا الصراع بين الولاة مثلاً: مسلمة بن مخلد الذي ولى مصر بعد وفاة عمرو بن العاص فطمع في ولاية المغرب، ولذلك سعى إلى عزل عقبة بن نافع، باني القيروان، وتولية مولاه أبي المهاجر دينار، وانتقام أبي المهاجر من عقبة، بل وتدمير القيروان، ثم عودة عقبة إلى مركزه في ولاية المغرب على عهد يزيد لينتقم من أبي المهاجر. وقد أثر ذلك على مسيرة الفتح. فكل وال يتبع سياسة تختلف عن سياسة سابقه، وينتقم أحياناً من الشعب الذي والى سلفه.

وتجلى «الاختبار» أيضاً في تغير الدولة نفسها. فانتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين أثر في مسيرة الفتح وفي السياسة التي يتبعها الولاة، بل في تغيير الولاة أنفسهم. وكلما ارتقى خليفة جديد إلى العرش اتبع سياسة جديدة مع الولاة ومع البلاد نفسها.

والمظهر الآخر للاختبار أن الولاة أنفسهم كانوا يتعرضون لمنافسة قوية من مساعديهم، وربما أدى الأمر إلى عزل الوالي لصالح مساعده. وقد مر بنا الحديث عن تسلط عبد الرحمن بن حبيب وأخيه وابنه على السلطة ابتداء من سنة 127 هـ. ثم تسلط المهلبيين الذين حاولوا الاستقلال بالمنطقة ابتداء من عمر بن حفص (151 ـ 154 هـ).

كل هذه المظاهر أدت إلى اضطراب الحكم في المغرب العربي. وكلما اضطرب الحكم في المركز (دمشق ثم بغداد) ازداد الاضطراب في الجهات والأقاليم، وخاصة البعيدة منها عن مركز الخلافة كبلاد المغرب.

سلبية المركزية الخلافية:

نستنتج من كل ذلك أن الخلافة لم تعد قادرة على أن تمسك بزمام الحكم في المناطق المفتوحة، سواء في المشرق، بلاد فارس ـ مثلاً ـ أو في المغرب حتى الأندلس.

وتلك إحدى العوامل التي مهدت لتكوين دول جديدة انفصالية عن الخلافة. بل ذلك ما مهد للقضاء على مؤسسة الخلافة نفسها. فقد تلاشت سلطتها ابتداء من عهد المأمون بخروج بعض المتسلطين على الحكم، حتى ابتدأت دول تتكون في أطراف الجزيرة.

بدأ هذا الانحلال في عهد الدولة الأموية التي قسمت الامبراطورية إلى مجموعة ولايات تحكم بنظام لا مركزي، فتجلت بذلك سلبية اللا مركزية أكثر من إيجابياتها، وكانت نحواً من ثمان ولايات: الحجاز، والعراق، والجزيرة وأرمينية، وأجناد الشام، ومصر والمغرب، وبلاد الأندلس. وبذلك بدأت تظهر الولايات المستقلة، ثم كبار رجال الدولة الذين كان لهم نفوذ كبير في ولاياتهم. . وبدأ الصراع بين الدولة المركزية والولاة، أحياناً يتغلب الوالي حتى يطغى على رئيس الدولة، وأحياناً يتغلب الحكم المركزي، فيُذِلُّ الولاة (الأمراء) ويصادر أموالهم. وقد يصل الأمر إلى تصفيتهم.

في العصر العباسي تطور أمر الخلافة إلى أخطر من ذلك. فقد عاشت الخلافة في المائة سنة الأولى من حياتها (132هـ ـ 656 م) قوية عزيزة الجانب. ثم بدأ الضعف والوهن ينخر جسم الخلافة كلما تمكن الوزراء والولاة من السلطة، حتى لم يعد للخليفة نفوذ إلا الاسم. وأدى ذلك إلى خلع كثير من الخلفاء وقتل بعضهم، وتولية من تشاء العصبة المسيطرة من الوزراء والولاة الفارسيين أو الترك. وبسيطرة هؤلاء تكونت إلى جانب الخلافة المركزية مجموعة دول كالمماليك الأتراك ـ (232 ـ 334) وكالدولة البويهية الديلمية (334 هـ) ثم السلجوقية (447 ـ 590) ولم تسقط الدولة العباسية على يد المغول سنة 656 هـ حتى كانت الامبراطورية الإسلامية في المشرق والمغرب مقسمة إلى ثلاث عشرة دولة.

ولم تخل دولة الخلافة إلى جانب ذلك من ثورات وتمردات، من العلويين تارة ومن الخوارج أخرى، كان مركز الخلافة مهتزاً لم يستقم له أمر

في الحكم والإنشاء إلا في أوائل عهد بني أُمية وفي المائة سنة الأولى من عهد العباسيين.

ومن ذلك يمكن أن نستنتج أن المركزية لم تكن لتصلح لإدارة دولة إسلامية اتسعت أرجاء نفوذها، ودخلت الإسلامَ كثيرٌ من الشعوب والقوميات. في حين أن نظام الحكم لم يتطور نحو نظام ديمقراطي ولا مركزي. ولم تتفهم الدولة مسؤولية الخلافة، كما أن الشعوب الإسلامية أو قادتها على الأصح لم يعودوا يقيمون وزناً للخلافة ومركزها الديني والدنيوي. فلم يكن بد من تمزق الدولة الخلافية على نحو ما وقع في نهاية بني العباس.

القضايا الأساس في بلاد المغرب

تكوين الملكية أو الدولة في المغرب ليس جديداً، ولم يرتبط بالحكم الإسلامي. عرف المغرب نظم حكم ملكية منذ الألف الثانية قبل الميلاد. وسواء كان هؤلاء الحكام ملوكاً، بمفهوم الملكية التي عرفها اليونان والرومان والمصريون قبلهم، أو بمفهوم الزعامة القبلية، فقد كانوا يبسطون نفوذهم على مناطق شاسعة من المغرب الكبير، وعلى مجموعات قبلية مهمة. بل إن بعض المؤرخين يشيرون إلى أن أدربيكان كان ملكاً في شرق ليبيا في القرن الخامس قبل الميلاد. والمعروف من هؤلاء الملوك الأمازيغيين «سيفاكس» و«ماسينيزا» و«باكا» وقد عاشوا في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد. تحالف بعضهم مع قرطاجة، وحاربها بعضهم، وتصالحوا وتحاربوا، واستولى بعضهم على ملك الآخر. واستغلت الحروب البونية بين قرطاجة وروما نفوذَ هؤلاء الملوك لاستمالتهم ـ أو استمالة بعضهم ـ ضد خصمه. وقد استمالت روما «ماسينيزا» ضد قرطاجة وتحالفت معه. وكان ذلك من أسباب تدخل روما في بلاد المغرب، حتى أصبحت تعين الملوك فاختارت روما لعرش موريتانيا «يوبا بن يوبا» ليكون عميلاً لها.

كان بعض هؤلاء الملوك يحتلون مناطق شاسعة كالملك سيفاكس، الذي يقول بعض المؤرخين أن مملكته امتدت من حدود قرطاجة إلى موريتانيا، وكانوا بجانب الحكم، الذي كان في الغالب «لا مركزياً» يعتمدون في المناطق البعيدة من عاصمتهم على التحالف مع زعماء القبائل، يحالفون الدول الكبرى ويخاصمونها. وكان بعضهم يعيش حياة الملوك كما اقتبسوها من مقدونيا

وروما. وكانوا يبسطون نفوذهم على الشعوب التي يتملكون عليها، كما كانوا يقومون بالإصلاحات الضرورية في مملكتهم الواسعة[1].

المهم من كل ذلك أن المغرب عرف الحكم (حكم الدولة) قبل العهد الإسلامي، ولم يكن مديناً في هذا النظام للحكم الاستعماري القرطاجي والروماني. ولكنه عرف الحكم الوطني قبل ذلك.

لقد عرفت مناطق من المغرب إذن نظام الملكية والحكم المركزي واللامركزي - في حدود المركزية التي تتيحها الجغرافية والمقدرة على السيطرة - ثم عرفت مناطق منه نظام الحكم القرطاجي على نحو ما بينا في القسم الأول - وقد دام هذا الحكم نحواً من ألف عام، اقتبس فيه المغاربة كثيراً من مظاهر الحضارة، ومنها بعض أنظمة الحكم، ولو أن المغاربة كانوا في فترات من هذا التاريخ الطويل ينفرون من السيطرة القرطاجية، ويحاربونها كلما اتجه بهم الرأي إلى التخلص منها، ولو بالتعاون مع الرومان. ثم عرف المغاربة بعض أنظمة الحكم في العهد الروماني. وحينما جاء الفتح الإسلامي تعرفوا أيضاً على بعض الأساليب التي تُدَار بها شؤون الدولة، رغم المقاومة التي أبدوها في وجه جميع هؤلاء الذين مروا بالمغرب من القرطاجيين حتى العرب.

خلفيات الدولة في المغرب:

تكوين الدولة وتنظيم الحكم، إذن ليس غريباً على الشعوب المغربية قبل فترة الفتح الإسلامي، مع العلم أن أوضاع الولاة لم تستقر في المنطقة المغربية من مصر حتى طنجة والسوس.

إذا أضفنا إلى ذلك عدم قدرة الخلافة على تركيز نفوذها والنزاع المستمر

---

(1) بعض المعلومات من هذه الممالك في كتاب محمد شفيق: لمحة عن ثلاثة وثلاثين قرناً من تاريخ الأمازيغيين.

بين الولاة، والظلم الذي كان يُحيق بالشعب من الولاة أنفسهم، والعامل الجغرافي المتمثل في بعد المسافة البرية وصعوبة اجتيازها وخاصة المنطقة الشمالية ذات «الطبيعة الجبلية» الأطلسية.

وإذا أضفنا إلى ذلك أن العرب ليسوا شعباً بحرياً بحيث لم يستفيدوا من البحر ـ كما استفاد اليونان والرومان من قبل ـ في تذليل مهمتهم وتعبيد الطريق نحو مناطق المغرب. وإذا أضفنا إلى ذلك النزعة التي عرف بها المغاربة وهي النزعة الاستقلالية «اللااندماجية» ونزعة الاعتزاز بالأرض إلى جانب الاعتزاز بالإنسان، إذا استحضرنا كل هذه الظروف السياسية والبشرية والجغرافية، أدركنا الفضاء الذي أهل المغرب للانتقال من عهد التبعية إلى عهود الاستقلال، ومن عهد الحفاظ على الأرض والإنسان والدفاع عنهما إلى عهود الدولة، لنفس الغاية والهدف.

على أن هذه الظروف ستتنوع وتختلف من منطقة إلى أخرى ومن دولة إلى أخرى، فهناك خصوصيات سنجدها عندما نقرأ تاريخ نشأة كل دولة من دول المغرب في الثلاثة عشر قرناً التي عاشها المغرب العربي من الفتح الإسلامي حتى العصر الحاضر. وهناك قضايا مبدئية وأساسية نرى أن نقدمَها بين يدي تحليل نشأة هذه الدول وعملها، تلقي الضوء على مسيرة التاريخ المغربي، وعلى الصلات التي ظلت تربط المشرق بالمغرب بخصوصيات معينة تطبعها الجغرافية كما يطبعها اختلاف العقلية ـ وربما اختلاف المفهوم الذي أعطاه كل من المغرب والمشرق للإسلام ـ وطبعتها مسيرة التاريخ الذي أخذ في كل من المشرق والمغرب مسيرة تختلف قليلاً أو كثيراً بتأثير من الجغرافية والطبيعة البشرية.

لا ينبغي إذن أن نأخذ قضية مثل قضية تكوين دول في المغرب بمثل البساطة التي يأخذها بها كثير من المؤرخين حينما يروون أحداث التاريخ، كأنما لم تكن وراءها خلفيات وأسباب عميقة دفعت بالتاريخ أن يسير مسيرته

ووجهته تلقائياً دون أسباب أكثر عمقاً.

المغرب اتجه شمالاً:

القضية الأولى: التي نناقشها هي التأثير الجغرافي. وقد حللنا في القسم الأول تحكم الجغرافية في مسيرة التاريخ. ونضيف إلى ذلك أن المغرب الكبير اتجه في الغالب شمالاً أكثر منه. شرقاً حتى جاء الإسلام. الصلة الشرقية الوحيدة التي كانت بالمغرب هي الدولة القرطاجية. وقد عرفنا أنها لم تعد دولة شرقية بالمفهوم الجغرافي بعد أن أسس الفينيقيون قرطاجة. أصبحت دولة مغربية، مهما تكن الأصول الحضارية والعرقية الأولى، ومهما تكن طبيعة الفينيقيين الأولين الذين اختلطوا مع المغاربة وكونوا شعباً جديداً، رغم أنهم ظلوا يشعرون بالخصوصية والامتياز الذين امتازوا بهما دون بقية المغاربة، ورغم أن معاملاتهم تميزت ببعض الحذر، وربما العنف في كثير من الأحيان، مما جعل بعض القبائل المغربية وبعض الملوك المغاربة ينضمون إلى الرومان في الحروب البونية ضد القرطاجيين.

المهم في هذه القضية أن المغرب اتجه شمالاً في التعامل السلبي والإيجابي الذي عرفه في حياته، فقد تعامل مع اليونان والرومان والوندال والبيزنطيين ـ وهم شماليون على كل حال ـ وكانت العلاقة مع هذه الدولة وتلك يطبعها ما كان يطبع تاريخ تلك الفترة من مد وجزر وحذر وصراع.

والاتجاه الشمالي لم يكن تلقائياً. قد يكون البحر أثر في هذا الاتجاه. فوراء البحر كان المجهول رغم قدوم القرطاجيين، ورغم ما يقول كثير من المؤرخين بأن الأمازيغيين هاجروا من الشرق. ولكن الشمال قَدِم إلى الجنوب (شمال البحر الأبيض وجنوبه) مع اليونان والرومان والوندال فتعرف الجنوب على الشمال. ثم الجنوب اختلط مع هذا الشمال في الحروب مقاوماً ومحالفاً، فكانت تلك طريق التعرف إلى الشمال الذي أتى بشيء، كان مثار صراع، هو الاستعمار. والاستعمار في الماضي القديم كما في الحديث فتح الباب أمام

لقاء فيه الإيجابي وفيه السلبي، ولكنه على كل حال فتح أفقاً لبلاد المغرب نحو الشمال.

وستنقلب الآية حينما يأتي العرب من الشرق بشيء جديد هو الإسلام والحضارة العربية وسيصبح الأفق شرقياً لا شمالياً حتى تتجدد الروابط بين المغرب وأوروبا عن طريق فتح الأندلس وصقلية، ليصبح للمغرب اتجاهان: شمالي وشرقي، يؤثران في دينه حضارته وثقافته وسيرة تاريخه ويتجدد الأمر مع مجيء الاستعمار «الحديث» ـ ابتداءً من غزوات البرتغاليين والإسبانيين ثم الانجليز والفرنسيين والايطاليين. وهو تجدد متميز لأن الشمال يزحف بكل ممكناته العسكرية والحضارية واللغوية والاقتصادية ـ ولم يتمكن بأن يزحف بممكناته الدينية ـ ويحاول بكل ملكاته أن يطبع بلاد المغرب بالأفق الشمالي. وما يزال الصراع الصامت مستمراً، وقد تدخل فيه الجانب الاقتصادي والحضاري إلى حد كبير.

وحينما جاء الإسلام والمسلمون العرب من الشرق جاءوا بمفهومين متختلفين:

المفهوم الأول هو الإسلام. وقد كان من السهل على المغاربة أن يقبلوه. وكان من الممكن ألا ينفق العرب القادمون والمغاربة سبعين سنة من التاريخ الدامي لأسلمة بلاد المغرب، لو أنهم اتبعوا سنة الدعوة المحمدية، وقدموا الإسلام قبل الفتح، وليس الغزو قبل الإسلام. ومهما يكن فالنتيجة أن بلاد المغرب أسلمت جميعها، وحسن إسلام المغاربة كما يقول المؤرخون. وربما بلاد المغرب هي الوحيدة بين البلاد التي دخلها الإسلام ولم تبق فيها أقلية غير مسلمة باستثناء الأقلية الصغيرة اليهودية التي كانت مغربية أمازيغية واستمرت على دينها متوارية عن الأحداث.

هذا المفهوم إذن جاء من الشرق ونجح في قبول المغرب له دون عقدة إلا العقد التي أوجدها المفهوم الثاني.

المفهوم الثاني هو الحكم على أساس الغلبة والغزو والاحتلال والتميز العربي ضد الأمازيغي. وهذا المفهوم هو الذي اصطدم بالشعوب المغربية، ربما اصطداماً تدريجياً يكون أقوى وأشد كلما غَرَّب العرب من حدود مصر حتى السوس الأقصى. وقد تحدثنا عن الصراعات التي واجهها العرب وتسببوا فيها كما تحدثنا عن أسبابها الحقيقية.

وعلى ضوء هذين المفهومين يأتي التأثير الجغرافي ليكون عاملاً مؤثراً ـ بالإضافة إلى عوامل أخرى سنفصل بعضها ـ في قيام الدول المغربية. وقد لا يكون عاملاً فاصلاً أو وحيداً باعتبار البعد عن مركز الخلافة، فعلى حدود هذا المركز نشأت دول أخرى منفصلة عن الخلافة أو مرتبطة بها بِأوهى الروابط. ومع ذلك فالعامل الجغرافي في المغرب له أثره الكبير.

لماذا لم يدع المغاربة الخلافة؟

القضية الثانية: أن مؤسسة الخلافة كانت مؤسسة دينية. ورغم أن الأمويين حولوا الخلافة إلى مُلك، فقد ظل الملك خليفة المسلمين، ولو كان من صنف يزيد بن معاوية، أو من صنف هارون الرشيد وابنه الأمين والخلفاء العباسيين من بعدهما. والخليفة يأخذ طابعه من كونه خليفة رسول الله ـ ولولا أن أبا بكر امتنع عن أن يدعي خليفة الله، لكان أمثال يزيد بن معاوية خلفاء الله. وخليفة رسول الله كانت له مسؤوليات دينية، لأنه الساهر على حماية الدين وحرماته وتطبيق شريعته، ومسؤولية دنيوية هي إدارة الدولة إدارياً واقتصادياً وعسكرياً. وقد التصقت بمفهوم الخلافة بالمعنى الديني وصف «الإمامة» ـ وخاصة عند الشيعة، ووصف «أمير المؤمنين» أي حاكم ومتأمر على جميع المؤمنين. وهكذا كان المسلمون يعتبرون الخليفة نائباً عن النبي في الجزء الثاني من مسؤولياته ـ بعد أن انتهى الجزء الأول بنهاية نزول الوحي وبموت النبي ـ وكان المؤمنون جميعهم يأتمرون بأمره، أي يحكمهم فيقبلون حكمه. ولذلك لا يمكن ـ نظرياً ـ أن يكون هناك خليفتان في بلاد الإسلام،

مهما تباعدت الديار وطالت المسافة بين المركز والأقطار التي أسلمت. وإذا أعلن شخص من المسلمين خلافته يصبح متآمراً على الدولة ـ الخلافة. بل يصبح مخالفاً «لمبدأ» من مبادىء الإسلام، ولو لم يأت به كتاب أو سنة إلا بعض الأحاديث الموضوعة في الغالب.

ولذلك فالدول التي نشأت في المغرب لم تَدَّع الخلافة على المسلمين ولو أن بعض قادتها أطلقوا على أنفسهم خلفاء في الدولة الفاطمية والموحدية. والدولة الأموية في الأندلس التي اعتبر منشؤوها، وقد فروا من سلطة الأمويين في المشرق، أنفسهم أحق بالخلافة من خلفاء دمشق، ويشفع لهم أنهم من نفس العائلة أو القبيلة. ولم يدعوا الخلافة إلا بعد أن تقوت الدولة وسيطرت على معظم أنحاء الأندلس.

وحتى لقب أمير المؤمنين تحرزوا منه رغم أن بعض الدول في المغرب كما سنرى كانت لها سلطة قوية أقوى من سلطة الخلفاء المشارقة يوم كانوا خلفاء أقوياء. كالدولة المرابطية، والدولة الموحدية. وكان يوسف بن تاشفين مؤسس الدولة المرابطية يقنع بلقب أمير المسلمين بدلاً من أمير المؤمنين، الذي اعتبره فيما يظهر من اختصاص الخليفة وكان يخطب باسم الخليفة على المنابر. ولم يدع هو الخلافة على جميع المسلمين. بل لم يلقب نفسه بلقب أمير المسلمين إلا بعد معركة الزلاقة التي انتصر فيها على القشتاليين.

الخلافة ودول المغرب:

القضية الثالثة: أن الدول التي نشأت في المغرب لم تطمع في مناجزة دولة الخلافة، ولا في ممارسة مسؤولياتها، بل ولا في محاولة سلب صفة الخلافة منها. أغلبها كانت دولاً إقليمية. تؤكد الاستقلال الذاتي، وحكم المنطقة التي تتسع وتضيق، ولكنها لم تتعد في عهد أعظم هذه الدول «الموحدين» ما بين المغرب الأقصى وليبيا شرقاً، ولم تتعد نهر النيجر جنوباً والأندلس شمالاً. إمبراطورية واسعة، أكثر اتساعاً من إمبراطورية العباسيين

التي لم تكد تتسع حتى بدأت الدول والإمارات المنفصلة عنها تأخذ من أطرافها.

وإذا كانت هذه الدول المغربية لم تطمع ـ ولم تحاول ـ أن تسيطر على دولة الخلافة، ولا أن تناجزها العداء ـ وللبعد الجغرافي إلى جانب البعدين الديني والسياسي دخل في ذلك ـ فإن دولة الخلافة المشرقية انزعجت من وجود هذه الدول وحاولت بوسائل بدائية، ولم تكن تستطع غير ذلك، تصفية بعض الذين تخوفت من نفوذهم كاغتيال إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، الذي فر من مذبحة فخ سنة 169 وقد قام العباسيون بتصفية الذرية المتنسلة من الحسن بن علي، خوفاً من أن يُكَوِّنوا دولة علوية تنافس الدولة العباسية. وقد فر بعض الناجين من المذبحة وكان إدريس بن عبد الله أحدهم فاتخذ اتجاه الغرب، وأرست مقاليعه على المغرب. فكانت الدولة الإدريسية.

قَتْلُ إدريس بطريقة غادرة لم يكن حلاً لمشكلة تكوين دولة في المغرب، كانت في البداية دولة محدودة الأفق الجغرافي، ولكنها كانت قوية النفوذ الديني. وفتحت الطريق أمام دول أقوى كالمرابطين والموحدين الذين قادوا التاريخ بجدارة في الغرب الإسلامي.

بين السياسة والمذهبية الدينية في الدولة المغربية:

القضية الرابعة: أن السياسة اختلطت بالدين في تكوين الدول المنفصلة عن الخلافة في بلاد المغرب. فلم تكن هذه الدول مجرد نقمة على الخلافة في دمشق أو بغداد، ولكنها كانت مدفوعة بعامل ديني جهادي إلى جانب تكوين إمارة لنشر الإسلام، وإلى جانب تخليص هذه المناطق من نفوذ الدولتين المركزيتين، دولتي الخلافة الأموية والعباسية، وخاصة الأخيرة التي طال عهدها اسماً، ولكنها تركت الإسلام في سبيل الحكم، وتركت الحكم للمتسلطين من الفرس والأتراك وغيرهم ممن يسميهم التاريخ الأعاجم، ففعلوا بالعرب ما فعلوا من إقصاء عن سلطة الحكم التي حاول الأمويون أن يتشبثوا

بالحكم العربي فيها فأضاعه بنو العباس. ثم طوروا الحكم من حكم إسلامي إلى حكم يعتمد على تقاليد أجنبية عن العرب والمسلمين.

جاءت الدول المغربية لتعيد للحكم الإسلامي بعض تقاليده، واعتمدت في ذلك على العرب الأصليين، وعلى العرب المستوطنين، وأساساً على الأمازيغيين الذين أسلموا وحسن إسلامهم، وناضلوا في سبيل الإسلام وأعزوه في الأراضي المغربية، ثم خارج المغرب في الأندلس وفي صقلية. وبذلك عبَر الإسلام البحرَ، الشيء الذي تخوف منه عمر بن الخطاب، ولم يحدث إلا على عهد الدول المغربية كما سنرى.

واختلاط السياسة بالدين هو الذي دفع بالهاربين بمذهبهم الديني (الخوارج مثلاً) إلى تكوين دولة، وتدعيم الدول التي نشأت محاولة منهم أن ينشروا المذهب المصادَر في المشرق.

ويمكن أن ندخل في هذه القضية التي نعالجها مفارقة مهمة. ذلك أن الصراع المذهبي الذي قام في المشرق كان متعدد الأطراف: سنة وشيعة وخوارج. وما تفرع عنها جميعاً من مذاهب انتهت إلى الالحاد ونكران الأديان والتنكر للنبوة[1].

في بلاد المغرب كان التشبث بالإسلام هو الأقوى. والذين هربوا بإسلامهم ومذهبهم كانوا أكثر تشبثاً به. ولذلك اقتصر الخلاف في المغرب على أهل السنة، وهم الغالبية من المسلمين المغاربة بربر وعرب. والخوارج الذين تسربوا حاولوا أن يقيموا لهم مركزاً. وتطلعوا من أجل ذلك إلى إنشاء دولة فكانت دولةُ بني رستم في تاهرت ـ قرية بالجزائر ـ. ولكن لعل طبيعة التشدد الخارجي لم يتفق مع طبيعة سماحة الإسلام التي أثرت في الأمازيغيين، فلم تنجح الخارجية في بلاد المغرب، نجاحاً باهراً إلا حينما تؤدي إلى السلطة. ولو أن الدولة الإباضية كان لها مركز مهم في الحكم، وظل المذهب

---

(1) شرحنا هذه النقطة في كتابنا: الإسلام في مواجهة التحديات.

الإباضي موجوداً في بعض المناطق في الجزائر حتى يومنا هذا.

محاولة أخرى قام بها الخوارج الصفرية في المغرب الأقصى، واختاروا منطقة جنوبية هي سجلماسة، وقد لجأوا إليها لبعدها الجغرافي ولأنها واقعة على وادي زيز، وهو يضمن لهم بعض الماء للشرب والري. نشأت فيها إمامة وحاولت أن تمد نفوذ الصفرية من هناك نحو شرق المغرب وإلى الشمال حتى مكناسة، ولكن السياسة قضتِ على المذهب فلم يلبث الأدارسة أن قضوا على الصفرية وساعد على ذلك الفاطميون الذين غزوا سجلماسة، فانتهى أمر الصفرية رغم نحو ستين عاماً من حكمها.

أما الشيعة فلم يكن لهم وجود مذهبي ولا دولي في بلاد المغرب. وحتى إدريس بن عبد الله وابنه إدريس الذي أقام الدولة الإدريسية كان سنياً. ولم تنتشر الشيعة من حوله، رغم أن الذين لحقوا به من الشرق كانوا من أنصار العلويين، ورغم المكانة التي أدركها بين الأمازيغيين فاتبعوه وأطاعوه، وكانوا جنده الذي كون به الدولة، وسنده في نشر الإسلام والعربية.

ويبدو أن إدريس وأنصاره كانوا من الغرماء السياسي بحيث لم يرغبوا في نقل الصراع مع الشيعة وضدها ـ الذي جر عليهم مذابح رهيبة في المشرق إلى المغرب ـ وسايروا الفطرة الأمازيغية في التعلق بالإسلام الصافي. ولذلك لم ينشئوا دولتهم على أساس شيعي، ما داموا قد ضمنوا التأييد من المغاربة وحبهم لآل البيت، دون «فلسفة» شيعية.

الفاطميون العبيديون قامت دعوتهم ودولتهم على أساس شيعي: التعصب والانتقام لآل البيت. ولكن تبعيتهم مشكوك في سلامتها. فقد كانوا يستخدمون التمسح بآل البيت والدعوة العلوية سبيلاً للسلطة، وليس لهم صلة بآل البيت لا نسباً ولا دعوة. فعبد الله الداعي رأس دولتهم والقائم بدعوتهم أخذ يزعم أنه صاحب الحق في إمامة المسلمين وينتسب إلى جعفر الصادق، وإلى فاطمة بنت محمد. وكان الفاطميون منذ البداية يفكرون في إقامة دولة

ضداً على العباسيين. وصراعهم مع الدول المغربية: بنى مدرار في سجلماسة وبنى رستم في الجزائر والأغالبة في تونس، إنما كان صراعاً سياسياً لا مذهبياً شيعياً. وكان صراعهم الخطير مع الأمويين في الأندلس صراعاً على حكم بلاد المغرب، لا صراعاً مذهبياً أساساً.

ولذلك كان حكمهم في المغرب ثم في مصر والشام والحجاز لا يمثل دولة شيعية، بالمفهوم المذهبي الديني للتشيع، ولكن يمثل دولة مغامرة اتخذت من التشيع سبيلاً لتكوين الدولة والسيطرة على مناطق شاسعة من حكم العباسيين.

اللامركزية واستقلال الدولة المغربية:

القضية الخامسة: أن نظام الحكم اللامركزي، وخاصة على عهد العباسيين وضع في بلاد المغرب نواة الدول المستقلة، ابتداءً من الاستقلال الداخلي والحكم الذاتي حتى الاستقلال الكامل. وقد رأينا (في القسم الأول) أن الولاة في المغرب كانوا يتمتعون بولاية مطلقة. فكان الوالي يقوم بالقيادة العسكرية والمدنية. وكان يختار ظروف الحرب والسلم، ويغامر أحياناً حتى حد الاضرار بالإسلام وبمستقبل الدولة وبمستقبله كما فعل عقبة. وقد كانت ولاية عقبة بن نافع بداية لاستقلال هذه المنطقة الواسعة بولاية مستقلة وغير تابعة لمصر، كما كان الأمر على عهد عبد الله بن سعد ومعاوية بن حديج.

هذا الاستقلال في الولاية لم ينشأ عن فكرة سياسية أو إدارية، أو عن فكرة الثقة في أهل البلاد وتوليتهم شؤون بلادهم، على أن تظل الصفة السياسية والمالية مع مركز الخلافة: لو كان الأمر كذلك لكان هذا النظام يقترب من نظام «اللامركزية» أو يقترب من السنة التي اتبعها النبي ﷺ حينما كان يولي بعض زعماء القبائل في الجزيرة شؤون قبائلهم إذا اطمأن إلى إسلامهم. ولكن هذا النظام نشأ عن ضعف في الدولة وعدم قدرتها على السيطرة الواسعة على الامبراطورية التي جمعت بين آسيا الوسطى وبلاد

المغرب. ولذلك كانوا يتركون الحكم للولاة. وتطور الأمر بالعباسيين إلى أن تركوا جزء من الدولة بالمغرب (طرابلس وتونس) إلى بني الأغلب، بشروط تافهة، حتى تكونت دولة بني الأغلب كما سنرى.

نشأة الدول المغربية إذن تَرجع في جزء منها إلى السياسة التي اتبعتها الخلافة مدفوعة لذلك ـ دونِ شك ـ بالعامل الجغرافي أولاً ثم بعوامل أخرى كضعف مركز الخلافة الديني ـ فلم يعد الخليفة يمثل سلطة دينية ذات مصداقية ـ والسياسي، فقد كان معظم خلفاء بني العباس تحت حجر الوزراء وقواد الجيش من الفرس والأتراك، والإداري فقد كان من الصعب إدارة بلاد المغرب من المركز (بغداد).

كل تلك الظروف هيأت لانفصال بلاد المغرب عن بلاد المشرق سياسياً وعسكرياً وإدارياً. ثم انفصالها في مشاكل الحكم والخلافات المذهبية الناشئة عنها التي مزقت بلاد الإسلام في المشرق، ونجت منها بلاد المغرب.

الدولة المغربية حافظت على الإسلام؟

القضية السادسة: أن هذا الانفصال لم يكن خطراً على الإسلام والوحدة الإسلامية، بل كان في فترات كثيرة من تاريخ الإسلام في صالح الإسلام والمسلمين. فقد تشكلت دول صغيرة أحياناً، كبيرة في كثير من الأحيان، قوية، وذات غيرة كبرى على الإسلام. استطاعت أن تواجه التحديات الكبرى التي واجهت الإسلام من زحف المغول الذين دمروا الخلافة الإسلامية في المشرق حتى زحف الصليبية التي بدأت تهاجم الإسلام من الغرب مباشرة بعد نهاية الدولة الأموية في الأندلس. ولو لم تكن دول المغرب مستقلة، وفي مثل قوتها التي ظهرت بها على عهد الفاطميين والمرابطين والموحدين والمرينيين والسعديين وبني زيري في طرابلس وتونس والجزائر والحفصيين في تونس، لو لم تكن هذه الدول في مثل قوتها واستقلاليتها لانهزم الإسلام في المغرب بسبب الهجمات الصليبية في البحر الأبيض ومضيق جبل طارق، ولما كان

للإسلام الإشعاع الحضاري الذي كان له في الأندلس.

ولذلك فوجود دولة إسلامية واحدة ومركزية كان ضد طبيعة الأشياء جغرافياً وعمرانياً. والإسلام لا يمكن أن يكون سنداً لها لأن السياسة والجغرافية ضدها و «الدولة بهذه الصفة» لا يمكن أن تستظل بظل الإسلام الذي هو عقيدة وشريعة ونظام حكم أكثر منه إمبراطورية.

مفهوم جديد للوحدة الإسلامية:

القضية السابعة: أن الوحدة الإسلامية فكرة مثالية، كان يمكن تطبيقها والمحافظة عليها بأسلوب آخر غير الوحدة السياسية. لم تكن الوحدة الاقتصادية ممكنة في تلك العصور لأسباب اقتصادية وجغرافية ومواصلاتية وبشرية. ولكن الوحدة الدينية كانت ذات أثر كبير. الإسلام ثم اللغة العربية استطاعت أن توحد المسلمين فكرياً وعقدياً وثقافياً، رغم الخلافات المذهبية الخطيرة التي واجهت الإسلام. ودور القرآن كبير في هذه الوحدة الإسلامية، لأن عبقرية المسلمين وتوفيق الله جعلت الخلاف لا يمتد إلى القرآن. ورغم فترات الجهل والتخلف الفكري فإن المسلمين اختلفوا في الفروع اختلافاً جزئياً، واختلفوا في بعض الأصول ـ كما هو الأمر بين السنة والشيعة وبينهما وبين المعتزلة ـ ولكنها جميعاً اجتهادات داخل الفكر الإسلامي الموحد حول القرآن، الذي ضبط أصول العقيدة، كما ضبط العلاقات مع الله، وكثيراً من العلاقات بين الناس. فكان الإسلام واحداً. وهو جوهر الوحدة الإسلامية.

ويبدو أن التاريخ لم يكن مخطئاً حينما لم يبق على الخلافة الإسلامية في بغداد، ولم يساعد على إنشائها من جديد في مصر (الفاطميين) أو تركيا. فخلافة من هذا النوع لم تكن لتحقق وحدة المسلمين الذين انتشروا بين أندونيسيا والصين شرقاً حتى المغرب والأندلس غرباً. ولذلك فكل محاولة جديدة لاستعادة الوحدة الإسلامية يجب أن تعتمد الإسلام ومبادئه الأساسية وليس السياسة التي لم يعد اعتمادها ممكناً. وقد يكون الاقتصاد مكملاً للعمل

الإسلامي لو استطاعت الدول الإسلامية أن تبني لنفسها اقتصاداً قوياً متكاملاً.

القبلية والدولة المغربية:

القضية الثامنة: القبلية في المغرب لعبت دوراً كبيراً في تكوين الدولة، بل وفي انهيارها وتغييرها. فالقبائل كانت لها السلطة المحلية على الإقليم الذي تنتشر فيه. ولكن سلطتها قبلية تقليدية، فلما جاءت الفتوحات الإسلامية ظهر مفهوم جديد للسلطة، أكثر من مفهوم القبلية الضيقة، ثم كان الإسلام الذي آمنت به القبائل المغربية إرثاً عميقاً يحد ـ نسبياً ـ من فكرة القبلية الضيقة في عنصريتها ومحليتها، ويجعل منها قبلية إسلامية في نفس الوقت. ولهذا وجدت القبائل، الكبرى بالأخص، لها في الزعامة الإسلامية مطمعها لسيادة القبيلة بالمفهوم الجديد. ووجدت في هذه الزعامة ما يذيب الصراع القبلي حولها من جهة، ويحقق لبعضها، نصراً على البعض بطريق غير مباشر، وربما نصراً غير عسكري صرف.

المثال على هذه القضية نأخذه من القبائل التي أيدت إدريس وقامت على أكتافها الدولة الإدريسية، ومن كبراها «أورْبة» التي أيدت إدريس الأول وتزوج منها، ثم قبيلة غمارة وبعض قبائل زناتة كزواوة ولواته وسدراتة ونفزة ومكناسة. ولولا هذه القبائل التي كانت تحقق ذاتها وتنتصر على خصومها لما نجحت الدولة الإدريسية.

ثم إن أصول وفروع هذه القبائل تمتد من أطراف المغرب جميعه في الأطلس المتوسط وفي السهول والريف وسهوله حتى الشمال الغربي. وانتشارها القبلي هذا كان له أثر في انتشار النفوذ الإدريسي في جميع أنحاء المغرب حتى تلمسان.

الحكم العباسي يساعد على انفصال الدول المغربية:

القضية التاسعة: حينما انتهت الفتوح الإسلامية في المغرب، في نهاية

المائة الأولى، بدأ ما يسميه المؤرخون عصر الولاة الذي ابتدأ في عصر الخلافة الأموية بعبد الله بن موسى بن نصير سنة 95 هـ/ 714 م وينتهي في عهدهم بحنظلة الكلبي 127 هـ/ 745 م. وكان عهد الولاة يمتاز بما تفرضه الجغرافية (البعد عن المركز في دمشق) وما يفرضه غنى البلاد النسبي وسعة الرقعة، ثم ما تفرضه عقلية الولاة آنذاك، وهي عقلية إقطاعية تستهدف استنزاف البلاد، وابتزاز أكثر ما يمكن من المال لإرضاء الخليفة، ولصد تيار المنافسة و«شراء» المنصب. و«الثراء» في نظرهم يمكن أن يكون بتوفير المال لخزانة الدولة والهدايا الثمينة للخليفة.

هذه الأسباب جميعها دفعت ببعض المتسلطين إلى محاولة الاستقلال بالمغرب العربي على عهد الدولة العباسية الذي ابتدأ من سنة 132 هـ (750 م). وإذا كانت هذه الظروف قد دفعت بآل حبيب، عبد الرحمن وأخيه، وابنه، لمحاولة الاستقلال بالمنطقة، فإن ولاية العباسيين تكتنفها ظروف جديدة تختلف عن ظروف الدولة الأموية أثرت في محاولة الاستقلال بالمنطقة. فالدولة الجديدة العباسية وجدت نفسها أمام مشاكل ضخمة، وهي تستلم الحكم من الدولة المنهارة الأموية. فقد انتقل مركز الدولة إلى العراق، وهو أعمق بعداً من الشام. ومنطقة العراق أقل عصبية عربية من بلاد الشام. والحكم تحميه العصبية أولاً. ولذلك كان العباسيون في حاجة إلى حماية جديدة، ولتكن غير عربية، فبدأوا يعتمدون على الفرس ومن يسميهم التاريخ الموالي. لأنهم كانوا في البداية بمثابة عبيد للخليفة أو على الأقل خدام الدولة. ووجود هؤلاء الموالي أعطى بعداً جديداً لمفهوم الدولة. وهو مفهوم مشاركة عنصر غير عربي في خدمة الدولة ثم في بقائها واستمرارها. قد يكون هذا المفهوم أقرب إلى روح الإسلام الذي لا يفرق بين العربي والأعجمي، ولكنه مفهوم قام على أساس الانتقام لتحطيم الدولة الفارسية، ولو لصالح الإسلام، وقام كذلك على أساس آخر وهو أن العباسيين أقاموا دولتهم انطلاقاً من خراسان. والخراسانيون هم الذين ناصروهم حتى أجهزوا على الدولة

الأموية. وربما كانت لهذا البعد أبعاد أخرى هي تخريب الدولة العربية من الداخل والقضاء عليها. وكان لهذا البعد نفس طويل تجلى بوضوح في نهاية الدولة العباسية، التي ابتدأت بمصرع عديد من الموالي ابتداءً من قتل أبي جعفر المنصور لأبي مسلم الخراساني، وانتهت بسقوط آخر من يسمى خليفة من بينهم وهو عبد الله المستعصم بعد أن سيطر المغول على كل البلاد الإسلامية بما فيها العراق مركز الخلافة العباسية.

ورغم أن الأمويين نقلوا الخلافة من مفهومها الإسلامي إلى مفهوم الملك والسلطة الوراثية، فإن العباسيين أضافوا إلى ذلك مفهوماً جديداً هو بذخ الدولة وتطور المجتمع من البساطة العربية الإسلامية إلى مجتمع متحلل في حاجة إلى المال، وكل ما يوفره المال، ليرضي طموحات القصر والمجتمع في متع الحياة وطيباتها.

ثم إن معظم الخلفاء العباسيين أنساقوا وراء الحضارة المادية وطيبات الحياة، فيهم من اتجه إلى العلم والثقافة كالمأمون، وفيهم من اتجه إلى الحياة الناعمة، ولم تكن تخلو من أدبيات كهارون الرشيد، وفيهم من شغل نفسه بمتع الحياة. وقد وجدوا إلى جانبهم من يتحمل عنهم متاعب الدولة والحكم، مكنوهم من وسائلها حتى أصبحوا هم الحاكمين. كان التخلي عن المسؤولية الكبرى وعدم تقدير الظروف الداخلية والخارجية والمتناقضات في المجتمع الإسلامي وفي شؤون الدولة من أسباب انهيارها. وبالتالي من أسباب الانفصال الذي استشرى في الأقاليم، القريبة والبعيدة على السواء.

يضاف إلى ذلك الخلافات المذهبية والفقهية التي استشرت، بين بعض الخلفاء، والاضطراب في صفوف الفقهاء والعلماء وأنصارهم. وإذا كان هذا الاضطراب قد نشأ في العهد الأموي نتيجة محاولة الدولة استخدام العلماء والفقهاء في تأييد الحكم، ووقوف الفقهاء والعلماء في وجه الحكم نظراً لتجاوزات أصول الشريعة ومبادئها، فقد استشرى هذا الخلاف بين العلماء

وبين الخلفاء في عهد العباسيين لتدخل الخلفاء في قضايا دينية وفقهية وفلسفية إسلامية كقضية خلق القرآن التي خاض فيها كبار العلماء في عهد المأمون والمعتصم، فدق عنق بعضهم وسجن آخرون وعذبوا ومات بعضهم تحت العذاب، وأهينت كرامة بعضهم كالإمام أحمد بن حنبل. يبدو أن هذا الصراع مع الفقهاء كان سياسياً بالدرجة الأولى لأن بعض الخلفاء كانوا يريدون أن يكسروا شوكة العلماء، حتى لا يقفوا يوماً ما في وجه الخلفاء، وتلك سنة الحكم المطلق الذي يرغب في الانفراد بالسلطة. ولكن خطأ العباسيين أنهم كانوا يتغاضون عن الذين يحملون عنهم متاعب الحكم، ويتجهون إلى الذين يمكن أن تكون لهم سلطة دينية أو مذهبية، وبدلاً من أن ينتفع الحكم بعلمهم في تأييد الدولة كان يخلق منهم خصوماً للدولة في قضايا ربما ليست من جوهر الإسلام في شيء. ولكن الاستغلال السياسي كان يدفع بالخلفاء إلى امتحان العلماء وخلق معارضة دينية كانت مدمرة في بعض الأحيان.

ألا يُذكرنا هذا الصراع بالصراع المصطنع بين السلطة ومن يسمونهم الإسلاميين في كثير من البلاد الإسلامية؟ إنه صراع قد ينتهي إلى غالب ومغلوب وقد لا ينتهي إلى شيء. ولم يكن على عهد العباسيين في المشرق والموحدين في المغرب في مصلحة الدولة على كل حال.

تضاف إلى هذه المشاكل الظروفُ والمشاكلُ التي وجدها الحكم أمامه في المنطقة الشرقية، التي اتسعت وأخذت تصبو إلى التمرد على الدولة. فهناك القوة التي كانت ما تزال تدين بالولاء لبني أُمية. وهناك الشيعة من أنصار أبناء علي بن إبي طالب وقد وجد بعضهم في انهيار الحكم الأموي ما يطمعهم في استعادة خلافة جدهم. والعراق كانت مركز الثقل للعلويين، كما وجد الخلفاء عصبيات عربية ضدهم، إلى جانب طموح الفرس الذين كانوا على عهد بني أُمية في وضع لا يتفق مع مكانة بلاد فارس في التاريخ، ولا ما يحلم به الفارسيون من مجد جديد.

المناطق الشرقية كانت واسعة الأرجاء من الجزيرة العربية حتى أقاليم العراق والشام ومصر وبلاد فارس، حتى حدود الهند شرقاً وآسيا الوسطى شمالاً حتى بُخارى. وحكم هذه البلاد بالوسائل التي كانت بين أيدي الخلافة العباسية لم يكن سهلاً، ولذلك لجأوا إلى القمع والعنف والقتل لإرهاب من يحسون، أو يتوقعون، أنه يمكِن أن يكون من خصوم الدولة، سواء كان فرداً أو جماعة. ولذلك اتسم عهدهم في بدايته بالدموية والعنف المتناهي في القسوة.

نستنتج من ذلك أنه كان يصعب على دولة بني العباس أن تحكم هذه المناطق مركزياً، إلا عن طريق الولاة الذين يثق فيهم الخلفاء ما لم تزحزح من الثقة منافسة أو غيرة أو وشاية، وإلا عزل الوالي وجُرِّد من أمواله ونسائه (السبايا)، وربما فقد حياته لمجرد هفوة أو خطأ أو وشاية، أو أن يحكموها بطريقة لا مركزية، رغم ما في ذلك من خطر يهدد وحدة الدولة، التي لم تعد دولة بمقدار ما أصبحت إمبراطورية. وهو المضمون الحقيقي للخلافة الإسلامية بعد أن اتسعت أطرافها وامتد حكمها إلى مناطق شاسعة اكتشفها الامتداد، ولم تكتشفها جغرافية محددة المعالم.

وتفكيرهم في المغرب كان أقل من تفكيرهم في المشرق، لأن خطره على خلافتهم أقل من خطر المشرق فيما كانوا يحسبون، رغم تكون الدولة الأموية في الأندلس. ولم يكونوا يقيمون وزناً للمغرب للأسباب التي ذكرنا، ولأنهم لم يكونوا يقدرون على حكمه، ولا يقدّرون الخطر الذي يكونه انفصال هذه البلاد عن الدولة من خطر، قريب أو بعيد، على صمود الخلافة الإسلامية كمركزية للحكم الإسلامي. وربما لم يكونوا يقدرونه قدره للبعد الجغرافي، ولأنهم كانوا يجهلون ما وراء مصر التي وصفها عمرو بن العاص فكان وصفه مصدر معرفة قوية بها. والصعوبات التي عاناها الولاة أضافت إلى جهلهم بالمغرب مزيداً من الإهمال. وربما كانت موارده أقل مما يغريهم بالاهتمام به.

وقد كان للموارد المالية والعينية أثر كبير في تقويم أهمية أقاليم الدولة.

لكل ذلك بدأت هذه البلاد تتحرك في اتجاه الاستقلال الذاتي أو الاستقلال الكامل من الناحية السياسية. كما أخذت تتحرك مذهبياً حينما كان يلجأ إليها الخوارج بطوائفهم أو بعض الشيعة.

تكوين الدولة يحمل بذور الانفصال:

القضية العاشرة: وليس من الصدفة في شيء أن يشهد منتصف المائة الثانية نشأة عديد من الدول في المنطقة الممتدة من حدود مصر حتى المغرب، وقد كانت ولاية مصر طيعة للخلافة منذ فتحها عمرو بن العاص، وتركز فيها العنصر العربي، بعد أن اتفق مع «بطريق» الإسكندرية فضمن طاعة الأقباط وطاعة العرب معاً.

ليس من الصدفة في شيء ـ انطلاقاً من الظروف التي شرحناها ـ أن تنشأ دولة بني أُمية في الأندلس، ودولة بني رستم في شرق الجزائر، وبني الأغلب في طرابلس وتونس وجزء من الجزائر، ودولة الأدارسة في المغرب والجزء الغربي من الجزائر، وإمارة بني مدرار في تافيلالت (سجلماسة) كل ذلك حوالي منتصف المائة الثانية بعد تأسيس الدولة العباسية بنحو عقدين أو ثلاثة.

وليس من الصدفة في شيء أن توجد في هذه البلاد المذاهب الإسلامية التي كانت تخشى من بطش العباسيين كالخوارج بفروعهم والشيعة والسنة. فالظروف التي أوجدها الحكم العباسي، أو وجدها قبل مجيئه، على عهد الأمويين، كلها كانت تؤهل منطقة المغرب العربي بل الغرب الإسلامي للانفصال عن مركز الخلافة، وإقامة إمارات ومملكات مستقلة.

وإذا كانت الخلافات العربية التي نشأت بعد وفاة النبي ﷺ، ولم تظهر بوضوح إلا بعد وفاة عمر، قد استعادت الخلاف الجاهلي بين الهاشميين والأمويين، فقد أثمرت في البداية خلافاً بين بني أمية، ومَثَّلها معاوية، وبني

عبد المطلب ومَثَّلَها علي. وانهزام العلويين أمام الأمويين لم ينه الخلاف الأصيل في الجاهلية. فقد جاء العباسيون خَلَفُ العباس بن عبد المطلب ليأخذوا ثأر هذا الفرع القريشي، وليرثوا الخلافة بدلاً من الأمويين. ولكنهم جاءوا، والدولة شاسعة الأطراف، والإسلام منتشر في آسيا الوسطى حتى الأندلس، والأفكار متنوعة حول القضايا التي أفرزها الحكم الإسلامي والجزئيات الفرعية في العقيدة الإسلامية. وأصبح من الصعب على السلطة المركزية أن تواجه الطامعين والثائرين والمخالفين والمتمردين. فكان أعداؤها أكثر من أصدقائها. وكان من الصعب كذلك على الدولة أن تستعين بالعرب على العرب لصالح الدولة التي ينازعها السلطةَ الكثيرون. ولذلك استعانت بجيش الفرس، ليس لأن الدولة كانت تثق في إخلاصه، ولكن لأنها كانت تثق في إمكانية استخدامه ضد العرب، ولو تخلت الدولة للطامعين من رؤساءه عن جزء من السلطة. وليس لأن عصبيتها العربية منعدمة، بل كان لها عصبية في بعض القبائل العربية اليمنية والمضرية وربيعة مثلاً. ولكن هذه القبائل نفسها كانت متصارعة. واعتماد الدولة عليها جميعها قد يضع الدولة في مركز الصراع. والاعتماد على بعضها قد يجعل البعض الآخر يقف ضد الدولة. ولذلك اهتدى تفكير العباسيين إلى الاستعانة بعنصر غريب عن العرب (الفرس) ليكون عنصر توازن. ولا نغفل عن أن الدولة كانت مضطرة إلى الاستعانة بهذا العنصر، لأن الدعوة السرية بدأت من أطراف العالم الإسلامي ـ آنذاك ـ بالكوفة في العراق، وخراسان من أقاليم بلاد فارس. وكانت الدعوة في خراسان أقوى منها في العراق، ولذلك نبغ من هذه البلاد من ساهم بحظ كبير في إقامة الدولة العباسية وفي مقدمتهم أبو مسلم الخراساني.

ثم إنها كانت في حاجة إلى تنظيم الدولة، وقد اتسعت أطرافها، وكثرت الشعوب التي أسلمت تحت سلطتها. والنظام الذي كان يعرفه العرب، والذي نماه بنو أُمية لم يكن قادراً على الاستجابة لهذا التنظيم الذي يجب أن يكون أكثر إحكاماً ودقة. ولهذا استعانت الدولة بالخبرة الفارسية. فكانت الاستعانة

بالعنصر الفارسي مزدوجَة الهدف:

الهدف الأول: مقاومة الطامعين والمتمردين والثائرين من أجل السلطة أو المذهب. وكان القمع والعنف يدفع بضحاياه إلى الفرار بحياتهم ومذهبهم ورأيهم في الحكم إلى بلاد بعيدة. ولم تكن هذه البلاد سوى بلاد المغرب التي قضى المسلمون في فتحها نحواً من ثلاثة أرباع القرن، وكونوا للإسلام سلطة دينية ومدنية. ولم تكن السلطة المدنية قد استقرت نهائياً، لصالح الدولة المركزية مما قد يجعل إمكانية الالتجاء إلى هذه البلاد مأمون العاقبة إلى حد ما، بالإضافة إلى البعد الجغرافي ومواقعه المتنوعة، وخصوبة هذه البلاد، وما بلغ عنها من تقبلها للإسلام ودفاعها عنه والانتقال به إلى ما وراء الزقاق (الأندلس).

الهدف الثاني: حماية الدولة وتنظيمها، فقد كان العباسيون يخشون العرب ـ هم منهم ـ بعد أن أحسن إليهم بنو أمية واستفادوا من دولتهم، ويخشون أبناء عمهم الطالبيين، ولم يكونوا قد وضعوا السلاح نهائياً. ثم إن الدولة الجديدة (العباسية) ابتعدت عن المركز الأصلي للعرب بُعْد العراق عن الحجاز، ونشأت في أرض تقع على أطراف بلاد لها مكانة في الحضارة، حضارة الحكم والحياة المتطورة الناعمة، ولها مركز اقتصادي مهم ولها خبرة وأطر. ولا يفصلها عن مركز الدولة (العراق) إلا حدود وهمية اختلط فيها العنصران العربي والفارسي. ولا تأمن دولة جديدة، عليها من الأعباء ما أشرنا إلى بعضه، جانب هذا الشعب الكسروي الذي لم يكن العرب يجهلون عظمته وقوته وصراعه مع الدول الكبرى التي نشأت في المنطقة أو قريباً منها: كالدولة المقدونية على عهد الامبراطور الفاتح الإسكندر المقدوني. ويعرفون أن المملكة الفارسية كانت تستولي على بلاد العرب المجاورة: الحيرة والأنبار وأطراف من العراق، هذه التي تنشأ فيها دولة العباسيين. وكانوا يعرفون الصراع الذي ينشأ بين الفرس والروم على حساب العراق والشام.

كل ذلك كان يؤثر على نشأة الدولة العباسية لتستعين بهؤلاء الذين قد

تخشى سلطتهم وبطشهم على الدولة الجديدة الشاسعة الأطراف. ولكنها إذا كانت قد كسبت في البداية وُدَّ هؤلاء الذين كانوا ـ هم أيضاً ـ يحسبون حسابهم للسيطرة على هذه الدولة، كما فعل أجدادهم من قبل حينما سيطروا على عرب الحيرة والأنبار وأطراف العراق، أنها، أي الدولة العباسية، قد وضعت اللبنة الأولى في خسارة جزء مهم وكبير من الدولة هو بلاد المغرب والأندلس.

لماذا لم تتكون خلافة في المغرب؟

القضية الحادية عشرة: نشأت في هذه البلاد المغربية مجموعة إمارات كنواة لدول. فلم تكن فكرة الثورة الشاملة على الخلافة الإسلامية لإنشاء خلافة جديدة قد نضجت بعد، لأن الفكرة الدينية في الخلافة كانت ما تزال متمكنة من النفوس. ولذلك لم يدع أحد ممن أنشأوا هذه الإمارات الخلافةَ. وبعض هؤلاء كانوا يدينون بالطاعة (الإسمية) للخلافة في بغداد ويخطبون على المنابر باسمها كدولة الأغالبة التي كانت نوعاً خاصاً من هذه الدول مرتبطة بالسلطة المركزية لقاء خراج تدفعه سنوياً لدولة الخلافة.

ولكن لماذا لم تتكون دولة واحدة في المغرب تحت اسم «خلافة» مع أن جميع هذه الإمارات كانت على خلاف مع خلافة المشرق إلا الأغالبة كما قلنا.

ذلك يرجع إلى نفس الأسباب التي جعلت البلاد تعاني على عهد الفتح، وتعاني على عهد الولاة، وجعلتها تستجيب لكل الذين قدموا من المشرق ثائرين أو متمردين على الخلافة، أو هاربين من بطشها: هو البعد الجغرافي أولاً، ثم الخلافات المذهبية ثانياً، ثم العصبية التي كانت أساس الدولة والملك. ولم تكن تتوفر لأي من هؤلاء الذين أنشأوا دولاً وإمارات. والذين كانت لهم عصبية في المشرق هم:

الأدارسة في المغرب والأمويون في الأندلس، أصبحوا بعيدين عن عصبيتهم. رغم هجرة كثير من أنصارهم إلى الأندلس لمساندة الدولة الأموية

وإلى المغرب لمساندة الدولة الإدريسية بعد نشأتها. ولذلك لم يكن في إمكانهم الاعتماد على عصبية قوية لبناء دولة قوية وكبيرة في مجموع المغرب العربي والأندلس.

الأغالبة عرب لم يهدفوا في بداية الأمر إلى تكوين دولة مستقلة. ظلوا مخلصين للخلافة، وقد اشتروا إمارتهم بالمال. فاستقلالهم ذاتي ظلت الخلافة تتحكم فيهم إسمياً وعملياً أحياناً، حتى إن المعتصم العباسي طلب إلى إبراهيم بن أحمد بن الأغلب التنازل عن الحكم لكثرة الشكوى من عنفه وبطشه ودمويته.

الأمويون في الأندلس كانوا في محنة من الصراع بين اليمنيين والقيسيين الذين انتقلت قبائل منهم إلى الأندلس قبل فرار عبد الرحمن الداخل. وما كان له أن يكون دولته الصغيرة بقرطبة (في البداية) في ظل الإسلام مع ذلك الخلاف الخطير المتوارث بين القبائل العربية الكبرى ـ إلا بقوة الجيش المغربي الذي حما الدولة كلما كانت قوية ـ فكيف يطمع، أو يطمع خلفاؤه إلى ما وراء البحر، مع وجود عدو خطير في شمال الأندلس ما يزال يتربص بهذه الدولة الإسلامية الدوائر لاسترجاع الأندلس إلى السلطة النصرانية.

بنو رستم وبنو مدرار إمارتان خارجيتان مطاردتان من الدولة (الأموية ثم العباسية) سياسياً، ومطاردتان من أهل السنة ثانياً، تبحثان عن مكان منعزل وقوم «مؤمنين» بالخارجية مناضلين في سبيلها. فلم يكن من مخططهم إنشاء دولة كبرى، لأن المذهب الخارجي هو الهدف الأول وليس تكوين الدولة.

لكل هذه الأسباب لم يكن من الممكن تكوين خلافة جديدة في المغرب تنافس الخلافة في المشرق. بالإضافة إلى العامل الديني الذي كان «يمنع» ـ في رأي الفقهاء حينما يتدخلون في فكرة الدولة ـ من تكوين خلافتين في البلاد الإسلامية. لأن النبي لا يمكن أن يكون له خليفتان كما قدمنا، وإن كان الذين أنشأوا هذه الإمارات يجيزون لأنفسهم تكوين إمارة (دولة) مستقلة. لا تدين بالطاعة للخليفة في بغداد أو إسطنبول، ولو خطب للخليفة على المنابر كما

كان الأمر على عهد الدولة الأغلبية.

تكونت في المغرب العربي هذه المجموعة من الدول، وتوالت دول أخرى أبرزها الفاطميون وبنو حماد وبنو زيري والمرابطون والموحدون والحفصيون والمرينيون والسعديون وأخيراً العلويون في المغرب الأقصى. وبين هذه وتلك نشأت دول صغرى في المغرب العربي والأندلس.

أي مفهوم للدولة؟

وقد اختلفت هذه الدول في المدة الزمنية التي قضتها في الحكم، وفي مبلغ النفوذ الذي كان لها على مناطق محدودة أو واسعة في المغرب العربي، كما اختلفت في النفوذ القبلي الذي كان بهذه القبيلة أو تلك على هذه الدولة أو تلك. وفي اعتماد هذه الدولة أو تلك على هذه القبيلة أو تلك. واختلفت في الاتجاه المذهبي. سيطر على بعضها الخوارج، على اختلاف في مذهبهم. وقمت الدولة الفاطمية وحدها على أساس المذهب الشيعي. ومعظم الدول الأخرى كانت سنيةً أَوْ لا مذهب يُميزها. الحياة العقلية والسياسية في القرن الثالث والرابع الهجري كان يطبعها صراع مذهبي، انعكس بعضُه على المغرب في نشاط الخوارج الذي يعتبر محدوداً رغم أنهم كونوا دولتين: الرستميين في الجزائر وبني مدرار في سجلماسة. ثم في نشاط الشيعة التي أنشأها الدعاة ابتداء من المهاجرين الحسن بن القاسم السفياني وعبد الله بن علي الحلواني إلى الداعية الأكبر أبي عبد الله الداعي الذي مهد الطريق نحو الدعوة وتكوين الدولة لعبيد الله المهدي. ولكنها جميعها لم تكن غير تمهيد للدولة المغربية الحقيقية (المرابطين) التي وحدت المغرب ودافعت عنه ضد المد الصليبي القشتالي، وجمعت الغرب الإسلامي من الأندلس حتى الجزائر جميعه في إمبراطورية واحدة. وقد بدأ هذا الاتجاه الذي خرج بالمغرب الإسلامي من الشتات وأنقذه من فوضى الحكم والمذهب (إلى حد ما) ابتداءً من المرابطين في المغرب إلى الحفصيين في تونس وهم فرع من الموحدين (وقد عاصروا المرينيين).

نستبعد بطبيعة الحال المفهوم الحديث للدولة. ونتذكر الرؤية الإسلامية التي تحكمت بشكل أو بآخر في تكوين هذه الدول. ثم نتذكر الدافع المذهبي الذي لم تكد تخلو منه دولة منها، والهدف السياسي والقبلي (والحزبي إن شئت) الذي تحكم في الحياة السياسية العربية ثم الإسلامية منذ مقتل عمر بن الخطاب. ونستخلص:

حكم مدني ديني عسكري:

أولاً: إن مفهوم الدولة كان إقامة حكم مدني عسكري ديني، يبسط نفوذه، انطلاقاً من مركز معين، قد يكون قرية بسيطة جبلية، أو منطقة صحراوية معزولة. ويبني له عاصمة وسط البلاد التي يتراءى له أن نفوذه سيطالها لتصبح مركز الدولة وعاصمتها. وعادة ما تكون هذه العاصمة محاطة بالقبائل التي آمنت بالحكم واستطاعت حمايته والدفاع عنه. وغالباً ما يكون مركزها استراتيجياً من المحظور العسكري، ويضمن الغذاء والماء ومنها ينطلق الحكم ليبسط نفوذه الإسلامي والمذهبي إلى حيث ما استطاعت قوته العسكرية ونفوذه المذهبي والقبلي. وكان حكم هذه الدولة حكماً فردياً وراثياً، يعتمد في أحيان على الشورى بين القبائل وشيوخها، أو المجموعة ذات النفوذ الفكري، الفقهاء والعلماء، لتأييد الحكم والسير في ركابه ومواجهة خصومه المذهبيين والفقهاء ورجال الدين. ولكن المفهوم الأكبر للدولة في هذه البلاد هو نشر الإسلام والدفاع عنه والحرب دونه. وفي سبيل ذلك تعمل كل دولة للدفاع عن نفسها ضد المنافسين أو تحارب لإقامة حكمها ضد الدولة الغازية. وإذا كانت الآفاق القريبة هي المناطق التي يفرضها البعد الجغرافي، المحدود الأفق، والذي يرسمه البحر والوديان والجبال، مثلاً، فإن الآفاق البعيدة لنشر الإسلام والدفاع عنه هي ما وراء البحر في الشمال: صقلية والأندلس فتحاً لهما ودفاعاً عن الإسلام فيهما، ثم ما وراء الصحراء وجنوباً في إفريقيا السوداء حتى بلاد السودان الغربي. ثم توسيع الإمبراطورية شرقاً حتى حدود مصر (وهي

البلاد التي قامت بنفسها وظلت وسطاً عازلاً بين بلاد المغرب، لما حدث فيها من انفصال). وبلاد المشرق من وحدة تارة وتفرق تارات أخرى - إلا في عهد الفاطميين العبيديين الذين انتقلوا من المغرب الكبير لتكوين خلافة فيها - وتكونت فيها دول مرتبطة بالخلافة أو منفصلة عنها كالأخشيديين والأيوبيين.

المدينة مركز الخلافة:

ثانياً: مفهوم الدولة بهذه المضامين لم يكن يعني الحكم فحسب. ولكن كان يعني بناء الدولة اقتصادياً واجتماعياً وعلمياً. لقد عاد بعضهم بالحكم إلى مفهومه الإسلامي العميق، يعتمدون فيه على «الجماعة» الإسلامية. ولعل ذلك هو الأصل فيما عرفته بعض الشعوب الإسلامية من اهتمام بالضمان الاجتماعي بشكله البدائي. وما اتبعته بعض الجماعات الإسلامية في العصر الحديث من رعاية للمجتمع - في حدوده الضيقة - ولو كان ذلك لمنافسة خدمة «الإمامة» قديماً والجماعة حديثاً مذهبياً وسياسياً. ولذلك فإن هذه الدول قدمت لشعوبها مجموعة من الخدمات الكبرى في هذه الميادين. واستطاعت أن تبني حضارة تعتمد على اقتصاد متنام. كما استطاعت أن تنظم المجتمع سياسياً - أحياناً - كما كان الأمر في عهد الفاطميين والمرابطين والموحدين، وثقافياً أحياناً، ما فتحته من آفاق في وجه المعرفة بالمفهوم الواسع للمعرفة الإسلامية. ثم بما بنته من مدن حمت الحضارة الإسلامية وكانت مصدر إشعاع ثقافي وحضاري في كل البلاد التي ضمتها مملكتهم. ولم تلعب هذه المدن دورها السياسي فحسب، ولكنها لعبت دورها الديني والحضاري. فما تزال معالمها وآثارها تحدث عن مجهود الدولة الإسلامية في بلاد المغرب في البناء والتعمير والفن الإسلامي المتميز، كما لا تزال قصباتها وحصونها ومحارسها تؤكد أن مفهوم الدولة لم يكن بسيطاً وسلطوياً فحسب، ولكنه كان تنظيمياً سواء في المعمار المدني أو العسكري. ثم بما بنته من دور العلم كالقرويين والزيتونة وغيرهما من المساجد والمدارس التي كانت منارات للثقافة الإسلامية والمدنية طوال ألف عام أو تزيد.

وفكرة المدينة يجب أن تلفت النظر في حضارة الدول الإسلامية سواء في المشرق أو في المغرب. فكما أن الرسول اتخذ من المدينة «دار هجرة» وأرسى فيها قواعد الدولة الإسلامية، اتخذ الأمويون من دمشق دار خلافة والعباسيون بنوا بغداد والولاة بنوا القيروان وهدمت ثم بنيت. والإدريسيون بنوا فاس والرستميون بنوا ـ أو اتخذوا ـ تاهرت مركز دولتهم وبنو مدرار اتخذوا من سجلماسة التي بنوها من جديد ووسعوها، مركز الدولة السياسي والإداري والإشعاعي. والفاطميون بنوا القاهرة. المدينة إذن لعبت دوراً مهماً في التاريخ الإسلامي على غرار ما لعبت في التاريخ الفرعوني واليوناني والروماني. والحكم في المغرب لم يشذ عن هذه القاعدة.

وقد ارتبطت هذه الدول سياسياً بمختلف دول أوروبا آنذاك كلما عم السلم المنطقة، رغم أن بلاد المغرب ودولها اشتغلت بالدفاع عن الإسلام ونشره ومقاومة الغزوات الصليبية انطلاقاً من الأندلس أو صقلية، مثلما قامت دول المشرق بمقاومة هذه الغزوات في المشرق دفاعاً عن القدس وسوريا ومصر.

المفهوم الإسلامي لم يكن غائباً عن الدولة في المغرب العربي إذن. وهو مفهوم حقيقي في مختلف الدول التي نشأت. ارتبط أحياناً بالمذهب كما نجده عند بني رستم وبني مدرار وعند الفاطميين والموحدين، وبالسياسة الإسلامية ممتزجة بالسلطة ضداً على المغتصب أو المعتدي كما نجده عند الأدارسة وعند المرابطين وعند الموحدين وبقية دول المغرب الكبرى.

ونخلص إلى أن الدول المغربية، كرست انفصال المغرب عن المشرق في الحكم وإلى الأبد، رغم الارتباط في عهد العثمانيين لبعض بلاد المغرب مع مركز الخلافة. ولكنها كونت دولاً قوية بَنَّاءَة حافظت على الإسلام وبنت معالمه الحضارية وكرست ثقافته المتفتحة على كل آفاق المعرفة. ودافعت عن المنطقة جميعها ضد الغزو الأجنبي الإسباني والبرتغالي، الذي كان يرى في

احتلال بلاد المغرب «حزاماً أمنياً» ضد عودة الإسلام إلى الأندلس أو صقلية.

ولذلك كان دور المغرب في بناء دولة الإسلام والحفاظ عليها لا يقل عن دور المشرق، رغم أن آفاق المشرق كانت أكثر سعة لاتساع مجال العمل الإسلامي في آسيا حتى شرقها وأوسطها، وأن آفاق المغرب كانت أقل سعة لأن أوروبا النصرانية ـ وهي المجال الحيوي للحضارة الإسلامية في تلك العصور ـ نهضت للدفاع عن النصرانية ضد الإسلام فوقفت به عند بواتيي، وعند صقلية وحدودها ولأنها استطاعت أن تخرب الحكم في الأندلس بالهجوم المتوالي عليها بعد سقوط الدولة الأموية فيها. ورغم أن المرابطين والموحدين (والمرينيين إلى حد ما)، استعادوا مجد الأندلس واستطاعوا أن يضمنوا للإسلام أربعة قرون أخرى من حياته في هذا الجزء من أوروبا، فقد كانت يقظة الدول النصرانية وتصميمها على القضاء على الإسلام الذي دق أبواب بواتيي، كفيلة بسد أفق التوسع الإسلامي في الغرب على غرار ما كان عليه الأمر في الشرق.

ولكن دول المغرب استعاضت عن الشمال بالجنوب، فقد نشرت الإسلام في إفريقيا الغربية، ولم تكن الصحراء الكبرى بمانعة عن اجتياز المسلمين لفيافيها بالإسلام والحضارة الإسلامية. والتجارة التي ربطت بين غرب إفريقيا، السينغال والسودان الغربي (مالي) والنيجر، وبين شمال القارة، كما اجتاز الإسلام إلى شرق القارة من شمالها ومن جنوب الجزيرة.

مفهوم الدولة في بلاد المغرب إذن كان في مستوى الدول القوية ذات المسؤولية الكبرى.

ولم يكن هذا المفهوم يفرز غير دول إقليمية تضيق أحياناً فتختص بالمغرب. وجزء من المغرب (الأدارسة مثلاً) أو بالجزائر (الرستميون مثلاً) أو بتونس (الأغالبة والحفصيون مثلاً) ويتسع أحياناً فيأخذ مفهوم الإمبراطورية التي تجمع بين الأندلس وشمال إفريقيا حتى حدود مصر والسودان الغربي

(الموحدون مثلاً) ولكنه لم يهدف في تجربة من هذه التجارب إلى بناء خلافة إسلامية تشمل مشرق العالم الإسلامي وغربه للأسباب الجغرافية والسياسية التي أشرنا إليها. ولسبب أساسي يجب ألا نغفل عنه وهو أن الإسلام ـ مهما كان للناس كافة ولجميع المسلمين ـ ظل (سياسياً) ديناً شرقياً، يمكن لمن صاحبوا النبي وعملوا معه على تثبيت دعائمه أن يكونوا خلفاء للمسلمين كافة كالخلفاء الراشدين، ويمكن لزعماء القبائل الذين كان لهم حظ من نشأة الإسلام بينهم أن يحتكروا الخلافة لهم كالأمويين وهم فرع من قريش والعباسيين وهم من ذرية عم النبي. ويتغلب الجانب السياسي والجغرافي على هذا السبب بالنسبة للأدارسة. فرغم صلتهم نسباً بالنبي ﷺ كان بعدهم عن مركز الإسلام الأول من جهة، وضعف العصبية لهم في المغرب، والمدة القصيرة التي تولوا فيها دون سند كبير ولا قيادة محكمة، باستثناء إدريس الثاني، كان ذلك مانعاً لهم عن دعوى الخلافة أو الطموح إليها.

نقول ذلك ولا نغفل عن أن مفهوم الدولة اختلف بين الإمارة الصغيرة والدولة الكبيرة. فالمذهبية (الخارجية على الأخص) كانت تطبع الدولة بطابع «الإمارة»، ولو كانت محدودة في الرقعة الجغرافية وفي الجماهير المنتمية إليها، جماهير المؤمنين بالفكرة والمدافعين عنها، بينما الدولة التي قامت على أساس سياسي كانت أكبر من إمارة. ولكن كلا النوعين كان يعني دولة منفصلة قائمة على الحكم والدفاع عنه، وكل مظاهر الحكم الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية.

النشأة والمصير

أولاً: مغربية الدول المعاهدة

نعتبر مغرب الدولة يبتدىء من نهاية عهد الولاة وقيام الدول التي فصلت المغرب كله، أو جزء منه، عن الخلافة العباسية، وأقامت فيه حكماً مستقلاً استقلالاً تاماً أو داخلياً، وقد أشرنا إلى هذه الدول فيما سبق.

نشأت هذه الدول تحت قيادة مغامرين ـ أغلبهم ـ قدموا من المشرق فراراً من قمع السلطة الخليفية أو ولاة نصبتهم الخلافة في الحكم (الأغالبة) فاستقلوا به مع تبعية إسمية.

القيادة إذن عربية. والأرض مغربية. والسكان كانت أغلبيتهم من البربر. وكثير منهم عرب، أو بربر مستعربون أو عرب متبربرون. والقواد العسكريون والمساندون معظمهم مغاربة والجنود المحاربون معظمهم مغاربة. وقد قدمنا في القسم الأول من هذا الكتاب (فصل تعريب المغرب: الإنسان ـ اللغة) فكرة عن الهجرة الإسلامية التي حملت الإسلام والعروبة، وعن استيطان العرب الفاتحين والتعايش والتناسل بين العرب والبربر، وعن الهجرات العربية الوافدة من الأندلس ومن المشرق وأثرها في تعريب الإنسان واللسان.

وتطورت هذه الهجرات في عهود الأدارسة والأغالبة والعبيديين ثم بعد ذلك في الهجرات الكبرى الزاحفة لبني هلال وبني سليم ورباح في منتصف المائة الرابعة الهجرية (منتصف القرن الحادي عشر م.) فكان تأثيرها خطيراً حضارياً وأمنياً، ولكن أثرها في التعريب كان كبيراً.

الذي يهمنا في هذه الفقرة هو أن القيادات التي أقامت الدول المعاهدة كانت عربية قادمة من المشرق، ولكن الحكم، في الغالب، قام على سواعد سكان البلاد، وأغلبهم بربر كما قلنا.

الأدارسة مثلاً: جاء إدريس وراشد فارين من مجزرة فخ بالقرب من المدينة التي حدثت في عهد الهادي العباسي. العربيان الوحيدان اللذان قدما إلى المغرب حتى وصلا إلى طنجة ثم وليلي وتبعهما بعض الأتباع والأنصار. لا يستطيع أحد أن يجزم بأن إدريس كان ينوي إقامة إمارة بالمغرب تناهض العباسيين. فمن الصعب أن تكون الفكرة قد راودت الشاب الذي نجا بحياته من البطش، وأوغل في البعد عن مركز الخلافة لأنه كان يعرف أن ولاة الخليفة في كل مكان كان يمكنهم أن يعتقلوه. وأن العملاء والمتاجرين قد يعتقلونه ويقتلونه ويحملون رأسه ـ على العادة آنذاك ـ إلى الخليفة عربون وفاء ولقاء مال ومنصب وجاه. والخبر الذي يرويه المؤرخون عن اكتشاف أمر الرجلين الهاربين في مصر لدى عاملها الخليفي ـ ولو أنه خبر بعيد عن الصحة ـ إلا أنه يؤكد مدى خشية الهاربين من افتضاح أمرهما، أو هكذا تخيل المؤرخون. ولذلك كان إيغال إدريس في الفرار حتى المحيط يبرره الخوف، كما يبرره المثل الذي أعطاه الأمويون حينما فر عبد الرحمن الداخل حتى الأندلس، رغبة في النجاة بنفسه ولو أن التفكير في الثورة على العباسيين لم تكن بعيدة عن مصالحه لأنه سليل دولة كبرى كانت قائمة، وليس مطالباً بحق فقط.

إدريس إذن لم يكن يخطط لإنشاء دولة أو إمارة، فيما يبدو ولم ينشأ هذا التفكير الذي راوده في ذلك إلا من العصبية التي آوته وساندته وزوجته إحدى بناتها. ولو أن المؤرخين القدماء يقولون أن راشداً وإدريس أخذا يدعوان إلى أمير علوي عند وصولهما إلى طنجة قبل أن يعرف أمرهما. وهذا ما لا يتفق مع طبيعة الخوف الذي راودهما في الطريق الطويل الذي استغرقت فيه الرحلة سنتين. لو صح ما يقوله المؤرخون من أنهما بدآ الدعوة لأمير علوي عقب

وصولهما إلى طنجة فلماذا لم يبدآ الدعوة في مرحلة من مراحل الطريق؟ أغلب الظن أن الفكرة جاءت بعد أن وجدا الدعم من القبائل الكبرى وفي مقدمتها أوربة. ثم إن لموقع وليلي الستراتيجي أثرا في انبعاث الفكرة وانطلاقها.

تفكير مزدوج بدون شك. لأن التاريخ لا يمكن أن يجيب على سؤال هام هو:

- متى انبعثت فكرة إقامة الإمارة؟ من صاحبها؟ من ساند الفكرة وأخرجها إلى حيز التطبيق؟

ولكن التاريخ لا يَضِنُّ ببعض المعالم فيقول: إن إدريس وصاحبه حينما تركا طنجة (للأسباب التافهة التي يذكرها المؤرخون، وهي أنهما حينما لم يجدا فيها مرادهما) انتقلا إلى وليلي. ويبدو أنهما انتقلا إلى هذه المنطقة الداخلية الجبلية (نسبياً) وعرة المسالك تحسباً لما قد يصيبهما من أذى. ذلك أن طنجة مفتوحة على البحرين، وطريق إلى الأندلس، وما من شك في أنها كانت «تعج» بعملاء الخلافة لرصد الفارين إلى الأندلس، وللتعرف على ما يجري هناك. وقرب طنجة من شواطىء الأندلس يجعلهما على مقربة من أيدي الأمويين. ولم يكن هؤلاء أقل عداءً للعلويين من العباسيين. بل هم الذين تزعموا العداوة للعلويين ابتداءً من رأس العائلة علي بن أبي طالب. ورأس الدولة معاوية بن أبي سفيان إن لم نوغل في التاريخ فنبحث عن سر العداوة بين أبي طالب وأبي سفيان وآبائهما. ولذلك فالخوف منهم وهم على مقربة من طنجة، كان أشد من الخوف من العباسيين، وهم على مبعدة منها بعد بغداد عن المغرب. فهذا هو السر في الإيغال إلى منطقة بعيدة مهجورة مجهولة هي وليلي. ولعل ذلك من أسباب بناء فاس في موقعها الحالي الذي يبعد عن الشواطىء المستهدفة من الأمويين والعباسيين معاً.

والباحث عن الأمن لا يلبث أن يبحث عن الشخصية التي يأتمنها، والتي تمنحه هذا الأمن وتساعده على ذلك. وكانت هذه الشخصية، فيما يذكر

المؤرخون، هي: إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي، الذي آوى إدريس الثاني وعرف به زعماء القبيلة. وجمع له تأييد القبائل الحليفة لأوربة.

إشارة بسيطة يذكرها المؤرخون تفتح أمامنا باب التفكير في منحى جديد وهي قولهم إن إسحاق بن محمد كان معتزلياً. وإذا كان من حقنا أن نستغرب عن اعتزال الرجل، فلم يذكر التاريخ أن مذهب المعتزلة انتقل إلى المغرب، وخاصة وهو مذهب معقد، أكثر فلسفة من مذهب الخوارج البسيط، وهو مذهب فكري، أكثر منه سياسي. ومع ذلك يذكر ياقوت الحموي وهو يعرف بتاهرت القريبة من تلمسان أن أتباع واصل بن عطاء ـ وعددهم نحو ثلاثين ألفاً ـ أقاموا قريباً من تاهرت في بيوت كبيوت الأعراب يتنقلون بها.

المعتزلة لم ينفذوا إلى المغرب:

والمعروف أن المعتزلة نشطوا بدعوتهم في مختلف أنحاء الامبراطورية العباسية التي شجعت المذهب حتى كان من بين الخلفاء، من اعتنق المذهب كالمأمون والمعتصم والواثق كما اعتنقه في العهد الأموي يزيد بن الوليد. ولو أن هارون الرشيد العباسي قاومهم وطاردهم. وكان منهم علماء كبار.

وقد انفتح المعتزلة على الثقافات الأجنبية وما ترجم من الفلسفة اليونانية في عهد أبي جعفر المنصور والمأمون.

نأتي بهذا الاستطراد لنتساءل: هل وصل المعتزلة إلى المغرب؟ وهل كان لهم دور في الاضطرابات السياسية التي عرفتها هذه البلاد من جراء وصول الخوارج والشيعة والسنة؟.

لا يعرف تاريخ المغرب بالضبط حركة اعتزالية سياسية قوية إلا ما يشير إليه تاريخ المذهب الشيعي من أن واصل بن عطاء بعث أنصاره وَمُرِيديه إلى المشرق والمغرب لنشر المذهب. وما أشرنا إليه من مقولة ياقوت الحموي من أن مجمع الواصلية كان قريباً من تاهرت. وكان عددهم نحو ثلاثين ألفاً.

المهم أن الفكر الاعتزالي لم يكن له حظ الفكر الخارجي في المغرب لعمقه الفكري واعتماده على نظريات تخالف ظاهر الإسلام ووضوح النص القرآني. ولأن عمل المعتزلة الفكري لم يكتس طابعاً سياسياً كعمل الشيعة والخوارج. ونعتقد أنه لو كان لهم وجود فكري لما تخلف فقهاء القيروان عن الرد عليهم، ولترك لنا ذلك ثروة فكرية في الصراع بين السنة والمعتزلة كما بقي لنا القليل من الصراع بين فقهاء السنة والشيعة.

لذلك كله فليس من المعقول أن يكون إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي الذي ناصر إدريس وجمع حوله زعماء القبائل، معتزلياً وليس ممكناً أن يكون مذهب المعتزلة هو الذي جعله يقترب من أهل البيت انطلاقاً من تقارب المعتزلة مع الشيعة على نحو ما اتجه إليه بشر بن المعتمد الهلالي محاولة منه الكيد للعباسيين الذين اتجهوا إلى مطاردة المعتزلة في بعض فترات حكمهم.

الأدارسة دولة مغربية

يتضح أن دولة الأدارسة كانت من تدبير إدريس وراشد الوافدين من الشرق. ولكنها قامت على سواعد المغاربة. فقبيلة أوربة بزعامة إسحاق بن عبد الحميد آوته وناصرته كما ناصرته قبيلة مغيلة ثم توافدت عليه قبائل زناتة وزواغة وزواوة وسدراتة وغياثة ومكناسة وغمارة ومختلف القبائل الأخرى. والجيش الذي أرسى قواعد الدولة كان من هذه القبائل المبايعة ومن غيرها من القبائل الكبرى التي يذكر منها المؤرخون زناتة وصنهاجة وهوارة. زعيم بربري آخر ناصر إدريس الثاني هو أبو خالد يزيد ابن العباس العبدي، وهو الذي كفله بعد قتل راشد مسموماً بتدبير إبراهيم بن الأغلب. وناصرته قبيلة أخرى هي غمارة. ثم انضمت إليه مجموعات من قبائل زواوة ولواتة وسدراتة ونفزة ومكناسة، وغيرها من القبائل الكبرى التي كان لها نفوذ قبلي وسياسي.

كل الحملات العسكرية التي قام بها إدريس الأول وإدريس الثاني كانت

بقيادة وجيوش البربر. ونقل المؤرخون أخباراً عن الفتوح التي قام بها شرقاً حتى تلمسان وجنوباً حتى مديونة وتادلا. وقد أسلمت كل القبائل التي وصلها سواء كانت وثنية أو من القبائل التي انتشرت فيها اليهودية والنصرانية.

وقدمت إلى المغرب بعد ذلك وفود من العرب القيروانيين ومن الجزيرة أو العراق، وكلها وفود ناقمة من الدولة أو باحثة عن العمل. وقرب إدريس الكثير منها، كما وفدت وفود من الأندلس. واستعان بهم جميعاً في تعمير مدينة فاس التي وضع أساسها وبناها لتكون قاعدة للدولة بعد أن ضاقت وليلي التي كانت أقل خصباً وأصعب منالاً.

العرب الوافدون قاموا بدور آخر هو ما يمكن أن نسميه الدور المدني. فقد استوزر منهم عمر بن مصعب الأزدي، واستقضى عامر القيسي، واستكتب أبا الحسن عبد الله الخزرجي. وبذلك أخذ ينظم الدولة، على نحو ما أوحى له بها هؤلاء الوافدون من الأندلس، إلى جانب الجهود التي بذلها الذين كانوا يسيرون الدولة من البربر.

وما من شك في أن تنافساً كبيراً كان بين الذين كونوا الدولة وحاربوا في سبيلها وبين الذين وفدوا ليجنوا ثمار الدولة المستقرة عسكرياً ومدنياً ويتولوا المناصب الكبيرة، فيقربهم إدريس إليه ويجعلهم ـ كما قال الناصري ناقلاً عن المؤرخين القدماء ـ «بطانة ودون البربر، فاعتز بهم» وأنس بقربهم. فإنه كان غريباً بين البربر» ليس صحيحاً هذا الذي يزعمونه من أنه كان غريباً بين البربر.

فقد عاش إدريس بربرياً، ولو أن أصله عربي. نشك في أنه كان يتقن العربية، ولو أنه يعتز بنسبه العربي، كما يعتز سائر البربر بالنسب الشريف. ولكنه من أم بربرية وَرُبِّيَ في وسط أمازيغي والذين أحاطوا به كان معظمهم من زعماء القبائل البربرية. خاصة بعد وفاة راشد سنة مبايعته، وهو يومئذ ابن إحدى عشرة سنة (سنة 188 هـ). وقد رافقه وكفله بعد مقتل راشد زعيم بربري وهو يزيد بن العباس العبدي.

لذلك لا نعتقد أن إدريس بن إدريس قرب العرب إليه واعتز بهم وأنس بقربهم، أو كان يشعر بالغربة بين البربر، وهو لا يعرف بلاداً عربية أخرى غير المغرب.

وإذا كان قد وجد في بعضهم كفاءات إدارية وقضائية ـ وهي قليلة نسبياً ـ ووجد في الوافدين من يعمر ببعضهم المدينة الجديدة «فاس» فلم يكن هؤلاء يزيدون عن خمسمائة فارس على رواية بعض المؤرخين أو خمسمائة بيت على رواية آخرين، بينما الذين ناصروه وحاربوا معه وطوعوا المغرب شماله وجنوبه وشرقه حتى تلمسان. وأقاموا صرح الإسلام بالقضاء على الوثنية وعلى بقايا النصرانية وَحَدُّوا من انتشار اليهودية، وقاوموا النزعة الخارجية في سجلماسة، ووقفوا في وجه بني الأغلب في تونس الذين كانوا يعملون لتدمير الدولة لصالح العباسيين، الذين قاموا بكل ذلك هم السكان المغاربة من القبائل البربرية التي ناصرت إدريس الأول وإدريس الثاني.

ومن كل ذلك نستطيع أن نقول: إن الدولة الإدريسية كانت دولة مغربية رأسها الأول ينتمي إلى المشرق، ولكن، ابنه الذي أقام الدولة ودعمها مغربي ولد في المغرب من أم مغربية، ترأس القبائل المغربية التي نشرت الإسلام وأقامت أسس الدولة وبنت عاصمتها فاس.

وقد تكونت الدولة واستمرت بعد ذلك من كل العناصر الأصلية والوافدة من البلاد العربية والقيروان والأندلس، فتبربر العرب وتعرب البربر، وسكن العرب الجبال وسكن البربر المدن. وتكلم البربر العربية، وتكلم العرب البربرية على اختلاف لهجاتها، ولم يعد هناك تمييز بين هؤلاء وأولئك رأس عربية وجسد بربري.

المغرب، كمصر، يهضم المجموعات القادمة من الخارج، ويتجانس معها دون أن يتركها تسيطر إلا حينما تأتي بدين أو لغة تحمل الدين يمتزج بها ليعطيها الكثير من خصائصه، ويأخذ منها الكثير ليجعلها ذات طابع مغربي.

حدث ذلك بالأخص في تعامله مع العرب دون أن يحدث مع القرطاجيين والرومان والوندال. فقد يرفض المجموعات التي تحاول أن تمحو ذاته لتؤكد ذاتها. كذلك فعل مع القرطاجيين إلا حينما أصبحت قرطاجة التونسية هي قرطاجة الحقيقية. وما من شك في أن الشعب المغربي في تونس منحها بقدر ما أخذ منها. وقد رفض القرطاجيين في الجزائر والمغرب الذين وفدوا مستعمرين. كان يقبل الاتجار معهم ويقبل بعض سلوكهم الحضاري، في الزراعة والصناعة، ولكنه لا يقبل الحكم ولا السيطرة على كيانه. كان الرفض هو الغالب على الطبقات المغربية سواء منها التي أخذت بحظ من الحضارة وسكنت المدن والشواطىء رغم أن بعضهم كان يجيز لنفسه أن يستفيد اقتصادياً وحضارياً، أو الطبقات البدوية التي كانت تسكن الجبال والمناطق الداخلية عموماً، والتي كانت تستكين لطبيعتها وسلوكها وتعيش على تقاليدها في الزراعة وتجارة المبادلة.

الرفض إذن للعهد القرطاجي كان هو المظهر العام، كلما وجد في القرطاجيين ميلاً إلى السيطرة والاغتصاب والعنف والقمع. والمرونة والتعامل بالحسنى كلما استطاع أن يستفيد منهم ويفيد في التجارة أو مظاهر الحضارة.

ومن أجل ذلك لم يصبح القرطاجيون مغاربة. ولا كان المغاربة قرطاجيين. ولا كانت الدولة المشتركة دولة المغرب، رغم التآثر في وسائل الحضارة، وقليلاً في اللغة.

الرفض تجلى أكثر بالنسبة للرومان. فقد كانوا مستعمرين في عقليتهم وفي تعاملهم مع الشعوب التي احتلوا أراضيها ـ ومنها بلاد المغرب ـ أكثر من القرطاجيين، فرضوا الديانة المسيحية، بعد أن تمسحت روما، على بعض الفئات التي تعاملت معهم بمرونة، وفرضوا قليلاً من لغة الحديث الذي يفرضه التعامل أكثر مما تفرضه المدرسة، وفرضوا بعض المظاهر الحضارية المتعلقة بحياة السلم أو الحرب، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفرضوا الاندماج ـ وتلك

خاصية رومية مغربية معاً ـ ولا استطاعوا أن يفرضوا الدولة الوطنية على نحو ما فعل الأدارسة ـ على اختلاف طبيعة هؤلاء وأولئك واختلاف ظروف الوجود.

لذلك كان الرفض للعهد الروماني هو الطابع العام لتعامل المغرب مع الحملة الرومانية.

وقد يذكرنا ذلك بتعامل المغرب مع الحملة الفرنسية والإسبانية في القرنين التاسع عشر والقرن العشرين مع فارق الزمن، وفارق طبيعة وأساليب كل منهما.

مع العرب الفاتحين اتفق الأمر ولم يختلف. وقد حللنا في القسم الأول من هذا الكتاب طبيعة التعامل مع العرب، وتنوع هذا التعامل من «الرفض» المطلق إلى درجة الحرب المستمرة التي سماها المؤرخون ـ انطلاقاً من مقولة أبي زيد القيرواني ـ ارتداداً عن الإسلام عدة مرات، إلى قبول الدين واللغة والوافدين المسالمين كلما تركوا عُنجهية الحكم وطغيان الحاكمين وفرض الوجود بالقوة.

وحينما وفد إدريس لم يجيء حاكماً، ولا فرضه جيش غالب، وإنما جاء لاجئاً مطارداً فاستمع له المغاربة، وهو سليل النبي، فاطمأنوا لما سمعوا ونهضوا بالعبء معه يقيمون الدولة. فلم يكن حينئذ «الرفض» سبيلهم للتعامل معه، وإنما كانت المرونة التي انتهت بالتبني: تبني الرجل والأفكار التي جاء بها والدين الذي حمله والدولة التي أراد أن يبنيها.

الدولة إذن كانت مغربية بالأرض والرجال والمال والجهاد، والتلاحم حول القائد الرائد الذي خضع لقيادته وريادته رؤساء قبائل عظمى هي القبائل التي ناصرته.

الدولتان الصغيرتان الخارجيتان: الرستمية في تاهرت والمدرارية في سجلماسة كانتا محدودتي الأفق في الأرض والفكر. ورغم ذلك فإن المغاربة هم الذين نصروا المذهب وكونوا الدولة. ولولا المغاربة، الذين تحلقوا حول

أبي عبيدة مسلم بن كريمة في البصرة، يتلقون أصول المذهب الخارجي ووحد بينهم عبد الرحمن بن رستم، كما تزعم الرواية التاريخية. ولولا المغاربة الذين ناصروا أبا الخطاب المعافري الذي ولي الإمامة الخارجية في طرابلس، ولولا قبائل هوارة ولواتة ومكناسة ومزياتة ولماية التي اعتنقت المذهب الخارجي الإباضي في الجزائر، لولا ذلك لما كانت تاهرت ودولة بني رستم فيها ودولة بني مدرار. هذه الدولةِ التي اختارت جنوب المغرب في منطقة منعزلة هي سجلماسة كانت مغربيتها أكثر وضوحاً. الفكرة تعود إلى عكرمة مولى عبد الله بن عباس كما تقول الرواية. ولكن الذي بدأ بإنشاء الإمامة الصفرية هو البربري دوناس المغيلي بدأها في تلمسان بالجزائر. غير أن الذي أنشأ الإمامة في بدايتها بسجلماسة كان عربياً وافداً من الأندلس هو عيسى بن يزيد. غير أن الذي سعى إلى إنشاء الدولة فهو سمكو بن واسول الذي التحق بعيسى القادم من الأندلس. عيسى جاء بفكرة الإمامة وسمكو بن واسول جاء بفكرة الدولة. وكان أكثر دهاءً وعلماً واطلاعاً على أصول المذهب. ولأمر ما ولى عيسى ليتولى هذه الصدمة الأولى ويخلص الأمر له ويصبح وراثياً في عقبه.

الدولة إذن لم يكن لها طابع وافد غير مغربي. ولو أن فكرة الخوارج نشأت في المشرق على إثر الخلاف بين علي ومعاوية كما هو معروف.

ورغم أن الدولة ضمت كل العناصر التي كانت موجودة، أو أمكنها أن توجد بفضل فكرة الدولة والتجمع السكني والسياسي، من عرب وبربر وسود من الجنوب ويهود، رغم ذلك فقد اعتمد على قبائل مهمة مثل مكناسة (البثرية) متحالفة مع زناتة من نفس الأصل ومع صنهاجة (البرنسية). فكانت الدولة تعتمد على العنصرين الأساسيين في البربر وهما: البثر والبرانس.

هكذا نرى أن دولة بني مدرار كزميلتها بني رستم مغربيتان في الأرض والإنسان والفكرة ـ فكرة الدولة لا الفكرة الخارجية ـ.

ومن هذه الدول التي أقامت الحكم في المغرب في عهد التأسيس دولة

الأغالبة. مؤسسها إبراهيم بن الأغلب عربي من تميم. ولم يؤسس الدولة اغتصاباً، كما فعل رؤساء الدول التي ذكرنا، وإنما كان ذلك باتفاق (شبه معاهدة) لخصناها في فقرة الأغالبة، ولو أن هذه الإتفاقية وقعت تحت ضغط الأحداث.

من هنا يمكن أن نقول إن دولة الأغالبة لم تكن وافدة بالمعنى الذي كانت عليه الدولة الإدريسية أو الرستمية أو المدرارية أو الفاطمية، ولم تتأسس كدولة انفصالية، وإنما تأسست ولاية يحكم الوالي فيها باسم الخليفة ويعين الخليفة كبار رجال الدولة كقضاة القيروان. ويستقل أمير تونس بالحكم في التسيير والدفاع عن الخلافة مقابل مبلغ من دخل الإمارة يدفعه للخليفة.

كانت الدولة الأغلبية نوعاً متفرداً من بين دول المغرب واعتمدت في الغالب على العرب في إقامة كيانها، وفي الدفاع عن «استقلالها» ومناجزة خصومها (أو هي خصمهم) من الأدارسة والدول الخارجية.

من هذا المنطلق لم تكن دولة مغربية. ولكن الطابع المحلي وغزوها صقلية، وتفاعل عملها مع موقع تونس الجغرافي، ومع سكان تونس الذين أصبح أغلبهم من العرب، كل ذلك يجعل منها دولة مغربية، ولو أنها قامت على سواعد العرب الوافدين. وكانت الإمارة فيها وراثية بقرار من الخليفة في بغداد تضمنته الإتفاقية.

وتبقى بعد ذلك الدولة العبيدية أو الفاطمية. جاء الدعاة من المشرق كما عرفنا. وكانوا يحملون المذهب الشيعي الإسماعيلي. فهي دعوة مذهبية تنزع إلى إقامة دولة، أشبه ما تكون بالدولتين الخارجيتين، وتختلف إلى حد كبير عن الأغالبة والأدارسة، وكل منهما له طابعه الخاص. الذين ناصروا العبيديين كلهم من المغاربة، ولو أن عبيد الله المهدي لم يكن يثق فيهم. لأن المذهب السني كان متمكناً من المغاربة، ولم يستخدمهم إلا في الحروب التي شنها هو وا بنه أبو القاسم وإسماعيل المنصور، وفي الصراعات الداخلية التي كان

يحرض فيها القبائل إحداها ضد الأخرى، حتى يحول بين هذه القبائل وبين أن تقوم ضده منفردة أو مجتمعة.

مهما يكن فإن العقود الستة (65 سنة) التي قضاها الفاطميون في المغرب لم تمكنهم من تأسيس دولة مغربية. وإنما كانوا عابرين. أمدهم المغرب بالتجربة والتفكير في تقعيد المذهب، كما أمدهم بفرصة الاستيلاء على مصر. فالفترة التي قضوها في المغرب ازدادت فيها الخلافة العباسية ضعفاً في آخر عهد المكتفي والمقتدر، ولم يعد في استطاعتها أن تقاومهم أو تبعث بجيوش لحماية مصر منهم. ثم إن سلطة الإخشيديين في مصر كانت قد وصلت إلى الدرك ـ من الناحية الداخلية وبسلطة كافور الأخشيدي على زمام الدولة في آخر حياته ـ ولذلك أخذ يميل إلى تحويل طاعته من العباسيين إلى الفاطميين.

هكذا نجد أن سلطة الفاطميين في المغرب كانت مرحلة انتقالية رغم أنها سادت ـ في فترات متقطعة ـ مختلف أنحاء بلاد المغرب وناوشت الأمويين في الأندلس وسيطرت على صقلية انطلاقاً من تونس.

وانتقلت السلطة إلى مصر سنة 358 هـ ـ 969 م ليكون الفاطميون دولتهم في مصر وليؤسسوا القاهرة.

بذلك انتهت دولة الفاطميين من المغرب. وانتهت معها الدول ذات الأصل العربي ـ باستثناء الأدارسة الذين قلنا عنهم إنهم أسسوا دولة مغربية ـ وبدأ عهد الدولة المغربية أصلاً وفصلاً كما يقال.

اندماج عربي بربري في تكوين الدول
الخوارج ـ الأدارسة ـ الأغالبة والفاطميون

بنشأة الدولة في المغرب العربي تحررت هذه البلاد من سيطرة القبيلة كمركز للسلطة ـ ولو لم تتحرر من القبلية كنواة للتجمع والعصبية لتتطور المركزية إلى شكل جديد يأخذ من الإسلام أساسه، ومن بعض النظم التي اتبعتها الخلافة الإسلامية شكله. ومن بعض تجارب الدول الاستعمارية التي سبقت الإسلام، ومن الروح القبلية بعض أسسه العصبية التي لعبت دورها في مختلف الدول، وخاصة في عهد الدول الصغرى. غير أن عصر ما قبل الإسلام على عهد القرطاجيين أو الرومان أو الوندال لم يعط للمغرب المثل لتكوين الدولة. فقد كان عصر استعمار واحتلال، على اختلاف نوعية الاستعمار والاحتلال، كما بينا.

وكان مركز الدولة خارج المغرب إلا بالنسبة لقرطاج التي كانت تونس مركز الدولة. ورغم أن الحاكمين لم يكونوا مغربيين، فقد استوطنوا قرطاج وبنوا فيها دولتهم ومركز تجارتهم ومنها انطلقوا إلى بقية أنحاء المغرب يحتلون ويحكمون ويتاجرون، كما انطلقوا إلى الجزء الشمالي من البحر الأبيض ليحتلوا مناطق منه وبالأخص إسبانيا.

مركز الدولة إذن كان خارج المغرب بالنسبة للدول الأخرى، وجزئياً بالنسبة للقرطاجيين. ولذلك لم يعطوا المثل للمغاربة في إنشاء الدولة. كان المغاربة محكومين وجنوداً محاربين على أكتافهم قام الحكم. ولكنهم كانوا

خارج المسؤولية. ولذلك لم يتعرفوا على طرق تكوين الدولة، يوم أصبح في إمكانهم ذلك مثل ما حدث في العصر الحديث حينما كانت الإدارة الفرنسية والاسبانية والايطالية تحكم البلاد حكماً مباشراً، وكان المغاربة خارج المسؤولية. ويوم استرجعوا استقلالهم لم تكن لهم التجربة الكافية لتسيير الدولة. واستفادوا من العرب لأنهم كانوا أكثر قرباً منهم نسبياً في عهد الولاة، وأكثر قرباً في عهد الدول الصغرى المتناثرة في أنحاء المغرب. ولذلك ظل الشعب في المغرب العربي منفصلاً، وعازفاً عن أن يأخذ المثل من الحاكمين.

عصر الولاة كان عصر اضطراب وسيطرة فردية وعائلية، وعصر منافسة بين الحاكمين، وعصر استغلال النفوذ وابتزاز الشعب لإرضاء الخليفة، حتى يترك الوالي أو الولاة في مناصبهم ضدّاً على منافسيهم والحاقدين عليهم.

وجاء عصر تكوين الدولة المستقلة ـ أو نصف مستقلة ـ ليمنح الشخصية المغربية وجودها وكيانها، وليترك للشعب مجال العمل في إدارة شؤونه، ومجال الاختيار ـ نسبياً ـ لحكامه. وبذلك بدأ المغرب يحقق شيئين إثنين؛

أولهما: استقلاله وانفصاله نهائياً عن المشرق، وعن الخلافة الإسلامية التي لم تكن قادرة على تثبيت قدمها في هذه البلاد، إلا من خلال الولاة الذين كانوا يسيئون إلى الخلافة بمقدار ما يسيئون إلى الشعب. ومن المعروف أن سلطة الخلافة العباسية لم تتجاوز جغرافياً منتصف القطر الجزائري، فلم يكن لها نفوذ على غرب الجزائر والمغرب الأقصى. وسيعيد التاريخ نفسه مع الخلافة العثمانية.

ثانيهما: مساهمته في إدارة شؤونه والتحكم في مصيره.

هكذا كانت نشأة الدولة في المغرب العربي بعثاً جديداً لكيانه تنفس فيه الشعب، ربما لأول مرة منذ هجرة القرطاجيين إلى إفريقيا، فأخذ يستعيد كيانه.

ويمكن أن نقول كملاحظة أولية على عصر مغرب الدولة؛ إنه يتميز بمرحلتين أساسيتين؛

ـ **أولاهما**: مرحلة الدول التي نشأت من خارج بمعنى أن منشئيها قدموا من المشرق. وتأخذ هذه المرحلة جزءً مهماً من تاريخ المغرب، نشأت فيها الدول الأولى؛ الرستميون وبنوا مدرار والأغالبة والأدارسة والفاطميون. العقل المفكر في نشأة هذه الدول كان قادماً من المشرق أو من الأندلس. ولكن الشعب والجهاز الذي قامت الدولة على أكتافه كان من المغاربة. فهم الذين أقاموا الدولة وحموها ودافعوا عنها ونشروا نفوذها. وقد استمرت هذه المرحلة من منتصف القرن الثاني حتى منتصف القرن الرابع.

ثانيتهما: مرحلة الدولة المغربية الصرف. وقد ابتدأت بالمغراويين وبني زيري والإمارات الصغيرة الثائرة التي زعزعت الاستقرار في المغرب، إلى أن انتهت هذه الاضطرابات ببداية مرحلة استقرار الدولة المغربية النابعة من المغرب على عهد المرابطين ابتداءً من منتصف القرن الخامس الهجري واستمر الأمر في المغرب، وتونس، والجزائر إلى حد ما، إلى العصر الحاضر. وحاولت الخلافة العثمانية بالنسبة لليبيا وتونس والجزائر أن تركز سلطانها في هذه المناطق، وظل نفوذها إسمياً، رغم الجهود التي بذلتها عسكرياً للدفاع عنها ضد الغزاة الغربيين والصليبيين.

وسنميز بَين المرحلتين، المرحلة الأولى مرحلة نشأة الدولة المستقلة، والمرحلة الثانية مرحلة استقرار الدولة المستقلة الكبرى. لأن الفترة الأولى ـ فترة الدول الصغرى [الإقليمية] ـ كانت بمثابة تجربة للاستقلال وتكوين الدولة فتشابهت بداياتها ونهاياتها من حيث مجيء القائد من خارج، أي من المشرق، سواء كان قائداً سياسياً أو قائداً مذهبياً، ومن حيث نوعية مجيئه فاراً من القمع السياسي والعقدي أو المذهبي. ثم من حيث تكوين الدولة من الشعب البربري والعربي المتبربر أو البربري المتعرب أو العربي. حافظ على عروبيته، ووجدوا جميعهم في الدولة الجديدة نموذجاً متطوراً عن الولاة الذين لم يكن الشعب في غالبيته يرتاح إليهم لبطشهم واستغلالهم للنفوذ.

وحينما نتحدث بالأخص عن ظاهرة الاتفاق في البداية والنهاية نقتصر على هذه الدول الصغرى قبل أن يستقر عهد الدولة في الدول الكبرى ـ لأن الظاهرة تتفق ولا تختلف. قد يؤيدنا في ذلك رأي ابن خلدون في أن الملك والدولة إنما يحصلان بالقبلية والعصبية. وأن الدعوة الدينية تزيد الدولة في الأصل قوة على قوةِ العصبية، كما هو الأمر بالنسبة للأدارسة وللدول أو الإمارات الخارجية. وقد يؤيدنا في ذلك رأيه أيضاً في أن كثرة القبائل والعصائب قلَّ أن تتحكم فيها الدولة، لأن وراء كل رأي عصبية ووراء كل عصبية رأي، فتختلف الآراء والأهواء وتسقط الدولة. ولكننا لا نهتدي برأيه الذي يزعم أن عمر الدولة لا يعدو، في الغالب، ثلاثة أجيال. لأنه يستند فيه على نظريته في أن الجيل الأول يعتمد على خلق البداوة، والجيل الثاني تمر فيه الدولة [الملك] إلى حالة التحول من البداوة إلى الحضارة ومن الشظف إلى الترف والخصب، والجيل الثالث ينسي عهد البداوة والخشونة، ويَعم الترف وبطر النعمة وتسقط العصبية، فلا يستطيعون مدافعة مطالب جيل جديد وبذلك تهرم الدولة.

قد يسند هذا الرأي بعض التجارب في الدول الأولى التي نشأت بالمغرب وقد تسنده التجارب التي عاشها فأوحت له بالملاحظة التي استنتجها من البلاد التي عاش فيها، (المغرب العربي ومصر مثلاً) ودرس تاريخها عن قرب. ولكننا نرى أن هذا الحكم لا ينطبق تلقائياً على كل الدول ومنها الدولة التي لم تكن قد استقرت بعد، خاصة بعد غياب القائد الأول الذي أثر في النشأة، وأن العامل الخارجي كان له أثره، رغم ضعف الدولة العباسية كدولة عربية، وأن الخلاف على السلطة كان ينهك الدولة فيسرع إليها الانحلال. ثم يأتي عامل مهم وهو عدم انتماء القيادة للشعب. القيادة كانت في الغالب تعتمد في تسيير شؤون الدولة على الوافدين، ويبقى الشعب بعيداً عن السلطة، بينما تعتمد عليه الدولة في حمايتها العسكرية والدفاع عنها. وهو عمل إذا دفع إليه الحماس الديني أو القبلي أو الدنيوي في البداية فإنما الحماس يتلاشى مع المجهود الحربي والخسائر البشرية.

مهما يكن فإننا سنلحظ تشابه البدايات والنهايات في الدول الأولى كظاهرة تستحق الملاحظة. ولو لم ينفرد بها المغرب. غير أن وضوحها في المغرب مما يلفت نظر المؤرخ.

نشأة الدولة في المغرب اتسمت بالتنوع والاختلاف. كما اتسمت بظاهرة الإتفاق.

أما ظاهرة الاتفاق فأساسها تحكم الموقع الجغرافي أولا، والأحداث ـ التاريخية التي عرفتها هذه المنطقة منذ بداية الفتح ثانياً، وطبيعة شعب المغرب التي تعرف عليها المشارقة على عهد الفتح ثالثاً.

الصراع والانفصالات مبعث توحيد المغرب العربي:

أما ظاهرة الاختلاف فيمكن أن نجملها فيما يأتي؛

1 ـ لم تكن الدول الأولى دولاً بالمعنى الكامل والواضح للدولة. كانت شبه إمارات مذهبية في الغالب انفصالية منعزلة، ليس لها تصور كامل للوطن أو الدولة أو الخلافة. طموحها ـ في الغالب ـ محدود في المكان ولو شملت أحياناً مناطق واسعة من بلاد المغرب وغير محدود في الآفاق المذهبية. وتعيش في الغالب تحت سيطرة الرعب من الخلافة وأتباعها. ولذلك فهي تمثل صورة الجماعة السرية، التي تتخذ لها إماماً تلجأ إليه في نشر المذهب حرباً أو سلماً، كما تتجه إليه في إقرار الحكم. وتستعمل العنف والقوة والسيطرة والمثالية لإقرار النظام وبسط النفوذ.

2 ـ لم تعط هذه الدول الصغيرة، رغم تعددها وبسبب تعددها، طابع الدولة المستقرة للمغرب. ولذلك تعددت «الدول» رغم اتفاقها أو اقترابها في المذهب. الخوارج نجد منهم ـ مثلاً ـ الصفرية التي أنشأت دولة بني مدرار في سجلماسة. والإباضية أنشأت دولة بني رستم في القيروان أولاً ثم في تاهرت بالجزائر.

3 ـ أغلب هذه الدول قامت على أكتاف القبائل البربرية. جاء المؤسسون من المشرق، ولكن القيادة والقاعدة كانت من البربر. بنو مدرار قامت عصبتهم على قبيلة مكناسة حتى تولاها سمكو ابن واسول شيخ مكناسة فتحولت إلى دولة بربرية وراثية صرفة، والإباضية قامت على أكتاف نفوسة وهوارة. ومعظم الذين قادوا الثورات الخارجية كانوا من القبائل البربرية البتر والبرانس، منهم ميسرة من مطغرة، وخالد بن حميد من زناتة، وعكاشة بن أيوب من نفزاوة. وعبد الواحد الهواري من هوَارة، وأبو قرة من مغيلة، وعبد الله بن مسعود التجيبي من هوارة، وإسماعيل بن زياد من نفوسة، وأبو حاتم الملزوري من هوارة، وغيرهم كثير.

4 ـ لم تكن هذه الدول الصغيرة تطمح إلى الملك فأحرى الخلافة. لأسباب دينية ـ شبه وهمية ـ أو لأسباب تضليلية، أي تضليل الأتباع، حتى لا يخلعوا الانتماء في عهد المرابطين تحرجوا من أن يلقبوا أنفسهم بلقب أمير المؤمنين حتى لا يخالفوا تعاليم الإسلام. . . أو ظاهر الحديث المأثور: الأئمة من قريش. . . ؟ رغم أن الخلافة في المشرق انتقلت من العرب إلى «الأعاجم» ولم تعد لها السلطة الكاملة على البلاد الإسلامية، مشرقية أو مغربية. ورغم أنها أصبحت ملكاً منذ معاوية.

وعدم طموح الدول الصغيرة إلى بناء ملك أو خلافة جعل نفوذها ـ إلى جانب الأسباب الأخرى التي يستذكرها ـ يقتصر على مناطق محدودة. فلم تبسط أي منها سلطتها على بلاد المغرب العربي كما حقق ذلك المرابطون، جزئياً أو الموحدون كلياً، ولا حتى على منطقة من هذه البلاد الواسعة كتونس أو الجزائر أو المغرب. نستثني الأدارسة الذين كونوا دولة قوية في فاس. [التي بنوها لتكون عاصمة الإمارة]، ولكنهم بسطوا نفوذهم عل شمال المغرب وغرب الجزائر فقط والأغالبة الذين كونوا دولتهم في تونس، وتوسعوا فغزوا صقلية ومالطة وسرقوسة.

5 ـ امتاز هذا العهد ـ عهد الدول الصغيرة المتوزعة بين أطراف المغرب العربي ـ بالصرع القبلي الذي انعكس على الصراع بين الدول نفسها. فقد كانت كل دويلة تعتمد على عصبية قبلية معينة، يدفعها لذلك الاضطرارُ إلا الارتكاز على سند قوي [أو تحسبه قوياً] ومن شأن الاعتماد على قبيلة أن تكون لها السيادة والنفوذ والسلطة. وتلك عناصر تزيد في إثارة الحسد والعداوة التي كانت موجودة فعلاً نظراً للنظام القبلي. ولذلك كان الصراع يحتد. قد لا يكون دائماً ضد الدولة أو طمعاً في هدمها. ولكن طمعاً في اغتصابها، وضد القبيلة وبدافع قبلي. وبذلك امتاز هذا العهد بالصراع المدمر، المذهبي أولاً والقبلي ثانياً. ولم يكن هذا الصراع يسمح بإقامة دولة متسعة الأرجاء مستقرة الكيان. رغم العنف الذي استخدمه معظم الأمراء للاحتفاظ بنفوذهم وسيطرة مذهبهم.

نستطيع أن نستنتج من هذه الملاحظات أن الوضع الجغرافي والبشري [القبلي] لبلاد المغرب العربي لم يكن يسمح بانفصال المغرب عن المشرق كوحدة قائمة الذات تحكم نفسها تحت حكم واحد، كما كان الأمر إلى حد ما في المشرق. كما أنه لم يكن يسمح ببقاء المغرب العربي جزء من الإمبراطورية [الخلافة] الإسلامية في المشرق. لم يستطع ذلك في عهد الولاة كما قدمنا عند الحديث عن هذا العصر. ولم يستطع ذلك بالطبع في عهد الدول الصغيرة. فكانت بلاد المغرب مجموعة جزر محكومة بمجموعة من المغامرين ـ مذهبياً أو سياسياً ـ ولم يتحقق لها حكم موحد وفعال إلا ابتداء من عهد المرابطين الذين صفوا كل الأسس التي قامت عليها هذه الدويلات، كما فعلوا بعد ذلك في الأندلس ليبنوا الدولة الكبرى [الإمبراطورية].

ورغم فشل الدول الصغرى في إقامة كيان كبير في المغرب العربي فإن بعضها لم يخل من إنجازات مهمة داخلية وخارجية كما سنرى.

ميزة هذا العهد أنه مهد الطريق لعهد الدولة الكبرى الموحدة. وفصل المغرب عن الخلافة ومشاكلها حتى امتد نفوذ الخلافة العثمانية على تونس

والجزائر في منتصف القرن السادس عشر نتيجة صراع إسلامي مسيحي امتد من شبه الجزيرة الإيبيرية ومن صقلية ليصطدم مع المدافعين عن الإسلام في البحر المتوسط. قام الأتراك بهذا الدور لحماية طرابلس وتونس والجزائر ونتيجة ذلك امتدت سلطتهم الإسمية على هذه البلاد تحت نفوذ الخلافة العثمانية.

ولذلك كان قيام الدول في المرحلة الأولى نتيجة الطمع والطموح والثورة والتمرد والهرب بالمذهب والعقيدة والنفس من القمع الذي عرفه الحكم في المشرق على عهد بني أُمية ثم بصفة أخطر على عهد العباسيين.

أولاً الخوارج ـ المذهب والدولة:

هاجر الخوارج بالمذهب إلى المغرب كمذهب وافد من الشرق بزعامة شرقية، ولكنه في المغرب يعتبر مذهباً مغربياً قام على أكتاف المغاربة البربر ـ بالأخص ـ وبزعامتهم.

لماذا هاجر المذهب إلى المغرب؟ ولماذا اختار بعضهم [الصُّفْرية] المناطق النائية الصحراوية كسجلماسة ليقيموا فيها دولة بني مدرار؟ ولماذا اختار بعضهم جبل نفوسة في طرابلس ليقيموا فيها المذهب الإباضي ثم تاهرت بالجزائر ليقيموا فيها الدولة ـ الرستمية؟

نعود إلى المذهب وبعض أصوله لنعرف كيف نجيب على السؤالين ولنستنتج ما نريد أن نستنتج.

المذهب الخارجي نشأ مبكراً كثورة على التحكيم الذي حدث في الخلاف بين علي ومعاوية. وكانت ثورة متطرفة في اتجاهها السياسي، وتلجأ إلى تكفير كل من ليس على مذهبهم، وكل من عارض دعوتهم المتطرفة أو اعترض على أخطائهم الدينية أو السياسية.

كانت تجد في بعض المبادىء الإسلامية أو الشعارات ملجأ لها. كان

الخوارج يدعون إلى العدل والحرية، ولا يتشبثون في الإمامة بالهاشمية ولا بالعربية، بل يعتبرون الإمامة حقاً لكل المسلمين. وكانوا يقاتلون في سبيل مذهبهم هذا بشجاعة وتضحية. ويتنكرون لكل حكم، سواء كان علوياً أو أموياً، أو عباسياً. ولذلك حاربهم الجميع؛ حاربهم علي بن أبي طالب، وصرف جزء من طاقته في قتالهم. وحاربهم الأمويون وأضعفوا قوتهم، وحاربهم العباسيون وطاردوهم.

نتيجة لكل هذه الحروب، ونتيجة لتعصبهم وصمودهم لم يجدوا لهم مكاناً في المشرق. بَعْدَ أن طوردوا في كل مكان لجأوا إليه ووصلته السلطة الخليفية، لجأوا إلى البحرين وحضرموت واليمن وعمان والطائف. وفي كل مكان من هذه الملاجىء كانت الدولة تقضي عليهم. لأنهم، إلى جانب المذهبية، كانوا يستعملون العنف أينما حلوا، وبأي مذهب تمذهبوا أو رأي ارتأوا.

زادهم انهزاماً وفشلاً في المشرق انقسامهم على أنفسهم. كل من رأى منهم أن زعيمه أخطأ، ـ والخطأ عندهم سهل الوقوع ـ ثار عليه وحاربه. فأصبحوا مجموعة مشتتة وفرقاً ممزقة. ونتيجة لهذا التفكير «الفردي» المذهبي المتعصب انقسموا كذلك إلى مجموعة فرق مذهبية. فمنهم الأزارقة والأباضية والصفرية والنجدات. وكل فرقة من هذه الفرق الأساسية تنقسم إلى مجموعة فرق، كلها تتخذ العنف سبيلاً للوجود والبقاء. وليس أسهل عندهم من التكفير، رغم اختلافهم في التشدد والليونة المذهبية.

ضاق الأمر بهم في المشرق العربي والفارسي لأنهم كانوا يتمسكون بالعصبية القبلية والزعامة العربية فلم ينتم إليهم زعيم يمكن أن يكون سنداً، ولم يستطيعوا أن يجدوا لهم مكاناً في المشرق الفارسي لولاء فارس لدولة بغداد، التي كان الموالي الفرس يتحكمون فيها تحت اسم الخلافة العباسية. وكانت بلاد المغرب قد أصبحت لها مكانة وسمعة وذكر على عهد الفتح وعهد

الولاة. ليس لغناها فحسب، ولكن لموقعها الجغرافي وطبيعتها المتنوعة وبعدها عن مركز الخلافة، تتوفر على مناطق حصينة ليست منبسطة كأرض المشرق - في غالبيتها بما فيها مصر - ولكنها جبلية وصحراوية وسهلية يسهل التحصن فيها والدفاع عنها. كما أصبح لأهلها ذكر طيب لقوتهم وبأسهم وفطرتهم وتشبثهم بالإسلام، إلى جانب نقمتهم على ولاة الخلافة. ولذلك لجأ إليها من لجأ، سواء بحثاً عن مكان للعيش أو بحثاً للمذهب عن مكان للتنفس. كانت بلاد المغرب إذن مطمحهم لتميزها البربري الغالب آنذاك، ولظروفها السياسية والاجتماعية. وأكثر من ذلك لأن دعوتهم إلى الحرية والعدل ستجد مكانها في قلوب المغاربة الذين عرف عنهم أنهم كانوا يتنكرون للاضطهاد العربي، وانعدام العدل بين البربر والعرب. ولأنهم - وهذا سبب مهم في رأينا - لأنهم كانوا لا يؤمنون بخصوصية العرب بالإمامة، إذ هي حق لكل المسلمين. وما من شك في أن فكرة كهذه قد تداعب مطامح البربر الذين كان تشبثهم بالإسلام لا يقل، إن لم يكن متفوقاً على العرب. وكان البربر لذلك يتطلعون إلى الثورة على السلطة، ويحترمون إسلاميتها لتشبثهم بالإسلام، فلما وجدوا دعوة إسلامية تتنكر للسلطة وتؤمن بالحرية وبانعدام «المميز» في ولاية أمور المسلمين انحازوا إليها.

لكل ذلك رحل المذهب الخارجي إلى بلاد المغرب. فماذا كان حظه هناك؟

لقد انتهى الأزارقة في المشرق، وكانت من الفرق المهمة والأكثر تشدداً في بداية الربع الأخير من القرن الأول الهجري، وانتهت النجدات. وبقيت فرقتان على درجتين مختلفتين في الاعتدال هما الصفرية والإباضية، وما تفرع عنهما من فرق، وهما اللتان ظهرتا في المغرب.

وفي الوقت الذي فكروا في الفرار بمذهبهم، بعد أن طاردتهم الدولة في المشرق، كان تفكيرهم في نفس الاتجاه شاملاً رغم اختلاف مذهبهم بين

متشدد [الأزارقة والنجدات] وبين معتدل [الإباضية] وبين متوسط بين التشدد والاعتدال [الصفرية]. وقد لجأ إلى بلاد المغرب منهم الصفرية ثم الإباضية.

رحل الصفرية إلى المغرب وابتعدوا عن المناطق التي مرت منها قوافل الفتح والمناطق التي كانت معروفة للفاتحين قبل الفتح الإسلامي [الشواطىء] وأوغلوا في الجنوب في منطقة صحراوية يخترقها نهر، قد تكون مياهه غزيرة في الشتاء والخريف. ومنطقة تافيلالت، وسجلماسة بالذات. وأسسوا لهم إمارة ابتداءً من سنة 140 هـ 757 م. ولا شك أنهم فكروا في هذا الموضوع في نهاية الدولة الأموية ونفذوه بالفعل بعد قيام الدولة العباسية بنحو ثمان سنوات.

وفي الوقت الذي كان عكرمة مولى عبد الله بن عباس، هو عربي طبعاً ويقال إن أصله مغربي، وهو قول مستبعد، ينقل مذهب الصفرية إلى المغرب - فيما يقول المؤرخون - كان قبله رجل آخر بربري هو أبو قرة دوناس اليفرني أو المغيلي ينشىء إمامة صفرية في تلمسان، يحدد المؤرخون تاريخها بسنة 125 هـ.

وصولهم إلى بلاد المغرب مر بفترات مأساوية خطيرة، فقد عملت الخلافة الأموية في أُخريات أيامها على تتبعهم واستئصال وجودهم في ليبيا والقيروان. ورغم الصراع الذي قام بين الصفرية والإباضية في طرابلس وتونس، فإن الحركة الإباضية لم تكد تظهر في المغرب على يد أبي الخطاب عبد الأعلى سنة 140 هـ حتى تعرضت الصفرية والإباضية إلى عملية استئصال. وقد تجلت حركات الإباضيين قبل هذا التاريخ بالمغرب في الثورة التي قام بها عبد الله النتجيبي في طرابلس سنة 126 هـ وقتل هو وأخوه. ثم كانت ثورة أخرى من هوارة نفسها بزعامة عبد الجبار بن قيس المرادي والحارث الحضرمي واستولوا على طرابلس وهزموا جند الخلافة. ولكن الزعيمين قتلا سنة 131 هـ في معركة داخلية بينهما فانتهت حركتهما. حركة

أخرى قام بها إسماعيل بن زياد النفوسي في قبيلة نفوسة فاستولى على قابس بعد سنة من مقتل زعيمي الحركة السابقة أي سنة 132 هـ وفشلت الحركة على يد جيش الخلافة. وعرف الإباضيون مجزرة قتل فيها الكثرون. وكان قائد جيش الخلافة الذي قام بهذه المقاومة الضارية والمذبحة الرهيبة للإباضيين هو عبد الرحمن بن حبيب.

ولذلك استفادت ثورة سنة 140 هـ من كل الظروف المأساوية التي عرفها الإباضيون في طرابلس وتونس. وانضمت إليه نفوسة وهوارة وزناتة وغيرها من القبائل، واستولوا على طرابلس وعلى جزيرة جربة وقابس. وزاد انتصارهم على الصفرية في سلطتهم ونفوذهم وحماسهم لبناء الإمامة، ومقاومة جيوش الخلافة تحت قيادة محمد بن الأشعث الخزاعي في المعركة الأولى، ولكن أبا الخطاب انهزم في المعركة الثانية وقتل في معركة رهيبة فالتجأ من بقي من الإباضية إلى الجبال والحصون، وطاردهم القائد ابن الأشعب وقواد جيشه فقضى على الكثير منهم في طرابلس وفي كل مكان وصلته جيوشه، حتى انتهت دعوة الإمامة. وكل القبائل الإباضية التي انهزمت كانت قبائل بربرية.

وانبعثت الإمامة من جديد على يد أبي حاتم الملزوزي، فشن حروباً ضد جيش الخليفة واستولى على طرابلس من جديد وحاصر القيروان واستمرت الحروب مع جيوش الخلافة حتى قتل أبو حاتم في معركة ضارية مع عدد كبير من الإباضية، وطاردهم مرة أخرى قائد جيوش الخلافة في كل مكان، يبطش بهم ويستأصلهم.

هذه المعارك الضارية دامت نحواً من ثلث قرن انتهت بتصفية كثير من القبائل التي دانت بالمذهب الخارجي؛ الصفرية منهم والإباضية، ولكنها لم تنه المذهب ولا قضت على الطموح المستهدف تكوين إمامة ودولة. وكان لهم ما أرادوا في دولة بني رستم الإباضية وفي دولة بني مدرار الصفرية.

نحن إذن أمام دولتين خارجيتين نشأتا في المغرب بعد الصراع الرهيب

الذي حدث بين الخوارج عموماً [صفرية وإباضية] وبين جيوش الخلافة، وبعد الصراع الذي قام بين الفرقتين، كانت كل منهما تحارب الأخرى ـ رغم اتحادهما في بعض فترات المعارك ضد خصمهما ـ ولو تكونت منهما جبهة خارجية واحدة لكان للخوارج وجود أقوى مما كان لهم على يد دولتين إحداهما نشأت في سجلماسة جنوب المغرب الأقصى [بنو مدرار] والأخرى نشأت في تاهرت وسط الجزائر. بنو رستم.

1 ـ دولة بني مدرار:

جنوب المغرب الأقصى كان مأمناً ـ إلى حد ما ـ من أن تصل له قوات الخلافة. كان موقعه الجغرافي حصيناً، وكان الشعب أكثر حصانة. فالفكرة الخارجية تمكنت من المغاربة بما لها من تشدد في الدين من جهة، وبما توحي به من تنكر لولاة الخليفة، الذين كانوا منذ بدء عصر الولاة طغاة في الحكم ونهابين للمال، ويتمتعون بعقلية عنصرية، يحتقرون السكان الأصليين ويستعملونهم حطباً للحرب، ويتخذون من الحرب سبيلاً للقربان إلى الخلفاء وإرضاء السلطة المركزية بالمال والغنائم. كان تفكيرهم في تطويع الأقاليم يعتمد على الحرب أكثر مما يعتمد على السياسة أو الدين، ولذلك لم يتركوا طريقاً يؤدي إلى الحرب إلا سلكوه. وفي اعتقادي أنهم السبب الأول في فصل بلاد المغرب، وأغلب البلاد الأخرى التي فتحوها باسم الإسلام، عن مركز الخلافة.

تكوين دولة خارجية في جنوب المغرب منفصلة عن الخلافة يعود إلى هذا السلوك. وإذا كان ذلك يصطدم مع فكرة الولاء للخليفة الذي كان يرمز لخلافة النبي، وهي فكرة تمكنت من المسلمين في مختلف العصور، فإن المغاربة فضلوا ذلك على الخضوع للذين لم يكونوا يخدمون فكرة الخلافة الحقيقية وكانوا يسيئون إلى الإسلام إساءتهم إلى الحكم. وأدرك المغاربة الإساءة إلى الحكم دون أن يتعدى ذلك إلى الإساءة إلى الإسلام. بل إنهم

ازدادوا تشبثاً بالإسلام، وطاعة لحكام الإسلام في شكل الاندماج في المذهب الخارجي وتدعيمه بجهودهم المالية والبشرية، بإقامة دولة خارجية يرأسها عرب، وتقوم على أكتاف البربر، أرضاً وشعباً.

ينطبق ذلك على الدول الصغرى التي نشأت في هذا العهد خارجية وسنية كما سنرى.

انطلق الخوارج الصفرية إلى جنوب المغرب مستغلين الموقع الجغرافي الصحراوي تفصله الجبال الشاهقة عن المغرب «النافع» الذي كان دائماً مطمح كل الذين وفدوا على المغرب مستعمرين ومستغلين قبل الإسلام وأثناء الفتح وفي عهد الولاة. وبساط سجلماسة الذي يمتاز بصحرائه، يشبه إلى حد كبير البيئة العربية التي وفد منها الكثير من الخوارج، يمتاز بوجود نهر [زيز] فيسهل مهمة الاعتماد على الماء كلما أمطرت السماء، وليس فقط على الآبار.

واعتمد كذلك على قبيلة مهمة هي مكناسة [قبيلة تعود إلى شعب رئيسي «ضريسة» من البتر هو خزيسة] وقد تحالفت هذه القبيلة مع قبائل أخرى مهمة بترية كزناتة وبرانسية كصنهاجة. وأقاموا دولة تعتمد على العنصرين معاً؛ الجغرافي والبشري، كما اعتمدوا على السود الأفارقة من جيران الصحراء. والمنطقة تعتمد بحكم موقعها على التجارة وهذا عنصر أساسي أيضاً في نجاح التجربة. لأن الدولة لا يمكن أن تعتمد على الأرض القاحلة دون أن يكون لها مورد خارجي. والمذهب بحكم تطرفه، ولأنه متابع من جند الخلافة، لا يسعه أن يمتد خارج المنطقة ليكون له مورد من الدولة نفسها. كانت التجارة إذن العنصر الثالث ـ بعد الموقع الجغرافي والبشري ـ في إقامة كيان المذهب وتنميته.

إذا كان أصل الفكرة يعود إلى العربي [عكرمة مولى عبد الله بن عباس] فإن بربرياً هو دوناس المغيلي هو الذي بدأ بإنشاء إمامة صفرية في تلمسان

حوالي سنة 125 هـ. أما الذي أنشأ الإمامة في بدايتها في سجلماسة فهو عربي من الأندلس يسمى عيسى بن يزيد الأسود. ولكن بربرياً آخر سعى إلى إقامة الدولة هو سمكو [مدرار] بن واسول الذي التحق بعيسى، وقويت سلطته بقبيلة مكناسة وأنشأ الدولة سنة 140 هـ. وقد احتضن سجلماسة في نفس السنة. وأصبحت بعد ذلك عاصمة حصينة وعاصمة فلاحية لأنها نشأت بين فرعي النهر وغرسوا فيها النخيل وزرعوا بعض الزراعات. استبدَّ عيسى بن يزيد الأسود بالإمامة، قبل أن يَسخَطَ شعب سجلماسة على عيسى الأسود، فخلص الأمر لسمكو.

ويبدو أن سمكو كان من الدهاء السياسي بحيث ولى الإمامة رجلاً عربياً، ولو أنه دونه علماً ومركزاً مذهبياً، حتى إذا وجد الفرصة مناسبة ساعد على عزل عيسى وقتله. وخلصت له الدولة لتصبح بعد ذلك وراثية في عقبه.

وبولاية سمكو بن واسول تحولت الدولة من طابعها العربي الوافد إلى الطابع البربري الأصيل. لأن الذين قامت على أكتافهم كلهم بربر وسود من المغرب.

نقطة أخرى تؤكد ذكاء أبي القاسم سمكو بن واسول [مدرار] هي أنه طيلة إمامته [155 ـ 168 هـ] كان يخطب باسم خلفاء بني العباس حتى لا يعتبر ثائراً على دولة الخلافة، ويتقي ـ إلى حد ما ـ شر حربها له. ويضلل الأتباع ويحتفظ بانتمائهم. ولكن الأمر لم يكن يعدو عملية شكلية أي الخطبة للخليفة. ولا صلة سياسية بين دولته والخلافة. وانقاد للفكرة الشائعة التي تقول: إن الإسلام يمنع الثورة على الخليفة.

ولعل هذه الدولة كانت تساير الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

كانت بها أقليات؛ معتزلة وإباضية على شدة ما بين الإباضيين والصفريين من خلاف.

وكانت تقطنها أقلية يهودية تركت لها حرية التجارة ولو بالذهب. ولعل الدولة كانت تستفيد من هذه الحرية التجارية.

وكان بها عرب وبربر وسود. العنصر البربري الذي يعتمد على القبائل التي ذكرنا هو الغالب وبيده السلطة. والعنصر العربي - البربري [الأندلس] - يعيش ويبذل من نشاطه في العمران، ولا تضيق به الدولة. والعنصر الأسود يساهم في التجارة مع إفريقيا جنوب الصحراء.

وعاشت الدولة بعد سمكو بن واسول تحت سلطة أبنائه فكان أقواهم اليسع [أبو منصور] وقد انتصر على خصومه بقوته وبطشه وامتدت الدولة في عهده حتى نهر درعة.

صراع يقوم بين الإخوة بعد وفاة اليسع سنة 208 على غرار ما نجده في الدولة الإدريسية، وعلى غرار ما يوجد في كل دولة قامت على الحكم المطلق وبسلطة قاهرة لا يلبث الشعب أن ينتفض عليها بعد وفاة مالكها، لأنه يتنفس الصعداء بعد الغياب القاهر، وعلى غرار السلطة التي تقوم على المذهب.

زاد في اضطراب أوضاع سجلماسة بعد أبي منصور أن إمارته ضمت جماعة من الإباضيين وهم أعداء للصفرية. ورغم أن أبا منصور ترضاهم بعقد اتفاق مع الرستميين في تاهرت وتزويج أحد أبنائه بابنة عبد الرحمن بن رستم، إلا أن هذه المصاهرة زادت في تأريث الخلاف. إذ أن ابن الرستمية مال إلى الإباضية وابن الصفرية مال إلى الصفرية، وكان الخلاف ينخر جسم الدولة. فالصراع بين الإباضية والصفرية احتدم في الدولة الصغيرة بين منطقتي سجلماسة ودرعة، وكانت الغلبة للصفرية في عهد أحد الأمراء الصفريين [اليسع بن ميمون] من أحفاد سمكو بن واسول.

ولكن الدولة التي كانت تنتفض انتفاضة الموت من حين لآخر، والتي التجأت إلى سجلماسة فراراً من سلطة الخلافة المشرقية وقعت بين شقي الرحا. المنطقة كانت موزعة بين الفارين من سلطة الخلافة [لنتتبع أثر الموقع

الجغرافي] الطامعين في تكوين دولة تنتقم من الخلافة أو تستقل بنفسها. والمثل الأندلسي له تأثير في توجيه المغامرين هذا الاتجاه.

أحد شقي الرحا كان هو المذهب الشيعي الذي قام به العبيديون الذين أنشأوا دولتهم على أنقاض الدولتين الخارجيتين سنة 297 هـ[909 م] والشق الثاني كان دولة الأدارسة التي أنشأها إدريس الثاني سنة 172 هـ [789] وعاصرت الدولتين الخارجيتين. فكانت كل من الدول الثلاث تحكم جزء من المغرب وإذا كان الخلاف المذهبي بين الصفرية والإباضية لم يرحم الصفريين، بنى مدرار في سجلماسة، [رغم أن دولتهم طالت من سنة 140 هـ حتى سنة 297 م أي أكثر من قرن ونصف] فإن الفضل في ذلك يعود إلى المذهب بمقدار ما كان «الفضل» في نهايتها يعود إلى المذهب.

الصراع بين أتباع المذهب الذي كانت بلاد المغرب ضحيته أفاد هذه البلاد كما أساء إليها. كان من إيجابيات هذا الصراع التمكين للإسلام وللعربية ولتحضير المدن. فكل من الدول الصفرية والإباضية والعبيدية والإدريسية قامت بإنشاءات مهمة في الدائرة الجغرافية التي تحكم فيها. وكان من سلبيات هذا الاختلاف ما يكون عادة بين دول متصارعة فكرياً وعقدياً وسلطوياً. ورغم أن الصفرية والإباضية تنتميان إلى أصول مذهبية واحدة، فإن الصراع بينهما لم يكن يقل عن الصراع الذي وجد بين إحداهما والدولة العبيدية [التي قضت عليهما معاً] والدولة الإدريسية التي ساهمت في القضاء على دولة بني مدرار، وعلى المذهب الخارجي نهائياً لصالح السنة. ومن السلبيات التي يمكن أن يسجلها التاريخ أن هذه الدول المذهبية مزقت بلاد المغرب إلى مجموعة دول: الأغالبة في تونس وطرابلس [ولو أن هذه الدولة لم تقم على أساس مذهبي] وبني رستم في الجزائر، والأدارسة وبنو مدرار في المغرب. كلها تزامنت في بعض فترات تاريخها. ثم جاءت الدولة العبيدية في أُخريات أيامهم جميعاً لتساهم في القضاء عليهم جميعاً باسم المذهب أيضاً.

هكذا نجد بلاد المغرب التي وحدتها الجغرافية والتاريخ المشترك في كفاح الاستعمار القرطاجي والروماني والوندالي، وكان يمكن أن يوحدها الإسلام أكثر من ذي قبل. قام ولاة المسلمين ببث بذور الشقاق بسياستهم وغطرستهم، كما تحكم العامل الجغرافي في الوضعية فكانت مطمح الفارين من الحكم الخليفي المغامرين من أجل إنشاء دول عكست مذهبية المشرق: خارجية بنوعيها وشيعية وسنية.

الجغرافية التي وحدت هي التي فرقت. ولم تكن المغامرة لتنتصر على الظروف الجغرافية إذا لم تسندها قوة عسكرية وبشرية وقبلية كما سيحدث في عهد المرابطين ثم الموحدين.

2 ـ دولة بني رستم:

مهما يكن انتماء رأس هذه الأسرة؛ عبد الرحمن بن رستم إلى الفرس، فإن والده رستم انتقل إلى العراق فهو عربي المولد، وتؤكد ذلك إحدى الروايات ـ كلها غير ذات دليل علمي ـ أن عبد الرحمن بهراماً كان من موالي عثمان بن عفان. لا تهمنا هذه النسبة أو تلك إلا من حيث أن الخارجية المغربية ذات أصول عربية، وليست فارسية. وحتى هذه النقطة غير ذات أهمية لأن المذهبية ـ إسلامية وغير إسلامية ـ غير ذات لون عرقي، ولو أن الحكم العربي في العهد العباسي تلون بالفارسية لأسباب تاريخية ودينية، ليس هذا البحث مجال تفصيلها.

ثم لا تهم رواية كثير من المؤرخين الذين يزعمون أن حلقة أبي عبيدة مسلم بن كريمة في البصرة جمعت عدداً من المغاربة كانوا يتلقون أصول المذهب الخارجي على يديه، وحضر إلى جانبهم عبد الرحمن بن رستم، وتحملوا مسؤولية إقامة الإمامة في بلاد المغرب عند عودتهم من المهجر.

المهم أن عبد الرحمن يظهر مع أبي الخطاب المعافري الذي ولي الإمامة

الخارجية سنة 140 هـ في طرابلس [وكان من الذين أخذوا أصول المذهب الخارجي الإباضي على أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة البصري] كان عبد الرحمن من رجاله الذين اختارهم للقضاء في طرابلس، ثم اختاره حاكماً على القيروان حينما استخلصها من الصفرية، وبذلك أصبح خليفته على تونس. وبدأت متاعبه مع الثورات ضد زعيمه أبي الخطاب في مناطق من طرابلس وتونس. ولذلك ابتعد بنفسه إلى منطقة أكثر أماناً على الإباضية وهي الجزائر، التي كانت توجد بها قبائل اعتنقت الإباضية [منها هوارة ولواته ومكناسة ومزياته ولماية].

اختار عبد الرحمن موقع تاهرت وحوله هذه القبائل، وبناها واستقر بها. وكعادة الخوارج الذين كانوا يتعرضون لحروب داخلية بين فرقاء المذهب، وحروب خارجية بينهم وبين جيوش الخلافة، كانوا يختارون المكان الحصين. فاختار الصفرية سجلماسة، واختار الإباضية تاهرت كعاصمة للدولة ومركز إشعاع للمذهب. والتحصين لم يكن جغرافياً فحسب [المناعة والماء] ولكن بشرياً كذلك. فإن سكان المنطقة كانوا جميعاً من القبائل المؤمنة بالمذهب المناصرة له.

بعد تخطيط العاصمة كان لا بد للدولة من إمام، فبايعت القبائل عبد الرحمن بن رستم إماماً للإباضية سنة 162 هـ. وتلك بداية الدولة التي عرفت باسمه.

وقد نظم الدولة؛ سلطة وإدارة وإعماراً ومذهباً واستقراراً. وبحكمته استطاعت الدولة أن تستمر قرناً وربع قرن رغم الاضطرابات التي عرفتها بعد وفاته سنة 171 هـ، والتي كانت طبيعية في حكم مذهبي يعتمد على مجموعة من القبائل المتنافسة، وعلى مذهب تنافسي ذي أعداء غير خارجيين. فقد عرفت الدولة صراعات مذهبية احتكم فيها الرستميون إلى القوة، وصراعات عنصرية وقبلية، وصراعات طائفية حتى انتهت سنة 297.

ولم يكن هذا المصير ببعيد عن المصير الذي عرفته الدول المماثلة في ذلك العصر. بني مدرار والأدارسة والأغالبة.

وكان مما أصاب الدولة في صميمها ـ وهو خطر عام ـ نظام الوراثة. فرغم أن عبد الرحمن أوصى بتعيين مجلس شورى ليختار الإمام من بعده كما يقضي بذلك عهد الإمامة ـ وليس عهد الملك الوراثي ـ فإن الإمامة أصبحت وراثية من بعده في ابنه عبد الوهاب [171 ـ 208 هـ] ثم حفيده أفلح [208 ـ 258 هـ] ثم أبي بكر بن أفلح وأخيه أبي اليقظان محمد. ثم أبي حاتم يوسف بن محمد واليقظان بن أبي اليقظان. ومن شأن الحكم، الذي قام على أساس المذهب، لا على أساس عائلي، أن تضطرب الأمور من حوله حينما يتحول وراثياً في وسط مجموعة من القبائل التي قدمت الكثير من دماء أبنائها لتقيم الحكم المذهبي، وليتحول بعد ذلك إلى حكم عائلي، يعتمد على هذا العنصر أو ذاك من القبائل المساندة للدولة.

ابتدأت الثورات من عهد عبد الوهاب ضداً على خروجه عن الوصاية باختيار مجلس شورى لتعيين الإمام. وتجلت في أربع حركات كبرى ونسبية [بالإضافة إلى تمردات أخرى] كانت المعارك العسكرية الضارية والمبيدة مظهرها الأساسي هي حركة النكار، وحركة الواصلية، وحركة بعض بطون قبيلة هوارة، وحركة خلف بن السمح. وكلها حركات مذهبية وسياسية في آن، تختلط فيها المآخذ المذهبية بالمآخذ السياسية. والأخيرة منها كانت أخطرها. إذ أنها فصلت الجزء الشرقي من الدولة [منطقة طرابلس ونفوسة] وبويع القائم بها خلف بن السمح الذي ينتسب إلى أبي الخطاب الإمام الأول. وأصبح للدولة إمامان؛ عبد الوهاب في تاهرت وخلف بن السمح في المشرق.

ولكن الدولة، رغم الاضطرابات والحروب والانقسامات المذهبية، ازدهرت في عهد أفلح بن عبد الوهاب [الذي حكم خمسين عاماً] اتسمت بالاستقرار بعد أن قضى على مناوئيه في شرق البلاد الذين حاولوا أن ينفصلوا عن الدولة [مذهبياً].

دولة تقوم على العصبية المذهبية والقبلية وعلى عناصر مختلفة من القبائل المتنافسة، وعناصر من البربر والعرب والفرس والأفارقة، أساس الدولة فيها هو المذهب، ولكنها تتخطى المذهب في نظرية الإمامة إلى الوراثة، دولة من هذا النوع لا تبقى أمامها إلا شخصية القائم على أمرها؛ الأمير أو الإمام، حينما تكون الشخصية قوية سياسياً ومذهبياً ولها مؤهلات شخصية من الذكاء والدهاء تستطيع أن تحتوي كل هذه التناقضات لترفع الدولة إلى المكان اللآئق بعصر الدولة ومنزلتها في المكان والزمان. وهذا ما كانت عليه شخصية أفلح بن عبد الوهاب الذي استطاع أن يجنب الدولة السقوط طيلة خمسين عاماً من حكمه. ولم يكن هذا الوضع يضمن بغيره من المفلحين. فكان ابنه أبو بكر دون مستواه، ولذلك رفعت التناقضات الكبرى رأسها [وهي تناقضات قبلية وعرقية وبدوية حضرية ومذهبية] فغمرت الأمير، الناعم، في الترف والملذات والأدب والثقافة، ليسلم الأمر إلى صهره ابن عرفة، ثم إلى أبي اليقظان محمد بن أفلح ليقتسم السلطة مع ابن عرفة وليصبح الإمام والإمامة في مهب التيارات الجارفة، ويتآمر الإخوان على الصِّهر فيقتل ابن عرفة، وتستمر الفتنة من جراء هذه التصفية في حروب طويلة تنتهي أخيراً إلى تأمير أبي اليقظان في تاهرت بعد أن أبعد عنها الرستميون سنوات الحرب. وإذا كانت الأوضاع قد استقامت من جديد على عهد هذا الإمام الصالح بعد أن أنهكت الحروب كل القوى المتصارعة وأنهكت الدولة في نفس الآن، فإن الفرصة أصبحت مواتية لكل الذين كانوا يتربصون بهذه الإمارة، من داخلها ومن خارج. وكان النزاع الداخلي يتطلع إلى الوثوب على رأس الدولة وعاصمتها. والواثبون كثيرون؛ قبائل بربرية متنازعة وعرب و فرس وجنود. وكان الواثبون من خارج كثيرين؛ العباسيون الذين يرغبون في القضاء على أية إمارة خارج نفوذهم، والأغالبة الذين كانوا يحكمون في تونس تحت راية العباسيين، والأدارسة الذين كانوا يحكمون المغرب الأقصى وجزء من الجزائر، والفاطميون الصاعدون الذين يتبنون التشيع ويطمحون إلى إنشاء دولة

شيعية في بلاد المغرب العربي. تختلف مصالح كل هؤلاء، ولكنها تتفق في الرغبة في القضاء على الرستميين كدولة كانت تقف وسط المغرب الكبير معتمدة على مذهب قوي محارب، وعلى قبائل صامدة وقوية، تقف هذه الدولة حاجزاً [جغرافياً وسياسياً وبشرياً. . . قبلياً] ضد توسع الشرقيين منهم؛ «الأغالبة والفاطميين» نحو الغرب، والغربيين منهم «الأدارسة» نحو الشرق.

لذلك كانت الدولة الرستمية مستهدفة من الداخل، كما أوضحنا، ومن الخارج؛ من كل هؤلاء الذين لا يدفع بهم الموقع الجغرافي والموقف السياسي فحسب للإجهاز على الدولة الرستمية، ولكن كذلك الموقف من المذهب الخارجي الإباضي.

بموت أبي اليقظان اضطربت الأوضاع من جديد بين المناصرين لخلفه أبي حاتم والرافضين لإمامته والمشايعين لعمه يعقوب، والمناصرين لحركة تمردية يقودها الطيب بن خلف في شرق البلاد، وانتهى الأمر بمقتل العديد من هؤلاء في المؤامرات التي حاكها بعضهم ضد البعض الآخر فكانت نهاية الدولة على يد الفاطميين الذين احتلوا تاهرت سنة 297 هـ 909 م وطويت صفحة دولة خارجية لتنشأ في جزء من هذا المغرب الكبير دولة شيعية.

هو التاريخ بكل مباذله ـ الذي بدأ خلافاً ضاغطاً بين شيعة وخوارج في المشرق ـ يزحف على المغرب، أو جزء منه، خوارج وشيعة وسنة ليصوغ هذه الفترة التي ما تكاد تستقر فيها الأوضاع حتى تضطرب. والتي تؤكد مرة أخرى أن المغرب كان ما يزال في حاجة إلى نموذج آخر من التاريخ على عهد الإسلام، انتهت المائة الثالثة من الهجرة وما تزال معالمه لم تتضح بعد.

بين بني مدرار وبني رستم:

1 ـ ربما كان من غريب المصادفات أن تعيش الدولتان ـ على ما بينهما من بعد جغرافي ومذهبي ـ نفس الفترة ونفس السن. فكلاهما أنشئتا سنة 140 هـ ـ 757 م وانتهتا في سنة واحدة 297 هـ ـ 909 م. وقد لا يكون ذلك

محض صدفة، بعد أن عرفنا أن الفاطميين والأدارسة هم الذين قضوا على الدولتين معاً بعد أن أنهكتهما متاعب الحرب والخصومات الداخلية والتربص الخارجي، وكل مظاهر شيخوخة الدولة.

2 ـ لا يهمنا هذا الخلاف المذهبي بين الدولتين فقد تحدثت عن ذلك كتب الفرق والطوائف الإسلامية. ولكن ظاهرة طيبة يسجلها التايخ هي أن الود كان يجمع بينهما عند الشدة، وعند حاجة إحداهما للأخرى. فقد حاول الرستميون والإباضيون كسب ود المنصور اليسع، وهو في أوج قوته ليأمنوا جانبه من جهة، وليطمئنوا على الإباضيين الذين يقيمون في إمارته الصفرية، حتى إن عبد الرحمن بن رستم زوّج إحدى بناته لأحد أولاد المنصور. ويتجلى هذا الود أيضاً في أن كثيراً من الصفرية كانوا يقيمون آمنين في إمارة بني رستم الإباضية، ولم يكن ينالهم سوء.

3 ـ يجمع بين الدولتين أنهما دولتان محليتان؛ قامتا في منطقتين منعزلتين تقريباً؛ تاهرت للإباضيين وسجلماسة للصفريين. ولم يكن في استطاعة أية منهما أن تكون دولة واسعة الأرجاء على غرار الأدارسة أو الأغالبة، ولو أن سلطة الصفرية امتدت في بعض فترات تاريخها حتى درعة، وامتدت الإباضية إلى شرق الجزائر، ولكن تحت سيادة إمام انفصالي [خلف بن السمح الذي ثار على عبد الوهاب]. انعزال كل من الدولتين كانت له نتيجتان متناقضتان:

أولاهما: الانكفاء السياسي في المنطقة المحاصرة، بحيث لم تستطع أي منهما أن تنشر المذهب خارج المنطقة التي يحاصرها الموقع الجغرافي كما تحاصرها القبائل التي تنتمي إليه.

وثانيتهما: تقوية المذهب والمحافظة عليه في وجه الخلافات الداخلية بين القبائل، ولكن أكثر من ذلك في وجه الخصوم الأقوى؛ عمال العباسيين والأغالبة والإدريسيين ثم الفاطميين. ولم يكن من السهل تكوين دولة ثائرة

على الخلافة ـ في ذلك العصر ـ وليس لها امتداد بشري ولا عمق جغرافي.

4 ـ استطاع المذهب الخارجي عموماً أن يستقطب عديداً من القبائل الكبرى، وتوزعت هذه القبائل بين الصفرية والإباضية. أشرنا في موضع آخر إلى أن المذهب بتشدده في الدين ونزعته الانفصالية عن الخلافة المشرقية كان على هوى المغاربة، الذين عانوا من الولاة ما كانوا ينأون بحمله، حتى نشأت كراهية بين هؤلاء الولاة والمغاربة عموماً. ولكنهم قد آمنوا بالإسلام في عمقه وفي صفاته كانوا يجدون أصوله في المذهب الخارجي، فتبنوه وحموه وأنشأوا دولتين مغربيتين خارجيتين . وكان زعماء الدولتين يعتمدون على هذه القبيلة أو تلك حسب الوضع.

5 ـ النهاية متشابهة. كل من الدولتين حولت الدولة من الإمامة إلى الملك الوراثي. ونشأ عن ذلك أمران خطيران؛

أولهما: نقمة القبائل و«فقهاء» واتباع المذهب. وهذا أدى إلى صراعات داخلية ضد الإمام.

ثانيهما: الخلاف بين القبائل على الإرث. فكل من القبائل القوية كانت تطمع في التغلب على خصيمتها إستناداً إلى الإمام.

والنتيجة الأخطر؛ الحروب المتوالية التي صرف الأئمة جزءً كبيراً من عمر الدولة في معالجتها، وكان أن ضعفت الدولة وأطمعت الخصم الخارجي في كل منهما حتى انتهتا معاً على يد العبيديين.

مصير المذهب الخارجي في المغرب:

طبيعة المذهب المتشددة، وتنكر القائمين عليه للتطور الطبيعي لـ «دولة الإسلام» لم تكن تساعد على البقاء. كانت تساعد على خلق الخصوم وتجميع المتمردين الذين سرعان ما تخبو نار التمرد فيهم فتعود بهم المصلحة إلى القبيلة أو الدولة. ولذلك قاومتهم الخلافة في المشرق؛ الأموية ثم العباسية

فكانوا يلجأون إلى الأطراف؛ جنوب الجزيرة في عُمان، وبعض أطراف الخليج، ولكن عمال الدولة كانوا يلاحقونهم، ثم إلى أطراف البلاد الإسلامية؛ المغرب. ورغم أن العامل الجغرافي كان يتيح لهم مكاناً للنشأة والنمو، وقبائل تحمي المذهب وتؤمن به، ولكن الملجأ كان في نفس الوقت هو المقتل. فالحصار، الذي ضربوه على أنفسهم بفعل طبيعة المذهب والعامل الجغرافي والبشري، كان هو السبب الأساسي للانهيار، كان تشددهم واستشهادهم يطيل عمر المذهب بينهم، ولكن كان ذلك أيضاً يثير النزاعات الداخلية التي تنتهي بالحروب، والخصومة الخارجية التي تنتهي بالعداء والحروب، فقضوا عمرهم دائماً في حرب حتى انتهت الدولتان.

هل بقي بعد الدولتين المذهب بين أتباعه؟

عوامل أخرى تجيب على هذا السؤال.

أولها: إن الذين خاصموهم كانوا في الغالب من خصوم المذهب، كان الأدارسة السنيون، ورغم سنيتهم فهم من نسل علي بن أبي طالب، ومعروف أن الخوارج كانوا يكفرون علياً والحكمين بين علي ومعاوية، وكانوا يدعون إلى الثورة على الإمام الجائر، وكل الخلفاء كانوا جائرين في نظرهم، بل كل من ولي سلطة غير سلطتهم. ولذلك كان الأدارسة ينظرون إليهم كخصوم لا يقلون عن الذين اغتصبوا من علي السلطة والذين قتلوه وقتلوا بنيه. وكانوا يعتبرونهم ـ ومذهبهم ـ خطراً على الدولة الإدريسية، وسواء ساهموا عملياً في القضاء على دولتهم أم كانت مساهمتهم محدودة، فقد عملوا للقضاء على المذهب، فلم يجد منفذاً إلى كل مكان امتدت إليه سلطة الأدارسة.

العبيديون أكثر من أعداء، لأنهم شيعة، وتنطبق عليهم كل عوامل العداء التي أشرنا إليها. ثم إن طموحهم لإنشاء دولة شيعية تمتد على أطراف المغرب جميعه، في الوقت الذي كانوا يضعون عيونهم على مصر، أقوى مركز للخلافة العباسية في إفريقيا، كانت تدفعهم إلى تصفية الجيوب، والخطير منها على

الأخص، والتي لا سند لها من دولة الخلافة، والتي تعتمد على مذهب ـ المذهبية أكبر عدو للمذهبية المغايرة ـ وكل تلك الظروف كانت تجعل من العبيديين أكبر عدو للصفريين والإباضيين على السواء. ويبدو أنهم عادوهم أكثر مما عادوا الأدارسة. والأغالبة كانوا يحكمون باسم الخلافة وهم سنيون، ولذلك فمن الطبيعي أن يعادوا الخوارج للمذهب أولا، ولخروجهم عن طاعة الخلافة ثانياً، ولأن الخوارج يتنكرون لكل الولاة والأمراء ويكفرونهم جميعاً.

ركب هذه الموجات من العداء بقوة للمذهب والسلطة المرابطون الذين جاؤوا بعد نحو قرن وثلث قرن من نهاية دولتي الخوارج، ولكنهم وجدوا بعض المتمذهبين ما يزالون يبثون مذهبهم في هذا الركن أو ذاك من بلاد المغرب، التي سيطروا عليها. فقضوا عليهم بالتصفية، والتجأ بعض الإباضيين إلى الجزائر، وهم بقايا الرستميين وبقوا أقلية منعزلة مسالمة، احتفظوا من المذهب بجانبه المسالم [عند الإباضيين] وما تزال بقيتهم حتى الآن.

العامل السياسي الذي أشرنا إليه، سواء في المشرق أو في المغرب، له الأثر الكبير في انهيار إماراتهم. ولكن لماذا لم يتركز المذهب في المغرب، رغم أنه وجد مؤيدين من القبائل المغربية التي كانت لها مكانة قبلية وسياسية؟ ورغم أن المغاربة أعجبوا بالخوارج لشدتهم في مقاومة السلطة من جهة، ولأن الشعارات الإسلامية التي يرفعونها كانت مغرية بالاتباع والتشبث؟ لماذا لم يتمكن المذهب رغم انهزام الدولة كما تمكن المذهب الشيعي بالفكر في غير المغرب حتى بقي أقوى ما تكون المذاهب الإسلامية حتى العصر الحاضر، رغم أنه لم يستند إلى دولة تحميه إلا الفاطميين الذين أساؤوا إلى المذهب بحماقات بعض أمرائهم، أكثر مما أحسنوا إليه؟ المذهب الشيعي ظل بفرقه المختلفة، المتشدد منها والمعتدل، حياً حتى الآن تسنده دولة شيعية في إيران، ودول أكثر ساكنيها شيعة كالعراق، وينتشر في جنوب الجزيرة (اليمن مثلاً) وفي شمالها وجزء من سوريا ولبنان، وفي بلاد أخرى كباكستان والهند، ولكن المذهب الخارجي انتهى تقريباً إلا عند أقلية من المسلمين في الجزائر وعُمان. لماذا؟

أشرنا إلى أن طبيعة المذهب لها أثر كبير في مصيره: الحدة التي تعاملوا بها مع الموضوع منذ البداية طبعت مذهبهم بعوامل الفناء أكثر من عوامل البقاء. كانوا سلبيين منذ البداية، ولم يتخذوا موقفاً إيجابياً قط مع أي كان من الذين تعاملوا معهم سياسياً أو مذهبياً. رفضوا الفريقين المتحاربين: علياً ومعاوية، وطلبوا من علي أن يحكم على نفسه بالكفر لأنه قبل التحكيم. وعارضوا علياً بشدة و «خرجوا» من الاجتماع إلى حروراء بظاهر الكوفة ليبدأوا نضالهم القائم على المقولة «لا حكم إلا لله» وساروا في عداوة علي حتى دبروا مقتله.

وبقطع النظر عن مواقفهم السياسية من الدولتين الأموية والعباسية التي أشرنا إليها، وعن نزعتهم إلى تكوين إمارة مذهبية خاصة بهم، بقطع النظر عن ذلك فقد كان «التكفير» سبيلهم للجدل الديني ـ وهم قوم تمرسوا على الجدال ـ فمن لم يصل أو يصوم أو كذب أو لم يعدل فهو كافر. وانتهى الأمر بفرقة الأزارقة منهم إلى تكفير جميع المسلمين إلا هم. وبالغ هؤلاء فلا يصلون وراء من ليس منهم ولا يأكلون من ذبائحهم، ولا يتزوجون من غيرهم، ولا يقبلون من غير المسلمين إلا الإسلام أو السيف.

الفرق المعتدلة كالإباضية والصفرية لم تصل إلى هذا الحد من التطرف. ومع ذلك اتسموا بالشذوذ في المعاملات الإسلامية والبشرية وأغلبهم اتصفوا بالزهد والعبادة والتشدد في الدين. والتعرض للقتل والمكاره في سبيل عقيدتهم، مقاتلون شديدو البأس، يعاملون غيرهم من المسلمين بكثير من الشدة لا يرحمون امرأة ولا طفلاً ولا عجوزاً.

هذا الشذوذ الذي كان يظهر في عقائدهم ومعاملاتهم جعل المتعاملين معهم يقفون موقفين مختلفين في مرحلتين متباينتين:

الموقف الأول: الإعجاب بالنزاهة والاستقامة والتشدد في الدين والتنكر للسلطة الجائرة في أغلب الأحيان، وهذا الموقف كان المتذمرون من العرب

والبربر، والمخلصون للدين يتبعونهم ويشدون أزرهم، حتى تكونت الإمارتان المدرارية والرستمية. وكان ذلك هو المرحلة الأولى في التعامل معهم.

الموقف الثاني: يمتاز بالبعد عنهم لأن الحياة معهم أصبحت حرباً دائمة، ولأن التشدد في الدين والشذوذ في المعاملة ليس من شأنهما أن يكسبا الأنصار إلى الأبد. وتضافر مع هذا العامل الانعزال الإنساني والسياسي وزيادة تأريث العداوة بين القبائل. كل ذلك دفع بالشعب أن يتخلى عنهم حينما جاءت الفرصة فحاربهم الأدارسة، وهي الفرصة الأولى، ثم أجهز عليهم العبيديون وهي الفرصة الثانية والقاضية.

يضاف إلى ذلك أنه لم يتكون لهم مذهب فلسفي أو فقهي ذي قيمة علمية على نحو ما نجد عنه الشيعة والمعتزلة، ولو أنهم رفعوا من الشعارات ما لم يرفعه الآخرون.

لكل ذلك كان للمذهب وجود كلما احتمى بالقوة و«الإمارة» وتكوين الجماعة من حوله. حتى إذا انهزم سياسياً انهزم مذهبياً، ولم يبق له وجود في المغرب ـ كما في المشرق ـ إلا البعض من المتشبثين بالإباضية في اعتدال بالجزائر، أو ببعض أطراف جنوب الجزيرة. وبذلك يختلف مصير الخوارج عن مصير الفرق الإسلامية الأخرى كالشيعة والمعتزلة، وغيرهما. يختلف بالنسبة للأولى فكراً وعلماً ودولة، ويختلف بالنسبة للثانية فكراً وعلماً، ربما لأن المعتزلة لم يطمحوا إلى الحكم أو إلى إنشاء دولة، ولو أنهم أثروا في بعض الخلفاء الأمويين والأندلسيين فسخروهم لنشر أفكارهم وإكراه الناس على اعتناقها، ولكنهم لم يحاولوا أن ينشئوا لهم دولة، ولا منازعة الخلفاء في السلطة.

هكذا نجد أن الخوارج لم ينجحوا في إقامة دولة كبرى قوية وموحدة في المغرب، ولم ينجحوا في تعميق المذهب واستمراره في بلاد المغرب، ولكنهم كانوا أول من نجح في إقامة دولتين مستقلتين عن الخلافة في المغرب.

ثانياً ـ السنة الاتجاه والدولة:

1 ـ الأداسة:

أما الدول التي لم تقم على أساس مذهبي ديني، ولكنه سياسي فنجد في مقدمتها الدولة الإدريسية في المغرب.

يختلف إلى حد ما، الدافع الذي دفع الخوارج إلى الفرار من سلطة الدولة العباسية في المشرق عن الذي دفع بمؤسس الدولة الإدريسية إلى الفرار بنفسه هذه المرة من بطش العباسيين، ولو أن الفرار من البطش والتصفية الجسدية تتفق في المقالين معاً، ذلك أن العلويين، ومنهم إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، لم يكونوا يحملون «مذهباً شيعياً» متميزاً ومتعصباً على نحو ما حمل أنصارهم وأتباعهم والمشايعون لهم منذ خلافة علي ومعاوية، كانوا يحملون فكرة أحقية علي وبنيه بالخلافة، وهي فكرة نشأت منذ وفاة النبي ﷺ ولها جذور قبلية وعائلية بدأت تظهر في آخر حياة النبي، فيما يروى عن تطلع العباس عم النبي للاتفاق مع علي على تقديم طلب إلى رسول الله وهو على فراش الموت بالوصاية لهما. ورغم الفتنة الكبرى والحروب المدمرة بين علي وخصومه حتى مقتله ومقتل بعض أبنائه وحفدته على عهدي بني أُمية وبني العباس، فإن التشيع كمذهب ديني عقدي كان متمكناً من المشايعين لأسباب فكرية وسياسية، ولكنه عند حفدة علي ونسله ظل ـ فيما يبدو ـ دعوة سياسية أكثر منها مذهبياً ودينياً. القضية عندهم قضية الخلافة وما تفرع عنها من مشاكل، وليست قضية «عصمة» علي ومن بعده، ولا هي أحقيته بالنبوة، ولا هي اعتبار «علي أفضل الخلق في الدنيا والآخرة وأعلاهم في الجنة» ولا هي «ألوهية» علي كما يزعم غلاة الشيعة، ولا هي بادعاء علمه بكل ما يأتي به الغيب، ولا هي قضية «الإمامة» بالمعنى الذي عرف عند بعض الشيعة بمعنى أنه الذي ورث علوم النبي الظاهر

منها والباطن كما يذهب البعض منهم. يبدو أن المطاردة التي لاحقت أبناء علي وأحفاده جعلتهم يفكرون في السياسة أكثر من التفكير في المذهب، وأن أتباعهم وأنصارهم اهتموا بالخلافات الفكرية حول العصمة والمكانة والإمامية إلى جانب اهتمامهم بالعمل السياسي. ولعل فكرة التشيع وجدت مكانها الفكري والفلسفي في البيئة التي كانت تفلسف الديانات ـ ومنها الإسلام ـ أكثر مما كانت في البيئة الإسلامية الساذجة التي تأخذ بظاهر القرآن والسنة. ولذلك لم تتركز في مكة والمدينة كما تركزت في العراق. وصلة الشام والعراق باليهودية والنصرانية والديانات والمذاهب التي تسربت من بيزنطة أو التي تسربت من بلاد فارس أكثر من صلة بقية البلاد العربية وبعض هذه الأفكار التصقت بالتشيع وهو منها براء. وبعضها كانت تختفي تحت شعار التعلق بآل البيت ـ أحفاد الحسن والحسين ـ منهم براء، وربما أيضاً، لأن الحكم خرج من مكة والمدينة إلى الشام ثم العراق. ولكن في الغالب لأن المدينة ومكة كانتا بيئتين بدائيتين لم تثر فيها مشاكل لاهوتية أو مذهبية تعود إلى الفكر أكثر مما تعود إلى النص.

ولبعض هذه الاعتبارات لا يمكن أن نقول إن علياً كان شيعياً بالمفهوم الذي عرفت به النظرية الشيعية. ونفس الشيء يمكن أن نقوله عن أبنائه وأحفاده، بل إن أحد أحفاد علي وهو زيد بن الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب كان إلى حد ما، معتزلياً، والمعتزلة يختلفون، جوهرياً، عن الشيعة، ولو أن بعض المنتسبين للاعتزال شيعة، وهم الفرقة الزيدية أكثر الشيعة اعتدالاً.

لهذه الملاحظات أهمية تاريخية ـ فيما نرى ـ فهي التي تجيب عن السؤال الذي سنضعه فيما بعد وهو: لماذا انتقلت السياسية ولم ينتقل المذهب مع إدريس إلى المغرب؟

لماذا لم يكون إدريس دولة شيعية، وكان يمكنه ذلك؟ لماذا لم يتحول

المغرب إلى المذهب الشيعي وحافظ على سنيته.

أسئلة قد نجيب عليها في موضعها من هذا الفصل.

ونعود إلى مسيرة التاريخ لنذكر أنه منذ مقتل علي بن أبي طالب سنة 40 هـ واستسلام الحسن لمعاوية في بداية خلافته سنة 41 هـ واستشهاد الحسن سنة 61 هـ ـ 680 م توزع أبناؤهم وأحفادهم في الآفاق طلباً للثأر والحكم من جهة، ونجاة بأنفسهم من بني أُمية أولاً، ثم من بني العباس ثانياً حتى كانت مذبحة «فخ» في عهد الهادي، وقتل فيها كثير من أحفاد الحسن بن علي سنة 169 هـ. وفر منهم ستة إخوة من أبناء عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، منهم: إدريس وسليمان، وعيسى ويحيى. فروا جميعاً نحو الغرب إلا يحيى الذي فر نحو بلاد الديلم.

لماذا فر إدريس إلى المغرب؟

إدريس هو الذي كتب له أن يصل إلى طنجة ثم وليلي، وتقول الرواية إن رجلاً صحبه كان مولاه، وتضيف أنه كان بربرياً مخلصاً لحفيد من حفدة الرسول.

أية صلة بين «بربري» وحفيد الرسول؟ وكيف وصل هذا البربري ليكون مولى لإدريس؟ أسئلة لم توضع ولم يجب عنها. ولذلك أعتقد أن قصة إدريس وابنه معروفة في التاريخ.

غير أن التاريخ الذي كتبه العرب لا يضع أسئلة وبالتالي لا يجيب عنها. فرار إدريس الأول مثلاً بعد مجزرة فخ حدث مهم في التاريخ قد لا يكون أحد خطط له. ولكن التاريخ هو المخطط الأكبر. فلو وقع إدريس في الفخ لتغير مجرى الأحداث، وربما تغير مجرى تاريخ المغرب العربي. فقد غير وصول إدريس إلى المغرب ـ بعد المطاردة القوية من العباسيين ـ مجرى التاريخ، وإذا كان المؤرخون المغاربة ما يزالون يؤكدون أن له ولابنه الفضل الأول في نشر

الإسلام وتركيزه وتأصيل العربية، والمنظرون منهم يؤكدون أن له الفضل الأول في الحفاظ على الإسلام السني، فإنه مما لا شك فيه أن فرار إدريس نحو المغرب فتح الباب أمام مرحلة مهمة من التاريخ. ولا يمكن أن نزعم أنها لم تكن لتكون لولا هذا الفرار الناجي. ولكننا يمكن أن نؤكد أنها ستكون على نحو آخر، على غير ما كانت عليه.

وهكذا كان التاريخ.

ولكن لماذا اتجه نحو المغرب، ولم يتبع أحد إخوته نحو بلاد العجم [الديلم]؟

المغرب كان هو المتنفس للسياسيين الذين يفرون من سلطة الحكم، وفي فكرهم قضيتان: الفرار من التصفية الجسدية، وتأسيس حكم مناهض للسلطة التي فروا منها. عبد الرحمان الداخل مؤسس الدولة الأموية في الأندلس مثال منهم، وكان المتنفس للمذهبيين الذين فروا بالمذهب لتأصيله وتدعيمه، الخوارج والشيعة مثال لهم، ولعل فرار إدريس لم يكن للسياسة ولا للمذهب، وإنما فراراً بالنفس من التصفية الجسدية التي قام بها العباسيون ضد أبناء عمومتهم العلويين خوفاً من أن يتغلب اسم علي، لما له من مكانة القرب من الرسول، على اسم العباس وله قرابة لم تصل به إلى خلافة كما كان الأمر مع علي.

ويلعب العامل الجغرافي دوره: المركز الستراتيجي، صعوبة الاختراق والمتابعة. المغرب عرف في عهد الفتح والولاة بانفتاح موقعه الجغرافي ومناعته وبعده عن أن تناله أيدي السلطة المركزية، ثم عرفت بعض قبائله، التي تحمي اللاجئين وتكرم وفادتهم بالاعتزاز بالكرامة وبالجدية والصرامة. ولكن لم يعرف عنها أنها كانت ذيلاً تابعاً للدولة دون أن تكون لها يد فيها. وإلا قاومتها. ولم يعرف عن هذه القبائل أنها كانت خادمة لدولة أخرى كما عرف عن الخراسانيين والذين استخدمهم العباسيون لنصرة الدولة العباسية بالقوة

العسكرية والعمل السياسي والإداري، فالمغرب كان بلاداً كبيرة فتحت قبائلها صدرها للإسلام، ولو أنها قاومت ولاة الدولة الإسلامية للأسباب التي عرفنا.

لكل ذلك اختار إدريس الهجرة إليها.

كيف فكر إدريس في تكوين دولة؟

هل كان يحلم أن يكوّن دولة في المغرب أم إن ما وجده من استقبال حافل من قادته كما تتحدث الرواية التاريخية أوحت له بذلك من عدم؟

من الصعب التعرف على نية إدريس الأول وهو يحاول أن ينجو بنفسه بعد مذبحة فخ التي حضرها هو وأخوه مع الحسين بن علي بن الحسن [المثلث] ونجيا منها مع قلة من الناجين، غير أن يحيى لقي مصرعه في السجن بعد أن انتقم منه الخليفة الرشيد. ومن الممكن أن نتصور الطموح الانتقامي الذي راود إدريس وهو في طريقه الطويل من مكة (حيث وقعت موقعة قريباً منها) حتى المغرب، تطارده قوات الخليفة المنبثة في كل مكان، ويطارده الخوف من المصير الذي لقيته العائلة ابتداءً من علي حتى الحسين وأبنائهما وأحفادهما، وتعمر رأسه أحقية آل البيت بالخلافة وبيعة المسلمين لأخيه محمد بن عبد الله (النفس الزكية) ومن المبايعين المنصور العباسي قبل أن تفضي إليه الخلافة.

ولذلك فالتاريخ لا يستبعد أن يكون إدريس الأول قد فكر في إعلان العصيان على الخلافة، وفي تأليب القبائل ضد الخلافة التي تستضيفه، وهو في طريقه إلى طنجة ثم وليلي، وما من شك في أنه كان يجد أصداء بعض العداوات ضد بعض الولاة الذين شنوا حملات إبادية ضد القبائل، والذين كانت سياستهم في الحكم وفي جمع الأموال مما لم تكن ترضى عنها القبائل ـ الفقير منها أكثر من الغني ـ وكانت تعلن العصيان في كثير من الأحيان. وأَوَرْبَة التي كانت أولى القبائل التي ناصرت إدريس الأول وأكرمت وفادته

كانت من القبائل التي تتمتع بالحكم الذاتي، يرأسها زعيمها إسحاق بن محمد بن عبد الحميد في مدينة وليلي.

ولا يتساءل التاريخ كيف راودته فكرة تكوين الدولة، وهو الطريد الذي لم يصل إلى مأمنه في طنجة ووليلي إلا بعد أن تعرض إلى أخطار من ولاة الخليفة في مصر والقيروان. وما يزال معرضاً للمتابعة كما سيؤكد الواقع؟ وعذر التاريخ واضح في ذلك، ففي ظروف الخوف لا يفكر المطاردون بالجهر، ولو أن خيالهم يتفوق على رعبهم، وطموحهم لا ينحني للعاصفة المرعبة.

ويبدو أن التاريخ لم يكن في حاجة أن يتساءل، فالخلافة حق شرعي في أبناء علي، كثير منهم بويعوا بالخلافة ثم غُدر بهم، كان آخرهم أخوه النفس الزكية الذي كان المنصور العباسي ممن بايعوه ثم غدر به، ويحيى أخوه بويع في بلاد الديلم، ثم أغراه هارون الرشيد بالمال فعاد إلى العراق، ثم سجنه حتى مات في سجنه، وجدهم الحسين دعي إلى العراق يترأس الدولة ثم غدر به في المجزرة الرهيبة، وعلي جد العائلة قتل غدراً. فكرة الحكم إذن لم تكن غريبة ولا بعيدة عن تفكيرهم. ولم يفر إلى بلاد المغرب ـ وهي أبعد منطقة وصلها الإسلام آنذاك عن مركز الخلافة ـ لمجرد النجاة من الموت، ولكن كذلك لبناء الدولة المتمردة على خلافة الاغتصاب.

والتاريخ يقدم الرواية، رواية فرار إدريس وبداية بناء الدولة الإدريسية، وفيها من الخيال والإبداع ما لا تقصر عنه كثير من الروايات. وحينما يتعلق الأمر بآل البيت، وبتحقيق معجزة في السلطة على أيديهم يجيد الخيال ويقدم لنا شخصيات الرواية التي تحيط بالبطل، كجزء مكمل للصورة الروائية الدرامية، حتى إن القارىء ليعجز عن تمييز الحقيقة من الخيال. قصة الفرار عن طريق مصر لا تخلو من مشاهد درامية، وفيها تحْضر المعجزة لإنقاذ البطل بعد أن كاد يقع في الفخ. وقصة الشخصية الثانية المدبرة لأمر الفرار

والمحافظة على السر حتى يصل الأمر بالبطل إلى تكوين الدولة بفضل حكمته، قصة رائعة قام بها شخص رائد اسمه راشد. ما سر هذا الرجل وقدرته على تدبير أمر القرار وتدبير أمر الدولة حتى وصلت إلى قوتها على مدى جيلين، جيل إدريس الأول، وجيل إدريس الثاني الذي كان جنيناً في بطن أمه يوم اغتيل والده مسموماً؟

التاريخ عاجز عن الجواب. وقد لا يكون الجواب مهماً من ناحية الأحداث. فالحدث كثيراً ما تلعب الصدفة دورها الرئيسي في إيجاده، ولكن الجواب مهم في تفسير مسيرة التاريخ، لأن التاريخ غير عابث به وخاصة حينما يأخذ منعرجاً أساسياً في مسيرة الحياة. العجز في التفسير ليس من التاريخ، ولكن من الذين يروونه ويكتبونه. قد لا يسألون الناس إلحافاً، وإن سألوا لن يجابوا. وقضايا الدولة دائماً محاطة بالسرية والأسرار.

أغلب الظن أن فرار إدريس، وقد امتاز بالسرية حتى في مصر، لم تعترضه الأحداث المعجزة أو الغريبة. وإذا كان ليس سهلاً أن يختفي غريب في بلاد كمصر وفي الطريق الطويلة بين مكة والمغرب في ذلك الزمان، فإن الخوف من الموت يوحي بوسائل الاختفاء دون أن تلعب المعجزة دوراً في ذلك: المعجزة لم تكن تبحث عن حفيد النبي لتنجده. ولكن الخوف يرشد إلى طريق البعد عن أعين السلطة. وذلك هو ما يسميه المؤرخون معجزة.

وراشد ـ كما توحي الأحداث ـ شخصية فريدة في التاريخ إخلاصاً ودهاءً وحسن سيرة. كان لها الفضل في صيانة سر إدريس الأول، وهو في طريق فراره من الحجاز عن طريق مصر، التي كانت تابعة للخلافة العباسية، ثم إلى بلاد المغرب مجتازاً بصاحبه صحراء مصر ليبيا ـ وقد افترقا في مصر ـ لتكمل الصورة الدرامية ـ فذهب إدريس مع مستجير مصري في طريق خفي، وذهب راشد مع الرحالين على الجادة، حتى التقيا في برقة. وتسير القصة في أسلوب الحكي حتى يصل إدريس مع مولاه راشد إلى طنجة، ومنها إلى وليلي.

والقصة لا تخلو من اضطراب في نسبة راشد هذا فتقول عنه تارة إنه بربري، وتقول إنه مولى من الموالي. ولا يمكن أن يكون مولى لسيد من سادة العرب ومن آل البيت، إلا إذا كان عربياً أو مستعرباً شرقياً ـ وغير بربري كما قدمنا ـ على كل حال.

وتبدأ رحلة المتاعب في تكوين الدولة. ولكن «المعجزة» تتابعها ـ فبطلها من آل البيت. وكتاب التاريخ العربي ـ مهما تكن نحلتهم ـ فهم علويو الْهَوَى، خاصة والعلويون لقوا المصير، الذي يكتبه التاريخ بالدم الأحمر، فلا يأتي ذكر لهم إلا كانت المعجزة تحيطه بسياج من التبسيط. ولذلك كان إدريس الأول ضيفاً على زعيم قبيلة كبرى من قبائل البربر «البرانس» هي قبيلة أورْبَة، فأكرمه ثم تبعتها القبائل الأخرى فبايعته أميراً عليهم، ووفدت عليه قبائل أخرى يذكر المؤرخون المغربيون منها قبائل زواغة وزوارة وسدراتة وغياثة ومكناسة وغمارة.

هكذا بسهولة التفت كل هذه القبائل حول إدريس الأول وبايعته ليكون الدولة الإسلامية الأولى بهم في هذه المنطقة الشاسعة، لماذا انضموا إليه بهذه السهولة التي يرويها المؤرخون ولا يتساءلون: كيف؟

لا شك في أن التاريخ أغفل كثيراً من المراحل، وأن الرواة في البيئة المغربية، الشفوية آنذاك، كانوا يتناسون أو يكتمون سر ما علموا حيطة وحذراً. ولذلك فمراحل انضمام القبائل إلى إدريس ومبايعته ما تزال سراً.

يبدو أن السر في ذلك يعود إلى الفكرة الإسلامية الصافية التي أتى بها إدريس. كما يعود إلى قرابته من النبي، ثم إلى ما يكون رواه لهم من العنف والتصفية البدنية التي لقيها العلويون من حكام الشرق. ولعل السر الأكبر في ذلك قبلي «القبائل المغربية» كانت في صراع دائم، فإذا وجدت زعيماً من غير إحدى هذه القبائل، وله من الصفات التي ذكرنا، والتي رويت لهم، لجأوا إليه لينقذهم من «الهزيمة النفسية» في الولاء إلى زعيم ينتمي إلى إحداها ـ وهي

المتساوية في المجموعة، ثم لينقذهم من الصراع الدائم الذي يدمرهم جميعاً غالباً ومغلوباً.

توحد القبائل البربرية حول إدريس:

رؤساء هذه القبائل البربرية كانوا في حاجة إلى شخصية بعيدة عنهم، قريبة من قلوبهم يطمئنون إليها في حكمهم. وقد وجدوها في إدريس فبايعوه واجتمعوا حوله وانضافت إليهم كثير من القبائل التي حاربت جميعها تحت لوائه من أجل نصرة الإسلام وتأمين الدعوة إليه بجيش قوي، من المتطوعين، نشر به الإسلام في أصقاع واسعة من المغرب من منطقة تامسنا إلى منطقة تادلة حتى أقر الإسلام فيها، ثم خرج متوسعاً إلى شرق المغرب حتى تلمسان.

ما هو الدور الذي لعبته شخصية إدريس في مسيرة تكوين الدولة الأولى في هذه المنطقة التي لم تكن من السهولة من حيث الأبعاد الجغرافية والقبلية والدينية كما يصور المؤرخون «بالمعجزة»؟

ما هو الدور الذي لعبه زعماء القبائل التي اتصل بها إدريس وبايعته وحاربت معه؟

إدريس كون هذه الدولة الواسعة في أقل من سنة. «المعجزة» لا يمكن أن تفعل كل ذلك. ولكن المعجزة متعلقة بشخصيته وشخصية ابنه من بعده وشخصية راشد، وشخصية القبلية والظروف التي عرفها المغرب في هذه الفترة التي تمكن فيها الإسلام من كثير من القبائل الكبرى، وكان في حاجة إلى الزعامة. وإذا كانت القبلية متمكنة من المغاربة فإنها تقترن بالزعامة، لأن شخص الزعيم له أثره في تطويع القبيلة بحصافة الرأي وقوة الشخصية والقدرة على الإقناع والتأثير، ولذلك كانت القبائل تخضع لشيخ القبيلة [الزعيم] وتؤمره عليها. فإذا انضاف إلى ذلك الإسلام وتمثل الشخصية الإسلامية فيه التي تتحول إلى زعامة إسلامية فقد أدرك الكمال. وهذا ما حدث بالنسبة لإدريس.

بويع إدريس الأول بالإمارة سنة 172 هـ ـ 789 م واغتاله سليمان بن جرير «الشماخ» مبعوث هارون الرشيد سنة 177 هـ 793 م ولا تكمل رواية الاغتيال دون صور درامية عن شخصية الشماخ وظرفه وأدبه وعلمه وتأثيره على إدريس، وانتهازه فرصة غياب راشد مولى إدريس، وتقديم السم لإدريس في طيب أو في حبات عنب لا تكمل الدراما دون صورة المتابعة التي قام بها راشد والفرسان من أنصاره حتى لحقوا بالشماخ فضربه راشد حتى شَق رأسه وحز يمناه، ولكن البطولة لا تتم بغير صراع بطلين وتنتهي المغامرة بفرار الشرير القاتل مقطوع الذراع مشجوج الرأس، حتى رؤي بعد ذلك في بغداد وهو في وضعه ذاك.

لاتهم التاريخ هذه الروايات الدرامية بقدر ما يهمه أن إدريس أدى مهمته الأولى وترك البقية في ذمة عَقِبِهِ إدريس الثاني، وكان جنيناً في بطن أمه كنزة.

لكن مع ذلك، التاريخ لا يتساءل: كيف خفيت عن ذكاء راشد ودهائه، وقد كان له ضلع في بناء الدولة، كما كان من الإخلاص والوفاء والحذر والخوف على مولاه الإمام، أن يترك الأمر بين يدي أفاق يأتي من المشرق ليدعي الوفاء والولاء، حتى يدرك المقام المحمود عند إدريس ويصبح صفيه يؤاكله ويسامره وينفرد به حتى ينفذ جريمته؟ أين كان حذر راشد وذكاؤه؟ لا يجيب التاريخ ولكنه لا يمنع من وضع سؤال يعجز عن الإجابة عليه فيضع الرواية جميعها في دائرة علامة استفهام.

والمؤكد أن إدريس قتل في مُفْتَتَح عمله لتكوين الدولة، ولم يكن قد أتم الخطة لاقامتها.

وموت إدريس المبكر [بعد خمس سنوات من إعلان إمارته] وعدم وجود شخصية تخلفه من وزنه الإمامي كان حرياً أن يضع الدولة في مهب الرياح. المؤرخون لم يتركوا الرياح تعصف بورقة الدولة الإدريسية. فبرزت شخصية راشد، يستشير القوم ويعرض عليهم الحل: أن ينتظروا ميلاد الجنين [وكانت

كنزة الحامل في شهرها السابع]. وتتدخل الرواية في التاريخ لتروي أن راشداً خيرهم في الأمر بعد أن اقترح انتظار ميلاد الوليد المنتظر فإن كان ذكراً ولّيناه ليقوم بالأمر بعد أبيه، وإن كان أنثى دبروا شأنكم. فكان رأيهم من رأيه. وأضافوا: أنهم يضعونه وصياً يقوم بأمر الدولة انتظاراً لرشد الوليد إن كان ذكراً، وإلا فهو المؤمَّر فيهم.

التاريخ لا يتساءل: عن طبيعة هذا «المَلَك» الذي لم يطمع في عرش مات صاحبه ولم يترك عقباً، إلا جنيناً في بطن أمه؟ ولم يتساءل: عن شيوخ القبائل الكبرى التي قامت الدولة على أكتافهم: لماذا لم يفكروا تفكيراً قبلياً، وبعقلية شيوخ لهم مكانة الإمارة وسلطتها، بأية عقلية استطاعوا أن يرهنوا مستقبل الدولة بمستقبل جنين في بطن أمه، ويراهنوا على مولى إدريس الأول [راشد] مهما يكن احترامهم له: بل يقبلون إمارته مدة فراغ العرش حتى إذا كان الوليد أنثى وضعوا التاج على رأس المولى بدلاً من زعيم من زعماء القبائل الكبرى التي ناصرت إدريس المغتال؟

المعجزة لا تكتب التاريخ ولذلك يجب أن نتساءل: لماذا وقع كل ما يرويه المؤرخون دون أن تضطرب الأوضاع، وقد كانت تضطرب لأقل من هذا الوضع القريب في التاريخ. إذا لم يتساءل التاريخ عندما كان يكتبه المؤرخون في عصر المرابطين والموحدين، أي قبل ألف عام تقريباً، فقد آن له أن يتساءل. وكل إجابة قد تفتقد الدليل. والرواية أولى أدلة التاريخ.

يبدو أن شخصية راشد كانت من القوة بحيث استطاع أن يحفظ على الأدارسة ملكهم في السنوات التي تفصل بين وفاة إدريس الأول والسنة التي بويع فيها إدريس الثاني، وسنه إحدى عشرة سنة [188 هـ 804 م] ثم في فترة صباه حتى أصبح قادراً على الحكم. ولعل راشداً كان من الدهاء بحيث استطاع أن يؤلف كل القبائل الكبرى بزعمائها حول رأس الدولة. ولكن مهمته انتهت ـ فيما يروي المؤرخون ـ بعد أخذ البيعة لإدريس من القبائل، وأكملها خلفه يزيد العبيدي.

وتصنع «المعجزة» التاريخ مرة أخرى فقد بويع إدريس الثاني بالإمارة وهو ابن إحدى عشرة سنة. دعك عما يتحدث به المؤرخون من علمه وثقافته وحفظه ودرايته في سنه تلك، وخذ جانب الحكم والملك والحرب في هذه السن المبكرة. المؤرخون يصدقون الرواية ـ على خلاف علماء الحديث الذين كانوا أكثر دقة ـ ولذلك يروِي المتأخر منهم عن المتقدم، ولو طبع الرواية التاريخية كثير من الأدبيات والأزليات حتى الشعر والخطب البليغة التي نسبت إلى إدريس الثاني في سنه المبكرة يعتبرونها من أحداث التاريخ الكبرى دون أن تثير فيهم ذرة شك، ما دامت تؤكد المعجزة.

ونجاري المؤرخين لنشير إلى أن عهد إدريس الثاني لم يكن سهلاً في ظروف المغرب تلك، خاصة وقد غاب عنه راشد محل والده، الذي تعرف على المنطقة بمشاكلها الجغرافية والبشرية ونزاعات قبائلها الدينية والمذهبية. فقد كان على إدريس الثاني أن يُؤمن دولته من الخوارج الصفرية التي أسست إمارة في سجلماسة. وكان عليه أن يركز أمر الدولة الفتية التي نشأت بقيادة لم يكتب لها أن تعمر طويلاً. وكان عليه أن يقاوم المؤامرات التي تدبر له ولدولته من مركز الخلافة. ومن مركز تابع للخلافة أقرب إليه من بغداد هو الأغالبة الذين كانوا يحكمون إفريقية تحت راية الخلافة، ويخدمون الخليفة ـ مهما تكن التعليمات التي تصدر إليهم ـ حفاظاً على دولتهم في تبعيتها للخلافة. وقد كانوا يكيدون للدولة الإدريسية. ولا يغفل التاريخ المؤامرة التي كانوا يدبرونها للتخلص من إدريس الثاني، كما تخلصت خلافة بغداد من إدريس الأول. وينسب التاريخ إلى إبراهيم بن الأغلب القيام بتصفية راشد مولى إدريس كبداية لتصفية إدريس نفسه.

وكان إدريس الثاني، وهو سليل أسرة عربية، يشعر بنوع من الغربة في الوسط البربري القبلي، رغم أن أمه كنزة بربرية. لكل ذلك كانت القضايا التي أولاها تفكيره في بداية حكمه:

ـ استقبال وفود من العرب.

ـ تخطيط عاصمة جديدة لدولته.

ـ توسيع نطاق الدولة بتوحيد المغرب العربي.

ـ تصفية النزاعات الخارجية.

عمر الرجل كان أقصر من أن يتسع لكل هذه المهمات، وأكبرها تركيز قواعد الدولة، فقد مات وعمره ست وثلاثون سنة [213 هـ 828م].

لماذا وفود العرب؟

كانت بلاد المغرب ملجأ العرب من الشرق ومن الشمال، بعد إقامة الدولة العربية في الأندلس. المهم في التاريخ ليس إلتجاء أفراد، ولكنه التجاء قبائل أو مجموعات من قبائل، والمؤرخون يروون أن الوفود كانت في نحو خمسمائة فارس من القيس والأزد ومدلج وبني يحصب والصدف وغيرهم فقر بهم عيناً وجعلهم بطانته دون البربر واستوزر بعضهم: عمير بن مصعب الأزدي، وولى بعضهم قضاة. المهم من كل ذلك هو الإجابة عن السؤال: لماذا هذه الهجرة؟ ولماذا جعل إدريس بعض هؤلاء العرب بطانته دون البربر؟

من المؤكد أن العرب في جزيرتهم عرفوا الهجرة بعد توسع منطقة الحكم أمام الخلافة، سواء بسبب الفتوح شرقاً أو غرباً، أو بسبب استقرار الحكم العربي في بلاد الشام والعراق، أو بسبب الرغبة في الكسب الذاتي في بلاد سمعوا الكثير عن ثرائها الذي لم يعرفوا بعضه في قلب الجزيرة. هناك سبب آخر هو النزعة القبلية والعروبية التي دفعت ببني أُمية أن يعتمدوا على العرب فظلت الدولة عربية، والعباسيين يتنكبون العرب لخوفهم من عدم ولائهم، بعد أن اغتصبوا السلطة، ولأنهم في العراق كانوا أقرب إلى من سموهم الموالي فكانت نهاية حكمهم [العباسيين] على أيديهم. ونفس التفكير راود الأمويين في الأندلس. فهم عروبيون لا يطمئنون إلى هؤلاء «الأجانب» المغاربة

والأندلسيين الذين نقلوا الإسلام وحموه في الأندلس. ولذلك نجد أن عبد الرحمن بن معاوية [الداخل] لم يقفز إلى الأندلس حتى يبحث عن العرب الأمويين الذين استقروا فيها وبعث مولاه بدراً إلى المناطق التي يوجدون فيها ليدعوهم إلى أن يتجمعوا حول هذا الوافد الذي لا يعرفون عنه شيئاً إلا أنه عربي ومن بني أُمية. ولو أن النزاع بين القيسية و اليمنية في الأندلس دفع بالأمويين أن يتجنبوا الاعتماد على العرب في الدفاع عن الدولة ويستخدموا البربر. لذلك، وللخوف من طموح بعض زعماء العرب إلى السلطة.

المثالان معاً: مثال عبد الرحمن بن معاوية وإدريس بن إدريس يؤكد أن الثقة لم تكن كافية في البربر [سواء كانوا مقيمين في المغرب أو في [الأندلس] لتأييد وحماية الدولة الناشئة الأموية في الأندلس والإدريسية في المغرب، إلا أن تكون حماية عسكرية كما يتأكد في المثالين معاً.

هناك مفارقات تكاد تبدو غريبة وتجعل التشابه غير كامل بين المثالين:

أولاهما: أن إدريس الثاني لم يكن عربياً قحا بالإضافة إلى أمه كنزة كانت بربرية فقد ولد في المغرب ولم يعرف بلاد المشرق، ولم يتصل بعربها إلا الوافدين منهم أو المقيمين ولم يكونوا من الكثرة بحيث تتغلب كفة الميزان بهم على البربر.

ثانيها: أن القبائل البربرية الكبرى هي التي آوت والده ونصرته ونصبته أميراً عليها.

ثم إن التاريخ لم يذكر أن البربر أساءوا إلى إدريس، كما أساء العرب إليه فقتلوا والده ومولاه، وكادوا يقتلونه.

وكل هذه الظروف لم تتأت لعبد الرحمن بن معاوية من قبله حينما عزم على أن ينصب نفسه أميراً على منطقة مهمة ليستعيد فيها ملك الأمويين. ولم يجد الفرصة مواتية في المغرب، وقد استقر في ناحية منها [طنجة] مدة قبل أن يغامر بالانتقال إلى ناحيتي البيرة وجيان في الأندلس ليستعين بالمقيمين فيها

من أتباع بني أُمية وجنودهم على تأسيس دولته.

فلماذا إذن وجد إدريس نفسه غريباً بين البربر كما يقول المؤرخون وأغلبهم عرب.

أغلب الظن أنه لم يفكر هذا التفكير القومي أو العروبي. ولم يندفع إلى الترحيب بهم والاعتماد عليهم لأنه كان فريداً بين البربر ليس معه عربي. ما نظن أنه كان يفكر بأنه فريد، وقد ولد ونشأ في بيئة بربرية، وفي المغرب كان كثير من العرب الذين استوطنوه بعد أن جاءوا جنوداً أو رحالين مستقرين، أو قاصدين الأندلس فاستقر بهم الأمر في المغرب، أو جاءوا مع الخوارج تابعين أو باحثين عن الرزق فاستقروا. لم يكن إدريس فريداً ولا غريباً. وإنما كان في بيئته وبين أهله وأخواله وأقربائه. ولذلك فترحيبه بالعرب الوافدين كان ذا بعد سياسي. وربما وجد فيهم إداريين وفقهاء فاستوزرهم واستقضاهم كما يشير المؤرخون إلى بعضهم من الوزراء والقضاة ـ ولعله وجدها فرصة ـ ككل حكام ذلك الزمان ـ ليعتمد على عنصرين بدلاً من عنصر واحد، وليجد فيما قد ينشأ من تنافس بين العرب الوافدين، وقد يستميلهم إليهم العرب المقيمون للقرابة القبلية، وبين البربر سبيلاً لزيادة التمكين لدولته. أو لنوع من التخلص من دالة بعض زعماء القبائل البربرية على إقامة الدولة بتأثير نفوذهم.

هؤلاء الوافدون كانوا من عرب المشرق وإفريقية والأندلس ومن قبائل مختلفة أفلا تدعو هذه الثلاثية [عرب المشرق وعرب إفريقية وعرب الأندلس] إلى تساؤل لهم: من بعث بهم، وفيهم «فرسان» وعلماء؟ هل من السهل أن ينتقل عرب المشرق [الفرسان منهم] دون أن يكون للدولة [العباسية] تأثير في عملية انتقالهم. والدولة العباسية كانت ترغب في التخلص من الدولة الإدريسية الناشئة. والذين وفدوا من إفريقية [وهي يومئذ تحت نفوذ الأغالبة] أفلا يكون انتقالهم تحت تأثير إبراهيم بن الأغلب الذي كلفه الخليفة هارون الرشيد

بالمهمة فصفى راشداً طمعاً في أن يصل بعد ذلك إلى تصفية إدريس؟ والشعر الذي ينسب إليه يقول:

ألم ترني بالكيد أرديت راشدا   وأني بأخرى لابن إدريس راصد

انتقال العرب في هذه الفترة من إفريقية إلى المغرب قد يكون بدافع من ابن الأغلب. وطموحه قد لا يقتصر على قتل راشد وإدريس. فقد تتسع مملكته من إفريقية إلى المغرب إذا ما أنهى حكم الأدارسة.

ثم إن العرب الوافدين من الأندلس، وفي نفس الفترة ألا يكونون قد وفدوا بدافع من الأمويين الذين كانوا يغارون من دولة ناشئة على الضفة الأخرى من الزقاق. دولة ناشئة تعتمد على النسب النبوي. وللأمويين تراث مع الهاشميين، والعلويين بصفة خاصة في دمشق. أفلا يفكرون في إرسال وفود أجناد قد يعتمدون عليهم في تقويض صرح الدولة التي يغارون منها ومن مركزها الذي لا يقل عن مركزهم في الأندلس، بل هو أقوى لأن المغرب لم تكن توجد به شعوب نصرانية تناجز المسلمين العداء كما هو الأمر في الأندلس.

نقول هذا دون أن نستبعد عامل البطالة والرغبة في كسب الرزق ـ بل والاثراء ـ في دولة حديثة يرأسها علوي.

كثير من علامات الاستفهام تحوم حول العرب الذين وفدوا على الدولة الإدريسية من المصادر الثلاث:

ولعله لا أحد من هذه العلامات حامت حول فكر إدريس الثاني فأخذ الحذر من هؤلاء الوافدين. بل استعان بهم وجعلهم بطانته واعتمد عليهم، دون البربر الذين قامت الدولة الإدريسية على أكتافهم.

سؤال آخر قد نجد الجواب عليه في فقرة أخرى من هذا الفصل وهو ما مدى أثر هؤلاء الذين إستوزر بعضهم إدريس واستقضى بعضهم واعتمد على

بعضهم جنوداً يحمون الدولة، ما أثرهم في تدمير الدولة بعد أن اختفى إدريس بالموت في سن مبكرة وقسمت الدولة بين أبنائه بإشارة من جدتهم كنزة؟

سؤال خطير سنبحث عن الجواب عنه في مكانه.

لماذا مدينة فاس؟

ما من شك في أن التفكير في بناء مدينة جديدة تكون عاصمة للدولة يدعو إلى التفكير وإلى التساؤل.

الدول المتطورة، والملوك الذين كانت لأجدادهم سابقة في الملك، هم الذين يفكرون في إقامة عاصمة جديدة لدولتهم. لأنهم ـ كانوا ـ يريدون أن يتخلصوا من نفوذ العاصمة ـ بكل أبعادها الاستراتيجية والسياسية والحضارية ـ التي كانت لسلفهم. و«التجديد» يدفعهم لبناء عاصمة جديدة لهم. ولذلك فتفكير إدريس، في سنه تلك، في بناء مدينة جديدة يؤكد سبق هذا الرجل وعبقريته السياسية. فأين نجد أسباب ذلك من أحداث التاريخ بالإضافة إلى السبق والعبقرية؟

المؤرخون لا يكادون يلقون الأسئلة، ولذلك يجدون الأمر سهلاً، فقد اتجه إلى بناء مدينة فاس «بعد أن اتسع ملكه وكثر جيشه وضاقت بهم المدينة» [وليلي] ودون أن ندخل في الخلاف بين الذين يرون أن إدريس الأب هو الذي خطط للمدينة أو بنى جزء منها، أو إدريس الابن هو الذين قام بذلك. دون أن ندخل في هذا الخلاف الذي نعتبره [في حال] كما يقول الفقهاء. فإن السؤال يبقى مطروحاً: لماذا مدينة فاس؟.

تعليل المؤرخين القدماء وارد. فان وليلي فيما يبدو لم تكن لتستجيب للدولة بكل أجهزتها وقد بدأ نفوذها يتسع، وأجهزتها المدنية والعسكرية تنتظم، وبدأت الوفود المغاربية والخارجية [الشرق والأندلس] تفد على إدريس. ولكن الجغرافية أيضاً لعبت دورها. فقد كانت وليلي الجبلية معزولة،

وضواحيها القريبة ليست ذات خصوبة. وربما مياهها أيضاً شحيحة. فكان لا بد للدولة الجديدة من سهل تتسع أرجاؤه للجيش المتنامي، خصيب الأرض غزير الماء. وموقع فاس بجانب النهر، تنحدر إليها مياه الثلوج عيوناً ثرة غزيرة تستجيب لهذه الأهداف. ثم إن موقع فاس الجغرافي يعتبر طريقاً للشمال نحو الريف وللشرق نحو الجزائر، وللجنوب نحو الصحراء [سجلماسة بوابتها] ونحو الشمال طنجة والمضيق. ولا ننسى أن طنجة كانت المستقر الأول لإدريس الأب، وهي النافذة المعروفة آنذاك على البحر، وما وراء البحر من أرض الأندلس التي تكونت فيها دولة إسلامية. الموقع الجغرافي إذن يُمكِّن المدينة المنتظرة من أن تكون قاعدة هجوم، إذا ما استجاب إدريس لطموحه في نشر الإسلام ببقية أنحاء المغرب الأقصى والأوسط. ويُمَكِّنها من الدفاع إذا ما صدقت مخاوف الدولة من الأغالبة والفاطميين في الشرق والخوارج في الجنوب والأمويون في الشمال [الأندلس].

هل كان الإدراك كاملاً بأهمية هذا الموقع الجغرافي الاستراتيجي؟.

المؤرخون القدماء يشيرون إلى تجربة فاشلة لبناء المدينة استفاد منها إدريس، وليست مستبعدة، حينما يقولون: إنه بدأ في بناء المدينة في حجر جبل زالغ، ولكن سيلاً هاجم المنطقة فحطم ما بنى فعدل عن جوار الجبل إلى سهل سايس. ويذكرون تجربة أخرى بالقرب من نهر سبو، ولكنه تحسب من فيضان النهر في فصل الأمطار. ولذلك استعان بوزيره عمير بن مصعب الأزدي فاهتدى إلى سهل سايس لكثرة مياهه وخصب أرضه فارتضاه مكاناً للمدينة.

مهما يكن فقد استجابت المدينة للتوسع البشري والعمراني. فكانت مدينتين [عدوتين] يفصل بينهما نهر سكن في إحداها البربر وفي الثانية العرب. ولكن لم يختص أحد العنصرين بإحدى المدينتين فقد سكن في إحدى العدوتين بربر وعرب وفي الأخرى بربر وعرب مقيمون ووافدون من الأندلس أو من القيروان، وامتزج السكان منذ البداية وفي مختلف العصور، ولن

يستطيع أحد التفريق بين العربي والبربري، ولو احتفظ كل منهم بالاسم العائلي الذي يؤكد الانتماء إلى الأصل، واحتفظ كل موقع بالاسم البربري أو العربي، دون أن يؤكد ذلك اختصاصه بسكنى العرب أو البربر.

ولعل المدينة باختلاف عناصر سكانها من العرب المقيمين والوافدين من الشمال والشرق، والبربر من مختلف القبائل التي كان بعضها متصارعين فوحدتهم أسوار المدينة ـ إلى جانب الإسلام وشخصية إدريس ـ ثم اختلاف الديانات. كان من البربر يهود، وكان منهم من لا يزال على الفطرة. هذا التنوع الكبير كان في مصلحة المدينة والسكان معاً أكثر مما كان ضداً على هذه المصلحة. وحتى النهر لم يكن عامل فصل بمقدار ما كان موحداً بين سكان العدوتين على اختلاف مشاربهم وأصولهم.

عامل آخر منح فاس القدرة على توحيد عناصر السكان، وعلى دورها الكبير الذي لعبته في التاريخ هو العامل الاقتصادي. فلأن السكان ينتمون إلى عناصر مختلفة المنبع كانت لهم اهتمامات وكان منهم حرفيون زاولوا الحرف الوطنية ونقلوا الحرف التي تعلموها في القيروان أو المشرق أو الأندلس. وكان منهم من يعمل في الجيش. والخدمة العسكرية تتطلب صناعات وحرفاً. يضاف إلى ذلك عدد من المثقفين الذين وفدوا أو تكونوا في المدينة. وهكذا كان التكامل الاقتصادي بين سكان المدينة سبيلاً لوحدة سكانها وعملهم المشترك، الشيء الذي سهل الاندماج، حتى بين الديانتين المختلفتين اليهودية [رغم قلة عدد اليهود] والإسلام، وسهل كذلك ازدهار فاس ومحافظتها على هذا الازدهار في عصورها المختلفة.

قوى هذا العامل الاقتصادي أن إدريس ـ فيما يروي المؤرخون ـ لم يكن مخططاً معمارياً للمدينة فحسب، بل كان مخططاً اقتصادياً. فقد وضع الأرض وما حولها هبة لكل من بنى وغرس. ثم أمر السكان بأن يزرعوا ويغرسوا خارج سور المدينة فازدهرت المنطقة فلاحياً. ساعد على ذلك مياه الأنهار والعيون،

وخصب المنطقة بمياه الثلوج التي تنحدر سيولاً أو عيوناً من الأطلس المتوسط إلى سهل سايس.

هل تحقق لإدريس ما أراد من بناء المدينة؟

التاريخ يتحدث عن دور المدينة في المغرب العربي بصحرائه وفي إفريقيا ما وراء الصحراء كانت إلى حد كبير عاصمة للمغرب يماثل دور بغداد التي بناها أبو جعفر المنصور لتكون عاصمة المشرق. وكما كان لهذه المدينة دور سياسي في المشرق، إلى جانب دورها العلمي والحضاري، كان لفاس دور سياسي في المغرب العربي إلى جانب دورها العلمي والحضاري. موقع المدينة الجغرافي ـ الاستراتيجي وتخطيطها العمراني ساعد على ذلك، حتى تبادلت هذا الدور مع مراكش على عهد المرابطين والموحدين حينما أصبحت الدولة صحراوية، ينبع الحكم فيها من الجنوب، فكان موقع مراكش الجغرافي ـ الاستراتيجي أهم من موقع فاس، عسكرياً وجيو ـ سياسياً.

البحر لم يكن يلعب دوراً كبيراً على عهد الدولة الإدريسية. الأندلس لم تعد أفقاً لتوسيع نشاط الدولة الجديدة بل كانت مبعث خوف. فقد كانت الدولة الأموية في الأندلس في أوج قوتها. وكان إدريس من الحذر بحيث لم يكن ليثير عليه الأمويين ـ وهم قوة ـ إلى جانب القوات الأخرى التي كان يعرف أنها تناصبه العداء.

لماذا المغرب العربي؟ :

لم يسعف الزمان إدريس ليحقق ما كان يريد لدولته فكان الهدف من الدولة بطبيعة الحال، هو نشر الإسلام، وتصفية الجيوب غير المسلمة التي كانت ما تزال متمسكة بجاهليتها، وتقعيد أسس الدولة في المغرب حتى تكون في موازاة دولة الخلافة في المشرق، ولكن إدريس عرف قدر الموقع الجغرافي الذي لا يمكن أن يمكنه من كل ذلك، وخاصة من الامتداد الذي حققته دولة الخلافة حيث كان المجال واسعاً في شمال الجزيرة حيث الشام والعراق و«بلاد

العجم» وفي شرقها حيث بلاد فارس الواسعة والغنية ذات التقاليد العريقة في الحكم والسلطة. هذا الموقع لا يسعف إدريس، لا تسعفه القوة البشرية والمالية والموقع الجغرافي الصعب الذي تكتنفه جبال الأطلس والأحراش والغابات. وأخطر من ذلك الخصوم الذين يتربصون بدولته الدوائر في الشرق حيث الأغالبة الذين يحكمون تحت لواء الخلافة في بغداد، وفي الجنوب حيث الخوارج في سجلماسة، وفي الشمال حيث دولة بني أُمية. ثم إن البحر يحاصر هذا الموقع في شبه جزيرة شمالاً وغرباً، ولم يعد أمامه إلا شريط محدود من الغرب يمكن أن تمتد فيه دولته لولا بني الأغلب.

إنتكاس وحدة المغرب العربي:

تضافرت هذه العوامل مع قصر المدة التي قضاها إدريس في الحكم [182 هـ ـ 804 م/ 213 هـ ـ 828 م] فلم يتمكن من أن يمد نفوذ دولته بعيداً عن تلمسان التي أقام فيها ثلاث سنوات، بنى فيها المساجد وأقام فيها الأمن وحاول أن يقضي على الخوارج.

هذه الوضعية تعتبر انتكاسة لتوحيد المغرب. مرت هذه البلاد في عصر وحدة كاملة، أو شبه كاملة، قبل أن يبدأ عصر الدولة. كانت موحدة قبل القرطاجيين، وامتد نفوذهم بعد تكوين الدولة القرطاجية حتى طنجة، وتعاملوا مع الشعب الأمازيغي في هذه البلاد من قرطاج في تونس حتى المحيط، وساهموا جميعاً في الحروب البونيقية ضد الرومان. ثم توحدت في مواجهة الرومان مواجهة قوية لم يعرفوها في غير المغرب على كثرة ما حاربوا وتوسع البلاد التي حاربوا فيها. ولم يكن هجوم الرومان على «مملكة» قرطاج السابقة يفرق بين مركز قرطاج تونس [أو إفريقية كما سميت فيما بعد أو المغرب الأدنى] وبين المغرب الأوسط أو المغرب الأقصى، وإنما كانوا يوحدون بين هذه البلاد في حربهم لها، كما كانت موحدة في حربها لهم. ثم كان هذا المغرب الكبير موحداً في العهود المختلفة التي تلت الرومان بما فيها عهد

الولاة العرب رغم أن بعضهم كانوا يتولي مركز الولاية، [القيروان] في الغالب، أهمية كبرى، فيحافظ على المركز ما أمكنه ذلك حتى إذا كانت حروب كسيلة مع عقبة، والكاهنة مع حسان اهتزت هذه الوحدة، وحتى إذا جاء الخوارج وبدأوا يفكرون في تكوين الدولة الخارجية اقتطعوا جزء من الجزائر حيث أقاموا دولة إباضية «بني رستم» وجزء من المغرب الأقصى «سجلماسة» وأقاموا الدولة الصفرية [بني مدرار]. وجاء الأدارسة والأغالبة فكرسوا هذه التجزئة. فرضتها عليهم الظروف الجغرافية والسياسية والعسكرية، فلم يكن لإحدى هاتين الدولتين ـ على اختلاف الاتجاه السياسي ـ أن تكون وحدة من المحيط حتى طبرق، المغرب تونس من مركز الخلافة، وعلى الأقل من مصر، التي كانت مركز والي الخلافة منذ عمرو بن العاص.

امتحنت وحدة المغرب الكبير إذن عدة مرات. ولكن الظاهرة اللافتة للنظر:

ـ أنها كانت تتم في عهد الشعب الذي تميز بتحكم القبلية أكثر من تحكم الدولة. فالقبائل لم تكن تعرف حدوداً جغرافية، ولو أن الحدود القبلية ـ وهي متنقلة أو متحركة في الغالب ـ كانت «تفصل» بينها فصلاً صورياً. تَحَالُفُها، لمواجهة عدوان أو تحقيق مصلحة أو صلح، كان يوحد. وخصوماتها في وقت الأمن والرخاء كان يفرق. ولكن لا حدود.

ـ وأنها كانت تنفصل في عهد الدولة، انفصالاً إيديولوجياً أو سياسياً، أو هما معاً، كما حدث في عهود الدول الصغيرة. فالمغرب الأوسط [الجزائر] الذي كان يفصل بين شرق المغرب الكبير وغربه كان في هذه العصور ـ عصور الدولة ـ يجد له حدوداً فيما بين نهري شلف وملوية. وتكون له أحياناً وحدة إدارية وسياسية يكون على رأسها عامل مركزه تلمسان يتبع تونس أو المغرب. وقامت في هذا القطر في بعض فترات التاريخ دويلات صغيرة. ثم تبعتها دولة الفاطميين في تونس. ثم أصبحت جزء من دولة بني زيري. ثم كانت له دولة

مستقلة في عهد بني عبد الواد، وبني حماد. وتونس مرت بنفس التجربة في عهد الدويلات الصغيرة وفي عهد الفاطميين مهما تكن تبعية هذه الدويلات في القطريين للمغرب أو للمشرق. وهكذا أصبح المغرب الكبير محكوماً بما يشبه ملوك الطوائف. فبنو هلال في جزء من تونس، وبنو زيري في المهدية وبنو حماد في قلعة حماد ثم في بجاية حتى داخل القطر الواحد كانت هناك ولايات وإمارات متفرقة في منتصف القرن الخامس الهجري. والمغرب مر هو الآخر بنفس التجربة في عهد الدويلات الصغيرة والنتيجة هي انفصال جزئي سياسي لقطر عن بقية أقطار المغرب العربي كلما كانت دولة صغيرة ذات تبعية أو ذات اتجاه انغزالي مذهبي كالخوارج، حتى جاء المرابطون ليعيدوا الوحدة إلى المغرب.

- إنها كانت تعود لتتوحد في عهد الدولة القوية كما حدث في عهد المرابطين والموحدين الذين كان حكمهما معاً حكماً إمبراطورياً على نحو ما تكون الإمبراطورية الإسلامية [الخلافة] كما سنرى فيما يأتي من فصول هذا الكتاب، وعادت لتتمزق دولاً مستقلة أو محكومة بالأخرين. كما سيأتي في فصول من هذا الكتاب. وقد امتدت الدولة في عهد الموحدين، على اختلاف المواقع، حتى حدود مصر.

معنى ذلك أن التاريخ والجغرافية لم تحكما السياسة فانتصرت عليهما لتشهد هذه البلاد اضطرابات في معظم فترات تاريخها الإسلامي كسائر بلاد الإمبراطورية الإسلامية، ولتعرف في العصر الحديث اضطرابات من نوع آخر - قد لا تطفو على السطح - ولكنها تمنعها من اتحاد فعال لمواجهة كل التحديات التي تأتي مرة أخرى من الشمال، أو من الوضع السياسي والاقتصادي العالميين.

- غير أن الجغرافية والتاريخ الأصيل لهذه البلاد لا بد أن ينتصر في الأخير لتعود الوحدة للمغرب العربي في عهد الدولة الواعية كما كانت في

عصر الشعب وفي عصر الدولة القوية الواعية.

لماذا حرب الخوارج والبرغواطيين؟:

المذهب الخارجي نشأ خارجاً عن الجماعة، وانطلق محارباً و«معتزلياً» يعزل نفسه عن كل المسلمين ويقاوم كل من ليس بخارجي، بل تقاتل الطائفة المتطرفة منه الطائفة المعتدلة، أو يتقاتلان لأن كلاً منهما تطعن في إسلام الأخرى وإخلاصها للمذهب. وحينما التجأ إلى المغرب في صورته الصفرية والإباضية وقد كونت دويلة بني رستم في تاهرت، وقد كونت دويلة بني مدرار في سجلماسة ظلتا معاً في عزلتهما، وفي عدائهما وحربهما لبقية المسلمين.

وقد شعر إدريس الثاني بأنهم تناصبان دولته العداء، وأنهما تتربصان بها الدوائر، ورغبة منه في توحيد المغرب، وفي القضاء على النزعات الخارجة عن الإسلام، وكان يعتبر الخوارج خارجين عن الإسلام، كما كان البرغواطيون، صمم على حربهم. حاربهم في تاهرت، وحرر قبائل نفزة وأدخل تلمسان تحت سلطة الدولة كما حرر جنوب المغرب الأقصى من سلطة الصفرية بني مدرار.

طائفة أخرى كانت خارجة عن الإسلام معادية للمسلمين باسم الإسلام هي جماعة البرغواطيين. ففي قبائل برغواطة ظهر طريف أبو صالح، ثم ابنه صالح من بعده، وقد تنبأ، وعبث بالعقيدة الإسلامية تحريفاً وتخريفاً، ونزل عليه وحي شيطاني فأصبح نبياً رسولاً. والتاريخ يسجل أن حلفاً عقد بين الدعاة البرغواطيين والحكم المستنصر الأموي في الأندلس. ولا يستغرب شيء من هذا العمل يقوم به خليفة أموي، فهم يريدون أن يقيموا الفتنة في الضفة الأخرى، ولو على يد البرغواطيين. والذين بدأوا منذ قيامهم خارجين عن أصول الإسلام ولو ادعوا الإيمان به.

وإذا كانت القبائل الكبرى خافت بطش هذه الطائفة التي طالت سيطرتها

على يد أبناء صالح: إلياس [50 سنة] ويونس [40 سنة] الذي اخترع صلاةً وصياماً وزواجاً وطلاقاً مختلفة عن الصلاة والصيام والزواج والطلاق الإسلامية.

وقد بذل إدريس جهداً كبيراً في القضاء على البرغواطيين ومطاردتهم من السهول وتخليص القبائل المسلمة من طغيانهم. وحرر منطقة الريف جميعها بمدنها: طنجة وأصيلا والعرائش وكل منطقة تامسنا من خلال هذه النزعة الخطيرة إسلامياً وأمنياً.

هكذا قضى إدريس مدة حكمه [أقل من ربع قرن] في بناء الدولة، وتقعيد عاصمتها، وتنظيم مؤسساتها المدنية والعسكرية، وتخليص الدين فيها من النزعات المضللة، وحماية سلطانها من خصومها الخارجيين. وقد يكون غريباً أن يستطيع شاب ولي الحكم في سن الحادية عشرة بمساعدة قليلين، جرده الموت من أقواهم: راشد، قد يكون غريباً أن يحقق كل هذه المنجزات في ظروف داخلية وخارجية صعبة، وبوسائل محدودة. ولكن الظروف كانت -على صعوبتها- في خدمته، لأن الاضطرابات التي عرفتها القبائل المغربية كانت مرهقة، وكانت القبائل التي أسلمت، وتعرفت على الإسلام في ظاهره، أو آمنت به في عمقه وبساطته كانت في حاجة إلى رجل يتمثل فيه الإسلام، لأنه من أرض الإسلام جاء، ولأنه من أحفاد الرسول، ولأن دعوة والده ودعوته كانت تتفق مع ما سمعوه عن الإسلام. وما من شك في أن نبله وذكاءه كان لهما أثر كبير في انقياد القبائل الكبرى لزعامته.

وكان ذلك من حظ المغرب الذي وضع فيه أسس الدولة خلصته على الأقل من سلطان القبلية الحادة إلى حين. وكان من الممكن أن يكون من حظ وحدة المغرب العربي جميعه لو لم يكن الأغالبة في تونس الذين قاموا بدور مهم كما سنرى، ولو لم يمت وهو في ريعان الشباب [36 سنة].

لماذا انهارت الدولة سريعاً؟ :

وبموت إدريس الثاني يمكن اعتبار عهد الدولة في المغرب الأقصى قد انتهى.

لماذا؟ وكيف؟

أما لماذا؟ فإن مردنا في ذلك إلى ابن خلدون. وما أشك في أن النظريات التي اهتدى إليها في قيام الدولة وسقوطها إنما اهتدى إليها من تتبعه أولاً لتاريخ المغرب العربي، الذي تعرف عليه أول ما تعرف، وقد وضعه هذا التعرف والتتبع في الصورة الحقيقية لقيام الدول وازدهارها وضعفها وسقوطها. والمغرب كان خير مثال لكل الدول في عصور ما قبل ابن خلدون، وربما ما بعده، وخاصة الدول الإسلامية والعربية.

وابن خلدون يشير إلى العصبية التي يعتمد عليها الملك، كما يشير إلى أن المُلك لا يحصل للعرب إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية، أو أثر عظيم من الدين على الجملة. وما نظنه في هذا الفصل إلا كان يضع أمام نظره الدولة الإدريسية. فقد كانت لها الصفتان معاً: الصبغة الدينية، والعصبية التي استند إليها الإدريسان بالاعتماد على دول بربرية قوية ساندته ودافعت عنه، وكافحت معه النزعات الدينية [الخوارج] والقبلية والانحراف بالدين [بقية البرغواطيين] والوثنيين واليهود والنصارى. ثم كانت الأخطاء التي ساهم إدريس فيها قبل موته، وكانت أعظمها خطراً بعد موته. فأما التي ساهم فيها، فهي أنه استعاض بالعرب الوافدين عن البربر الذين كانوا أكثر الناس إخلاصاً له، وقامت الدولة على أكتافهم. استقرت الدولة فظن أنه يمكن أن يستغني عن العصبية البربرية في مجتمع بربري ليقيم ملكه على الوافدين العرب، الذين لم يكونوا يكونون عصبية ما، فهم من مختلف القبائل: قيس والأزد ومدجج وبني يحصب والصدف وغيرهم. ولا يمكن أن يكونوا عصبية تذكر. ولم يفت ابن خلدون أن يشير إلى الأدارسة «الذين خرجوا بقاصية من المغرب ودعوا لأنفسهم وقام

بأمرهم البرابرة مرة بعد أخرى فأوربة ومغيلة للأدارسة... فشيدوا دولتهم ومهدوا بعصائبهم أمرهم، واقتطعوا من ممالك العباسيين المغرب كله «كما لم يفته أن يشير إلى أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم مستنداً إلى الحديث «ما بعث الله نبياً إلا في مَنَعَة مِنْ قَوْمِهِ».

وإذا تابعنا ملاحظاته في قيام الدول وسقوطها نجده يحدد لعمر الدولة ثلاثة أجيال [دون أن نؤكد على تفسير الجيل الأول بخلق البداوة، والجيل الثاني بالملك والترفه والحضارة، والجيل الثالث الذي يبلغ فيهم الترف غايته فيصيرون عيالاً على الدولة] يمكن أن نعتبر الجيل الأول هو جيل إدريس الأول والجيل الثاني هو جيل إدريس الثاني، والجيل الثالث ـ وهو جيل الانهيار ـ جيل أولاده من بعده. الجيل الوسط كان جيل بناء مدينة فاس واستقرار الشرائح الاجتماعية المختلطة فيها. أليس ذلك جيل الحضارة وسيطرة الترف على الدولة؟.

أعمار الدول عنده، إذن، كأعمار الأشخاص: سنوات النمو، وسنوات النضج، وسنوات الانحدار والسقوط. والدولة الإدريسية لم تتجاوز عمر الفرد الواحد في المتوسط. بدأت سريعاً، ونمت سريعاً وانهارت سريعاً. ولو أن بعض أمرائها ظلوا عقوداً يقاومون الإنهيار فكانت مثال الدول المغربية جميعها على نحو ما نلاحظ في بقية الدول الأخرى.

نظرية ابن خلدون صائبة في الدول المغربية لأنها كانت أقل تعقيداً من الدول الأخرى.

أما كيف سقطت الدولة الإدريسية، فإن التاريخ يحدث بأوضح بيان أن فكر إدريس وذكاءه وبعده السياسي اختفى بموته. وكان من السهل على أمه السيدة كنزة أن ترشد إلى اقتسام السلطة بين أغلب حفدتها وكانوا إثني عشر ولداً. إدريس عهد إلى ابنه محمد بالأمر من بعده، ولكن كنزة [يقول المؤرخون والعهدة عليهم] هي التي أشارت عليه بأن يقسم السلطة بين

حفدتها. لكل منهم مجموعة مناطق وقبائل. كانوا ولاته بما يشبه الحكم الذاتي واحتفظ هو بالإمارة.

قد يبدو هذا النوع من اللا مركزية أسهل وسيلة لاستمرار الحكم في بلاد معقدة جغرافياً وبشرياً [قبلياً]. فكرة عملية إذا ما كان الولاة من اليقظة السياسية، ومن الإحساس بالمسؤولية بمعنى الدولة - ولو في ظل العائلة الإدريسية - بحيث يحافظون على الدولة التي بناها جدهم وأبوهم. ولكن هذا النضج السياسي لم يكن في مستوى الفكرة التي يبدو أنها كانت صائبة عملياً.

يزيد في تعقيد هذه المشكلة العامل الجغرافي، فإن المناطق الشاسعة التي وزعها محمد بن إدريس تكاد كل منها تكون دولة بجبالها وسهولها وأنهارها. فما يسمى الآن بالشمال كان من نصيب القاسم. وما هو شرقي فاس حتى تازة تولاه داود، وعيسى ولي على المنطقة الغربية الوسطى الساحلية. وولي يحيى المنطقة الغربية الساحلية الشمالية. وهكذا قسم بقية أنحاء المغرب واحتفظ هو بالعاصمة فاس.

الوضع الجغرافي والقبلي كان يفرض تطبيق اللامركزية بكثير من الحذر واليقظة. ومن يدري فلعل كنزة راودها طيف بدائي من فكرة اللا مركزية وكان ذلك يتفق مع شخصيته في ذكاء إدريس بن إدريس وحزمه وبعد نظره. أما ابنه محمد بن إديس فلم يكن فيما يبدو، في هذا المستوى. ولذلك قبل رأي جدته المتأثرة، ولا شك، ببعد سياسي قبلي ما يزال لشيخ القبيلة وعصبيتها أثر في تفكيرها السياسي. أو ببعد لا مركزي إذا صح التأويل. ولأن يحكم البلاد التي جعل منها ابنها إدريس مملكة واسعة الأرجاء، إذا استطاعت أن تحتفظ بوحدة كيانها ووحدة الحكم فيها في عهد بانيها لقربه [في العهد] من الرسول، فقد لا تستطيع أن تحتفظ بذلك في عهد أبنائه المتعددين، وقد ابتعدوا جيلاً آخر بشرياً ومكانياً من عهد الرسول.

ولعل التاريخ أيد هذه الرؤية التي لا شك أن كنزة لم تفكر فيها برؤية

سياسية بمقدار ما فكرت بحس قبلي ـ سياسي وكانت النتيجة هي:

1 ـ سقوط الدولة وانمحاء اسم الأدارسة نهائياً من الخريطة السياسية للمنطقة سنة 375 هـ إذا اعتبرنا أن آخر عقبهم هو الأمير الحسن بن كنون ولي منهم أحد عشر أميراً كان بعضهم من نسل محمد بن إدريس وبعضهم من نسل عمر بن إدريس وانتقل إلى بني القاسم بن إدريس ثم مرة أخرى إلى بني عمر.

قوم المؤرخون بعضهم تقويماً حسناً، منهم يحيى بن إدريس بن عمر الذي قيل عنه أنه كان أعلى بني إدريس قدراً وصيتاً، وأطيبهم ذكراً، وأقواهم سلطاناً وأوسعهم ملكاً وأكثرهم عدلاً وأغزرهم كرماً، وكان فقيهاً حافظاً للحديث ذا فصاحة وبيان ولسان، وكان شجاعاً حازماً ذا إصلاح ودين وورع. ولم يعرف عن آخرين أي عمل مجيد. أسوأ ما قيل عن أحدهم يحيى بن يحيى بن محمد بن إدريس أنه دخل على جارية في الحمام وراودها عن نفسها فانفضح أمره وأشارت عليه زوجة عاتكة بالاختفاء فمات في ليلته غماً وكمداً[؟].

وأفظع ما حكي عن آخرهم الحسن بن كنون ـ الذي أفلتت الإمارة منه عدة مرات وعاد إليها بعناد وتطلع نادر للسلطة ـ أنه كان قاسياً عنيفاً يقتل خصومه شر قتلة.

تحلى بعضهم بالشجاعة والتضامن في سبيل سلطة الدولة الإدريسية وأنهار بعضهم أمام ضغط الأحداث فبايع العبيديين تارة وبايع الأمويين تارة أخرى.

ـ كانت مدة وجود الدولة [عملياً وإسمياً فقط] نحو قرنين، مدة ليست قليلة في عمر الدول الإسلامية، وفي بلاد كالمغرب تمتاز باتساع آفاقها وتعقدها الجغرافي والبشري. ولكنها مدة حافلة بالمتناقضات، متناقضات ليست غريبة عن المغرب كذلك، وعن طبيعة الدولة التي نشأت في فترة بداية الاضطرابات في العالم الإسلامي، وعاصرت هذه الفترة المليئة بالمصاعب

والمتاعب. وليست غريبة كذلك عن المجموعات القبلية التي تكون المغرب آنذاك.

2 ـ رغم اهتزاز الحكم وعدم انتظامه، كانت قدمهم ثابتة واجهوا الثورة عليهم، ثورة داخلية من أبناء العائلة نفسها وثورة خارجية من خصوم العائلة [موسى بن أبي العافية مثلاً] رغم ذلك كان أمراؤهم يستعيدون ملكهم ويعودون إلى قاعدة هذا الملك مدينة فاس التي ظلت تلعب دور العاصمة، بمفهوم العصر الحديث، تسقط الدولة إذا سقطت فاس، ثم تعود الدولة إلى الوجود إذا استعاد الأمير المنهزم المدينة.

وقد تكرر هذا الحدث الكبير: نهاية الدولة ثم انبعاثها من جديد. ولعل هذه الظاهرة فريدة في تاريخ الدول الإسلامية، وفي ظروف كالظروف التي عرفها المغرب. حدث هذا ـ مثلاً ـ حينما ثار عبد الرزاق الفهري الخارجي [الصفري] على علي بن عمر بن إدريس واستولى على فاس في حرب ضارية انهزم فيها الأمير. ظلت عدوة القرويين مخلصة للدولة فاستنصرت بيحيى بن القاسم بن إدريس فحاربه عبد الرازق وانتصر عليه وأخرجه من فاس.

نتائج إيجابية وسلبية

3 ـ كان من أعظم أعمالهم بناء مدينة فاس وتقدمها في العمران والبناء وسكن الوفود العربية والبربرية حتى أصبحت عاصمة كبرى لعبت دوراً مهماً في التاريخ السياسي والحضاري. وفي عهدهم بني مسجد القرويين ومسجد الأندلس وكان لمسجد القرويين دور ثقافي مهم في تاريخ الغرب الإسلامي.

4 ـ أصبح المغرب الأقصى في عهدهم الأخير مثار نزاع بين ثلاث قوى: الأمويين في الأندلس والعبديين في تونس والخوارج الصفرية في جنوب المغرب. كان الصراع على أشده بين العبيديين والأمويين. وكان المغرب وسط العاصفة كلما حاولت قوة منهما أن تبيد الأخرى امتد سلطانها إلى المغرب فقوضت أسس الدولة فيه واستغلت القبائل الكبرى والخلاف بينها.

وكانت الدولة تراوح نفسها بين الضعف والقوة، ورغم ما كانت تتمتع به في عهد بعض الأمراء من اجتماع الكلمة كانت تغلب على أمرها فتنهار، وأحياناً تنبعث من جديد لتقاوم. كما حدث في عهد آخر الأمراء الأدارسة: الحسن بن كنون.

5 ـ يمكن أن يقول التاريخ: إن المغرب الأقصى ارتج سياسياً بعد إدريس الثاني وعمته الفوضى، وشغل الأمراء في الغالب بأمر السلطة ومحاربة خصوم الدولة والدعوات الخارجية. فقيام الدولة واستمرارها، رغم ما صاحب ذلك من اضطرابات، يعتبر في صالح تاريخ الإدريسيين.

6 ـ العهد الإدريسي كان أساساً لتوحيد المغرب [في الغالب] لم يقض نهائياً على الصراع القبلي الذي طالما استغله خصوم الدولة في الداخل كعبد الرزاق الخارجي وربيع بن سلميان وفضالة بن حبوس المكناسي قائد عبيد الله الشيعي، وموسى بن أبي العافية. وفي الخارج كجوهر مبعوث العبيديين. ومع ذلك استطاع المغرب في عهدهم أن يحتفظ بشخصيته دون تبعية للأمويين في الأندلس ولا للعبيديين في تونس. واستطاع بذلك أن يجعل من الدولة مرتكزاً للحكم الشامل حتى تلمسان، بدلاً من القبلية، وبدلاً من الدعوات المذهبية التي أسهمت في تمزيق بلاد المغرب، وبدلاً من الدويلات المحلية [بني مدرار في سجلماسة مثلاً].

7 ـ استطاع العهد الإدريسي أن يبقي على المغرب بعيداً عن الصراعات الطائفية، فرغم أن المغرب العربي كان ملجأ للخوارج والشيعة، ومركزاً لدعوات الانحرافية كالبرغواطية، فقد استطاعت الدولة أن تحمي المغرب وكل المنطقة التي دخلت تحت حكمها في الجزائر، من كل هذه النزعات ليبقي الشعب موحداً في الإسلام السني. وكان انتشار المذهب المالكي في المغرب الكبير والأندلس قد أكمل هذه الوحدة المذهبية، فأصبح المغرب الكبير جميعه سنياً، إلا قلة من الإباضيين في الجزائر، مالكياً إلا قلة من الحنفيين في تونس.

ليس المهم هو الانتصار لمذهب دون آخر في الأصول [العقيدة] أو الفروع [الأحكام الفقهية] لكن المهم هو أن هذه الوحدة وفرت على المغرب الصراعات السياسية التي كانت تتخذ الدين وسيلة للسطو على الحكم. وقد تابعت لعنة المذهبية مختلف البلاد الإسلامية، وما تزال أساس الصراع السياسي المتجدد مذهبياً وسياسياً في آن.

المغرب نجا من هذا الصراع في بدايته. لا نزعم أن الفضل في هذه الوحدة المذهبية يعود جميعه إلى الأدارسة، ولكن الأدارسة ساهموا بحظ كبير في تكريس السنة يوم لم يعتنقوا الأفكار الشيعية، وهم حفدة علي بن أبي طالب، ولم يتخذوا منها سبيلاً لبناء الدولة. ولو فعلوا لكان لهم ما أرادوا، ولوجد الشيعة، بكل مذاهبهم المعتدلة والمتطرفة، مرتكزاً في المغرب. نعود فنكرر أن المهم ليس التشيع أو التسنن، ولكن المهم أن المغرب بتركيبه الجغرافي والبشري القبلي كان سيتعرض لاهتزازات خطيرة تأتيه من الشمال [الأندلس في العهد الأموي] ومن الشرق. وقد نجا المغرب العربي من هذه الصراعات المذهبية ليواجه صراعات سياسية ليست أقل خطورة، ولكنها أحادية الجانب على الأقل.

8 ـ اعتمد الإدريسان على عصبية بربرية في بناء الدولة وفي بدايتها على الأقل. وإذا كان إدريس الثاني قد استقبل الوفود العربية من تونس والأندلس بترحاب كبير واستعان بهم على إدارة الدولة، وعمر بهم فاسا فأسكن الأندلسيين في عدوة، والقيروانيين في عدوة، كما عمرت مدن الشمال وقراه بالوافدين العرب الربضيين الفارين من القمع الأموي، فتحت لهم الدولة صدرها، فساهموا جميعاً في نشر العربية وعلومها، كما ساهموا في التنوع المتكامل الذي يتميز به المغرب، وفي تداخل العرب والأمازيغيين وتساكنهم وتعاونهم على بناء الدولة والمجتمع على السواء، حتى أصبح مجتمعاً متكاملاً لا مجال فيه للصراع العرقي. ولا للخلاف الحضاري واللغوي. والمهم من

كل هذا ساهم في تكوين دولة تعتبر من أهم الدول التي نشأت انطلاقاً من الفرار بالنفس من الخلافة الإسلامية. وإذا كانت الخلافة قد عجزت عن مواجهة تكوين دولة في الأندلس تحت اسم الأمويين، فقد عجزت عن الوقوف في وجه الدولة الإدريسية في المغرب للأسباب الجغرافية والعسكرية التي أشرنا إليها من قبل. ولو أنها لم تعجز عن اغتيال رأس الأسرة الذي هاجر وهو إدريس الأول. إلا أن عقبه استطاع أن ينشيء الدولة. فتقوم بما لم تقم به أية دولة من الدول الصغيرة التي نشأت في بلاد المغرب من حيث نشر الإسلام وتثبيت قدمه.

مهم جداً أن يكون من نسل النبي من جهة الأب ومن نسل بربري من جهة الأم. فقد استطاع بهذين المجدين أن يجمع حوله مجموعة قبائل كبرى في مقدمتها أوربة وفروع من غمارة وزواوة ولواته وسدراته ونفزة ومكناسة. وهذه القبائل تمثل مختلف أنحاء المغرب ـ وبذلك امتد نفوذ الأدارسة من الشمال [طنجة] حتى الجنوب. ومن الشرق [تلمسان] حتى الريف الغربي.

ومن المهم أيضاً أن هذا السلطان الواسع دفع بقبائل عربية كثيرة أن تفد إليه من المشرق ومن الأندلس، وأن يجمع حوله في دولته ما لم يجتمع لغيره: عرب مغاربة وشرقيين وأندلسيين وبربر من أهم القبائل البربرية.

وهذا ما مكن للدولة الإدريسية أن تكون المؤسس الحقيقي للإسلام والمثبت لأركانه.

ولم تكن دولة شيعية رغم أن القائم عليها من أحفاد الرسول، ولكنه من أحفاد الحسن لا من أحفاد الحسين، في غير حاجة إلى دعوى قربى أو تشيع لأبناء علي. فهو منهم ـ ولو كانت الفكرة غير ذلك لكان المغرب ـ ربما إلى الأبد ـ من أهم بلاد الشيعة لأن الذين أنشأوا أول دولة إسلامية فيه من أحفاد الرسول.

ولعل ذلك كان في مصلحة التاريخ الإسلامي المغربي. فلو أُضيف التشيع إلى الخارجية بفرقتيها وإلى القبلية لظل المغرب طيلة تاريخه الإسلامي مثار نزاعات ربما كانت عنيفة قاتلة.

هل المغاربة ميالون إلى السنة «بطبيعتهم»؟

يجيب بعض المحللين بالإيجاب ولكنه جواب غير مقنع ولا يعتمد إلى سند علمي، فالسينة أو التشيع أو الخارجية اعتبرت في بعض البلاد الإسلامية من جوهر الدين، كما اعتبرت الكاتوليكية والبروتستانية من جوهر المسيحية، وكما اعتبر ـ في بعض البلاد الإسلامية ـ المذهب الفقهي من جوهر الدين، فكان التعصب للمذهب بمثابة التعصب للدين. ولذلك استمرت الحروب بين بعض البلاد الإسلامية، حتى نهاية القرن الماضي، اتخذت مظهراً سياسياً، ولكن حقيقتها مذهبية، على غرار ما توجد الحرب الآن بين مذهبي المسيحية لها مظهر سياسي وحقيقتها دينية، رغم أن الطابع الرسمي للدول الأوروبية جميعها هو العلمانية. لكل ذلك نؤكد أن المذهبية لا يمكن أن تكون طبيعية لشعب من الشعوب كما يزعم بعض المحللين.

والنقطة الثانية التي يشار إليها في صحيفة الدولة الإدريسية أنها نشرت العربية في المغرب لمكانة زعيمها أولاً، ثم بما وفد عليه من قبائل عربية. ولكنها ليست الدولة التي لم يتسع صدرها للأمازيغية، لأنها قامت على أكتاف العرب والأمازيغ. ولأن والدة إدريس الثاني أمازيغية. لهذا ـ ولغيره ـ ظلت الأمازيغية حية حتى في بعض القبائل العربية التي تبربرت بالإصهار وبالسكنى في المناطق التي يسكنها البربر. كما أن بعض القبائل تعربت لنفس الأسباب.

وهذا الاندماج ـ في ظل الإسلام ـ ألغى قضية العرقية والسلالية وأعطى للمغرب ـ منذ الدولة الإدريسية ـ طابع الدولة الإسلامية العربية البربرية دون تمييز.

مصير الأدارسة لا يختلف عن مصير الدول الأخرى التي نشأت في

المغرب العربي، ولو اختلفت النشأة.

بداية النهاية كانت مبكرة. ونشأت عن خطأ إستراتيجي في السياسة، حللنا بعْض مظاهره في فقرات سابقة وسيأتي تحليل بعض الملامح الأخرى فيما يُستقبل من فصول هذا التاريخ.

الأغـــالبـــة

احتلت تونس مركزاً جغرافياً ممتازاً في وسط شمال إفريقيا، وفي أقرب مكان بجنوب البحر الأبيض إلى الأرض التي انطلقت منها جحافل الفاتحين: روما. وقد شعر الفينيقيون بحسهم الجغرافي البحري، وبصنعتهم التجارية البحرية بهذا المركز الإستراتيجي المهم فخيموا فيه وبنوا مدينتهم قرطاج ـ البحرية التجارية ـ ودولتهم القرطاجية، التي بسطت نفوذها الحضاري والتجاري والعسكري على جنوب البحر الأبيض، غرب تونس وعلى بعض مناطق شماله. وخاضت في سبيل الدولة والتجارة حروباً مدمرة مع القوة الناشئة [روما] التي كانت تفوقها قوة، ولو اختلفت معها في الاتجاه الحضاري والسياسي والاستعماري.

تحكمت الجغرافية في تاريخ المنطقة جميعها من خلال تونس قبل الإسلام.

ولم يختلف الأمر بعد الإسلام. فقد كانت الخلافة الأموية تقصر عن مد نفوذها الخليفي حتى أقصى شمال إفريقيا. كان الولاة يحاولون السيطرة باسم الخلافة، ولكنهم لم يكونوا موفقين في تدبير شؤون الحكم، ونشر الاستقرار في المنطقة، ولذلك واجهوا كثيراً من الثورات على نحو ما قدمنا.

وإذا كانت مصر في القسم الشرقي من شمال إفريقيا كمحطة استقرار، وانطلاق للسلطة العربية الحاكمة منذ فتحها عمرو بن العاص بأمر من عمر بن الخطاب، فإن تونس مثلت منطقة الاستقرار، والانطلاق منذ بداية الفتح العربي بقيادة عبد الله بن أبي سرح سنة 27 على عهد عثمان بن عفان. وكانت المدينة

أساس هذا الاستقرار فأسست القيروان على يد عقبة بن نافع سنة 50 هـ 670 م في عهد معاوية. وكانت مركز الاستقرار والانطلاق من جديد ليعيد التاريخ نفسه، ولتؤكد مرة أخرى انطلاقة المد البشري الذي عرفته المنطقة في عهد القرطاجيين.

اتخاذ المركز في مصر من جهة، وفي إفريقية [تونس] من جهة أخرى كان يعني صمام الأمان لدولة الخلافة. فهي تغامر بالبعد عن المركز كلما أمكنها ذلك، ولكنها تعود إلى المركز لتتحصن فيه كلما كانت الظروف غير مواتية. وقد عرفنا من قبل الدور الذي لعبته تونس ـ بعاصمتها القيروان ـ على عهد الفتح والولاة. كانت مركزاً صامداً في وجه الارتداد العربي زمن الفتح. كان ينالها الكثير من المتاعب ودمرت العاصمة عدة مرات، ولكن مع ذلك بقيت تونس هي الملجأ العربي. تصل إليها الإمدادات العربية لتنجد عملية الفتح.

وبرزت أهميتها الإستراتيجية بالخصوص حينما تأسست الدولة الأموية في الأندلس، فكان من رأي العباسيين الاعتماد على المركز [الإفريقي] والتحصن فيه وعدم المغامرة بحرب الأمويين الذين قفز منهم: عبد الرحمن الداخل إلى الشاطىء الأوروبي الغربي ليكون دولة يحيي بها دولة أجداده في دمشق.

العباسيون اكتفوا بتونس أيضاً حتى لا يدخلوا في حروب جزئية، ولكن لم يكن في صالحهم إشغال الجيش بها، فقد كان من الصعب إدارة هذه الحروب الجزئية والانتصار فيها. أعني بذلك محاربة الدولة الرستمية في تاهرت بالجزائر والدولة المدرارية في سجلماسة بصحراء المغرب.

وإذا كانت هذه التقنية السياسية ـ العسكرية في صالح دولة الخلافة من جهة، فقد مهدت الطريق لانفصال المغرب العربي جميعه عن الدولة، وخاصة بداية من تكوين الدولة الإدريسية في المغرب التي كانت نموذجاً آخر للدولة

الأموية في الأندلس يجمعهما جامع واحد، هو: العداء لدولة الخلافة، والانفصال عنها.

فما هو الدور الذي لعبه «المركز» الذي تحصنت به دولة الخلافة في شمال إفريقيا [أعني تونس] في هذا الخضم السياسي الذي عرفته المنطقة بعد إتمام الفتح الإسلامي؟.

من خلال الدور الذي قامت به تونس في عهود ما قبل الإسلام وفي عهدي الفتح والولاة تحدد دور تونس الجديد، ودولة الخلافة تشهد تحدياً من الغرب الإسلامي كما كانت تشهد تحدياً من الشرق الإسلامي.

ربما لعبت الصدفة دوراً مهماً في التاريخ. ولكن التاريخ لا يعيش حتى لو تعامل مع الصدف.

إتفاقية الاستقلال الذاتي:

إبراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة الأغلبية استدعته ظروف الاضطراب الذي واجهته بها الدولة العباسية في تونس ليقوم بدور مهم، وكان يمكن أن تستدعي الظروف غيره. فالخلفاء كانوا يعينون الولاة والضباط دون مرجعية محكمة. الاضطرابات والثورات الفوضوية حول القيروان في عهد هارون الرشيد جعلت والي تونس يعجز عن مواجهة الجند الثائر فطلب من إبراهيم بن الأغلب عامل الزاب أن ينجده، فأنقذه وأنقذ الولاية [إفريقية] من فتنة الجيش. واستحق بذلك الولاية فولاه هارون الرشيد إفريقية جميعها.

لأول مرة في تاريخ الخلافة الإسلامية تعقد إتفاقية ـ أو شبه إتفاقية ـ بين الخليفة والوالي، تمنح الولاية بمقتضاها حكماً ذاتياً. بنود الإتفاقية بين إبراهيم بن الأغلب وهارون الرشيد تنص على:

1 ـ يحكم إبراهيم إفريقية وطرابلس والزاب باسم الخليفة، ويخطب باسم الخليفة على المنابر، ويعين الخليفة قضاة القيروان ويؤدي أمير إفريقية

الأغلبي مبلغاً من دخل الإمارة سنوياً.

2 ـ يستقل أمير إفريقية وعقبهُ من بعده بالحكم في قضايا التسيير والدفاع، ومحاربة خصوم الدولة [الخلافة].

هذه الإتفاقية أقرها الرشيد تحت ضغط الأحداث: ثورة المغرب بقيادة الأدارسة ـ قبلها تكوين الدولة الأموية في الأندلس ـ ثورات وتكوين إمارات الخوارج ـ ثورات الجيش في إفريقية نفسها.

واشترطها أو اقترع بعض بنودها إبراهيم لأنه كان في مركز قوة، للظروف التي ذكرنا. وعرف كيف ينتهز فرصة ضعف الخلافة عن حماية إفريقيا ليقدم شروطه. وتأكدت الخلافة باقرار الاتفاقية أنها ستضع في تونس جداراً يحميها من تسرب سلطان الدول التي تقع غرب تونس، لا قبل لها بمحاربتها. وتحمي تونس ومنطقتها من ثورة الجيش التي كانت مرهقة للدولة.

يضاف إلى ذلك أن العباسيين أدركوا أن الدولة اتسعت في عهدهم، كما لم تتسع من قبل. وأنهم غير قادرين على الحكم المباشر المكلف عسكرياً وسياسياً وبشرياً ومالياً. فإذا ضمنوا المال الدائم واستراحوا من تجنيد الجنود واختيار القواد الذين يضمنون ولاءهم، وضمنوا السلطة الإسمية، ولو بالخطبة على المنبر يوم الجمعة، وضمنوا حظهم من الخراج، فقد حفظوا ماء وجه الدولة، وقنعوا بالذي في أيديهم.

ولعل للعامل الجغرافي أثر في تأكيد هذا الاختيار، رغم ما فيه من مخاطرة سياسية. فتونس في مركز استراتيجي وسط القسم الغربي، يمكن أن تواجه بالاحتلال، أو بالدفاع ما يقع غربها من أرض الإسلام وما يقع شرقها ، فوجود حكم قوي فيها يقي دولة المركز شر الحروب رغم ما فيه من خطورة إمكانية فصل غرب البلاد العربية عن الخلافة نهائياً.

والملاحظ أن تطوراً مهماً في التفكير السياسي حدث في قمة سلطة الخلافة العباسية. فلم يكن من السهل الاعتراف باللامركزية أو بالانفصال

وتكريسه باستقلال مركز مهم من مراكز الدولة هو إفريقية، ولكن الرشيد فعل، وهو مؤمن بأنه لم يكن ما فعل انفصالاً لإقليم عن الدولة، وإنما هو نوع من اللامركزية، في الحكم. كان يمكن تقدير هذا الموقف باعتباره تطوراً مهماً في الفكر السياسي. ولهذا التفكير ما يبرره في سلوك الخلافة مع بعض الولاة في مناطق فارس وفي شمال مركز الخلافة العراق. كان الولاة يمارسون سلطتهم في شبه استقلال ولذلك ثار بعضهم على الرشيد والمأمون.

تولى إبراهيم بن الأغلب إمارة إفريقية تحت الشروط التي أشرنا إليها. ورغم أن ظروف ولايته لم تكن دائماً سهلة ـ وكان يعرف ذلك ـ فقد وفى بما عاهد عليه الخلافة. وبقي أميراً نحو إثنتي عشرة سنة (184 ـ 196 هـ) [800 ـ 812 م] وكان عهده مليئاً بالمشاكل العسكرية كعهود جميع الدول والإمارات والولايات سواء في البلاد الإسلامية أو غير الإسلامية.

مسؤولية مزدوجة:

1 ـ كان عليه أن يعيد الاستقرار إلى إفريقية، بعد الثورات والاضطرابات التي عرفتها المنطقة في عهد أسلافه من الولاة. وقد فعل، ونجح، لما كان يتمتع به من دهاء وحسن سيرة وليونة وشخصية قوية.

2 ـ كان عليه أن يؤمن إمارته من الثورات الخارجية. وفي هذا السياق استعان بجند مصر العرب، لأن حرب الخوارج عملية فيدرالية تهم الدولة جميعها وليس الولاة فحسب.

3 ـ كان عليه أن يحمي داخل الدولة [الإمارة] من صراع الجند العربي: التميميون واليَمَنِيُّون ثم الخراسانيون والأعاجم من الفرس، ثم الزنوج والبربر. كل هؤلاء التقوا في بعض فترات حكمه وحكم الأمراء بعده. وكلهم كانوا يحدثون مشاكل للدولة على الأمير أن يصفيها.

4 ـ كان عليه أن يدبر المكيدة للدولة الإدريسية فينال منها، سواء كان ذلك بتكليف من هارون الرشيد أو بمبادرة شخصية منه. ولا شك أن موضوع

الإدريسيين شغله، لأن كلاً من الأغالبة والأدارسة كان يضع عينه على المغرب الأوسط. وحتى يطمئن الأدارسة على دولتهم الفتية، عليهم أن يتحسبوا الشرق كما يتحسبون الشمال والجنوب، وفي الشرق دولة تدعمها الخلافة، ولكنها أكثر من ذلك شابة في كيانها وقوتها ونفوذها وأطرها وجيشها، وحتى يطمئن الأغالبة على دولتهم الفتية عليهم أن يتحسبوا ولاة الخلافة على مصر من جهة الشرق، ويتحسبوا لسلطة تاهرت الرستمية، وبقية الخوارج الذين كانوا يشيعون الفتنة والاضطراب في المنطقة، وكان عليهم أن يتحسبوا أكثر من ذلك هذه الدولة الجديدة الإدريسية التي نشأت معتمدة على عصبية بربرية قوية وبدعوة دينية سياسية تحمل العداء لدولة الخلافة وأتباعهم.

لذلك كانت المنطقة تقترب من الاستقرار بإنشاء الدولة [الدويلات] بمقدار ما تتركز فيها عناصر الصراع، الدولي هذه المرة، وليس القبلي، وإن لم يختف الصراع القبلي داخلياً في كل دولة وخارجياً، مع، وضد، كل دولة من هذه الدول المتعددة في المنطقة.

وكان على إبراهيم بن الأغلب لكل ذلك أن يفكر في تدعيم الدولة الجديدة المستقلة، وغير مستقلة. فهو يعرف أن الخلفاء كانوا يولون ثم يعزلون، [حدث فعلاً أن عزل المعتمد العباسي إبراهيم الثاني «الأصغر» الرجل الذي غامر بعد عزله بمحاولة احتلال ايطاليا فمات في مغامرته بعد أن طغى وتجبر وطالب الشعب بعزله وولى مكانه ابنه عبد الله الثاني] رغم الظروف الجديدة التي وجدت في المنطقة، ورغم أنه يعرف ألا محيد للخلافة عن سلطة قوية في المركز المتوسط تقيها شر المتربصين بها في الغرب الإسلامي. لذلك قوى جنده بعناصر مختلفة. وركز في كل منطقة من مناطق حكمه فريقاً من الجيش يختلف في الجنس والانتماء عن الفريق الذي ركزه في منطقة أخرى. فالجند العربي في تونس وقابس وطرابلس والزاب، والخراساني في الجنوب: القيروان وسوسة والجريد، والبربري في مناطق أخرى.

حكم الأغالبة طوال القرن التاسع الميلادي أضافوا إليه تسع سنوات [800 ـ 909] ونبغ فيهم ـ بالإضافة إلى إبراهيم مؤسس الإمارة ـ زيادة الله بن إبراهيم [الثالث] وإبراهيم بن أحمد [التاسع].

ولعل أهم ما حققه الأغالبة:

1 ـ تكريس الجهود لتحضير البلاد فقد اعتنوا بالقيروان، وبنى إبراهيم أحد أمرائهم مدينة بالقرب منها لمنافستها أسماها «الرقادة» كما بنى قصر «القصبة» في مدينة تونس.

2 ـ حماية سلطة الإمارة من الفتن التي يقوم بها الجند تارة والمغامرون من القبائل الطرابلسية، ولعل أهم ثورة واجهوها هي ثورة بني تميم بقيادة منصور الطبندي الذي احتل تونس بأجمعها باستثناء الساحل وطرابلس. ثم عامر بن نافع الذي تصارع مع منصور الطبندي. وانتهت الثورتان معاً على عهد زيادة الله. ولكن أهم ما قاموا به لحماية الإمارة مدافعة العباس بن أحمد بن طولون أمير الطولونية في مصر، وقد طمعت في أن تضم طرابلس وتونس إلى ولايتها. وإذا لم يكن قد وقع قتال خطير بين الإمارتين لأن كلاً منهما أدرك قوة الآخر وأهميته. فإن الموقف الصارم الذي وقفه إبراهيم الصغير حافظ على استقلال الإمارة عن التبعية للدولة الطولونية.

3 ـ انفتاح تونس على البحر. فإذا اعتبرنا فتح الأندلس من العرب والمغاربة أول انفتاح على البحر الشمالي ـ بعد فتح مصر ـ فإن المسلمين في عهد بني الأغلب تطلعوا إلى الضفة الشمالية للبحر الأبيض. كل الأسباب التي يذكرها المؤرخون والتي، لم يذكروها، واردة: أراد الأغالبة إشغال الجيش المتنوع الأصول الطامح إلى الحرب دائماً، والذي لم يشغل بالحرب اصطنع الثورات. والدولة لا بد لها من الجيش لحماية أطرافها كما أشرنا إلى ذلك. وللأغالبة [التونسيين] مثل من قرطاجة التي امتد نفوذها غرباً وشمالاً. وإذا لم يستطيعوا تقليد الامتداد غرباً فليكن الامتداد شمالاً. والدولة في حاجة إلى

المال لتسدد واجباتها للعباسيين ـ كما تعهدت بذلك ـ وتونس بلاد فقيرة لا يرضي دخلها طموح الدولة وواجباتها، فلم لا يكون الشمال سبيلاً للثراء.

هكذا نجد زيادة الله [817 ـ 838] يغزو جزيرة صقلية بقيادة القاضي المعروف المجاهد أسد بن الفرات. ومحمد الثاني [863 ـ 884] يغزو مالطة. وإبراهيم الثاني الأصغر يفتح حصن سرقوسة.

انتهت إمارة بني الأغلب بفرار زيادة الله الثالث الذي قتل أباه عبد الله واستولى على الإمارة [في سنة 909] ثم أفشى القتل بين الناس فقتل أخاه وأعمامه وكثيراً من العلماء. ووجد نفسه أخيراً يملك جيشاً قوياً، ولكن دعوة العبيديين تفوقت على جيشه وجبروته. وحارب العبيديين الزاحفين من المغرب على حدود الجزائر. وحينما انهزم أمامهم فر من تونس بأمواله وعياله ليترك الإمارة التونسية في يد العبيديين. وليبدأ عهد الدولة في المغرب العربي صفحة جديدة. عهداً شيعياً هذه المرة.

تحليل للعهدين الأغلبي والإدريسي

إذا كانت الدولة الأغلبية قد لعبت دوراً كبيراً في تاريخ المغرب العربي، فإن وجودها يفرز كثيراً من الحقائق:

أولى هذه الحقائق: أنها الدولة الوحيدة التي نشأت كاستقرار لعهد الولاة. فجدود بني الأغلب كانوا ولاة للخليفة على منطقة طرابلس وتونس. والمؤسس [إبراهيم] كان ابناً لضابط كبير في جيش الدولة بمصر. وانتقل مع أبيه إلى الزاب فأصبح والياً بعد وفاة والده.

من هنا نجد أن الوراثة كانت تلعب دوراً أساسياً في نشأة الدولة وفي نهايتها. ولعلها المبدأ الدستوري الوحيد في النظم الملكية الذي كان يحل كثيراً من المشاكل بمقدار ما يعقدها. الأمويون سنوا هذا الاتجاه في الحكم الإسلامي وانتقل العمل به إلى جميع الدول الإسلامية شرقاً وغرباً.

والحقيقة الثانية: أن السلطة العسكرية التي وليها إبراهيم أفضت به إلى السلطة السياسية، بل إلى الملك أو «الإمارة». فقد وُلي إبراهيم علي الزاب والياً للخليفة. فوجد الوضعية السياسية مضطربة والخلاف على أشده بين القبائل العربية المختلفة على نفسها، والقبائل البربرية المختلفة على نفسها كذلك. وبدأ بعملين إثنين تؤكدان ذكاءه من جهة للوصول إلى الحكم، وأسلوبه العملي للتخلص من المشاكل من جهة أخرى:

العمل الأول: أنه طلب من هارون الرشيد أن يوليه إفريقية على أن

يتنازل عن المساعدة التي كانت تقدمها الدولة لهذه الولاية. بل أظهر استعداده لإمداد خلافة بغداد بخراج مهم سنوي. ومعنى ذلك فإن الخلافة ستطلق له اليد في التصرف السياسي والمالي، وسيصبح مستقلاً لا نفوذ للخلافة عليه، لأنها تخلصت مما كانت تنفق على هذه الولاية، ولأنها تخلصت من صيانتها للجيش كلما قامت فيها اضطرابات، فالوالي قادر على القيام بشؤونها ولأنها ثالثاً ستستفيد من خراجها لتسدد مصاريف الدولة الأساسية الأخرى ومتطلباتها في الأقاليم المشرقية والمغربية حتى مصر.

ولكنه أردف هذه الشروط بالولاء للخلافة والدفاع عنها.

وفي هذا الشرط إغراء كبير، لأن الخلافة ستضمن ولاءً دائماً من بلاد بعيدة، الشيء الذي افتقدته في الأندلس يوم أصبحت تقوم عليها خلافة أموية، وافتقدته في دولة بني رستم الخارجية في تاهرت بالجزائر، وافتقدته في دولة بني مدرار الخارجية في سجلماسة، وافتقدته في الدولة الإدريسية في وليلي ثم فاس.

يبدو أن دولة الخلافة العباسية تعلمت كيف تتعامل بمرونة مع الأحداث، فلا تقاوم كل حدث مهم بالقوة والقمع والحرب. دولة الخلافة اتسعت أرجاؤها، ولا يمكن شغل الجيش بالحروب شرقاً وغرباً، غير مؤكدة العواقب

ومن أهم ما كان يشغل الخلافة المحافظة على مصر وتأمين حدودها، ولو بالولاء. ولذلك كان المهم هو ضمان ولاء إبراهيم بن الأغلب، لا تعريض الدولة لحروب قد تجر مشاكل على مصر من غربها، الشيء الذي قد يجعل من الصعب الدفاع عنها، وهي مركز مهم من مراكز الخلافة، ومراكز السيطرة على بقية الأراضي الإفريقية.

وكان الاتفاق ـ الأول من نوعه ـ بين هارون الرشيد وإبراهيم بن الأغلب سنة 184 هـ 800م.

الحقيقة الثالثة: أنها كانت دولة عربية. فإبراهيم عربي من تميم. وكون

دولته في جيشها وقوادها وإدارتها من عرب.

وكما فكر في أن يكون هذا المبدأ [الاعتماد على العرب] مما يرضي دولة الخلافة فتمنحه ثقتها، وكما فكر في أن الاعتماد على العرب سيعطيه عصبية حينما يجمع حوله أبناء قبيلته، لم يوصله بُعد النظر إلى أن يفكر في الجانب السلبي من هذا الموضوع. فقد صرفه ذلك عن الثقة في الجيش البربري. وهذا طبيعي، لأن البربر ـ كما علمهم التاريخ ـ لا يخدمون دولة تأخذ منهم الحذر وتفضل عليهم الآخرين، كما حدث مع القرطاجيين والرومان ومع العرب الفاتحين من قبل، وكما حدث مع الأمويين في الأندلس. ثم إن ابن الأغلب ليس له سند إدريس النبوي، وليس للعصبية البربرية في تونس نفس العمق الذي كان لها في المغرب والجزائر حيث نشأت وازدهرت وعمقت القبائل البربرية الكبرى، ذات السند الإستراتيجي والجغرافي [البعد الأرضي والجبلي]. ثم لأن تونس قريبة نسبياً من أرض الخلافة. يمكن الاستناد فيها على القبائل التي كانت تفد عليها من الجزيرة ومن مصر، المركز الرئيسي للخلافة في إفريقيا. ولذلك لا حاجة بإبراهيم ـ كما فكر ـ إلى الاعتماد على القبائل البربرية التي لا يمكن أن يطمئن إليها، إلا في جزء من الجيش، لا يقوى قوة الجيش العربي والخراساني سلطة وثقة. ثم إنه لم يفكر في الجانب السلبي الآخر، وهو أنه لم يلعب لعبة ميكيافيلية في الاعتماد على هذا الفريق العربي وذاك البربري من الجيش تقوم بينهما منافسة وغيرة ليترك لرئيس الدولة دور الحكم، وإنما اعتمد على فريق واحد، فكانت النتيجة أن الفريقين كانوا أخيراً ضد الدولة.

وتعود نهاية الدولة رغم أهمية الدور الذي قامت به واتساع رقعة السلطة (كانت سلطتها تمتد من طرابلس حتى تونس والزاب) ـ ورغم أن عهد الإتفاقية مع بني العباس استمرت أكثر من قرن كامل ـ إلى أخطاء الدولة نفسها. وهي أخطاء تؤكد الشيخوخة التي تصيب كثيراً من الدول، ومن بينها دول المغرب العربي.

من الأخطاء أن بني الأغلب أسسوا دولة عسكرية تعتمد على الجيش، فكانت ثورات الجيش سبب ضعف الدولة الذي مكن خصومها منها.

ومن الأخطاء الاعتماد على العرب الوافدين من المشرق فكان البربر، وحتى العرب المقيمين ضد الدولة.

ومن الأخطاء طغيان السلطة الذي تجلى في أخطر أمير من أمراء الأغالبة وهو إبراهيم بن أحمد. كان رجلاً دموياً سفاكاً يسجل له التاريخ ـ إلى جانب أمجاده ـ كثيراً من المذابح التي قام بها ضد الشعب. فكان الشعب ضده، إلى جانب الجيش. وكانت الدولة بذلك ضحية كثير من الأخطاء التي فصلتها عن الشعب، فأصبحت لقمة سائغة في فم العبيديين الذين استغلوا فرصة ابتعاد بني الأغلب عن البربر، فتحالفوا مع كتامة وأجهزوا على الدولة فانتهت في سنة 909/296.

الحقيقة الرابعة: أن الأغالبة احتفظوا بإمارتهم الواسعة بعيداً عن تدخل الخوارج كما فعل الأدارسة في المغرب. الدولتان معاً لم تخضعا للخوارج ولا للشيعة، رغم تسرب الخوارج إلى مناطق مختلفة من بلاد المغرب جميعها، ورغم أن الأغالبة كانوا تابعين للخلافة ـ ولو تبعية رسمية ـ والأدارسة كانوا منفصلين انفصالاً مطلقاً عن الخلافة، التي لم يمتد نفوذها لما بعد نهر شلف في شرق الجزائر، فإن أي صراع لم يحدث بين الإغالبة والأدارسة، رغم قوة كل منهما ومعاصرتهما.

هنا يلعب الموقع الجغرافي دوره الكبير. كما تلعب التركيبة البشرية. فأغلب الذين اعتمد عليهم الأغالبة عرب، وأغلب الذين اعتمد عليهم الأدارسة بربر. وكان من الصعب على بني الأغلب. وقد كانت لهم قوة عسكرية ـ وتطورت إلى قوة بحرية ـ، أن يطمعوا في المغرب. وكان من الصعب على الأدارسة، وقوتهم أضعف من قوة بني الأغلب، ولم يكونوا يعتمدون على الخلافة أن يطمعوا في تونس، بل سرعان ما دب الخلاف بين الإخوة الأدارسة

الذين توزعوا الإمارة ولذلك كان من المستحيل عليهم أن يطمعوا في مد نفوذهم إلى تونس.

الحقيقة الخامسة: إن دولة بني الأغلب كانت فاصلاً بين المشرق والمغرب. فهي الدولة التي تجمع بين المشارق والمغارب جغرافياً وسياسياً وعسكرياً واجتماعياً وبشرياً. وبذلك كانت الجدار الذي يفصل بين المشرق والمغرب، إلى جانب الأسباب الأخرى التي ذكرنا بعضها، والمتعلقة بالموقع الجغرافي وبالخلافة ومشاكلها واتساع الرقعة التي تحكمها.

الأدارسة والأغالبة:

إذا كان التاريخ يعبث، فإنه مع ذلك يسير في اتجاه عقلاني، والظروف التي تهيء المناخ لمسيرة التاريخ تتحكم فيها عقلانية الأحداث ومنطقها الحكيم. ولذلك فنشأة دولتين عربيتين متوسطتي الحجم بين الدول الصغيرة والكبيرة في منطقة المغرب كان بتدبير حكيم لمسيرة التاريخ. بدأت في سنوات متقاربة: الأدارسة بدأوا في تأسيس دولتهم سنة 172 هـ 789 م والأغالبة بدأوا في إنشاء دولتهم [إمارتهم] سنة 296 هـ 800م. الفترة كانت مرحلة انقلاب في الحكم الإسلامي: اتسعت الامبراطورية شرقاً وغرباً.

فانتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين لم تكن عواقبه سهلة، مما يمكن أن تتحكم في التاريخ بسهولة. وذلك بعض أسرار المتاعب التي وجدها العباسيون في الحكم. وبعض هذه المتاعب مما كان يبدو إيجابياً لصالح الدولة كاتساع الفتوحات التي أخذت بعداً كبيراً في عهد الأمويين، وبناء الدولة على أساس الملك تنظيماً وترتيباً.

وحينما جاء العباسيون كانوا مضطرين أن يؤمنوا شمال وشرق الإمبراطورية فاستعانوا بالخراسانيين والموالي من الفرس ليس فقط في تنظيم الدولة وتسييرها، ولهؤلاء سابقة في ذلك، ولكن كذلك في ضمان العمق

الجغرافي في بلاد فارس. وأرعبهم أن أحد الأمويين الذين نجوا من حملة الإبادة، التي شنها العباسيون ضدهم، قفز إلى المغرب جنوب الأندلس لينشيء فيها دولة. وأفزعهم أن الخوارج الذين كانوا يرفضون الخلافة، سواء في عهد الأمويين أو في عهد العباسيين، قد قفزوا ـ في نفس الاتجاه ـ فكونوا دولتين إباضية رستمية في تاهرت بالجزائر، ومدرارية صفرية في سجلماسة، بجنوب المغرب الصحراوي. وأرعبهم أن مصر رغم إذعانها لسلطة الخلافة تشعر من حين لآخر بمركزها ونفوذها الذي لا تستغني عنه خلافة، سواء كانت دمشق مركزها أو الكوفة وبغداد.

هذه الظروف جميعها تحكمت في نشأة الإمارة الأغلبية.

ظروف لصالحها أكثر مما هي لصالح الإمارة الإدريسية. فهي تقتعد مركزاً وسطاً سليماً لا يهدده إلا طموح مصر في الشرق، أو طموح القبائل التي تثير الفتن ضد الحكام كلما لم ينصفها، أو طموح الرستميين الذين كانوا يقنعون بالمركز الذي نالوه. ولكن الإمارة الإدريسية كانت مهددة من الخلافة الناشئة في الأندلس، وهي خلافة أموية. وعمق العداوة الأموية للعلويين لم يكن في حاجة إلى مزيد من الوعي به. وكانت مهددة من الجنوب بالإمارة المدرارية الخارجية، القوية اقتصادياً ومذهبياً، المتشددة في العداء لكل من حكموا المشرق، أو أرادوا أن يحكموه، ومنهم علي بن أبي طالب وبنوه، وكانت مهددة من المشرق بالرستميين من جهة، وبالأغالبة الدولة الناشئة المعتمدة على سند الخلافة، وحماية مصر، وكانت الدولة الإدريسية إلى جانب ذلك مهددة بالنزاعات القبلية ـ وهذا قاسم مشترك بين سائر الحاكمين ـ يضاف إليه النزاعات العربية العربية بين القبائل التي وفدت من المشرق ومن الأندلس، والعربية ـ البربرية نتيجة التساكن والطموح إلى السلطة الذي كان يتمتع به كل منهما.

مركز الأغالبة إذن كان أقوى عسكرياً وسياسياً.

ومع ذلك فإن الأدارسة كونوا دولة من عدم، والأغالبة كونوا إمارة مستقلة استقلالاً ذاتياً انطلاقاً من الولاية التي توسعت فأصبحت إمارة، ثم تحولت إلى دولة تابعة، مهما يكن الاستقلال الذي تتمتع به.

والأدارسة وحدوا المغرب، بعد أن كانت النزعة القبلية متمكنة منه. مثل ذلك فعله الأغالبة في تونس، ولكن على قدر ما يوجد عليه الفرق بين المغرب وإفريقية في التعقد الجغرافي والقبلـ واتساع الرقعة.

والدولتان معاً قامتا بتعريب المنطقة عن طريق الوفود العربية التي تساكنت وتصاهرت مع العناصر البربرية، وخاصة في مدينتي فاس والقيروان. وأصبحت كل من المدينتين مركزاً للعلم والثقافة الإسلامية، لما وفد عليهما من علماء، غير أن عروبة الأغالبة كانت أكثر وضوحاً. فهم عرب قامت دولتهم على عصبية عربية ينتمون إلى الخلافة العربية وكل أطر الدولة ورجالها من العرب الوافدين أو المقيمين من أيام الولاة والبربر الذين كانوا يسكنونها أصبحوا مستعربين. والأدارسة عرب تبربروا باعتبار أم إدريس الثاني بربرية. ولكنه ظل عربياً بالنسب النبوي استند إلى البربر عند قيام الدولة، واعتمد عليهم خلفاؤه، سواء في الجيش أو في عصبية الدولة. ولكن الوفادة العربية من المشرق [بما فيهم العرب الوافدون على تونس وطرابلس] ومن الأندلس كلهم وجدوا ملجأهم في الدولة الإدريسية وقاموا بواجبهم الثقافي والعلمي، ومن ثمة التعريبي.

علاقة كل من الإمارتين بدولة الخلافة تختلف: الأدارسة كانت علاقتهم مقطوعة بالخلافتين: العباسية في المشرق والأموية في الأندلس. الأغالبة كانوا جزء من الخلافة تابعاً لها، وقد ترتب على ذلك أن الأغالبة كان لهم سند من المشروعية الخلافية [الإسلامية] وكانوا لذلك يأمنون شر كل ما هو شرق طرابلس، سواء كان هذا الشر من ولاة مصر، إلا حينما تغير الحكم في مصر إلى شبه استقلال. وكانت لهم إلى جانب ذلك دالة على الخلافة: فهم مصدر

عطاء بما يبعثون به إلى الخلافة من إتاوات أو ضرائب، وهم يحمون هذا الجزء من الامبراطورية، ولو كانت «الجزئية» تقتصر على الخطبة، في المنابر وتعيين بعض كبار الموظفين. أما الأدارسة فكانوا متحللين من كل هذه الالتزامات «الدولية» ومع ذلك فقد كانوا معرضين لما يتعرض له الأغالبة من تهديد ومن الأندلس بالأخص. بل كان التهديد يأتيهم أيضاً عن طريق الأغالبة التابعين للخلافة.

الأغالبة وجزر البحر الأبيض:

الأغالبة استطاعوا أن يقوموا بنفس الدور الذي قام به المغرب في عصر الولاة، ولا فضل للأدارسة فيه، وهو فتح أجزاء من الضفة الشمالية للبحر الأبيض فاستولوا على صقلية ومالطة وسرقوسة. وبذلك أعادوا فتح جبهة في وسط شمال البحر الأبيض ومجالاً للحضارة الإسلامية. وبقيت صقلية مركزاً لهذه الحضارة من يوم أعاد غزوها أسد بن الفرات سنة 212 هـ 827 م إلى أن غزاها النورمان سنة 461 هـ ـ 1069 م.

قام الأغالبة برد العدوان الذي كانت تعرفه تونس من الروم النورمان، وكانت صقلية مركز هذا العدوان. ولذلك قام زيادة الله بفتح صقلية. وهناك أسباب داخلية واستراتيجية واقتصادية في نفس الآن. وقد تكون الرغبة في الجهاد ونشر الإسلام من هذه الأسباب الواضحة. الأغالبة كونوا جيشاً من البربر والعرب المختلفي القبائل: التميمية واليمنية والقيسية، و اتخذ في جنده جماعة من الصقالبة وقد بنوا الدولة على أساس عسكري بجيش قوي وأسطول مهم. أثر في ذلك الموقع الجغرافي لتونس الممتدة شواطئها الطويلة على البحر، والمواجهة ـ بقرب ـ لعالم نصراني يتحرك ويهاجم تونس من حين لآخر. وأثر في ذلك التاريخ القرطاجي لتونس فقد كانت دولة بحرية حاربت في البحر الرومان [الحروب البونيقية] وامتد سلطانها على الشواطىء الجنوبية والشمالية للبحر الأبيض وتعرضت لهجومات الروم في مختلف العهود فكان

عليها أن تستعد للدفاع، وللهجوم أحياناً وفق أحسن وسيلة للدفاع. ومن الصعب الاحتفاظ بجيش قوي عدداً وعدة وبحرية قوية دون أن يقوم بعمل ما. والاستراتيجية الحديثة في التعامل مع الجيش كان لها قديماً حظ من اعتبار. ولذلك كانت الدولة تفكر في شغل الجيش حتى تحد من نشاطه وثوراته التي عاناها الأغالبة، وعادة ما يكون لغير صالح الدولة نظراً للعناصر المتصارعة القابلة للتمرد، والراغبة في الفيء والغنيمة. وكان الفتح أحد مجالات شغل الجيش وفتح آفاق الكسب أمامه، والتخلص من بعض أفراده. حتى بعض الأطر العليا كان يمكن إبعادهم إلى طريق الجهاد كما حدث مع أسد بن الفرات الذي استغرب أن يرحل مع الجيش فطمأنه الأمير بأنه يجمع بين وظيفتي القضاء والجهاد. يضاف إلى كل هذه الأسباب الغنائم الكبرى التي كان جهاد الروم يعد بها. وكانت صقلية غنية وملوكها أغنياء. وكان نساء الروم مترفات جميلات. والجهاد يفتح باب الغنيمة والسبي، وبنوا الأغلب في حاجة إليهما معاً ليواجها مطالب الخلافة بهما معاً: المال والنساء.

وفتح صقلية نقل جزء من الحضارة الإسلامية إلى هذه البلاد. وشارك الصقليون في ذلك واستمرت الحضارة في هذه الجزيرة قرنين كاملين حكم التاريخ والجغرافية بنهايتها كما حكما بعد ذلك بنهايتها في الأندلس.

ويعتبر فتح صقلية سبيلاً لغزو إيطاليا الذي حاوله الأغالبة فلم ينجحوا. بل أنهم هاجموا روما واحتلوها، لفترة ما، في عهد محمد بن إبراهيم بن الأغلب سنة 846 م. ولم يدم الاحتلال سوى شهرين، فقد كان انتقاماً لغارات الروم على شواطىء تونس ولتخريب مراكز للعدوان وسلب المدينة ونهبها على غرار ما كان الرومان يفعلون بشواطىء تونس.

الحضارة التي تمتعت بها تونس على عهد الأغالبة أكثر مما تمتع بها المغرب على عهد الأدارسة. يعود ذلك إلى الاستقرار النسبي الذي مكن لبعض الأمراء الأغالبة، وطول أمد حكمهم كزيادة الله، ومحمد الثاني [أبو الغرانيق]،

وكان عهد الأدارسة بعد توطيد أمر الدولة على يد إدريس الثاني، عهد خلافات واضطرابات، ولو أنهم ـ في خضم هذه الاضطرابات والخلافات ـ صانوا الدولة وحموها من غزو الأمويين في الشمال، والفاطميين الذين هددوها عدة مرات، والخوارج المدراريين في الجنوب والرستميين في الشرق.

وقد عرفت تونس ازدهاراً علمياً وحضارياً وصناعياً على عهد الأغالبة وأمها عدد كبير من رجال العلم من المشرق واستقروا فيها وساهموا في نشر المعرفة. ونبغ كثير من العلماء العرب والبربر في هذا العهد. ولم يعرف المغرب ازدهاراً بهذا المستوى على عهد الأدارسة لاستقرار الحكم في تونس، أكثر من المغرب، ولقربها من المشرق ولوفرة الغنى الذي أصابته بفتوحات صقلية وغيرها.

الدولتان معاً حافظتا على سنية المنطقة بمقاومتهم، للمذهب الخارجي، من جهة، وللدعوة الفاطمية الشيعية من جهة أخرى. احتفظوا بالمذهب المالكي، منذ انتقل إليهما، على يد الفقهاء الكبار الذين عرفتهم المنطقة، ومنهم الفقيه سحنون. وليس يهمنا الجانب المذهبي في الموضوع بقدر ما تهمنا حماية المنطقة من صراعات مذهبية إلى جانب الصراعات السياسية والقبلية. وما من شك في أن ذلك رجح المحافظة على الوحدة الوطنية على مر التاريخ. والفضل في ذلك، فيما يتعلق بالدولة الإدريسية، أن إدريس الأول ـ بالأخص ـ ومولاه راشداً. كانا من الحكمة بحيث حافظا على حب المغاربة للرجل لنسبه النبوي دون أن يشغلوا الشعب بالمذهبية الشيعية التي لم تكن قد اتضحت معالمها المذهبية بعد.

كانت الإمارتان تعيشان على كثير من الحذر. الأدارسة لم يحاولوا ـ لحكمة نافذة ـ أن ينالوا من الأغالبة ولو أن طموحهم امتد إلى غرب الجزائر [تلمسان]. ولكن الأغالبة نالوا من الأدارسة فكان مصرع راشد السند القوي للدولة بتدبير من إبراهيم بن الأغلب، وبأمر، أو إيحاء، من هارون الرشيد.

ولو استطاع أن ينال من إدريس نفسه لفعل.

الملاحظة الأساسية أن عهدي الولتين كرس تمزيق وحدة المغرب العربي. فقد كان المغرب في عهد الولاة موحداً نسبياً من حدود مصر حتى المحيط على الرغم مما كان في هذا العهد من فوضى وظلم، ولكن في عهد الأغالبة والأدارسة اتضح الانقسام والانفصام وأصبح في كل من المغرب وتونس دولة ترعى شؤون الدولة وتحدد نفوذها وتحمي هذه الحدود بجيش قوي. هنا نجد أن التاريخ لعب دوراً مهماً في انفصال القطرين أكثر مما لعبت الجغرافية. ذلك أن الوحدة إما أن تمر على يد دولة قوية كالخلافة، وهذا ما لم يكن ممكناً للأسباب التي شرحناها، وأما أن تمر على يد دولة من الإمارتين الكبيرتين الأغالبة والأدارسة، وهذا ما لم يكن ممكناً، لأن كلاً منهما كان قوياً بجيش يمتنع عن الآخر، ولأن كلاً منهما لم يكن من القوة بحيث يواجه الثورات الداخلية من جهة والاعتداءات الخارجية [دولتا الخوارج والفاطميين والروم الذين كانوا يهاجمون الشواطىء الجنوبية للبحر الأبيض]، وإذا كان الأغالبة مهددين بالروم من الشمال، فإن الأدارسة كانوا مهددين بالأمويين من الأندلس. ولذلك لا قبل لأي منهما لأن يحتل القطر الآخر ليحقق هذه الوحدة. واكتفى الأغالبة بطرابلس وبجزء من الجزائر، واكتفى الأدارسة بجزء من غرب الجزائر [حتى تلمسان] وسار كل قطر يؤسس ويكون ويهيىء الأرضية للمستقبل. ولم يكن ذلك سهلاً.

الأدارسة كانوا أكثر قرباً إلى الشعب من الأغالبة. وكان ارتباطهم بالقبائل أكثر. يعود ذلك إلى طبيعة نشأة الدولة. نشأت من نضال رجل شعبي فر من القمع والقتل. وما من شك في أنه تعرض لمحن كثيرة وأخطار كبرى تجاهلها التاريخ الصحيح. وحينما فكر في الحكم اعتمد على قبائل ذات جذور في التاريخ. ثم جاء ابنه من بعده ابناً لسيدة شعبية بربرية ذات سند قبلي. ورغم أنهم احتفوا بالعرب الوافدين واعتمدوا على كثير من الأطر منهم لتسيير الدولة ولنشر الثقافة والعلم، فقد ظل جوهر الدولة شعبياً بربرياً. وهذا سر من أسرار

ارتباط الدولة بالشعب وحب الناس لسلالة هذه العائلة. وزاد في التمكين لها في قلوب الناس أنها تنتمي للنبي. يضاف إلى ذلك أن كثيراً من أمرائها كانوا رجالاً طيبين مناضلين لم يعرف عنهم انحراف عن الدين ولا لهفة على المال ومتع الحياة ـ خاصة الجيل الأول منهم ـ كل هذه الصفات افتقدها الأغالبة. ورغم أن كثيراً من أمرائهم كانوا من أعاظم الحكام كإبراهيم بن الأغلب وزيادة الله، إلا أنهم كانوا يعتبرون أنفسهم بعيدين عن شعب تونس وطرابلس، مترفعين عن المواطنين لنسبهم العربي، ولأن الإمارة أتتهم دون نضال ولا كفاح.

كان الأغالبة يشعرون بالترفع. وذلك ما جعلهم بعيدين عن السكان رغم ما بذلوه من جهد في تطوير الإمارة وفي الانفتاح على الآفاق: غزو صقلية ومالطة وسرقوسة. هذا الترفع من الأسباب التي لم تترك لهم أثراً عائلياً في الوسط التونسي. على العكس من ذلك الأدارسة الذين تمكنوا شعبياً في المغرب.

كل من الدولتين قدم الكثير للبلاد التي ساد فيها. وكل منهما حمى جزء من العالم الإسلامي الذي لم تكن الخلافة قادرة على حمايته. ولو لم يكن الأدارسة والأغالبة لكان هذا الجزء الكبير من العالم الإسلامي مهدداً بالنورمان المتنمر. فإن الفتوح الإسلامية في الشرق وفي الغرب [الأندلس] كانت تبعث على التفجر ولم يكن من البلاد الإسلامية التي كان يمكن أن تنفجر فيها المسيحية في القرن الثالث والرابع الهجري إلا بلاد المغرب.

ثم لو لم يكن الأغالبة والأدارسة لتمكن الفاطميون، الذين كانوا يؤهلون أنفسهم لاسترجاع الإمامة من الخلافة والحكم من العباسيين، من شمال إفريقيا حتى البحر [الأحمر]. وربما كانت الأوضاع قد تغيرت إلى حد كبير حينما يصبح المذهب الشيعي يحاصر المذهب السني من الشرق والغرب: من خوزستان والأهوار والشام [حماه] ثم اليمن حتى المغرب الأقصى لو تمكن

منه الفاطميون. وربما لم تكن مصر الفاطمية. كان يمكن أن يكتفوا بالمغرب العربي، ولو أنه أكبر من مركز الخلافة الذي كانوا يشرئبون إليه وربما كان الصراع بين المروانيين في الأندلس والفاطميين على بلاد المغرب أشد ضراوة وأخطر على استقرار المنطقة.

التاريخ لا يتساءل عن مصير العالم الإسلامي لو لم يكن الأدارسة ـ ولم يتشبعوا ولا تبنوا اتجاه أبناء عمهم الحسينيين في المشرق ـ ولو لم يكن الأغالبة الذين ساروا ـ مذهبياً وسياسياً ـ في ركب الخلافة، فكانوا خصوماً للدعوة الشيعية، كما كانوا خصوماً للدعوة الخارجية. لو لم يكن الأدارسة والأغالبة لدارت المعركة بين الشيعة [الفاطميين] والخوارج، ولفصلت لصالح الشيعة قطعاً لقوتهم وتفتحهم وقدرتهم على جمع الأنصار وجرأتهم في نشر المذهب: ولو أن الخوارج لم يكونوا أقل منهم جرأة على نشر المذهب والاستماتة في سبيل الدفاع عنه لو تابعنا هذه الفرضية لانهزمت الخلافة لصالح الإمامة ولتحول مجرى التاريخ.

ولكن مسيرة التاريخ لا تقبل هذه الفرضيات.

الشيعة: الاتجاه والدولة.

الدور هذه المرة على الجزائر. وكانت القبيلة الغالبة بين سكانها هي قبيلة كتامة من أشهر القبائل وأقواها وأكثرها انتشاراً في مختلف أقاليم المغرب الكبير. ولكن جمهورهم سكنوا شرق الجزائر وفي جبال الأوراس وإلى الشمال منها حتى البحر. ومنها القبيلة المعروفة الآن في الريف بهذا الاسم (كتامة) [شمال المغرب].

ولعل الدور الذي لعبته قبيلة أورْبة في المغرب بالنسبة للأدارسة يقترب من الدور الذي لعبته كتامة في الجزائر بالنسبة للفاطميين أو العبيديين.

وكان هذا الدور مهما، هيأت له الظروف السياسية في المنطقة جواً صالحاً. ذلك أن كلاً من الأغالبة والأدارسة كانوا يقفون ـ كما أسلفنا ـ في حدود لا يتعدونها في شرق الجزائر بالنسبة للأغالبة، وفي غربها بالنسبة للأدارسة، حتى لا تصطدم القوتان، على أرض الجزائر، ولا يحدث الفراغ السياسي من جهة، والقوة القبلية [كتامة] من جهة أخرى.

وهذه القوة الثالثة هي الشيعة التي كانت تغمز قناة الأدارسة والأغالبة منتظرة فرصة الضعف الذي بدا على الأغالبة في آخر حكمهم. وبدا على الأدارسة منذ وفاة إدريس الثاني.

قدم الفاطميون نموذجاً من نماذج الحكم القادم من المشرق إلى المغرب. فنفس الأسباب التي فر من أجلها المغامرون الذين كونوا دولاً في المغرب هي التي دفعت الفاطميين الإسماعيليين إلى اللجوء إلى المغرب،

أقصى منطقة يصعب على نفوذ العباسيين أن يصل إليها، للقيام بالدعوة التي هي أساس الدولة.

وجعفر الصادق ـ من نسل علي بن أبي طالب ـ هو المرجع الذي يعود إليه الدعاة للشيعة الإسماعيلية. وهو إمام من أئمة آل البيت لم يطمح إلى خلافة أو سلطة أو ملك، وإنما قنع بالمركز العلمي الذي أدركه، وابتعد عن العمل السياسي. ولذلك هادن العباسيين فهادنوه ولم يتخوفوا منه كما تخوفوا من فرع الحسن بن علي، الذين دبر العباسيون مجزرة ضدهم لأنهم ثاروا على العباسيين وطالبوا بالخلافة لهم في عهد أبي جعفر المنصور، وهي المعركة التي قتل فيها محمد النفس الزكية قريباً من المدينة سنة 145 هـ وفي نفس السنة قتل أخوه إبراهيم الذي ثار بالبصرة واستولى عليها ثم انهزم في معركة بضواحيها.

ورغم أن جعفر الصادق (ت 148 هـ) لم يسع للملك ولا للسلطة، فإن المغامرين الذين كانوا يبحثون عن وسيلة للوصول إلى مناوءة العباسيين والوصول إلى السلطة كما ناوءهم آخرون في المشرق، بحثوا عن اسم وعائلة وعصبية ينتمون إليها، فلم يجدوا غير نسل جعفر الصادق، الذي كان العباسيون يهادنونه، فنسبوا دعوتهم إلى أحد أبنائه إسماعيل الذي ورث [الإمامة] ـ الدينية وليس السياسية ـ عن أبيه، رغم أن جعفر الصادق عين للإمامة ابنه الأصغر موسى الكاظم. (ت 183 هـ) وإذا كان الشيعة قد انقسموا إلى الإثنى عشرية الذين ظلوا محتفظين بموسى الكاظم، ونسله، إماماً، وإلى الإسماعيلية الذين تشبثوا بإسماعيل، ونسله، إماماً، فإن الذين استغلوا اسم إسماعيل هم الذين انتقلوا إلى المغرب لينشئوا لهم دعوة شيعية [فاطمية] في المغرب أولاً ثم في مصر ثانياً.

الأساس الحقيقي للدعوة الإسماعيلية الفاطمية هو السياسة، وتكوين دولة تقتسم مع العباسيين السلطة في العالم الإسلامي.

نحن إذن أمام نموذج آخر من دولة المذهب نجده هذه المرة في مذهب

آخر هو الشيعة. وقد قام به العبيديون الفاطميون.

والمذهب الشيعي غريب وجديد على المنطقة ـ شأنه في ذلك شأن الخوارج ـ رغم سنية هؤلاء أو قربهم إلى مذهب السنة وخاصة الصفرية والإباضية.

ـ قضاء الفاطميين على دولة الأغالبة:

أما الشيعة فإن فشلهم في إقامة دولة متمردة على العباسيين في المشرق دعا بهم إلى البحث عن مكان لهم بعيداً عن المنطقة التي كانوا يتعرضون فيها للقمع، شأنهم شأن الخوارج في الهروب بالمذهب. ويعود اتصال الشيعة بالمغرب إلى داعيين، هما: الحلواني وأبو سفيان اللذان نزلا بكتامة وبدأ دعوتهما. ويقول المؤرخون: إنهما وجدا قبولاً في المنطقة. ولم تنته مهمتهما بالموت حتى بعث الداعيةُ الأكبر للإسماعيلية في المشرق، وهو رستم بن الحسن بن فرج بن حوشب [وكان يقوم بمهمته في اليمن] أبا عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد [الشيعي] وأسند إليه مهمة الدعوة الشيعية في بلاد المغرب، فوصل إلى «أيكجان» من بلاد كتامة سنة 280 هـ ـ 893م. وقد تميزت الدعوة الشيعية بأسلوب خطير في الدعوة والإقناع والتظاهر بالصلاح. واستطاع هذا الداعية، بأسلوبه الذكي، أن يمكن للدعوة الشيعية في غفلة عن الأغالبة، الذين لم يصل إليهم خبر تأثيره الكبير في بلاد كتامة بالجزائر، ولم يدركوا خطره، حتى تمكن من نفسه وأصبح يهدد إبراهيم بن أحمد بن الأغلب.

كشف أبو عبد الله الشيعي عن هدفه بعد أن شعر بأن ابن الأغلب أخذ يعد العدة لطرده. وقد وقعت اضطرابات بين بني الأغلب وبين بعض القبائل التي كانت تناصر أبا عبد الله [كتامة]. وهذه الأحداث دفعته ليكشف عن وجهه ويهاجر إلى تازروت [قرية في بلاد القبائل] ومن هناك بدأ يهاجم الأغالبة. وكانت هذه الدولة ـ التي لم تعمر طويلاً ـ [109 سنة] في فترة النهاية في عهد زيادة الله الثالث. وذلك ما مكن لأبي عبد الله من مهاجمة جيوش

الأغالبة في شرقي الجزائر. ثم دخلت جيوشه إفريقية [تونس].

الدعوة الشيعية لم تمر بفترة هادئة في المغرب. فقد تغير أبو عبد الله الداعية المتسم بالصلاح بعد أن بدأ يحقق أهدافه وتجلى له النصر. وكان وحيداً بين أنصاره البربر، وهم الذين قاموا بالحرب وانتصروا في المعارك ضد الأغالبة، واقتحموا إفريقية. ولكنه تنكر لهم واشتعلت حروب طويلة بين الداعية وقبائل كتامة لقسوته وميوله الدموية. ولكنه كان ينتصر عليهم لقدرته على قيادة الجيوش وتمكنه من مناطق شاسعة [الزاب ـ شرق الجزائر ـ ومناطق غرب تونس التي استولى عليها] واستطاع أن يكون جيشاً قوياً بالأموال الكثيرة التي يجمعها عن طريق السلب والنهب والإغارة على المناطق الخصبة.

رغم كل ذلك فقد حاربه الأغالبة في تونس وانتصروا عليه سنة 282 فتراجع إلى تازرت. ثم انتهز فرصة الصراع الذي قام بين الأمراء الأغالبة فانتصر على الدولة الأغلبية نهائياً سنة 296 هـ ـ 909 م.

وأعلن عن الدولة الفاطمية باسم عبيد الله المهدي.

قامت هذه الدولة ـ إلى جانب المذهب المتطرف والقائمون بأمرها الذين يتمتعون بشذوذ فكري ـ غريب ـ قائم على العنف، وانعدام البعد الأخلاقي في التعامل مع الذين ناصروه، وكونوا دولته بتضحياتهم. وحارب قبيلة كتامة التي آوته وناصرته، ومنحته الدولة بعد التغلب على الأغالبة، وكان يقتل أنصاره بعد أن يستفيد من نفوذهم ويصل إلى مصالحه بجهودهم. وإلى جانب البطش والقمع والقتل كان يستميل بعض زعماء أفخاد القبائل ويغريهم بالمال فينضموا إليه ويؤثرون على أتباعهم ليستعيد نفوذه. وبذلك استسلمت كتامة له بمعظم بطونها، رغم نقمتها.

بهذا الأسلوب الذي يراوح بين العنف والسياسة جند كتامة ضد الأغالبة.
وقد بذل أبو العباس بن إبراهيم بن أحمد الأغلب جهوداً عسكرية كبيرة بقيادة ابنه محمد [الأحول] قصد أبا عبد الله الداعي، وأنزل به هزائم استعاد فيها

الزاب واحتل سطيف. ولكن الحرب السجال دفعت بالأحول إلى أخطاء عسكرية فانهزم مرة أخرى أمام الداعي.

كانت هذه الحرب المتراوحة بين الهزيمة والنصر [دارت الحروب هذه في سنوات 289 هـ و 291 هـ] باعثة على تصاعد الأحقاد والخلافات بين بني الأغلب. قُتِل فيها أبو العبَاس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب بيد ابنه زيادة الله الثالث. وقتل زيادة الله هذا أخاه القائد الكبير الأحول وحينما تأكد من هزيمته فر إلى مصر تاركاً البلاد للعبيديين سنة 296 هـ ـ 909 م. وهذه المجازر الداخلية فتحت الطريق أمام أبي عبد الله الداعي.

بداية الدولة الفاطمية:

باسم عبيد الله المهدي قامت الدعوة إلى الفاطميين. وكان هذا الداعية الكبير مقيماً في الشام مختفياً عن السلطة العباسية، ولكنه كان ينشر دعوته حراً، ويستخدم المال الكثير الذي جمعه لإسكات الولاة والتستر عليه. فلما انتصر أبو عبد الله الداعي على الأغالبة في تونس استدعاه بعد أن انتقل إلى سجلماسة ليمهد له الجو هناك. وخرج عبيد الله المهدي من الشام إلى مصر ثم إلى سجلماسة متجنباً الطريق التي يمكن أن يصطاده فيها العباسيون.

لم يكن الأمر سهلاً في سجلماسة، فبنو مدرار ما يزالون يلون أمر هذه الدويلة. وقد حاول عبيد الله أن يدخل أراضي الدولة السجلماسية تحت امرته فاعتقل هو وابنه أبو القاسم. وهنا يلعب أبو عبد الله الداعي دوره مرة أخرى فخرج من القيروان بجيوشه لينقذ عبيد الله المهدي وابنه، وعاد بهما إلى القيروان ليلي عبيد الله المهدي الخلافة الفاطمية الشيعية سنة 297 هـ ـ 910م.

باستلاء عبيد الله المهدي على السلطة في تونس لمدة 25 سنة [297 ـ 322 هـ] تنشأ دولة جديدة مذهبية في بلاد المغرب. وإذا كان المذهب الشيعي الإسماعيلي هو الأساس فإن السلطة التي استولى عليها هذا الرجل بالحيلة

والغدر والقمع والعنف، تخلت في تعاملها مع مركز السلطة عن المذهب لتهتم بالدولة.

ولكن الشعار الشيعي ظل مستعملاً كسبيل للسيطرة من جهة، ولمعارضة العباسيين باسم نسل فاطمة بنت النبي، ثم معارضة كل الدول التي نشأت في المغرب، سواء على أساس مذهبي خارجي أو على أساس سني [غير مذهبي]. وقد أدرك عبيد الله المهدي من أول يوم أن إفريقية [تونس] سنية لن تقبل مذهباً جديداً ولا دولة. ولذلك كانت الدولة بشعارها الشيعي غريبة عن المجتمع المغربي.

لكل ذلك لم يثق عبد الله المهدي في المواطنيين، ولم يستعن بهم إلا في الحرب [سنة اتبعها الغزاة من القرطاجيين حتى الفرنسيين والإسبان في العصر الحاضر] واستعان في تسيير دولته بالوافدين عليه من الشام. ولجأ إلى الأسلوب نفسه الذي اتبعه أبو عبد الله الداعي: القمع والبطش وضرب القبائل بعضها ببعض، فقرب الصنهاجيين ليضرب الكتاميين ثم تقرب إلى الزناتيين ليضرب الصنهاجيين. وبذلك أغرق المغرب كله في بحر من الدماء والحروب. وقتل آلاف الناس وأذل القبائل. وكان في مقدمة ما قام به، بعد أن تمكن واستند إلى نفر من الذين وثقوا في انحداره من النبي وعزمه على إقامة السلطة الإسلامية، القضاءَ على أبي عبد الله الداعي وأخيه، وهما اللذان قاما بالدعوة وأسسا الدولة، وأنهيا دولة الأغالبة. وحاول إلى جانب ذلك أن يفرض المذهب على العلماء. وكان ذلك من أسباب ضعف الدولة. ولو أن عبيد الله كان قادراً على تنظيم الدولة وإقرار السلطة.

قضية المغرب الأساسية هي العقيدة. فقد كان المغاربة من ليبيا شرقاً حتى المغرب غرباً أهل سنة، في العقيدة، ومالكية في العبادات. وكل محاولة من أي حاكم لتغيير هذا الاتجاه كانت تلقى من العلماء والفقهاء معارضة قوية. والفاطميون، ابتداءً من عبيد الله المهدي، اصطدموا بهذه الحقيقة ولذلك كانت

محاولة فرض المذهب الشيعي على الشعب ابتداءً من الفقهاء سبباً أساسياً في ضعف الدولة.

شعر عبيد الله بأن سياسته العدوانية أضعفت الدولة وعرضتها للانتقاض. ولذلك بنى «المهدية» في تونس واعتصم بها، ومنها كانت جيوشه ترد الثائرين والمتمردين.

وقد استمر يحارب القبائل الثائرة، يستعين بإحداها ويحالفها على الأخرى ثم يحالف ثالثة على الثانية، ولم تبق قبيلة مهمة في المغرب، كالقبائل الزناتية [مغراوة وبنو يفرن ومكناسة] إلا حالفها ليحارب الأخرى وحاربها ليحالف الأخرى. في سبيل الأرض أو السلطة أو الثأر من هزيمة أو هزائم متبادلة وسيلته في ذلك المال وشراء الذمم.

دامت سلطة الفاطميين في المغرب نحو 65 سنة تولى فيها الأمر عبيد الله المهدي [910 ـ 934 م] وابنه أبو القاسم [القائم] [934 ـ 944م] ثم إسماعيل المنصور ابن القائم [944 ـ 953 م] ثم المعز لدين الله [953 ـ 975 م] وهو الذي نقل الدولة إلى مصر بمساعدة جوهر الصقلي ولم يحكم في مصر إلا ثلاث سنوات.

اتسمت هذه المدة بكثير من العنف والقمع وسلسلة من الحروب بين القبائل وبين الدولة والقبائل المتعددة.

وامتازت بثورات خطيرة كانت أبرزها ثورة أبي يزيد اليفرني ومن انضم إليه من القبائل الساخطة على حكم الفاطميين.

وامتازت بالقضاء على معظم الدول الإسلامية التي نشأت في المغرب الإسلامي من الأغالبة في تونس حتى الأدارسة في المغرب الأقصى وبني رستم في تاهرت شرق الجزائر وبني مدرار في سجلماسة.

وامتازت الدولة بالسلب والنهب وجمع الأموال التي استخدموها في

تزويد رؤساء القبائل بالمال والسلاح وتشجيعهم على الحرب ضد خصومهم.

وامتازت بشيء مهم هو خروج قواتهم المغربية لغزو جنوب أوروبا فغزوا صقلية ـ بعد الأغالبة ـ وسردينية ثم هاجموا جنوة جنوب إيطاليا. ثم هاجموا غرب الأندلس. ولكن هجومهم على الجزر والأندلس لم يكن يقصد منه نشر المذهب الإسماعيلي الذي اختفى في هذه الحروب الضارية بقدر ما كان يقصد منه السلب والنهب وجمع الأموال، مع أنهم أقاموا السلطة في صقلية وحكم ولاة باسمهم في ظل النزاع بين الصقليين المسلمين وبين الجند القادم من شمال إفريقيا. ورغم أن نهاية هذا الصراع كانت لصالح المسلمين بعد أن يئس الروم من الاستيلاء على صقلية، فإن الفاطميين حكموا هذه البلاد بين مد وجزر، كانت السنوات الأولى من حكم ولاتهم سيئة، ومرت بسنوات حكم جيدة، وخاصة على عهد أبي القاسم علي [970 ـ 981 م] وأبي الفتوح يوسف بن عبد الله [989 ـ 998 م].

ولكن الفاطميين بعد أن استنزفوا سلطتهم وأموالهم في الحروب التي أشغلوا نيرانها في المغرب العربي نقلوا سلطانهم إلى مصر. وهو دور آخر من أدوار حياتهم لا يهم هذا الكتاب.

قراءة في العهد الفاطمي:

قراءة تاريخ هذه الفترة تفرز عدة ملاحظات، تتفق في بعض مظاهرها مع الملاحظات التي أفرزتها قراءة تاريخ الدول الناشئة والتي جاء دعاتها من المشرق، سواء قامت على أساس مذهبي أو على أساس غير مذهبي، وتختلف في كثير من مظاهرها:

أولى هذه الملاحظات أن طموح الفاطميين كان أكبر من طموح الدول الأخرى التي اكتفت كل منها بإقليم خاص من المغرب الكبير. إدريس كون دولة صغيرة في هذا القطر من المغرب. والأغالبة الذين كان مدى سلطتهم

أوسع من سلطة الأدارسة كونوا دولتهم في إفريقيا وطرابلس وجزء من المغرب الأوسط [الجزائر]. ودول الخوارج اكتفت كل منها بإقليم صغير لأسباب مذهبية.

الأغالبة: اقتصر ملكهم على تونس وطرابلس من المغرب الأوسط. لذلك لم يكن للأغالبة طموح يوازي طموح الفاطميين.

أما الفاطميون فقد امتد سلطانهم في بعض فترات تاريخهم المغربي من تونس حتى المغرب الأقصى حتى سجلماسة جنوباً وشمالاً حتى صقلية وجنوة. لم يتركوا منطقة من هذه المناطق إلا حاربوا فيها واستنزفوا دماء أبنائها وأموال قبائلها. وقضوا على كل دولة أو مذهب أو دعوة قامت فيها. ولم يتركوا قبيلة من القبائل الكبرى إلا حاربوها طمعاً في القضاء على النفوذ القبلي لحساب النفوذ «المذهبي» أو على الأصح نفوذ الدولة التي أنشأوها لتكون بديلاً ووريثاً للدولة العباسية.

ثانية الملاحظات: [وقد يتفق الفاطميون في هذه الملاحظة مع الدول الوافدة من المشرق] أن الدعاة جاءوا وحدهم. والشعب المغربي ممثلاً في القبائل على الأخص هو الذي قامت على أكتافه الدولة. أبو عبد الله الداعي جاء وحده، وقد سبقه داعيان، هما أبو سفيان والحلواني، ومهدا الطريق لدعوته في قبيلة كتامة [في الجزائر] وبعد أن نفذت دعوته في هذه القبيلة أخذ يزوغ عن هذه القبيلة الكبرى فحاربته لسيطرته وبطشه، ولذلك اتجه إلى القبائل الأخرى صنهاجة وزناتة وغيرهما من فروع القبائل. الدولة قامت على جهود هذه القبائل، فهي التي حاربت ومكنت للعبيديين ملكهم رغم أن عبد الله الداعي وعبيد الله المهدي والذين خلفوه لم يعترفوا بفضل أي من هذه القبائل، بل حاربوا أبرزها في إقامة الدولة وهي كتامة، وضربوا بعض هذه القبائل ببعض.

ثالثة الملاحظات: أن الدعوة الفاطمية كان لها تأثير في البداية على

بعض القبائل لاستخدامها اسم النبي وأحفاده من فاطمة وعلي، ولذلك قامت على عاتق قبائل كبرى. ثم إنها استغلت الصراع القبلي بين كتامة وصنهاجة وزناتة وهي جميعاً من القبائل الكبرى. ثم استغلت النقمة ضد الأغالبة الذين كانوا يستغلون البربر والعرب لصالح الدولة التي تعتبر شرقية لا مغربية في كيانها وإدارتها وانتمائها للعباسيين. فكانت معاملتها للمواطنين معاملة سيئة، ولذلك كانت الرغبة في التغيير دافعاً للكتاميين مثلاً أن يناصروا الدعوة الفاطمية. وقد انقلبت هذه القبائل على الفاطميين حينما اكتشفت حقيقة الدعاة وبعدهم عن الدين وحبهم للمال ورغبتهم في البطش والقمع والعدوان.

ولعل العلاقة بين القبائل الكبرى وفروعها من جهة، وبين كل الدول التي نشأت عن دعوة عقدية أو فراراً من بطش العباسيين كانت من هذا النوع. يكسبون ثقة القبائل فتنصرهم وتقيم أسس الدولة، وتحارب في سبيلها وسرعان ما يتغير الوضع بينها وبين الدولة حينما يتبين لها أنها كانت مخدوعة في أمر الدعوة، وفي إخلاص الدولة، نستثني من ذلك الدولة الإدريسية التي نشأت وترعرعت في ظل قبيلتين مهمتين هما أوروبة وغمارة.

ورغم أن إدريس الثاني سار على منهج الزعماء القادمين من المشرق مع أنه مغربي المولد، فاستعان في إدارة الدولة بالعرب الوافدين عليه من المشرق والقيروان، وولاهم أمر الدولة، فإن ثقة البربر به لم تهتز. حاربوا معه لنشر الإسلام في الأطلس، وامتدت دولته حتى تلمسان، وقاوموا البرغواطيين في شمال المغرب والقبائل الخارجية في الجزائر.

لماذا لم يتشيع المغرب؟

الملاحظة الرابعة نلخصها في السؤال الآتي:

ـ لماذا لم يتشيع المغرب وظل على سنيته رغم النفوذ الذي أحرز عليه الفاطميون في بعض فترات تاريخهم من سجلماسة حتى شمال المغرب، ومن المغرب حتى تونس؟

يرتبط هذا السؤال بسؤال أكبر:

ـ لماذا لم يتحول المغرب إلى دولة خارجية كبرى رغم تكوين دول خارجية: صفرية في سجلماسة وإباضية في تاهرت. ورغم الصراع الذي قام به الخوارج ضد ولاة الدولة الأموية أولاً وولاة الدولة العباسية ثانياً؟

لقد قام المذهبان معاً على عاتق البربر. فالذين ناصروا الخوارج وقاموا بالثورات الخارجية معظمهم من زعماء البربر: البتر والبرانس. ويذكر المؤرخون منهم ميسرة من مطغرة، وخالد بن حميد الزناتي من زناتة، وعكاشة بن أيوب من نفزاوة، وعبد الواحد الهواري من هوارة وغيرهم كثير، وكلهم من زعماء الصفرية. وعبد الله بن مسعود التجيبي والحارث وعبد الجبار وأبو حاتم الملزوزي وهم من هوارة، وإسماعيل بن زياد من نفوسة وكلهم من زعماء الإباضية.

ومع ذلك لم ينتشر المذهب الخارجي في المغرب. لماذا؟

ثم لماذا لم ينتشر المذهب الشيعي الإسماعيلي في المغرب؟ ولم يبق له أثر بعد رحيل الفاطميين؟

قد يختلف الخوارج عن الشيعة الإسماعيلية في بعض الظواهر ويتفقان في بعضها:

كلهم فروا من القمع. حاولوا تأسيس الدولة ولم يكتفوا بنشر المذهب والتبشير بالرأي. كلهم استعملوا العنف والقمع، كلهم استغلوا البربر للتبشير بالمذهب والتأثير به. كلهم استغلوا البربر واعتمدوا عليهم في إقامة الدولة وفي الحروب التي شنوها لبناء الدولة ضد خصومهم. وما أكثر الخصوم الذين كانوا عند الخوارج، فالإباضيون كان الصفريون من خصومهم الأشداء، والفاطميون كانت جميع القبائل خصوماً لهم، كلما استمالوا إحداها حاربوا بها الأخرى. وكانت كل الدول والدويلات خصومهم من الأغالبة حتى الأدارسة والدول

الخارجية، ثم إنهم نقلوا الحرب إلى جنوب أوروبا: صقلية وسردينيا وجنوة والأندلس. أداة الحرب التي كانت بين أيديهم هي القبائل البربرية.

فهذه جميعها ظاهرات إتفاق بين الخوارج والفاطميين.

الفاطميون: من المذهبية إلى السلطة

ولكن الاختلاف كان واضحاً في مبلغ الإخلاص للمذهب. فالفاطميون مغامرون ضد الدولة في المشرق، وكان الأمويون والعباسيون لهم بالمرصاد، فالتجأوا، كما التجأ الخوارج وإدريس إلى المغرب، لأنه بعيد عن متناول الخلافة. وسلطات الولاة لم تكن من القدرة والتمكن بحيث تتبع الدعاة الذين كانوا يلجأون إلى رؤوس الجبال [تاهرت بالنسبة للخوارج] أو أعماق الصحراء [سجلماسة بالنسبة للخوارج والفاطميين معاً] غير أن الخوارج كانوا مخلصين للمذهب متشبثين به مناضلين في سبيله. والسلطة والدولة عندهم وسيلة لنصرة المذهب وانتشاره، سواء بالدعوة أو بالسلطة. والأمر يختلف بالنسبة للفاطميين. فالأصل عندهم هو السلطة والحكم. والدعوة الشيعية إنما هي وسيلة للوصول إلى السلطة، خاصة وهي تقترن باسم النبي وأحفاده. ويؤكد هذا الرأي عندي أن المؤرخين لم يتفقوا على أصل أبو عبد الله الداعي أو محتد: هل هو عربي أو فارسي أو من البصرة أو الكوفة أو صنعاء؟ واختلف المؤرخون ـ كعادتهم متأثرين بالرأي المسبق وخاصة ما يتعلق بالشخصيات ـ في اسم عبيد الله ونسبه. بعضهم (المؤرخون الشيعة على الأخص) ينسبه إلى جعفر الصادق. والسنيون ينكرون هذا النسب فيقول بعضهم إن أحد أجداده كان يهودياً. ومن المؤرخين من يقول أن عبد الله الداعي لم يكن يعرف شخصياً وإنما التجأ إلى رجل كان يربي القائم، الذي كان سيصبح ابنه ـ ادعاء ـ فيما بعد، وسلم عليه بالخلافة ونصبه تحت اسم المهدي المنتظر وبايعه بالخلافة. وهو يعرف أنه سيكون صورة فحسب وأن المسير الحقيقي للخلافة سيكون بعد عبد الله الداعي نفسه. ولكن الأمر اختلف فقد استطاع عبيد الله أن

يستولي على السلطة وينتهي به الأمر بتصفية أبي عبد الله الداعي وأنصاره.

هذا التشكك في اسم الرجل ونسبه وتاريخه لا يمكن أن يظل مستوراً. لا بد أن يتسرب إلى أهل السنة ممن لم ينخدعوا بدعاوي الرجل. ولا بد أن يزيد في إثارة الريبة في نفوس الذين رأوا سلوكه وتعطشه للدماء وللمال والسلطة، دون أن يقدم ما يغادل ذلك من تشبث بأصول الإسلام ومبادئه. هذا غير مهم. ولكن المهم أن الطرق التي اتبعها في الدعوة كانت طرقاً سياسية أكثر منها دينية، ولو أن الدعوات المذهبية ـ منذ الفتنة الكبرى ـ كانت تنهج نهجاً سياسياً أكثر منه دينياً. وكان كل من أبي عبد الله الداعي وعبيد الله المهدي يستغلان المظاهر الدينية في سلوكهما وحديثهما حتى استهووا قلوب الكتاميين الذين أقام الأول بينهم عندما قام بالدعوة للمغرب. ولكن سلوكه العنيف والدامي، بعد أن تمكن من الدعوة والأنصار، كان مما يثير الشك فيما يدعو إليه من مذهب. فقد أخذ يهاجم ويحارب في الشرق الأغالبة، وفي الغرب للاستيلاء على الزاب. وكشف عن وجهه في لا أخلاقيته واستغلاله للقبائل وجمعه للأموال.

وربما كان المهدي بن تومرت أكثر منه ذكاءً، فقد اصطنع هو الآخر الدعوة الدينية إلى درجة كان يتسرّ بها على الدعوة السياسية، كما سنرى. ولم يكن تواقاً لجمع المال، ولو أن دمويته لم تكن أقل. وابن تومرت نفسه ادعى النسب النبوي. مقارنات مهمة لا يغفل عنها التاريخ.

وسار على منواله من ادعوا لأنفسهم الخلافة: عبيد الله المهدي والقائم والمعز لدين الله. . .

من المؤكد أن الفاطميين نسوا المذهب الشيعي كمذهب وإن استمروا في الدعـوة إليه للوصول إلى أهدافهم السياسية. واستخدموا من الوسائل ما أبعدهم عن الدين وأخلاق الإسلام. ولذلك نفرت الجماهير القبلية منهم وحاربتهم.

الإنقلاب ضدهم:

إنقلب الجو السياسي ضدهم في فترة مبكرة من عهدهم. أي منذ بداية الدعوة على يد أبي عبد الله الداعي. واتخذ هذا الانقلاب سبيلين:

أولاهما: الثورات التي قامت ضدهم ـ بقطع النظر عن الحروب التي شنوها ضد الدول جميعها، والأغالبة في المقدمة ـ ومنها ثورة اليفرني، وقد كانت هذه الثورة التعبير العملي عن السخط الذي كانت القبائل البربرية تكنه للفاطميين في تونس والجزائر.

وثانيتهما: الفقهاء الذين لم يكونوا يرون في الدعوة الشيعية القائمة على العنف دعوة دينية، ولكنها دعوة مذهبية دموية تناقض المذهب المالكي المسالم الذي عرفه المغرب العربي. ولهؤلاء الفقهاء دور قوي في التمرد على الفاطميين، وآثروا في الشعب الذي أخذ يتمرد على الدعوة الفاطمية لهذا السبب المذهبي وللقمع والعنف والسيرة الدموية التي سلكوها مع المواطنين.

دور الفقهاء في هدم الدولة:

قام جدل كبير بين الدعاة الفاطميين والفقهاء السنيين، خاصة حينما أخذ الدعاة يفضلون علياً على باقي الصحابة. وفي القيروان كان يوجد عدد من الفقهاء الكبار الذين لم تنطل عليهم حيلة الدعوة، فجادلوا العبيديين وأنكروا دعوتهم ولم يثقوا بهم. وأدى ذلك إلى قتل الكثير منهم وتعذيب بعضهم وإهانتهم. وهذا ما جعل جماهير الفقهاء يواجهونهم، ولو بالتضحية بأرواحهم. وإلى جانب الفقهاء المفكرين وجد فقهاء على مستوى كبير أيضاً من الأنصار، كانوا يفتون بالمذهب الإسماعيلي ويأمرون الناس باتباعه.

والصراع العلمي والسياسي بين المذهب والفقهاء كان له أثران مهمان:

أولهما: التأثير على الجماهير ضد سلطة الفاطميين حتى إن الفقهاء لعبوا دوراً مهماً في فشل الدولة، بفضح أفكارها ومزاعم دعاتها. والتنكر لدمويتها

وشرهها في جمع الأموال وابتزازه واستغلاله في شراء الضمائر وضرب القبائل بعضها ببعض.

نلاحظ الآن أن الفقهاء في المغرب لم يستطيعوا مواجهة ابن تومرت ـ في عهد المرابطين كما سنرى ـ الذي كان يتبع نفس أساليب الفاطميين في الدعوة الدينية الأشعرية لأنه كان أقوى منهم.

ثانيهما: نشأة الصراع المذهبي في المغرب كفكر ديني مذهبي وليس سياسياً فحسب، فقد أصبح التشيع الإسماعيلي مذهب الدولة الذي تفرضه بالقوة، رغم أن السياسة والسيطرة والسلطة والمال كان هو الهدف. وللدعاية للمذهب وتأكيده علمياً وجد عدد من الفقهاء ـ والعصر عصر فقه ـ يؤيدون ويخدمون الدولة بالعلم. ضداً عليهم وجد عدد من الفقهاء ـ الأكثرية ـ من السنة الذين كانت ثقافتهم الفقهية وزعامتهم المالكية تدفع بهم إلى مقاومة المذهب الإسماعيلي بالعلم كذلك.

وهكذا وجد في المغرب ـ ولو على نطاق ضيق ـ ما يقابل ما عرف في المشرق من الصراع الفكري بين المذاهب الدينية التي نشأ عنها علم الكلام من الخلاف بين المعتزلة والسنة والمرجئة والخوارج والشيعة، بقطع النظر عن الخلافات بين المذاهب الفقهية: الأربعة وما تفرع عنها. ولو أن هذه لم تعرف صراعاً فكرياً حاداً، وبالتالي لم تعرف صراعاً سياسياً.

من حظ بلاد المغرب أن هذا الصراع المذهبي كان في حدود ضيقة بين الشيعة الإسماعيلية والسنة المالكية. وفي زمن محدود انتهى بنهاية دولة الفاطميين في المغرب ورحيلها إلى مصر. وأن الصراع المذهبي مع الخوارج لم يكن ذا بال، وفي حدود ضيقة كذلك. وأن الدولة الإدريسية لم تنقل معها التشيع. وكل ذلك حفظ على المغرب العربي وحدته الفكرية والعقدية، فلم تتطور فيه المذهبية كما تطورت في المشرق. ولم تنشأ عنها الخلافات العقدية، التي تحولت إلى طائفية لعبت دوراً خطيراً في التاريخ الفكري والسياسي على

السواء حتى العصر الحاضر، حيث استغلتها عوامل التخلف، ثم الحكم الأجنبي التركي أولاً، ثم الاستعماري ثانياً، لتتحول معه إلى عوامل تمزيق المجتمع وتفسخ كيانه الوحدوي كشعب موحد ذي أصول قومية وعقدية واحدة. ولعل له تأثيراً واضحاً في الصراع الحزبي والإيديولوجي في العصر الحديث.

الشيعة الإسماعيلية والخوارج لم يكن لهم تأثير مذهبي في بلاد المغرب.

يعود ذلك كما أشرنا إلى البيئة العلمية الفقهية التي وجدت في المغرب. ويعود قبل ذلك إلى طبيعة الإسماعيليين وسلوكهم المذهبي ويعود ذلك أيضاً إلى طبيعة الشعب المغربي المتميزة بالبساطة وعدم التعقيد في فهم القضايا الإسلامية. فهم يقبلون العقيدة كلما كانت بسيطة غير معقدة، ويبتعدون عنها كلما تميزت بالتعقيد النظري والفلسفي. ولعل هذه الطبيعة البسيطة صاحبت الفكر المغربي حتى العصر الحاضر (موضوع يحتاج إلى دراسة عميقة مقارنة لا يتحملها هذا الفصل). وهذا السلوك ناتج عن أسس شخصية ومذهبية وسياسية نوجزها في الملاحظات الآتية:

الأسباب الشخصية:

1 ـ إسماعيل، الذي ينتسب إليه المذهب، هو ابن جعفر الصادق الحسيني بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وجعفر الصادق كان رجلاً عالماً فقيهاً تقياً. وقد اعتبره شيعة علي إماماً لهم فاتخذ التقية، أي كان يخفي اتجاهه السياسي إتقاءً للبطش العباسي. ولكنه نقل ولاية العهد بالإمامة من ابنه الأكبر إسماعيل إلى موسى الكاظم. لأن سلوك إسماعيل لم يكن مما يرضي تقى والده. إسماعيل كان ذكياً تمرس في العمل السياسي السري وتكوين الدعاة. وما من شك في أن نقل ولاية العهد

بالإمامة إلى أخيه أثر في نفسه وجعل منه رجلاً طموحاً، وتنظيماته السرية كانت تأخذ أبعادها من نفس موتورة. وقد اختار أتباعه من الذين لهم القدرة على العمل السري والجرأة والقدرة على التنظيم. وتلك هي الصفات التي طبعت عمل إسماعيل والأئمة من بعده. ومن نسل إسماعيل عبيد الله المهدي الذي قام بالدعوة الفاطمية في بلاد المغرب كما قدمنا...

2 ـ العمل السياسي السري هو سبيلهم للوصول إلى الإمامة. ولكنهم تسلحوا كذلك بالعلم وبالفقه بصفة خاصة. وقد كان جعفر الصادق كما قلنا عالماً فقيهاً. وتوارثوا هذه الصفة من إسماعيل وأبنائه من بعده. ولذلك كانوا يعتمدون على الفقهاء لتأييد إمامتهم. المذهب كله يعتمد الفقه. يعتبرون علياً أولى بالخلافة عن النبي بنصوص يستدلون بها أغلبها موضوع. ثم إن الأئمة بعده هم أبناؤه من فاطمة (من هنا جاء اسم الفاطميين) ويضيف من سمي منهم بالإثني عشرية أن أبناء علي المؤهلين للخلافة يبدأون بالحسين ثم الحسن. ومن يتنسل من الحسين إلى أن يصلوا إلى محمد المهدي (المنتظر). ولكن فرقة الإسماعليين من الإمامية ينحرفون عند جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل وهو السابع ثم يتنازلون مع الأئمة المستورين الذين لم يجهروا بالإمامة واستتروا إلى أن يصلوا بهم إلى عبيد الله المهدي زعيم الفاطميين. والإمام له صلة روحية بالله كما أن للأنبياء والرسل صلة به. والإمام يسمع الكلام الموصى به ولا يرى ناقل الوحي. والإيمان بالإمام جزءٌ من الإيمان. ويفسرون بعض الآيات القرآنية بما يؤيد هذا الرأي، وما يساوي بين الأئمة والنبي، وما يجعل المؤمنين في القرآن هم الأئمة.

ويتصل بالإمامة كثير من الأحكام الفقهية، ككفر المدعي لها وهو من غير أهلها، وكالأحكام التي تتعلق بالإمام والإمامة والعصمة للإمام وحقه في التشريع والتنفيذ، والتوقف عن سؤاله عما يفعل، وقياس الخير والشر بعمله، وسلطاته المطلقة الروحية والعملية.

3 ـ كـان المذهب في حاجة إلى من يؤيده علمياً حتى يتخفى من السياسة والسلطة وراء الدين. وكان الفقهاء في مقدمة هؤلاء. ولذلك استقدم أبو عبد الله الداعي معه عدداً من الفقهاء، منهم علماء كبار، كدعاة للمذهب، كما جاء بعضهم في ركاب عبيد الله المهدي، واستطاعوا أن يؤثروا على بعض فقهاء القيروان ويستخدموهم في الدعوة إلى المذهب والإفتاء بتعاليمه. وفي مقدمة الفقهاء الذين ناصروهم بالفتوى والدعوة القاضي النعمان بن محمد، وأبو بكر التمودي، وممن أيدهم من فقهاء القيروان محمد بن عمر المروزي.

وكان هؤلاء وأمثالهم يساندون الفاطميين في كل ما يريدونه من انحراف عن الدين في مسألة إرث البنات مثلاً أو الزيادة في الأذان والدعاء المبالغ فيه للخليفة بعد الصلاة. وقد أنشأوا مدارس للتدريب على الفقه الشيعي التي عرفت بمدارس الحكمة.

ومن المعروف أن القيروان كانت تحفل بكبار الفقهاء الذين تخرجوا من المدرسة القيروانية، وكانوا مالكيين متعصبين للمالكية علماً ومذهباً. كما كانت لهم مكانة في المجتمع باعتبارهم حماة الدين ضد التيارات السياسية التي تعرض لها المغرب العربي، والتي كانت تستهدف القيروان بالذات باعتبارها مركز سياسة وثقافة، ولموقعها الاستراتيجي في وسط تونس وباب الصحراء. وحينما بدأ الفاطميون ينشرون مذهبهم، وخاصة ما انحرفوا فيه عن حقيقة الإسلام تعرض لهم الفقهاء المالكيون بالمناظرة والمعارضة. حاول الفاطميون عن طريق فقهائهم أن يؤصلوا المذهب بالتنظير إلى جانب العمل السياسي، فانبرى لهم الفقهاء المالكيون ـ وكان من هؤلاء أبو عثمان سعيد الحداد وإبراهيم الضبي وأبو بكر بن هذيل.

هؤلاء الفقهاء تنكروا للمذهب الإسماعيلي، سواء في الإصول كالإمامة وما يتعلق بها مما يخالف الإسلام الصحيح، أو في الفروع كالزيادة في الأذان،

وكجمع الأموال بغير حق، وفرضها باسم الزكاة والزيادة في حقها، واعتبار المال جميعه ملكاً للإمام يمكنه أن يصادره من المتصرف فيه متى أراد، وسلب أموال الناس على أساس هذه القاعدة «الفقهية». ومن الأصول اعتماد الشيعة على ما رواه الشيعة من أحاديث، وما ارتأوه من أصول الإسلام، ورفضهم كل ما رواه غير الشيعة من أحاديث وما رأوه من آراء وأحكام. ثم تفسير القرآن والأحاديث بتأويل شيعي لا يقبلون غيره، ولو كان ظاهر النص يؤكد ذلك. وبذلك خالفوا جوهرياً التشريع السني في قضايا أساسية ومن ذلك أنهم تعصبوا للنص. فما ورد في القرآن والحديث المروي برواية الشيعة فهو الإسلام، وما ارتأى العلماء المجتهدون عن طريق القياس أو الإجماع فهو غير إسلام، إلا ما يراه الأئمة المعصومون.

ومن قضايا الفروع أخذهم بزواج المتعة، ولو بتعاقد شخصي لا شهود فيه. ويفترق المتعاقدان ولو بدون طلاق. ولا يشترط الزواج بأربع. بل زواج المتعة يحل للرجل ما يشاء من الزوجات. ثم إنهم حرموا الزواج من الكتابيات. ولهم آراء في تقسيم الإرث لا تتفق مع ما ذهب إليه فقهاء السنة. ويقولون بأن الأنبياء يورثون. على خلاف رأي أهل السنة. وهو خلاف نظري غير خطير لا تترتب عليه مشاكل عملية بعد أن انتهت النبوة. يضاف إلى ذلك الزيادة في صيغة الآذان للصلاة. وقد قاومهم الفقهاء المالكيون في كل ذلك إلى حد التضحية بأنفسهم فتعرضوا للتعذيب والقتل على يد الحكام العبيديين. وذلك ما زاد من العداوة للفاطميين ومذهبهم بين عموم المواطنين. مما أدى إلى الثورات المتعاقبة ضدهم كثورة اليفرني على رأس قبيلة زناتة. وكانت هذه الثورة، التي استولت على مناطق شاسعة من تونس والجزائر، من الأسباب الرئيسية في انهيار دولة الفاطميين كما قدمنا.

الانحراف وأثره في فشل المذهب:

4 ـ ومن الواضح أن مواجهة الفقهاء للانحراف الفاطمي كان له أثر كبير جداً في التاريخ المغربي عموماً. فقد أعطت للفقه والفقهاء شرعية مراقبة الدولة والمحافظة على الأصول الإسلامية فيها، كما دفعت بحكام بلاد المغرب ـ فيما بعد ـ إلى الاعتماد على الفقهاء في رعاية الدولة وتصحيح مفاهيم الحكم.

وتجلى هذا بالذات في عهد المرابطين كما سنرى، ثم في عهد الموحدين، وإن اختلفت الرؤية. ونعتقد أن تأثير الفقه والفقهاء بدأ من عهد الفاطميين لمواجهة انحراف الدولة. وتغلغل الفقهاء بسبب ذلك في المجتمع لأنهم أصبحوا زعماء دينيين، وإلى حد ما سياسيين، واكتسبوا بذلك صفة الزعامة في الشعب، واحترام الدولة لهم لمركزهم العلمي من جهة، ولثقة الشعب من جهة ثانية، وللمثل الذي ضربوه في مواجهة الفاطميين حتى كانوا من أسباب تفويض سلطانهم.

يتفق ذلك مع بساطة مفهوم الإسلام عند المرابطيين الصحراويين الذين كان الفقهاء يقنعونهم بتتبع الفروع، والتشبث بالظاهر من القرآن والسنة، والخوف من تسرب الانحراف عن الدين كلما أمعن المفكرون في قضايا الإسلام وفلسفة العقيدة.

ومن هنا كان الجمود طابع السياسة الشرعية عند المرابطين وبعض الموحدين، وإن اختلفت الرؤية بين علماء الأولين والتوحيديين الأصوليين من علماء الأخيرين.

لا يمكن أن ينسب ذلك لطبيعة الفكر المغربي، بمقدار ما ينسب للانحراف الذي عرفه الفكر الديني في التجربة الفاطمية. وتحسباً لعودة التجربة كان الفقهاء حذرين. فازداد نفوذهم في دولة إسلامية بسيطة صحراوية. تؤمن بأصول الجهاد الإسلامي، ومن أجله نشأت.

قد يكون للفقهاء دور سلبي في هذه المرحلة. ولكن كان لهم ولا شك دور إيجابي في صيانة الفكر الإسلامي الحقيقي الذي اعتمده المرابطون ونشأوا من أجله، وأدوا مهمتهم الإسلامية في توحيد البلاد وإعادة مكانة السلطة بها والقضاء على الزيغ فيها. وحماية الإسلام في الأندلس. وبناء مغرب الإمبراطورية كما سنرى.

ونستطيع أن نضيف إلى ذلك الطبيعة البربرية التي عرف بها المغاربة، وهي الاستقامة في الرأي ـ وخاصة كلما تعلق الأمر بالدين ـ فكل زيغ عن الأصول الأولى للدين ينبذونه، ولو أنهم يتعلقون ـ أشد ما يكون التعلق ـ بالدعاة الدينيين من فقهاء ثم رجال الطرق الصوفية أو المتصوفة كلما لاحظوا فيهم الاستقامة والصلاح. ولذلك كثر الأولياء حتى أصبح لكل مدينة أو قرية وليها الأكبر الذي احتفظ سكانها بمقامه الكبير قرونا وقرونا.

بساطة حياة المغاربة وسلامة الفكر من كل تعقيد:

يعود ذلك أيضاً إلى بساطة الحياة البربرية وعدم تعقدها. البربري، مثل العربي في عهوده الأولى، كان يعيش على البساطة، يسكن الخيمة، ويتميز عن العربي بأنه يرتاد الجبل كملجأ من كل عدوان بشري أو حيواني. لم يكن ممن يرتاد البحار مثلاً. البحر يعلم البحارين من الحيل واستغلال الذكاء ما لا يتعلمه البدوي والجبلي والريفي. ثم إن صلات هؤلاء جميعهم بالناس تعتمد على الصدق والبساطة في التعامل. والإسلام كان في بساطته يضمن هذه الصفات فيما يخاطب به المؤمنين وما يأمرهم به وما ينهاهم عنه. وحينما تأتي دعوة معقدة بالدعوة الخارجية أو الإسماعيلية [الشيعية] قد يصدقها المغربي في البداية، ولكنه سرعان ما يكشف بعدها عن بساطة الإسلام التي عرفها.

الأمر قد يختلف في دعوة الموحدين التي كانت على عهد المهدي للتي كانت خليطاً بين الأشعرية والمعتزلية والإسماعيلية ولكن ذلك يعود إلى

شخصية المهدي وما يمكن أن نسميه شعوذته.

والمغربي كان فعلاً محارباً في سبيل الوطن والأرض ـ وهذا ما يؤكده تاريخه كما أسلفنا فيما مر بنا من هذا التاريخ. وكان فعلاً مقاتلاً لنصرة القبيلة. فالصراع القبلي لعب دوراً كبيراً في صياغة التاريخ، وكان محارباً ضد أي شيء يفرض عليه بالقوة، ولو كان اسمه الإسلام، ولكنه مع ذلك كان منطقياً مع نفسه حينما آمن بالإسلام السليم القائم على الدعوة والاقتناع. قائم على البساطة في الإيمان بالله، وفي أداء فروض الإسلام لا يمكن أن يغادر هذه المنطقة الواضحة الرؤية إلى فضاء يشعر فيه بالتيه الذي كان يقع فيه الخوارج والشيعة. المناصرة الأولى التي قام بها البربر لهؤلاء وأولئك كانت ـ إلى حد ما ـ مطبوعة بالطابع القبلي. وهذا هو نقطة الضعف التي استغلها كل من الخوارج والشيعة. ولكن حينما يتبين للمغربي أن وراء ذلك دعوة جديدة، يخاف أن تبعده عن الإسلام الصحيح، سرعان ما يفر منها وقد يحاربها كما حصل بالفعل في سلوكه مع الخوارج والشيعة.

والأمر لم يكن كذلك مع إدريس. فقد كان داعية للإسلام الصحيح. وكان حسنياً لا حسينياً. وأولاد الحسن لم تغرهم الانحرافات الشيعية ولا الدعوات المتطرفة، ولذلك لم يحاول الأدارسة تحويل المذهب في المغرب، ووجد فيه المغاربة رجلاً من أحفاد النبي ـ ليس غير ـ فآووه ونصروه وأمَّروه دون أن يجدوا في دعوته ما ينبىء بشيء خارج عن السليقة والبساطة التي عرفوا عليها الإسلام.

تعلقهم الشديد بالدين السليم ـ ولو دخلته الخرافة ـ دفعهم إلى التمرد على الخارجين عن الدين حينما يكتشف أمرهم باستغلال الدين في السياسة، أو في استعمال العنف والقمع، أو في جمع المال واستخدامه ـ أحياناً في الحروب وفي تشتيت القبائل وتدمير وحدتها.

فهذه بعض الأسباب التي جعلت الدعوة الشيعية تفشل في المغرب، خاصة

على يد الفاطميين الذين كان المذهب عندهم ـ كما قلنا ـ وسيلة للسلطة والمال.

ولذلك لا تناقض بين حب المغاربة لآل البيت وتشبثهم بهم، ابتداءً من الأدارسة والعائلات الحسنية والحسينية التي وفدت على المغرب حتى أصبح للشرفاء الحسنيين والحسينيين مكانة اجتماعية متميزة في الشعب المغربي، دون أن يعدو ذلك إلى تمكينهم من سلطة أو نفوذ إلا حينما تعلق الأمر بالشرفاء الأدارسة والسعديين والعلويين لأسباب سنتحدث عنها.

قراءة في البدايات والنهايات

بنهاية الفاطميين في المغرب ينتهي تقريباً عهد الدول والدويلات التي أتى منشؤوها من المشرق ليقيموا دولاً ذات بعد مشرقي في الفكر والسلوك والعمل، معتمدة على بعد جغرافي مغربي، وتكتل بشري (قبلي) مغربي، وعقلية جديدة وبسيطة في الإيمان بالإسلام والدفاع عنه. كان لهذا الامتزاج أثره في تثبيت دعائم الإسلام من جهة، وفي إدخال مفهوم الدولة ـ على غرار ما كان في المشرق. من جهة أخرى، وفي نشر اللغة العربية، والامتزاج العربي البربري من جهة ثالثة. وكلها عوامل إيجابية. وكانت له مظاهر سلبية منها محاولة تركيز المذهبية، ولم ينجحوا في ذلك، ولو أن سلبيته ظهرت في الصراع الدموي، وفي ضرب القبائل بعضها ببعض. ولكن من إيجابياته تركيز الدولة وبناء المدن أو إعمارها: فاس ـ المهدية ـ سجلماسة ـ تاهرت، ثم فتح صقلية وجزء من إيطاليا (جنوه) ومحاولة القيام في وسط أوروبا الجنوبية بما قام به العرب والمغاربة في جنوبها الغربي. فقرب تونس من صقلية يعيد إلى الذاكرة قرب طنجة من جبل طارق.

بعد الفاطميين نشأ عهد جديد بعقلية جديدة.

قبل توديع هذا العهد نستعيد قراءته من جديد بالملاحظات الآتية:

تصدير الاضطراب لبلاد المغرب:

لعل الفاطميين أغرب دولة عرفها العالم الإسلامي، سواء عن دورهم في المغرب أو في مصر. ولعلهم كانوا يبلورون كل الاضطرابات المذهبية

والسياسية والقبلية التي عرفها العالم الإسلامي منذ الفتنة الكبرى حتى توزع العالم الإسلامي بين الدول الصغرى بعد الهجوم الساحق للمغول.

وانطلاق الشيعة الإسماعليين، باسم الفاطميين في المغرب العربي، لم يكن إلا جزء من انسياح هذا الاضطراب المتعدد الاتجاهات. وقد اتجهوا أولاً إلى تونس، لأنها المنطقة الوسطى جغرافياً، ولأنها سياسياً مركز بعيد المنال عن الحكم العباسي. . ولأن الدولة الأغلبية فيها مثال الدولة التي يعتبر القضاء عليها فصلاً نهائياً للمغرب عن المشرق ونصراً جزئياً على العباسيين. فهذه الدولة كانت تدين للخلافة العباسية. ويعتبر القضاء عليها وتركيز الحكم الإسماعيلي، طريقاً لفتح بقية أقطار المغرب والمشرق.

«رسالة» القضاء على الدول:

أنهوا عهد الدولة الأغلبية بقيادة أبي عبد الله الشيعي كما قدمنا. واعتبروا ذلك صراعهم الأكبر، فقد كانت أعينهم على مصر، ومن مصر على مركز الخلافة بغداد. وتونس هي أقرب، وأهم مركز، إلى مصر. أثناء حملة أبي عبد الله على تونس مقر إمارة الأغالبة كان يحتل المناطق الجزائرية التابعة لسلطة الأغالبة فزحف على سطيف وإقليم قسطنطينة. وبتوغله في الجزائر سهل عليه الهجوم على تاهرت والقضاء على الدولة الرستمية إحدى الدولتين الخارجيتين المهمتين في بلاد المغرب.

كان قضاء الفاطميين على إمارة بني مدرار في سجلماسة أصعب من القضاء على الرستميين. ويبدو أن الرستمية كانت في النزع الأخير، بعد أن قضت في الحكم 131 سنة تقريباً، قاومت فيها الأدارسة والأغالبة، وصمدت لمؤامرات الخلافة وحمت المذهب الإباضي، وبنت تاهرت حيث بويع في مكانها عبد الرحمن بن رستم مؤسس الإمارة الإباضية (كانت تقيم فيه قبيلة لماية التي اعتنقت المذهب وناصرته) وسقوط الدولة على يد أبي عبد الله، وهو في طريقه إلى سجلماسة لإنقاذ عبيد الله المهدي من أسر المدراريين. يؤكد

هشاشة البنية التي كانت تقوم عليها الدولة الرستمية في آخر حياتها.

ويأتي بعد ذلك القضاء على الإمارة الخارجية الأخرى (بني مدرار) التي كانت أكثر مثانة وأبعد عهداً. فقد أنشئت هذه الإمارة سنة 140 هـ. 757 م. وكانت نهايتها سنة 352 أو 366 هـ. 963م وبذلك تكون قد قضت في السلطة 206 سنوات تمكنت فيها من السلطة، وبنت سلطتها على أسس سياسية ـ دينية واقتصادية واجتماعية. واختارت لإقامة هذه السلطة مدينة سجلماسة على غرار ما اختار الرستميون مدينة تاهرت. وإذا كانت تاهرت قد أنشئت على ارتفاع متوسط 1100 م في سفح جبل أكثر ارتفاعاً، فإن سجلماسة تقع في منطقة صحراوية على وادي زيز، وهو مصدر الحياة والخصب فيها، وتفصلها عن فاس شمالاً ومراكش غرباً نفس المسافة تقريباً أزيد قليلاً من 300 كلم. ولم يكن موقع هذه المدينة منعزلاً، بل إنه كان محاطاً بكثير من المناطق الصحراوية الخصبة (واحات وعلى أطراف أنهار) وقد ازدهرت فيها الحياة السياسية بنشاط إمارة المدراريين الصفرية.

إذا كانت الدولة المدرارية قد سارت في الحكم دون كبير عناء إلا المعاناة الداخلية، وإلا الحذر من الأدارسة ـ الذين هادنوهم حتى لا يثيروا عليهم المشاكل في الجنوب وفي الشرق ـ فإن تطلع الفاطميين إلى إنشاء دولة تغتصب الخلافة، وتبدأ من أطرافها، عَرَّض الإمارة المدرارية إلى الدمار على غرار ما عرض الإمارات الأخرى.

عهد بدأ غامضاً وانتهى غامضاً:

روايات المؤرخين لا تخلو من طابع روائي يكتنفه الغموض، مما يجعل بعض «الأخبار» مشكوكاً فيها. فأبو عبد الله الشيعي يتولى أمر القضاء على الأغالبة حتى إذا انتصر عليهم بعث إلى عبيد الله المهدي «بسلمية» (قرب حمص) يخبره بانتصاراته. ويضيف المؤرخون أنه لم يكن يعرف شخصه، ولكنه يستدعيه ليتسلم الإمارة. وينتقل عبيد الله متخفياً إلى مصر ثم إلى

القيروان ثم إلى سجلماسة ـ تاركاً أبا عبد الله والأرض التي انتصر فيها ـ وفي سجلماسة يتقرب إلى أميرها فيكرمه ويثق به. ثم يشك في أمره فيسجنه وولده. ويعلم بالأمر أبو عبد الله فينتقل إلى سجلماسة ـ وفي طريقه ينهي دولة الرستميين ويفك أسر أميره، الذي لم يكن يعرفه، ويستولي على المدينة مركز سلطة المدراريين، ثم يولي عليها والياً، وينتقل الزعيمان إلى القيروان. ويتابع عبيد الله المهدي بالخلافة. وتبدأ مسيرة الفاطميين في بلاد المغرب.

رغم الاضطراب والغرابة واللا منطق في هذه الروايات، فإن مما لا شك فيه أن العهد الفاطمي بدأ غامضاً وغريباً، واستمر كذلك، سواء في المغرب أو في مصر. ولذلك فإن الغموض الذي يكتنف الروايات التاريخية له صلة بسيرة هذه الفئة المغامرة من الإسماعيلية التي أنشأت دولة، وطمحت إلى الخلافة. ولعبت دوراً مهماً وخطيراً في المغرب ومصر، وفي السياسة الإسلامية في القرن العاشر الميلادي. دور سلوك لا يخلو من متناقضات عرف بها الفاطميون: أعمال رائعة ضخمة وأخرى سيئة دموية هسترية.

بدأت مرحلة القضاء على الأغالبة سنة 289 هـ ـ 901 م وسقطت دولة الأغالبة سنة 296 هـ ـ 909 م سبع سنوات من الحرب كانت كافية لإسقاط دول ثلاث: الأغالبة والرستميين والمدراريين. وبعد ذلك بسنة 297 هـ ـ 910 م سقطت القيروان وأعلن عن قيام الدولة الفاطمية ـ (خلافة لآل البيت) تحت قيادة عبد الله المهدي، ضمت تحت جناحها ليبيا (طرابلس وبرقة) وتونس وجزءً مهماً من الجزائر. وبدأ طموحها نحو الخلافة الكبرى، فاستقرت عيون خلفائها على مصر. وحققوا هدفهم هذا بقيادة جوهر الصقلي في عهد المعز لدين الله سنة 362 هـ ـ 973 م رابع أمير من أمرائهم.

أهداف الفاطميين في المغرب:

هذه الحرب الضروس التي شنها العبيديون على المغرب العربي كانت لها عدة أهداف حققوا بعضها، وأجلوا بعضها.

أما الأهداف المعجلة فيمكن تلخيصها في النقط الآتية:

1 ـ القضاء على الدول التي تقف عقبة في طريق هدفهم الأسمى، وهو الوصول إلى مركز الخلافة. كانوا يعرفون أنهم لن يستطيعوا قهر الخلافة في بغداد في مجابهة حاسمة بعد أن فشلت الدعوة الفاطمية في الشام، لأنهم ـ مذهبياً وعسكرياً ـ لا يمكن أن يكونوا في مستوى مواجهة الخلافة في مقر حكمها. ولأن الخلافة تحتمي بقوة أكبر ـ تنظيماً وتسيراً ـ وتستعين بالموالي من الفرس والعجم عموماً. ولوجود الخلافة في مركز له بعد جغرافي وعرقي وسياسي كان صعباً على الخلافة. فأحرى دعاة مذهب سلطوي: سياسي ـ ديني يبدأون من الصفر. ولذلك كانت الحكمة تقتضي البعد عن مركز الخلافة والانقضاض على الأطراف. إقتداءً بالأمويين ـ وفي الأطراف إمارات قوية ذات سلطة محكمة ـ ونفوذ على قبائل ذات وزن قبلي وسياسي وبشري وجغرافي. فكانت هذه الأطراف هي المغرب العربي.

2 ـ تكوين الدولة في مركز إستراتيجي يستجيب لطموحها المستقبلي، ويلبي الرغبة في السيطرة على المال والقوة والنفوذ. وقد حققوا ذلك بالاستيلاء على تونس (إفريقيا) بعاصمتيها: الرقادة والقيروان، وبالنفوذ الذي تملكه في المنطقة (طرابلس شرقاً وجزءً من الجزائر الشرقية) وبالأموال التي كانت تتحكم فيها. ولتدعيم نفوذهم ـ إتباعاً لسنة من سبقهم ـ بنوا لهم عاصمة عبيدية شيعية خالصة هي «المهدية». واختار عبيد الله المهدي مركزها على البحر لتكون ميناءً بحرياً يساعد على تحقيق هدفه الكبير، وهو بناء دولة بحرية. فالبحر سبيل سهلة نحو الشمال حيث بلاد الروم التي غزاها الأغالبة. والشرق حيث بلاد الشام مقر الدعوة الأولى، الذي طارده فيه الخليفة المكتفي العباسي. والغرب حيث طنجة وما وراء طنجة جنوباً من بلاد المغرب حتى سوس.

أكان يفكر، وهو يبني المهدية على البحر، في القرطاجيين؟ التاريخ كان

ينقل نفسه ـ ربما دون رواة ـ ليفعل فعله التأثيري في عقول المغامرين. حتى إن عبيد الله ربما كان يسأل نفسه: ألست حَنِبَعل العصر؟

وقد حقق العبيديون بعض أهدافهم التوسعية في الشمال فافتتحوا (في عهد القائم بأمر الله ثاني خلفائهم في تونس) جنوة وكورسيكا. وولوا واليهم على صقلية التي فتحها الأغالبة، وحققوا هدفهم غرباً بأن قضوا على الدولة الإدريسية واستولوا على فاس، كما قضوا على سجلماسة (مقر المدراريين) وتاهرت (مقر الرستميين). هكذا تحقق طموح عبيد الله فأصبحت دولته تسع ما بين برقة شرقاً حتى المحيط غرباً.

مصر طريقهم إلى بغداد:

3 ـ ولم يكن لطموحهم حد. فعيونهم على مركز الخلافة، والطريق منه وإليه هو مصر. وتحقق هذا الطموح على يد المعز لدين الله رابع خلفائهم، وبقيادة جوهر الذي استولى على المغرب، وحقق الجزء الأكبر من الإمبراطورية العبيدية. ولولا تمكنهم من «إفريقية» وإقامة مركز دولتهم هناك لما استطاعوا الوصول إلى مصر، ولما كانت القاهرة. ولكن هزائمهم المتوالية بعد ذلك في بلاد المغرب جعلتهم يختصرون طريقهم إلى الشرق والإنتقال إلى مصر بعد أن استنزفوا المغرب.

استغلال المذهب للوصول إلى السلطة:

4 ـ إيمان العبيديين بالمذهب لا يقوي قوة إيمانهم بالسلطة، والوصول إليها بكل سبيل. ومع ذلك فالمذهب الشيعي الإسماعيلي هو سبب وجودهم، وهو حجتهم في دعوتهم، وهو أسلوبهم الغريب في الوصول إلى السلطة عن طريق الآخرين، ابتداءً من قبيلة كتامة العظيمة، إلى الاستيلاء على معظم القبائل البربرية، وقد أتقن الخوارج والشيعة في الحضارة الفكرية الإسلامية، أسلوب استخدام المذهب في الاستيلاء على الجماهير، وكما (نعته) المهدي بن تومرت وكما لم يتقنه دعاة المذاهب المتطرفة في القرن العشرين.

كان الإسلام قدوتهم. ولكن الوصول إلى السلطة عن طريق الإسلام استنفذ منذ الفتنة الكبرى، وخاصة منذ معاوية بن أبي سفيان الذي حول الخلافة إلى ملك عضود، أي إلى سلطة دنيوية لا صلة لها بالسلطة الدينية، إلا من حيث استغلال الدين وسيلة لتزكية السلطة والسيطرة على المؤمنين به.

العبيديون كانوا أكثر مغالاة في استغلال المذهب، وكان من الطبيعي أن ينشروا المذهب حيثما وصلت سلطتهم، ولكنهم اصطدموا بالمذهب السني الذي كان أكثر بساطة وأقرب إلى المنطق الإسلامي المتحرر فكرياً من تأليه الأشخاص، والإيمان بالأساطير الغيبية. وقد حاول أبو عبد الله الداعي نشر المذهب فاصطدم بالشعب السني وفقهائه، ثم حاول عبيد الله المهدي، واستعمل القوة وأنشأ «ديوان التحقيق» أو ما يشبهه، وعذب المعاندين من الفقهاء وقتلهم. ومقاومة الشعب ـ بقيادة أهل الرأي «الفقهاء» ـ كانت إحدى الظروف السيئة التي بدأت تدق ناقوس الخطر ضد العبيديين في إفريقية والمغرب جميعه.

ورغم أن المذهب تمكن من بعض القبائل ـ كتامة مثلاً ـ وعلى أساسه ناصرت العبيديين وأقامت دولتهم بكفاحها وتضحياتها، فإن القبائل في ذلك الزمان كانت تنساق وراء زعمائها. وإذا كان يفترض أن المذهب تمكن من قادة الكتاميين ـ وهذا ما نستبعده لأن الذي تمكن منهم في الغالب هو الرغبة في السلطة والارتكاز على عمود يوصلهم إلى ذلك ـ فإن بقية الشعب في قبيلة كتامة، وفي غيرها من سكان القبائل والحواضر في المغرب العربي كله، كان يرفض التشيع، ويرفض خرافات المهدي المنتظر. وكان الفقهاء في المقدمة. ومعروف أن مذهب مالك تمكن من المغرب العربي، وكان كبار علماء القيروان مالكيين تزعموا مقاومة المذهب الشيعي. ويكفي أن نعرف أن الإمام سحنون ـ أكبر فقهاء المالكية ـ ولد في القيروان وكتب كتابه المدونة الكبرى فيها، وتتلمذ على يديه مئات الطلبة من مختلف أنحاء المغرب العربي.

حرب الفقهاء ضد الإسماعيليين:

وثار الكثير من الشيوخ على عبيد الله المهدي بعد أن تكشف لهم عن حقيقته. ونتيجة للقمع الذي استشرى ضد أهل الرأي قامت حركات في الشارع بين الشعب، يتزعمه الفقهاء والزهاد والمتصوفون، وبين سلطة العبيديين ووجهت بالقمع، ولكنها لم تخمد، بل كانت من الأساليب التي دمرت دولة العبيديين في المغرب. والدولة لا بد أن تجد لها فقهاء ينشرون المذهب ويكتبون عنه فقهاً وأدباً. بل إن بعض الغلاة جعلوا من عبيد الله المهدي معصوماً، وبعضهم ألهه، ربما ليقضي على الدولة من الداخل، أو لمزيد من التقرب وتحقيق المصالح الخاصة.

مثل هذه الدعوات المذهبية تغرق في لجي السياسة والحكم. وإذا كانت الإسماعيلية قد فشلت شعبياً كمذهب، فإن العبيديين اتجهوا أكثر إلى استغلالها سياسياً لتدعيم الدولة الشيعية في إفريقيا والمغرب إنتظاراً للقفز إلى مركز الخلافة. وطريقه مصر.

ورغم هذا التحول ـ الذي عرفته كل الدول المذهبية حتى في العصر الحاضر ـ فإن ذلك لم يمنع من القضاء على الدولة، إنطلاقاً من القضاء على المذهب. وبذلك فشلت دولة المذهب، الشيء الذي لا تجد له مثيلاً في الدولة الإدريسية التي لم تقم على أساس مذهبي، رغم القرابة المباشرة من علي بن أبي طالب ومن فاطمة بنت الرسول. احتفظ الأدارسة بحب الشعب لهذه القرابة التي لم تتطور إلى ادعاء مذهبي، رغم التقلبات السياسية التي أثرت على استمرار الدولة. ولذلك احتفظ الأدارسة بالدولة نحو قرنين، بينما لم يحتفظ العبيديون بالدولة في المغرب إلا نحو 64 سنة، فكانت من أقل الدول المعاهدة عمراً في بلاد المغرب.

ذلك عن دور الفاطميين في القضاء على إمارات الأغالبة والرستميين والمدراريين، فماذا عن دورهم في زعزعة حكم الأدارسة في المغرب؟

الأدارسة يواجهون مصيرهم:

نهاية الأدارسة لم يكن عملية سهلة يمكن أن يقوم بها الفاطميون بنفس السهولة التي قاموا بها في القضاء على الإمارات الثلاث الأخرى. وإنما تضافر على الأدارسة عوامل أربع:

- الخلافات الداخلية بين الأمراء.

- محاولة الأمويين في الأندلس السيطرة على المغرب العربي جميعه بداية من أقرب قطر إليهم المغرب الأقصى.

- ثورة موسى بن أبي العافية المكناسي الذي استولى على مركز الحكم الإدريسي (فاس) وحكم المغرب جميعه ابتداءً من سنة 313 هـ.

- الحملة الفاطمية التي استغلت كل هذه الظروف وتآمر معهم موسى بن أبي العافية للقضاء على الأدارسة.

ودون أن ندخل في كثير من التفاصيل، وخاصة حول العاملين الأول والثاني، وكانا طبيعيين بالنسبة لدولة بدأت - بعد وفاة إدريس الثاني - سيئة فقسمت الإمارة بين الإخوة، دون أن نتيه في كثير من التفاصيل التي أربكت المؤرخين القدماء والمحدثين، نشير فقط إلى تضافر العاملين الثالث والرابع.

كان الفاطميون ينتهزون الفرص الصغيرة والكبيرة لتدمير الدول التي يمكن أن تقف في طريقهم، وفي الوقت نفسه كان الأمويون في الأندلس ينتهزون الفرص لاستغلال ضعف الدولة الإدريسية والثورات الداخلية بها، ثم يتحسبون هذه القوة الجديدة الصاعدة (الفاطميين) ليسبقوهم نحو المغرب.

تآمر الفاطميين مع ابن أبي العافية:

وكان موسى بن أبي العافية، أمير قبيلة مكناسة يتربص الدوائر

بالأدارسة، قد ثار وبدأ يناوشهم.

في الوقت نفسه بعث عبيد الله المهدي من تونس أحد قواده المكناسيين (مصالة بن حبوس) لمهاجمة فاس فدافع عنها يحيى بن إدريس بن عمر، ولكنه انهزم فاعترف بسلطة العبيديين، وبايع عبيد الله واشترى سلطته بالمال.

عاد مصالة إلى تونس يحمل بيعة الأمير الإدريسي يحيى وأمَّر موسى بن أبي العافية على المغرب. وهنا تضافر العاملان الفاطمي والموسوي، فأوغر موسى صدر مصالة ضد يحيى حين عاد إلى المغرب، واعتقل يحيى وعذبه، ثم نفاه وتابعه حتى مات في ظروف قاسية جائعاً غريباً سنة 332 هـ.

لكن الأدارسة لم يهادنوا السلطة الجديدة فثار الحسن بن محمد بن القاسم على عامل الفاطميين في فاس (ريحان المكناسي) واصطدم هذا الأمير بقوة موسى بن أبي العافية فانهزم سنة 311 هـ. وعادت السلطة في فاس إلى موسى بن أبي العافية الذي أقام دولته على المغرب جميعه بعد أن طارد الأدارسة.

المرحلة التالية تتمثل في لقاء جديد بين سلطة الفاطميين وسلطة موسى حينما اتسعت دائرة طموحه فاحتل بعض مناطق الجزائر (تلمسان) بالإضافة إلى المغرب جميعه، وللحفاظ على سلطته نقض اتفاقه مع الفاطميين وربط صلته بالأمويين في الأندلس ليحمي مملكته الواسعة هذه، فبايع عبد الرحمن الناصر. هذه الخطيئة الكبرى التي ارتكب مثلها الكثير من الدول المغربية وقد وجدت نفسها بين عدوين لا بد أن تعادي إحداهما لتحالف الأخرى ـ لا يمكن أن تمر في التاريخ دون أن تكون عواقب خطورتها على مسيرتها. الفاطميون، وقد نشأوا وأعينهم على الأندلس ومصر وما بينهما، لا يمكن أن يغفروا للرجل الذي ساعدوه ليقضي على الأدارسة لحسابهم، لا يمكن أن يغفروا له هذه الخطيئة، فضربوه بجيش كبير يقوده قائد من كتامة هو حميد بن يصليتن،

وأصبحت البلاد ضحية حرب أخرى هرب فيها موسى إلى الشمال الشرقي واحتل حميد فاس، لتقوم ثورة أخرى ضد عامل العبيديين وتعود السلطة فيها لموسى بن أبي العافية، وعن طريقه إلى الناصر لدين الله الأموي. وتعود مرة أخرى إلى العبيديين في ثورة على العامل.

عاد الأدارسة فرفعوا رؤوسهم تحت طاعة العبيديين. وانتهت حياة ابن أبي العافية مدمرَ دولتهم شريداً في الصحراء، وحياة أبنائه من بعده سنة 363 هـ ـ 974 م.

المرحلة التالية من هذه الاضطرابات التاريخية هي التي ظهر فيها الأدارسة. «الكنونيون» بين السلطتين الكبيرتين المتصارعتين في المنطقة: العبيديين والأمويين. كان الأدارسة يحكمون شكلياً المغرب من شماله ـ إلا مدينة فاس ـ تحت حماية الأمويين الذين احتلوا في البداية طنجة وسبتة، ومن هناك امتد نفوذهم على حساب الأدارسة حتى بايعت الناصر أكثر القبائل، وخطب له على منابر المغرب من طنجة حتى تاهرت بما في ذلك فاس.

صراع الكبار والأرض المحروقة:

المرحلة هي المرحلة الفاصلة بين بني أُمية والعبيديين لم يلعب المغاربة فيها أي دور إلا دور المحارب، ولم يلعب المغرب فيها إلا دور الأرض المحروقة، على أديمها دارت الحرب المدمرة. العبيديون لم يقبلوا أن يسود الأمويون في المغرب جميعه فبثوا قائدهم المعروف جوهر الصقلي سنة 347 هـ ـ 958 م. ليجرب في المغرب مهارته قبل أن يبني مجده في مصر. واستغل جوهر المال (الذي كان العبيديون يتمتعون بنصيب كبير منه) وانتصر بذلك في المعركة الأولى على بني يفرن في تاهرت. (ذلك يعني القضاء النهائي على بقايا الرستميين) ثم انتقل إلى سجلماسة، (وهو مخطط خطير في الحرب يعني القضاء على الأطراف التي يمكن أن يكون لها أثر في المعركة الفاصلة)

ليقضي على بقية المدراريين بقيادة الشاكر لله. وينتقل جوهر الصقلي إلى مدينة فاس ليهاجمها بعنف ويقتل بها الكثيرين ويهدم أسوارها ويخرب دورها ويعتقل حاكمها أحمد بن أبي بكر الزناتي سنة 349 هـ. ويعود جوهر إلى المهدية بعد ثلاثين شهراً تملك فيها المغرب لحساب العبيديين في عهد المعز لدين الله.

وكانت هجمات جوهر في نهاية العقد الرابع من المائة الثالثة هـ. حوالي 960 م.

المرحلة الأخيرة من نبضات الأدارسة الكنونيين هي الحركة التي قام بها الحسن بن كنون حينما نكث بيعة العبيديين والانتماء إلى الأمويين. ولكن هذا الطفل، المتلاعب بالسياسة بين جبارين، لم يلبث أن خلع ولاءه للعبيديين الذين بايعهم عند غلبة جوهر على المغرب ليقدم ولاءه إلى الأمويين، وليعود مرة أخرى إلى العبيديين بعد أن احتل المغرب بلكين بن زيري الصنهاجي لحساب العبيديين، وليحارب مرة أخرى جيوش الأمويين التي وفدت على المغرب لتقضي على الأثر الذي تركه القائد بلكين بن زيري. وينهزم الحسن بن كنون أمام جيوش الأمويين، ويتفق مع القائد الغالب على أن ينزل عند طاعة الأمويين ويترك البلاد وأهله إلى قرطبة ويعفو عنه المستنصر بالله ويستقبله إستقبالاً شعبياً في قرطبة. ولكن التاريخ ما يزال يعبث بالرجال العابثين، فقد نكب الحكم الحسن بن كنون والعلويين من أتباعه وأجلاهم من قرطبة.

ويعود الحسن مرة أخرى من منفاه في مصر بمساعدة العبيديين وبتأييد من بلكين بن زيري بن صناد لينهزم في معركة ضارية ويطلب الأمان، فيمنحه قائد الأمويين عمر بن عبد الله بن أبي عامر الأمان على أن ينتقل إلى الأندلس، ولكن أصحاب الأمان يغدرون به ويقتلونه ويحملون ـ على العادة ـ رأسه إلى المنصور بن أبي عامر (حاجب هشام المؤيد).

وانتهت دولة الأدارسة بقتل الحسن بن كنون.

مائتان وثلاث سنوات تقريباً قضاها الأدارسة في الحكم.

انتهى حكمهم مع انتهاء حكم أربع دول (إمارات) خاضت معارك طاحنة في سبيل السلطة هي الأغالبة والرستميون والمدراريون والفاطميون. كانت كلها محفوفة بظروف سلطوية دولية تتقدمها خلافة العباسيين في المشرق وخلافة الأمويين في الأندلس. وكانت هذه الوضعية الدولية الخطيرة تجتاز مرحلة ارتجاج واضطراب في ظروف ذاتية وزمنية ودولية لا يمكن إلا أن تتولد عنها هذه الإضطرابات، ضرورة أن أية سلطة لا يمكن أن تستقر في بلاد اعتنقت الإسلام من حدود الهند حتى المحيط الأطلسي.

وإذا كان الشرق الإسلامي قد نال حظه الأوفى من هذه الاضطرابات التي تركزت حول النواة (الصلبة) الخلافة في بغداد، فإن الغرب الإسلامي توزعت فيه مراكز القوى بين مصر وتونس والمغرب والأندلس. وكان على القوة، التي تريد أن تسود، أن تسيطر على مراكز القوى هذه جميعها. وذلك ما لم يكن في استطاعة قوة أن تقوم به، سواء كانت قوة سلطة(الأمويين مثلاً) أو قوة مذهب وسلطة (الفاطميون مثلاً) أو كانت قوة ولاية تابعة (الأغالبة) أو قوة مستقلة متمكنة من الوطن والمواطنين (إلى حد ما) الأدارسة.

حظ سيء للمغرب والإسلام:

إلى أي حد يمكن أن نقول: إن المغرب كان سيء الحظ في مواجهة الاضطرابات هذه؟

حقاً كان سيء الحظ، فلم يستقر له قرار سياسي. وبالتالي لم تستقر فيه وضعية سياسية في الحكم، ولكنه ليس يبدع بين الدول أو الشعوب الخارجة عن نطاق الخلافة، ولا وضعية اقتصادية واجتماعية. فلم تهتد القبائل الكبرى فيه إلى تكوين الدولة التي فتح الإسلام طريقها، ولا استفادوا من المحاولات

الجادة لتكوين هذه الدولة، وكانت منها محاولتان أساسيتان: محاولة الأغالبة في تونس والأدارسة في المغرب. ولم يستطع المغرب بذلك أن يستفيد من وضعية الاستقرار النسبي الذي حققه الأمويون في الأندلس، وكان يستطيع أن يستفيد في المجال الثقافي والسياسي لو ضمن له الاستقرار، ولم يستطع أن يستفيد ـ ولا أن يفيد ـ من التوسع السياسي في أرض الخصوم، صقلية التي كانت القوات البيزنطية فيها تهاجم السواحل التونسية من حين لآخر، فعزم الأغالبة على فتحها، ثم قاموا بالحملة على الأراضي الايطالية. نعتقد أنه لولا الاضطرابات التي عرفها المغرب، والفاطميون سببها الأول، لتحول مجرى التاريخ، لو حدث أن انتصر الإسلام في وسط أوروبا، لما انهزم على حدود النمسا، ولما انهزم بعد ذلك في الأندلس. ولكن مسيرة التاريخ لا تتحكم فيها «لو».

لم يستطع الفاطميون أن يحولوا بلاد المغرب ولا قبائله إلى التشبث بالمذهب الإسماعيلي ولذلك وقى الله المغرب من جانب من الصراع الطائفي وكان لهم دور «إيجابي» ـ إن اعتبر التاريخ هذا الدور إيجابياً ـ هو أنهم قضوا على دولتي الخوارج: الرستمية في تاهرت والمدرارية في سجلماية. وبذلك وقي المغرب من صراع مذهبي حاد، ويعملهم هذا أتاحوا للدولة الإدريسية حظاً من الوقت لكي تحقق بعض أهدافها قبل أن تغمرها الاضطرابات التي أشرنا إليها. وبذلك أيضاً تمهد الطريق نحو توحيد المغرب العربي.

ونهاية الفاطميين في المغرب بعد الاضطرابات التي تسببوا فيها تعتبر أغرب نهاية، وإن كانت سيرة الفاطميين في المغرب ومصر منذ النشأة طافحة بالغرائب.

مصر المطمح. لماذا؟

ومن المؤكد أن طموح الفاطميين كان هو إقامة دولتهم في مصر. وليس في المغرب لأسباب في مقدمتها:

ـ المركز الجغرافي له دوره الكبير في هذا الاختيار لمركز مصر الاستراتيجي وضعها قريبة من الجزيرة العربية ومن مكة والمدينة وقريبة نسبياً من اليمن. وكان مركزاً شيعياً وغير بعيد ـ نسبياً ـ من مركز الخلافة. ثم إن مصر لها بعدها الجنوبي مع مسرى النيل. وهي أرض منبسطة تسهل فيها الحركة، أو هي أكثر سهولة من بلاد المغرب.

ـ والبعد الإنساني له أثره الكبير. مصر كانت سهلة المنال عند الفتح الإسلامي. لم تشهد المعارك التي عرفتها بلاد المغرب. ولذلك كان التفكير في أنها تتقبل بسهولة الدعوة الإسماعيلية الجديدة. والأوصاف التي وصفها بها عمرو بن العاص كان لها أثر في نفوس الطامعين فيها والراغبين في إقامة دولة جديدة على أرضها.

ـ مصر أقرب إلى مركز الخلافة «بغداد» ومطامع الفاطميين في إرث الخلافة الإسلامية الكبرى واضحة. ولذلك فالهجوم على الأطراف لم يكن إلا طريقاً لإخضاع المركز. ومصر من بينها.

ـ الفاطميون كانوا يراقبون وضعية دولة الخلافة. وقد أصبحت في منتصف القرن الرابع الهجري دولة ضعيفة هزيلة بعد أن انسلخ عنها المغرب ابتداءً من الأندلس حتى طرابس. وقامت على شرقها عدة دويلات في إيران: الطاهرية والصفارية والسامانية والغزنونية والبويهية. يضاف إلى ذلك السيطرة على مراكش مركز الخلافة نفسه، حتى سلب الخليفة من كل سلطاته، وتعرضت الولايات لعدة غارات من البيزنطيين. وكانت وضعية الخلافة في عهد الراضي والمتقي والمستكفي في العقد الثالث من القرن الرابع (322 ـ 334 هـ) أسوأ وضعية عرفتها البلاد من الناحية السياسية. ولذلك أصبحت الفرصة سانحة للاستيلاء على إحدى الولايات الكبرى التي كان الأخشيديون يحكمونها نيابة عن الخلافة تحت قيادة كافور «العبد الخصي» الذي استبد بالحكم. وأصبحت السلطة في بغداد لبني بويه كأوصياء على

الخليفة. وكان البويهيون متشيعين زيديين. هذه هي الفرصة السياسية التي سنحت للفاطميين باحتلال مصر بعد محاولات متعددة فاشلة. ومن مصر إلى الشام والحجاز. واستقر حكم الفاطميين في مصر على عهد المعز لدين الله وبقيادة جوهر سنة 358 هـ ـ 989 م.

ـ من أسباب نهاية دولة الفاطميين في المغرب المركز السياسي المتدهور الذي آل إليه حكمهم. فقد فشلوا في نشر المذهب الشيعي بين الجماهير. وحتى القبائل التي ناصرتهم ارتدت عن المذهب بعد ما عرفت أسرار الدعاة و«الخلفاء» السياسية والمالية والعدوانية. ثم ثورة أبي مخلد على الدولة وقد استغرقت نحو 25 سنة أنهكت بها الدولة، رغم أنها لم تنه الأمر لأبي مخلد اليفرني لأنه كان من الخوارج الصفرية، انتقل إلى المذهب الإباضي، التي لم يعد لها تقدير شيعي. يضاف إلى هذا الفشل ضعف السند القبلي، ولم تبق من القبائل التي ساندتهم في البداية إلا صنهاجة وزعيمها بلكين بن زيري.

التمهيد لعصر الإمبراطورية

عصر الإمبراطورية في المغرب لم ينتظم في مرحلة سليمة من تاريخه، فقد سبقت عصر الإمبراطورية صراعات كان في مقدمتها الصراع بين الأمويين والفاطميين حول المغرب، ثم صراع الدويلات التي كانت موجهة أحياناً من هذه القوة أو تلك، وكانت كل منها ترغب في الاستقلال بجزء من المغرب أو السيطرة على أجزاء منه. ولنفهم عصر الدويلات لا بد أن نلقي نظرة على الصراع بين القوتين العظيمتين الفاطميين والأمويين حول المغرب وتأثير كل منهما في قيام الدويلات وسقوطها.

لو استقل طارق بالأندلس؟

علاقة الأمويين في الأندلس بالمغرب والمغاربة ـ ويسميهم المؤرخون دائماً البربر ـ قديمة قدم فتح الأندلس على يد طارق بن زياد البربري، ومعظم جنده كانوا من المغاربة، والعرب الذين وفدوا على الأندلس مع موسى بن نصير، وكان والياً على القيروان استأذن الوليد بن عبد الملك الأموي في دمشق. بعد أن أوغل طارق بجيوشه في الأقاليم الأندلسية حتى فتح قرطبة. ودخل موسى بن نصير قرطبة وقد فتحت على أيدي الجيوش المغربية.

الرواية العربية تؤكد بداية الخلاف بين المغاربة والعرب. فقد دخل موسى ومعه نخبة من العرب والموالي وجيش ضخم. ونفس على طارق الفتح الذي قام به رغم أنه ترضاه بما جمع من الغنائم ونسب الفتح إليه.

لو سارت الأمور على نحو ما عرفته الساحة المغربية والعربية لكان طارق قد استقل بالأندلس، وقطع الطريق على موسى بن نصير الذي كان على بعد كبير من المنطقة (القيروان) ولن يشعر بما حدث (بدون إذن منه) إلا بعد أن يستقر الملك لطارق. ولن يتمكن بعد ذلك من محاربة طارق أو استرداد الأندلس من يده، بما يتبعه من جنود العرب، أو البربر الذين يقبلون مناصرته ضد طارق. لو حدث ذلك (والتاريخ لا يقبل «لو») لتغير وجه المنطقة. وما أظن أن الأمويين كانوا سيجدون لهم موطىء قدم في الأندلس لتكوين دولة تتعامل مع المغرب على نحو ما سجل التاريخ من هدم كيان المغرب والقضاء، أو محاولة، القضاء على شخصيته بفرض التبعية.

ولكن طارق بن زياد تصرف كضابط عسكري في خدمة الدولة التي كان واليها على المنطقة هو موسى بن نصير. فسار التاريخ على نحو ما لا تقبل الاستقامة العسكرية التي تحلى بها طارق بن زياد. وفي تاريخ المغاربة العسكري كثير من صور الاخلاص والانضباط. وتاريخهم في الأندلس على عهد الأمويين وملوك الطوائف صور من هذا الانضباط، ولو كان على حسابهم.

الجزاء هو أن موسى، بعد أن وصل إلى قرطبة، اعتقل طارقاً. واستخلف على الأندلس ابنه عبد العزيز بن موسى لتبدأ بذلك مسيرة الثورات المتعاقبة من القيادات العربية تمهيداً لعهد جديد سيقوم بعد نهاية عهد الأمويين في المشرق ليفر إليها ـ عن طريق المغرب طبعاً ـ عبد الرحمن بن معاوية (الداخل ـ صقر قريش). لم يكن في نصرته وإعداد رحلته من المغرب إلى الأندلس إلا مجموعة من القبائل.

الأندلس عاشت قرابة ست وأربعين سنة (92 هـ سنة من فتح طارق إلى 138 هـ السنة التي دخل فيها عبد الرحمن بن معاوية قرطبة) في اضطراب مريع، وخاصة بين القبيلتين العربيتين العدوتين: اليمنيين والمضريين.

تدخل المَرْوانيين في المغرب:

كان من الطبيعي أن يستعين عبد الرحمن الداخل بالبربر الأندلسيين. فالعرب قلة وهم يتنازعون على السلطة، ولو أنهم أكرموا مَقْدَمه. وتحسباً لإثارة ما قد يدور في خَلَد زعماء العرب الذين يرتبطون بالخلافة. لم يعلن نفسه خليفة، وإنما اكتفى بلقب «الأمير» ولم تعلن «الخلافة» عن نفسها إلا في عهد عبد الرحمن الناصر ثامن الخلفاء الأمويين في الأندلس (ولي سنة 300 وتوفي سنة 350 هـ).

إخلاص طارق ووفاءه لرؤسائه وانضباطه العسكري، دفع المغرب كله ثمنه على عهد الأمويين. ثم دفعت الأندلس ثمنه الأكبر على عهد بقايا الأمويين وملوك الطوائف، حتى استعدت النصرانية على الإسلام. لو استقل طارق بالسلطة لتغير وجه التاريخ.

عرف عهد الأمويين في الأندلس ملوكاً كباراً صانوا حوزة الإسلام في الأندلس وعاصمتها قرطبة. وعرفوا عهد حجابة حاكمة هو عهد محمد بن أبي عامر، الذي لقب نفسه بالمنصور وحكم نحواً من سبع وعشرين سنة بعد أن غيب الخليفة الشرعي هشام بن الحكم الذي ولي الخلافة في سنه العاشرة.

في عهد المنصور بن أبي عامر إزداد الطمع في توسيع دائرة الخلافة إلى المغرب لأسباب منها:

- موازاة الخلافة العباسية التي كانت سلطتها (الرسمية) تمتد شمالاً وشرقاً وغرباً.

- ضمان «الحدود الآمنة» ـ والمغرب حدود مفتوحة للأندلس ـ ولم تكن آمنة في ذلك العهد لِتَطَلُّعِ زعماء البربر للصراع بين الصنهاجيين والزناتيين.

- خوفاً من سلطة العبيديين ولو أنهم انتقلوا إلى مصر. ولكنهم إسمياً يسندون دولة زيري بن مناد لقوة نفوذها، ثم نفوذ شقيقتها بني حماد.

إتجاه الأمويين عموماً، وفي عهد المنصور بن أبي عامر على الخصوص نحو المغرب يأخذ بعدين، أو هما ثلاثة:

أولها: القضاء نهائياً على سلطة الأدارسة الذين كونوا دولة قوية معادية للأموية، بمقدار ما كان الأمويون معادين لعلي وبنيه. ورغم أن الأمراء الآخرين من الأدارسة كانوا مضطربين في المكان والولاء والسلطة ينتقلون من منطقة إلى أخرى شمالاً وشرقاً بحثاً عن إستعادة إمارتهم، ومتنقلين من ولاء إلى الأمويين لحماية أنفسهم من الصنهاجيين، إلى العبيديين لحماية أنفسهم من الأمويين. رغم أن هذا الوضع لم يعد يمكنهم من استعادة سلطتهم، في فاس، في مغرب مضطرب، فقد كانت نهايتهم على يد الأمويين. لجأ الكثير منهم إلى الأندلس على عهد الحكم المستنصر، ومنهم الحسن بن كنون. فقد طردهم الحكم من الأندلس واشترط عليهم ألا يعودوا إلى المغرب. ومعنى ذلك أنه شردهم في الآفاق ليجعل من المستحيل عليهم الطمع في إستعادة أي سلطة أو نفوذ. هذا الطرد الجماعي هو الذي ألجأ الحسن بن كنون إلى القوة الخصم للأمويين أي الفاطميين الذين بعثوا به إلى المغرب في نصرة زيري بن مناد. ولكن المنصور بن أبي عامر كان حاضراً في الميدان بقوة كبيرة لمواجهة زيري ومعه الحسن بن كنون. فوقع الحسن أسيراً فأرسله المنصور إلى قرطبة وأوصى بأن يقتل في الطريق.

وبذلك أنهى الأمويون عهد الأدارسة.

لا نحتاج أن نحلل مبلغ عداء الأمويين للأدارسة من الناحيتين التاريخية والسياسية. أبناء معاوية لا يمكن أن يقبلوا التعايش مع أبناء علي، وبنو أُمية لا يمكن أن يحتملوا بني هاشم. ثم إن طمع الأمويين في ضم المغرب كان يدفعهم إلى التخلص سياسياً وجسدياً من كل من يخشون أن يقف في وجه هذا الطموح، ولو كان من حجم الحسن بن كنون الذي كان يمثل الهزيمة المطلقة للإدريسيين.

ومع ذلك فالتصفية الجسدية كانت هي السبيل لتصفية العناصر التي قد يخشى من متاعبها.

ثانيها: مواجهة الصنهاجيين لحماية المغرب من تسرب نفوذهم من تونس والجزائر، وبالتالي تسرب نفوذ الفاطميين.

ثالثها: توسيع دائرة الدولة في العدوتين، لإرضاء طموح المنصور بن أبي عامر، وقد كان له طموح كبير، ولوضع المغرب في مقام الدفاع عن الأندلس وحمايتها من أي عدوان محتمل من خصوم الدولة: عملاء العباسيين، أو عملاء الفاطميين، أو القبائل المغربية التي لم تكن المجموعة العربية في الأندلس تطمئن إليهم. فإذا كانت هناك حروب فلتكن في العدوة الجنوبية. والأندلس يجب أن تكون مصونة من أي اضطراب. تكفيها الاضطرابات الداخلية.

حاول عبد الرحمن الناصر (277 ـ 350 هـ) أعظم رجال السلطة الأمويين، أن يستميل فريقاً من زناتة (بني يفرن) وولى زعيماً من زعمائهم (علي بن عبد الله بن بكار) واستولى هذا الوالي على المغرب من تاهرت حتى طنجة لصالح عبد الرحمن الناصر. وكان يخطب باسمه على المنابر.

النموذج الثاني نجده عند الحكم المستنصر الذي بعث بجيوش متعاقبة للسيطرة على المغرب. فحاول اقتلاع جذور الأدارسة وطاردهم إلى الأندلس. ثم أسند زعيمين من زعماء البربر هما الإخوان جعفر ويحيى إبنا علي بن حمدون واستوليا على المغرب لضمان خضوعه للأمويين. وكان ممن انضم إلى جعفر زيري ومقاتل ابنا عطية.

عصر الدويلات

1 ـ بنو زيري بن مناد

الصراع على المغرب بين الفاطميين والأمويين:

بلاد المغرب وقعت وسط الصراع بين قوتين، كل منهما تدعي الخلافة، وكل منهما تقاوم الخلافة في المشرق. إحداهما باسم الإرث الأموي، والثانية باسم الإرث العلوي الشيعي الفاطمي. إحداهما في الجنوب الغربي لأوروبا (الأندلس) والثانية تتركز في وسط إفريقيا (شمالها) وتنشر ظلالها وحروبها ونفوذها شرقاً حتى حدود مصر وغرباً حتى المحيط.

ولكن كلاً من الدولتين تحذر من الأخرى، ولا تريد أن تغامر بحرب مواجهة سواء على أرض المغرب أو على أرض الأندلس. الأمويون يعملون على بسط نفوذهم في المغرب على أن يبقى نفوذاً لا حكماً مباشراً، فإنهم لم يستطيعوا ذلك، لا تقوم فيه دولة أو دول إلا إذا كانت تحت نفوذهم تدين لهم بالولاء على نحو ما يفعل العباسيون مع دول الأطراف التي تنشأ في شرق الدولة أو غربها. والفاطميون يشعرون باتساع رقعة الدولة، وبخطورة صراعهم مع الدول المعاهدة في المغرب والقبائل المعادية لهم من جهة، ويشعرون بخطر الخلافة العباسية التي تترصد لهم، ولذلك فهم لا يفكرون في زيادة رقعة الصراع ومحاربة خصومهم الأصليين (الأمويين) في عقر دارهم (الأندلس) تحسباً لمواقفهم الحرجة في المنطقة التي يستولون عليها بشكل أو بآخر ويقيمون دولتهم على جزء منها (تونس). ولذلك أيضاً فهم يواجهون المعارك

في إفريقيا والمغرب عن طريق القبائل البربرية التي كانوا يزيدون في تأريث العداوة بينها، وخلق ظروف الحرب بين القبائل التي تناصرهم ويناصرونها ـ وهي منفعة متبادلة ـ القبائل تستعين بالدولة الفاطمية ضد خصومها، كما حدث مع صنهاجة ضد زناتة، والقبائل الأخرى ـ زناتة مثلاً ـ تستعين بالأمويين ويستعينون بها ـ ضد صنهاجة.

حروب ـ لصالح من؟

حروب إذن داخلية بين القبائل الكبرى تؤرثها دولتان عظيمتان في الأندلس وإفريقيا، ويحاولان استغلالها لمصلحة كل منهما.

هل كان هذا الوضع في صالح المغرب والحكم فيه أو ضداً عليه؟

هل استفاد المغرب والحكم فيه من هذه التناقضات الخطيرة؟

أما أنه تضرر واقعياً فذلك مِمّا شك فيه، وخاصة بالحروب المريرة التي تميز بها هذا العهد الذي كان فيه الفاطميون على وشك الانتقال إلى مصر. وأبرز هذه الحروب:

* الحرب التي خاضها **زيري بن مناد** على رأس صنهاجة ضد مغراوة وزناتة.

* الحرب التي خاضها ضد الخوارج خدمة للعبيديين.

* الحرب التي خاضها ضد قلعة كتامة.

* مساهمته في محاصرة فاس، وقد حاصرها جوهر خادم العبيديين ضد الأدارسة حتى دخلها، وضمها للإمبراطورية العبيدية.

* الحرب التي خاضها مرة أخرى بقيادة ابنه **بلكين**، ضد زناتة التي كانت تؤيد الحكم المستنصري الأموي حتى انهزمت زناتة.

* ثم أخيراً المعركة الكبرى التي خاضها ضد مغراوة التي كانت تحارب

لصالح الأمويين. وانهزم فيها زيري وحز رأسه وأرسلها إلى المستنصر وبذلك منح زيري بن مناد حياته لصالح الفاطميين.

وسنرى هل لصالح الفاطميين كما يزعم المؤرخون أم لصالح دولته كما تؤكد أحداث التاريخ.

* من الحروب التي خاضها بلكين ابنه حروباً ضد أعمامه حتى انهزموا ولحق بعضهم بالأندلس.

زيري بن مناد هذا لم يكن ضابطاً في صفوف جيش العبيديين، ولكنه كان زعيم قبيلة كبرى هي صنهاجة، وكان من أعظم ملوك البربر كما يقول ابن خلدون.

صراع قبلي لا مذهبي:

وإنما تحيز إلى العبيديين وحارب دونهم أنصار الأمويين لولايته لعلي بن أبي طالب كما يزعم المؤرخون. وهو زعم لا يقبله الوضع السياسي الذي يتمثل في الصراع بين الدولتين العظيمتين كما أشرنا إلى ذلك. المؤرخون يزعمون أن صنهاجة بزعامة زيري بن مناد أيدت الشيعة وانصرف عنها خصومها زناتة ومغراوة وانتصرت للأمويين. القضية سياسية قبلية، وليست دينية أو مذهبية (شيعة وسنة) فما أظن الفكر الشيعي أو السني قد تمكن من هذه القبائل، وجعلها تتصارع فيما بينها لصالح هذا المذهب أو ذاك. وإنما هو الطموح للسلطة والنفوذ والتغلب على نفوذ الآخر. وهذا البعد السياسي يتطلب التحالف مع قوة غريبة. وصادف أن المغرب كان محط قوتين تتصارعان من أجل بسط النفوذ عليه من جهة، وتتصارعان لتصبح إحداهما متفردة بالنفوذ في المنطقة، وتتصارعان ثالثاً إنطلاقاً من صراعهما المشرقي بين الأموية والعلوية، فانحاز كل فريق من القبائل المتصارعة: الصنهاجة إلى العبيديين ليتقوى بهم على خصومهم، ولو كان ذلك لصالح العبيديين، ومغراوة وزناتة (ومغراوة فرع من زناتة) إنحازتا إلى الأمويين لتنتصرا على خصمهما الصنهاجيين. وكانتا تنحازان تارة إلى العبيديين للانتصار بهم على الخصم. ولكن «الاختيار»

الأخير كان من العبيديين للصنهاجيين، ومن الأمويين لزناتة.

القبيلتان كانتا تتبادلان الحكم، ولكل منهما حظ من صناعة تاريخ المغرب فهما الكتلتان القويتان بين القبائل المغربية. وكل منهما كون إمارات أو زعامات قبلية.

بداية الدولة الزيرية:

لم ينته نفوذ بني زيري بهزيمة زيري بن مناد ومقتله. ولكن الدولة بدأت بالفعل على يد ابنه بُلكين. وقد نضج هذا القائد الذي خاض المعركة ضد زناتة، في الوقت الذي كان المعز لدين الله الفاطمي يعتزم الانتقال بالدولة إلى مصر. وكان يعرف أنه لن يستطيع فتح مصر وتأسيس الدولة بها وحكم بلاد المغرب على بعدها من مصر. فقد مرت بالفاطميين متاعب في بلاد المغرب وهم يحكمون من مركزهم بالقيروان، فكيف يستطيعون الحكم من مصر، ومن القاهرة التي سيؤسسها المعز؟

لهذا ارتأى أن يترك نفوذه في بلاد المغرب إلى وال بربري يختاره من المقاتلين الأشداء، فلم يجد بعد زيري، ومن وزنه، غير ولده بلكين بن زيري فولاه على تونس والجزائر والمغرب نيابة عن الدولة الفاطمية، على غرار ما ولى العباسيون الأغالبة في تونس فاستقلوا بها. ولذلك كان في إمكان بلكين أن يستقل بالمغرب ويكون فيه دولته، تحارب من أجلها خصوم صنهاجة حتى المغرب الأقصى. وسماه ولقبه وكناه باسم ولقب وكنية عربية: يوسف المنصور أبو الفتوح ولقبه: سيف العزيز بالله. ولم ينته الأمر له بسهولة فقد كانت زناتة في طريقه وهي تحتل تلمسان. وحينما استقر به الأمر راوده الطموح في أن يضم إلى مملكته ليبيا فطلب من الفاطميين (نزار بن المعز) الإذن بذلك فاستجابوا له.

البداية بحرب الزناتيين في المغرب:

المعارك لم تكن لتنتهي، فالدولة دولة حرب، ولم يمنح الفاطميون

السلطة لبلكين لأنهم كانوا يرغبون في بقاء نفوذهم ـ ولو إسمياً ـ في المغرب فحسب، وإنما تركوا المغرب لأن حروب القبائل أرهقتهم. وها هو ذا بلكين ـ بعد مقتل أبيه زيري بن مناد ـ يواجه المصاعب العسكرية. فزناتة لن تنهزم أمام صنهاجة، والأمويون لن ينهزموا أمام العبيديين. ولذلك بعدما طارد بلكين الزناتيين من الجزائر والمغرب، التجأوا إلى مركز إستراتيجي مهم هو سبتة فتجمعوا فيها والتفت حولهم القبائل لمناعة مركزها أولاً، ولأن الأمويين في الأندلس على مقربة منها. طلبوا المساعدة من المنصور بن أبي عامر ولعله هو الذي أشار عليهم بأن يجمعوا قوتهم في سبتة حتى يكونوا قريبين من مركز الخلافة، وأمدهم المنصور بقوات كبيرة تجمعت على الشاطىء الشمالي للبوغاز واجتازت بعض هذه القوات البحر فأصبحت زناتة تتوفر على أعظم قوة عرفتها البلاد.

لم يستطع بلكين أن يغامر بحرب زناتة هناك لأنه لا يملك قوة تضاهي قوتهم، ولأن مراكز سلطته بعيدة، فلا يمكن أن يجلب المقاتلين من كل مكان ليضاهوا قوات العدو، ولأن مركز سبتة على البحر، وفي الحرب بالقرب من البحر مغامرة خطيرة، ولأن الأمويين كانوا يمدون خصومه بقوات كبيرة، لن يستطيع أن يجلب مثيلاً لها من مناطق سلطته البعيدة.

ولعل بلكين قنع بأن تحاصر زناتة نفسها بقواتها بجانب البحر لتتركه ينصرف إلى نضال آخر كان ينتظره في المغرب كله ضد البرغواطيين وغيرهم من أنصار زناتة حتى توفي سنة 373.

«الدولة» التي أقامها بلكين كانت دولة حرب. وبلاد المغرب جميعها كانت ملتهبة، زاد في التهابها الصراع الرسمي والمتستر بين الأمويين والفاطميين. وذلك ما يمكن أن نسميه تأسيس «دولة» بني زيري على يد بلكين. استمرت على يد خلفائه من بعده: المنصور بن بلكين وبادس بن المنصور والمعز بن بادس وتميم بن المعز ويحيى بن تميم وعلي بن يحيى والحسن بن علي. وقد عرفت هذه الدولة ما عرفته بعض الدول في ظل الخلافات الكبرى من انهيار الحكم،

حتى إن بعض أمرائهم كانوا يتولون الأمر وهم أطفال، فالمعز مثلاً ولي وهو ابن ثمان سنوات، والحسن بن علي ولي وهو ابن اثنتي عشرة سنة. ولذلك كان الأوصياء عليهم من الموالي، على غرار ما كان يحدث في الدولة العباسية، يقومون بمهمة الإمارة، مما كان يزيد في تكاثر الخصوم والمنافسين على السلطة والأعداء الداخليين، بالإضافة إلى الأعداء الأصليين من زناتة والبرغواطيين، المصمودين. ومن الخصوم الداخليين: الولاة الذين كانوا يولون على المدن والأقاليم، كولاة (صفاقس) ثم هجوم قوات صقلية على المهدية بتونس.

المعز بن باديس: حكيم الدولة.

رغم أن الدولة لم تجد في الظروف التي تحيط بالمنطقة (الجزائر وجزء من تونس) ما يمكنها من البقاء في السلطة، في نفس القوة التي تركها عليها بلكين مستنداً على العبيدين، وبعيداً عن سلطة الأمويين في الأندلس، رغم ذلك فقد ظهرت شخصية قوية تولت أمر الدولة، بنفس المستوى الذي تولاها عليه بلكين، وهي شخصية المعز بن باديس بن المنصور بن بلكين. كان شخصية قوية عرف المغرب الأوسط في عهده رخاءً ووفرة مال. ورغم أنه ولي وسنه ثمان سنوات فسرعان ما أصبح ملكاً قوياً حكيماً.

وكعادة الدول التي يكثر فيها للملك أبناء وإخوة لا يمكن إلا أن ينتهي الأمر بصراع بين الإخوة أو بين الابن وأعمامه. ولذلك قام صراع مسلح بين المعز وعم والده حماد الذي بدأ عمله السلطوي في ظل باديس بن المنصور. حكمة المعز أنه بعد أن انتصر في المعركة الأولى أنهى الصراع بالصلح مع بني حماد. ولعل كلاً منهما أدرك:

ألا قبل له بالآخر.

وأن أياً منهما لا يمكن أن يسيطر على الدولة في حدودها الواسعة: من القيروان حتى حدود المغرب الأقصى.

ولأن دولة بني زيري ستظل في حرب أبدية وقبلية ضد الزناتيين

وأنصارهم من الأمويين.

وأن عمدة دولة بني زيري الدينية والسياسية هي دولة العبيديين في مصر، التي أسندت الولاية إلى زيري بن مناد ثم بلكين ابنه، فإذا تنازع وتحارب أبناء العم، فقد يكون للعبيديين رأي آخر.

ولأن كل الملوك الذين ولوا السلطة بعد بلكين كانوا يطمحون إلى التخلي عن التبعية للعبيديين والاستقلال. ولا يمكنهم ذلك إذا شغلوا بحرب داخلية بينهم.

كان المعز إذن حكيماً وواقعياً، فقبل الصلح مع حماد، واستقل كل منهما بقسم من الجزائر: المعز استقل بشرق الجزائر حتى القيروان، واستقل بنو حماد بغرب الجزائر حيث بنوا دولة بني حماد (كان ذلك حوالي سنة 408)، ورغم أن المعز لم يستسغ هذا التقسيم فحاول مرة أخرى أن يهاجم قلعة بني حماد فإنه عاد إلى شروط الصلح وبقي تقسيم المغرب الأوسط إلى دولتين، كان مصيرهما معاً مع الموحدين.

رفض التشيع والانفصال عن العبيديين:

المهم أن المعز هذا كان من أعظم ملوك دولة بني زيري، فقد عاشت الدولة في عهده عيشة رخاء لما توفر لها من أموال، وكان ذا ثقافة متنوعة. عَرَّب الدولة وكتب بالعربية وكان ابنه تميم شاعراً عرف بديوانه المشهور. ومذهبياً تخلى عن المذهب الشيعي، الذي يدين له العبيديون. والقضية سياسية أكثر منها مذهبية. فقد كان رفض المذهب الشيعي، وتدبير مجزرة ضد الشيعة فيما يروي ابن خلدون نوعاً من الاستقلال والاستبداد بالقيروان وشرق الجزائر. كما اضطهد الرافضة وعمل فيهم قتلاً. وانتهى الأمر بالإنفصال النهائي بقطع الدعاء للعبيديين على المنابر (سنة 440) وعاد بالدعوة إلى بني العباس.

وتعتبر هذه العودة موقفاً سياسياً كذلك لا مذهبياً. فما أعتقد أن المذهبية

كانت متمكنة من البربر عموماً ومن الزيريين الصنهاجيين ومن خصومهم الزناتيين الذين كانوا يميلون إلى بني أُمية. الموقف السياسي كان يدفع المعز للدعوة لبني العباس لا إغاظة للفاطميين، ولكن للاستعانة بهم إذا ما اضطر إلى ذلك.

الثمن: الهلاليون وخراب تونس:

ورغم ما في هذا الموقف من مغامرة من دولة عاصمتها القيروان وهي أقرب إلى مصر من بغداد إلا أن المعز لم يقدر ـ رغم كفاءته ـ قدرة العبيديين على إذايته. وكانت هذه الإذاية ممثلة في إرسال الهلاليين الذين غزوا تونس حتى خربوها.

لم يكن لتلاعبه بالسياسة من نتيجة غير خراب تونس، والقيروان في المقدمة، ودالت دولته وهو ينهزم أمام الهلاليين، وأمام كل ثائر حتى أفضى به الأمر إلى المهدية مجرداً من كل سلطة وتوفي سنة 454. التاريخ لا يظلمه فقد اعتبر من أكبر ملوك المسلمين في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري. ولو أن حكمته تخلت عنه، وهو يستهين بقوة العبيديين ومكرهم. قد تخلى عنه وفاؤه لأولياء نعمته. غير أنه، ربما كان مدفوعاً بشعب تونس الذي كان سنياً مالكياً نسبة بفقهاء القيروان وكرهه لمسيرة العبيديين وخرافاتهم.

تميم ابنه لم يكن في مستوى أبيه وجده بلكين. ولذلك تعتبر الدولة قد انتهت بنهاية المعز.

ورغم ما كان في إمكان المعز أن يصنع بالدولة عن طريق المال والرخاء، فإنه كان قاصراً عن أن يتغلب على الثورات والانقلابات التي عرفتها مناطق المغرب جميعها. فكان من الطبيعي، وقد عاد الأمر فيها إلى البربر أن تنشأ دولة تستطيع أن تبني المغرب وتوحده.

المهم أن عهد هذه «الدويلة» لم يكن عهد استقرار، وإنما كان عهد حرب لم تعرف فيها بلاد المغرب هدوءً ولا اطمئناناً، ولا عرفت الدولة عملاً آخر اقتصادياً أو اجتماعياً، بيد أن بناء بعض المدن تم في عهدها وعرف عهد

المعز بناء بعض المعالم التاريخية مما جعل منه أعظم ملوك الدولة، غير أن الدولة تميزت ككل الدول المالكة بالقتال والصراع بين القبائل وتدمير المدن المهمة عدة مرات كتاهرت والمهدية نفسها إلى أن ذابت هذه الدولة بقيام دويلات أخرى في المنطقة وانتهت على يد الموحدين.

صليبية شمال المتوسط ضد جنوبه:

قبل نهايتها على يد الموحدين كان هناك عامل آخر خارجي هذه المرة. ولم يأت من العبيديين ولا من الأمويين ولا من الهلاليين، وإنما أتى من الشاطىء الآخر للبحر الأبيض، من صقلية وحكامها النورمان. وقد كان الصراع بين المسلمين وحكام صقلية متواصلاً لعدة عقود. غير أن ضعف الدولة الزيرية الصنهاجية أطمع النورمان في بلاد المغرب جميعها وخاصة الشرقية، القريبة من الشواطىء الصقلية. بدأت المحاولات الأخيرة للاستيلاء على المهدية، تمهيداً للاستيلاء على بقية المراكز بعد أن استفحل الخلاف بين الأمراء والثوار.

حاول النورمان الاستيلاء على المهدية سنة 498 (1096 م) ولكن الأسطول الصنهاجي قابلهم في البحر وهزمهم. بعد ذلك بسنة استولوا على باجة وعاثوا فيها فساداً.

عنصر آخر تدخل في الموضوع، وهو عنصر مغربي هذه المرة. ذلك أن الأسطول المرابطي هاجم صقلية وخرب إحدى مدنها ـ وكان التخريب في الماضي كما في الحاضر وسيلة من وسائل الحرب ـ فانتقم النورمانديون فكان الهجوم ـ أو محاولة الهجوم ـ على المهدية سنة 516 ـ (1122) وطردهم الحسن بن علي بن المعز وكان هو أمير بني زيري آنذاك.

ثم كان الهجوم الأخير قوياً وعنيفاً فاستولى النورمانديون على جربة ثم على صفاقس وأخيراً على المهدية واستولوا على سوسة، ثم طرابلس. استمرت هذه الهجمات بين سنتي 537(1142 م) و 543 هـ (1148 م).

هكذا انهزمت دولة بني زيري أمام خصم قوي وفي معارك بحرية وبرية ومدينية. وكان بنو زيري قد استعدوا بأساطيل قوية لمواجهة عدوهم النصراني من البحر.

ولم يحرر الشواطىء المغاربية من الغزو النصراني إلا دولة الموحدين على عهد عبد المؤمن بن علي سنة 555 هـ (1160 م) وأكرم آخر بني زيري الحسن بن علي وصحبه معه إلى المغرب. ولكنه مات في الطريق.

كان لدولة بني زيري في التاريخ دور التمهيد لعصر الإمبراطورية، وهو نفس الدور الذي قامت به غيرها من الإمارات التي استولت على هذه المنطقة أو تلك ممهدة الطريق لعصر جديد.

2 ـ دولة بني حماد:

فريق آخر من آل زيري يكون ما يسميه المؤرخون دولة بني حماد، وما عرف في التاريخ بقلعة بني حماد.

وحماد هذا من أبناء بلكين فهو حماد بن بلكين بن زيري الصنهاجي. ولا بد أن يكون لكل أبناء الملوك نصيبهم من إرث أبيهم. ورغم أن حماد لم ينازع أخاه المنصور في رياسة دولة بني زيري، فقد عمل تحت إمرته، وولي أمر أشير والمسيلة. ثم استخدمه المنصور لمحاربة زناتة فكان نعم القائد شجاعة ونباهة.

بدأ يعرف أهمية السلطة وهو والي على أشير والمسيلة، واستقل بهما بعد أن توفي أخوه المنصور وولى ابنه الطفل (12 سنة) باديس أمر دولة بني زيري. ورأى الملك الطفل (القائمون بأمره دون شك) أن يستمر في الاستعانة بعمه للقضاء على خصومه الزناتيين. ويبدو أن حماد أدرك أن الوقت أصبح مناسباً ليستقل بالسلطة، فكان الشرط أن تصبح من أملاكه كل المناطق التي يطرد منها زناتة فقبل شروطه. وبدأ حربه لزناتة من القيروان حتى قسنطينة

وكانت قلعة بني طويل إحدى القلع المهمة التي احتلها.

حماد تمرس على الحرب، وكان طموحه وتجاربه في مثل ممراساته الحربية. وما عرف من أبناء وأحفاد بلكين بن زيري إلا كان ممارساً للحرب مستعداً لها، لأن ثقافة الدولة كانت ثقافة حرب، ولأن الوضعية الجيوسياسية آنذاك كانت وضعية حروب مستعرة قبلية تاريخية من جهة، وصراعية بين القوتين العظيمتين: العبيديين والأمويين في الأندلس من جهة أخرى. وكان المغرب بين شقي الرحا.

لم يكتف حماد باشير والمسيلة، وإنما تطلع إلى بناء عاصمة له فكانت قلعة بني حماد الحصينة التي بناها على جبل عجيسة، وحصنها ونقل إليها القبائل الموالية. وقد جعل منها عاصمة مهمة بما بنى من دور ومساجد ودور العلم ومراكز التجارة كان ذلك سنة 400 هـ.

لم يستقر الأمر بينه وبين ابن أخيه باديس الذي طمع في استرجاع السلطة التي تمكن منها حماد. وقامت صراعات بينهما إلى جانب الحرب المستمرة مع زناتة. واستمرت الحرب بينهما إلى أن حاصره باديس في القلعة ومات ـ لعله كمداً ـ سنة 419.

كان من الممكن أن تنتهي دولة بني حماد بعد موته، لأن الظروف لم تكن لصالح الملوك الصغار الذين جاءوا بعده كإبنه القائد ثم محسن لولا أن لمع ضوء الدولة من جديد بقيادة الناصر.

الناصر ينقذ الدولة بسفك الدماء:

حماد كان باني الدولة والناصر كان مستثمر ما بناه ابن عمه حماد.

النصر كان ابن الصدفة. والصدف دائماً في حياة الملوك تضعها السياسة في طريق المتطلعين الذين يحبك لهم القدر الأسباب ليستولوا. هي أسباب إذا لم ينجح أحدها في إيصالهم للسلطة كان سبب آخر على استعداد لتحقيق الهدف.

لولاية الناصر قصة لا نخرج عن الملاحم التي عرفها العصر، ملاحم القتل والسفك والاستيلاء على السلطة. فهو ابن علناس بن حماد. ولكن اتجاه السلطة سار في طريق أبناء آخرين: المعز فابنه القائد فابنه محسن. ويستخدم هذا ابن عمه بلكين بن محمد بن حماد في مواجهة بعض الثائرين ويسر إلى رفقائه أن يقتلوه في الطريق. إذا لم يخش صاحب السلطة ابنه أو أخاه خشي ابن عمه. ولأبناء العم حق في السلطة لا يضيع ولو انحرف في اتجاه آخر. علم بلكين بمؤامرة الاغتيال فواجه المؤامرة بأختها اتفق مع المتآمرين على قتل محسن واستولى على السلطة. وكما فعل أسلافه من استخدام السيف في موضع الندى. مات أخوه مقاتل فاتهم زوجته ـ وهي إبنة عمه ـ بقتله ولها أخ اسمه «الناصر»، فقتلها. وجاءت الفرصة للناصر بسبب دم أخته فقتل بلكين الغازي الكبير الذي طارد المرابطين وانتصر عليهم في إحدى المعارك واحتل مدينة فاس. رغم قوته وحزمه وسفكه للدماء جاء لقمة سائغة بين يدي الناصر الذي استعدى عليه، وهو في صراعه مع المرابطين عائداً من استيلائه على فاس فقتله سنة 454.

وبدأ الناصر يلعب الدور الأخير في حياة دولة بني حماد. وجد في طاعته مختلف الأقاليم من المغرب حتى تونس مروراً بالجزائر وقسنطينة والقيروان وصفاقس. وقد ولى على كل هذه الأقاليم ولاة من إخوته وأبنائه. ثم التفت إلى الذين خلعوا طاعة بني حماد أو طاعته فحاربهم واستأصلهم قتلاً وصلبهم (على حد تعبير ابن خلدون). وتوغل في أنحاء المغرب يقاتل خصومه. وانهزم أخيراً ليعود إلى القلعة منهزماً.

ثم استرجع نشاطه ولم تكن سبيله إلى ذلك إلا القتل والغدر أحياناً بمن يحالفهم. ولم يترك زعيماً من زعماء القبائل (الزناتية بالأخص) ولا شيخاً من شيوخ القبائل إلا قتله، ولا قرية تحتمي بها جماعة من خصومه إلا هدمها.

وبعد وفاته سنة 481 هـ ـ 1088 م ولي بعده ابنه المنصور وكانت سيرته لا تختلف سيرته عن سيرة والده، ولو أن المؤرخين يعتبرونه أعظم ملوك بني

حماد إلا أن ابن خلدون يقول: إن أيامه كانت هدنة وأمناً.

بعد المنصور مالت شمس الدولة إلى الغروب، ولو أنها عرفت ثلاثة من الملوك بين 498 و 547 وهم باديس بن المنصور وعبد العزيز بن المنصور ويحيى بن عبدالعزيز. وهو الذي بايع عبدالمؤمن بن علي فانتهت دولة بني حماد.

عهد دماء وبناء:

هذه الدويلة ـ وهي الفريق الثاني من دولة بني زيري ـ قامت بصراع خطير في المنطقة وعانت ما عانته أختها بنو زيري، غير أن بني حماد اصطدموا:

1 ـ مع زناتة ومع مخالفيهم في الملك والثائرين عليهم.

2 ـ مع المرابطين الذين وجدوا صعوبة معهم للاستيلاء على المغرب الأوسط.

3 ـ مع العرب الهلاليين الذين نكبوا تونس والجزائر.

ولكن بني حماد رغم المحن التي عانتها دولتهم منذ أنشأها حماد سنة 398 حتى بايع يحيى بن عبد العزيز الموحدين سنة 547 (نحو قرن ونصف قرن) رغم كل المحن والصراع القتالي الذي كان العملة الرائجة بين الدول في ذلك العصر، رغم كل ذلك كان لملوكها إنجازات مهمة: بنوا القلعة التي اعتبرت من أعظم المدن ضخامة وحسن بناء. لجأ إليها العلماء والتجار. كما كانت عاصمة مهمة للدولة يحاربون وينتصرون فيعودون إليها، أو ينهزمون فيلتجئون إليها. وبنوا بجاية مدينة تجارية وكانت أيضاً من أهم المدن في الجزائر حتى أصبحت من أعظم المدن في بلاد المغرب وأوسعها عمراناً. وكان عهد الناصر والمنصور محمد عهدي بناء وعمران فبنيا في القلعة وبجاية قصوراً ومصانع وبساتين نظموا فيها الري. وبنى المنصور في القلعة قصر الملك والمنارة والكوكب وقصر السلام، وفي بجاية قصر اللؤلؤة وقصر إقيميون.

في هذا الجانب تفوقوا على أبناء عمهم بني زيري.

3 ـ دولة بني عطية:

ويأتي حكم زيري بن عطية بنموذج ثالث من بين النماذج الكثيرة جداً التي جربها الأمويون لحكم المغرب لصالحهم فتنجح ثم تفشل. ولعل بني عطية صادف ثقة محفوفة بالشك عند الحاجب محمد بن أبي عامر. وانطلاقاً من هذه (الثقة) استقدمه إلى الأندلس، ومكنه من السلطة، خاصة بعد هزيمة جنده في معركة جانبية خاضها الأمويون ضد طائفة من قبائل البربر.

زيري بن عطية لم ينزل من سماء، ولكنه من قبيلة مهمة «آل خزر» (زناتية) كان وأخوه مقاتل ممن انضموا إلى حملة عسكرية على المغرب قام بها المنصور بن أبي عامر. وعمل ابن عطية (وكان أخوه مقاتل قد مات) تحت قيادة قائد للمنصور اسمه ابن عبد الودود. ثم انتهى ابن عبد الودود فكان الأمر بعده لابن عطية بتكليف من المنصور، رغم ما حدث بينهما من مناوشة يروي المؤرخون قصتها الطريفة.

لم يول ابن عطية على منطقة سهلة المنال. المغرب كان بين شقي الرحا. الولاة وزعماء القبائل ومناوشة دولتي زيري والمتعلقين بأذيالهما طمعاً في الولاية، كل ذلك سبب حروباً ساحقة حول فاس ومنطقتها ومنطقة شرق المغرب، حتى استولى واتسعت سلطته ما بين سوس ومنطقة الزاب في الجزائر. وقد كان في ذلك ما أرضى المنصور بن أبي عامر فجدد له الاعتراف بالولاية. وكانت فاس مركز سلطته.

ولكنه وقد اتسع سلطانه إلى المغرب الأوسط أنشأ مدينة وجدة سنة 384 لتكون عاصمة وسطا بين المغربين.

ملاحم التاريخ لا تختلف إلا في أسماء الأشخاص والدول والمواقع. أما الأحداث فهي التي يمليها تاريخ عصر التخلف في الأندلس أو المغرب أو المشرق على السواء.

أمير بن أمير... لا وزير ثم ينهزم:

ابن عطية آمن بنفسه وملكه، فتقَوَّل على المنصور بما لا يمكن أن يقبله رجل قوي ذو «ملك» واسع كالمنصور. وإذا كان إغراء السلطة واتساع دائرة «المملكة» باعثاً على التَّنَصُّع على المنصور، فإن اللقب الذي كان المنصور قد خلعه على ابن عطية ـ لقب الوزير ـ قد أحنقه عليه. كان يعتبر نفسه أمير ابن أمير. وذلك بعض ما دفعه إلى الطموح للتعلق بالخليفة هشام بدلاً من الحاجب المنصور. فأرسل المنصور إليه قوة تستأصل سلطانه. ودخل ابن عطية في حرب مع قوات المنصور بقيادة واضح وانضم إليه جماعة من قواد البربر الذين كانوا ينفسون على ابن عطية السلطان الذي وصل إليه. وكان ما لا يغفل التاريخ المضطرب عنه فانهزم ابن عطية. ولكنه كان قد خاض حرباً أخرى ـ رغم هزيمته ـ ضد خصوم قبيلته القدماء ـ بني زيري بن مناد ـ واستولى على مناطق من الجزائر تاهرت وبلاد الزاب وتلمسان وشلف والمسيلة. وحاول العودة بالطاعة إلى المنصور بن أبي عامر، بعد أن كون له سلطاناً في المغرب الأوسط، وهزم فيها الزيريين الصنهاجيين. ولكنه مات وهو يحاصر آشير سنة 391.

السلطة كذلك لا تقبل الهزيمة الأبدية: مات ابن عطية وعاش ثلة من أبنائه أظهروا الطاعة للمنصور. ورغم أن هذا ولى على المغرب عدداً من الولاة من بينهم ابنه، إلا أن أبناء ابن عطية أعلنوا طاعتهم، ولمكانتهم في قبيلة مغراوة، ولى المنصور على فاس المعز بن زيري، وبعد موته خلفه ابن عمه حمامة بن المعز بن زيري ثم ابنه دوناس...

حروب طويلة بشعة مرت بها المنطقة بين الولاة والطامعين في الولاية لم ينه هذه الحروب إلا زحف المرابطين على المنطقة. وانتهت بذلك دولة بني عطية التي شهدت سقوط دولة المنصور بن أبي عامر بموته ثم سقوط الدولة الأموية بعد ذلك.

تحليل عصر الدويلات

هذه النماذج الثلاثة من «الدويلات» التي قامت بالمغرب تؤكد بعض الحقائق التاريخية:

أولها: أن الصراع القبلي بين صنهاجة وزناتة بلغ منتهاه في تقسيم بلاد المغرب إلى شرق وغرب: إلى إفريقيا (تونس) وبلاد الجزائر من جهة، والمغرب من جهة أخرى. رغم أن بلاد الجزائر كانت بها دولة بني حماد، الصنهاجية فقد كانت مناطق منها تخضع للدويلات التي نشأت بالمغرب كدولة بني عطية.

ثانيها: أن الصراع المشرقي بين المذاهب والدول: الشيعة والسنة، والأموية والعباسية انتقل إلى المغرب فدمر وحدته. ولذلك نشأت هذه الدويلات جميعها الصنهاجية والزناتية (وغيرها من الدول التي أغفلنا عن تتبع نشأتها وسقوطها) وكانت الحرب داخل المغرب الكبير لصالح الأمويين أو الفاطميين (مبدئياً) ينضاف إليها صالح القبيلتين الكبيرتين. ولكن المذهبية لم تتمكن كما سنشير إليه.

عصر الاضطرابات والحروب:

ثالثها: أن هذه المرحلة المضطربة ـ رغم المآسي التي مر بها شعب المغرب وقبائله ـ كانت تمهيداً لاستعادة المغاربة للسلطان على بلادهم. المغاربة تعلموا أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم، ورغم أنهم كانوا (دولهم)

يدينون بالطاعة للفاطميين أو الأمويين، فإنهم كانوا يطمحون إلى الاستقلال ويحاربون في ذلك. ليس لأن التبعية كانت في غير صالح هذا القطر أو ذاك فحسب، ولكن لأن الملك القبلي كان يدفع بهم إلى الاستقلال وبناء الدولة المغربية.

رابعها: الاضطرابات القاتلة التي عمت بلاد المغرب في هذه الفترة (نحو قرن) والتي أدت إلى مقتل الآلاف لم تكن بدعاً بين الشعوب والدول في الأندلس، كانت حروب لا يكاد يستقر الحكم فيها لأمير أو خليفة حتى ينهض لمحاربة خصومه والثائرين عليه. نفس الشيء في المشرق، دون أن نستعرض الحروب التي كانت في هذا العصر بين إمارات وشعوب أوروبا. ولذلك فبلاد المغرب كانت تعيش عصرها: عصر الاضطراب والحروب والقبلية وصراع القوى الكبرى.

لم تكن حرباً باردة على نحو ما أصبحت في العالم الحديث بعد الحرب الأولى ثم بعد الحرب الثانية إلى التسعينات. ولكنها كانت حرباً ساخنة على نحو ما أصبحت عليه في العالم الأوروبي والافريقي والآسيوي والأمريكي اللآتيني بعد الحرب العالمية الثانية إلى ما نعرفه في آخر القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين من حرب ضد العراق وأفغانستان أو حروب في إفريقيا بين دولها وقبائلها وحرب روسيا ضد الشيشان وداغستان، وحرب يوغوسلافيا ضد إقليم كوسوفو، وحرب في تيمور الشرقية وحروب أخرى هنا وهناك.

إرث قبلي عن مغرب الأرض والشعب:

خامسها: لا نبرر بهذا حمام الدم الذي عرفه المغرب طيلة حكم هذه الدول، ولكننا فقط نشير إلى عهود التخلف. كانت الحرب هي سبيل تكوين الدولة والحكم والدفاع عنهما. هذا الصراع الذي تجلى في أوضح صورة وأبشعها ليس ابن مغرب الدولة بمقدار ما هو ابن مغرب الأرض الشعب. فقد كانوا منذ بداية تاريخهم فريقان: البرانس والبتر. ولا يهمنا هنا وصف الأولين

بالحضر، ووصف الآخرين بالبدو. فالكل بدو، ولو سكن الأولون، في بعض فترات تاريخهم، المناطق الخصبة، وسكن الآخرون المناطق الصحراوية. وقد توزع الفريقان ـ على كثرة فروع «قبائل»، كل منهما ـ المغرب الكبير من ليبيا حتى المحيط بما فيه الجنوب الصحراوي. وما من شك في أن الحروب بدأت بينهما قديماً ككل الأقوام الذين كانوا يسكنون مناطق مجاورة ومتداخلة.

وعرفت صنهاجة وهي من فريق البرانس، كما عرفت كتامة ومصمودة وغمارة وأوربة وبرغواطة وتلكاتة ـ وكلها من البرانس ـ مجداً قبلياً وسلطة ونفوذاً في الأقاليم التي سكنتها، وخاصة في تونس والجزائر وجزء من المغرب. وعرفت قبائل البتر تحركاً كبيراً في الصحراء وفي المغرب كله أيضاً من طرابلس حتى جنوب المغرب الأقصى.

كان لكل قبيلة من القبائل المنتمية إلى هذين الأصلين نفوذ يراوح مكانه بين القوة والضعف بين السلطة القبلية وبين الإمارة والدولة، كما كان بين بعضهم توتر يتصاعد أحياناً إلى الحرب.

ولكن فروع البرانس، ومنهم صنهاجة، كانوا دائماً في حروب مع فروع البتر ومنهم زناتة حتى إذا دخل المغرب عصر الدولة إبتداءً من الأدارسة تعصب بعضهم إلى الدولة كقبيلة أوربة الصنهاجية التي ساندت إدريس وقامت عليها دولته، وحاربها آخرون كالزناتيين الذين كانوا ضداً على الأدارسة وساهموا في القضاء على دولتهم.

نفس الشيء ـ بصورة أعظم ـ عندما أصبح في مقدرة زعماء هذه القبائل أن يحكموا ـ ولو تحت راية دول منظمة، تملك الشرعية «الإسلامية» ـ كان الصنهاجيون مع الفاطميين وورثوا الملك منهم في صورة دولتي: زيري ابن مناد وحماد، وكان الزناتيون في صف الأمويين، وورثوا الملك من ولايتهم في صورة دولة زيري بن عطية.

واستمرت العلاقات المتوترة القديمة في عهد القبلية إلى عهد الدولة

فكان هم الزيريين أن يحاربوا ابن عطية. وكان هم العطويين أن يحاربوا الزيريين إخلاصاً للعهد القديم من جهة، وخوفاً من أن يكون لفريق من هؤلاء السلطة والسيطرة على الفريق الآخر.

وهذا الإرث العدائي القديم هو الذي وظفه كل من الفاطميين والأمويين في الحرب القائمة بينهما. ثم في الحرب ضد خصومهم، كما يبدو في صورة القضاء على الأدارسة وتصفيتهم من قبل الأمويين.

الصورة الأخيرة لحمام الدم إذن ليست ناتجة عن الدولة، ولكن مغرب الدولة ورثها عن مغرب الشعب والأرض. ولذلك ليس بغريب أن تعم بلاد المغرب الفتنة الكبرى في نحو مائة سنة من حياته منذ ولاية بلكين بن زيري بن مناد سنة 362 هـ ـ 973 م حتى دخل يوسف بن تاشفين للمرة الثالثة إلى فاس سنة 462 هـ ـ وقضائه على آخر أُمراء العطاويين.

سادسها: كان الأندلسيون الأمويون يستغلون المغاربة في الحروب كمقاتلين ويغرون بعضهم ببعض. مثال من ذلك أن المنصور حينما أراد قتال ابن عطية، بعد أن توترت العلاقات بينهما، بعث «واضحاً» فولاه على رأس جيش ضخم قوامه البرابرة الذين كانوا يقيمون في الأندلس. وجمع واضح في طنجة جموعاً كبيرة من غمارة وصنهاجة. وكانت الحرب بين المغاربة الذين كانوا في صف ابن عطية والذين كانوا في صف واضح.

سابعها: لم يكن هذا العهد بدون إنجاز سياسي وحضاري. فإن الحروب التي سادته لم تمنع من بعض الإنجازات:

دول مغربية وطنية:

1 ـ في مقدمتها محاولة إقامة دول مغربية وطنية، بعيدة عن الفكرة التي سادت النظام السياسي منذ الفتح العربي. فقد اعتبر المغرب على شساعة الأرض وكثرة الإنسان وتعقد المجتمع وقوة قبائله ونفوذهم وصعوبة احتوائها،

اعتبر ولاية تابعة للحكم المركزي. عصر الولاة، كما رأينا، لم يقم وزناً لكل هذه الظاهرات، فكانت القبائل تعانق، كلما كان الحكم في مصلتحها، وتفارق وتحارب كلما أحست بالظلم. ولذلك كان الحكم غير مستقر. في عهد الدويلات الخارجية والشيعية، كان المغاربة يتعاملون مع الحكم المنحصر في منطقة محدودة مؤيدين، حتى ليظن أنهم خارجيون أو شيعة. وما أظن أن الخارجية أو الشيعية تمكنت منهم نظراً لتعقد المذهبين وتشعبهما في التنظير والممارسة. ومع ذلك ناصروا بني مدرار وبني رستم، كل في منطقتها. وناصروا العبيديين في تونس، وإلى حد ما، كلما امتد نفوذهم خارج تونس. وناصروا الأدارسة واعتبروا دولتهم دولة المغرب. لأن الأدارسة الأولين استفادوا من التجربة، وعرفوا كيف يتعاملون مع الواقع المغربي. ولولا التفسخ الداخلي في الأسرة الإدريسية وكثرة الرؤوس الطامعة في الحكم، ولولا مناورات ومحاربة العبيديين والأمويين وتصميمهما على تدمير الدولة، لكانت الدولة الإدريسية هي دولة المغرب الكبير جميعه. وكان يمكن أن تنجح لو توفرت لها ظروف النجاح المواتية. ولكنهم خربوا دولتهم بأيديهم وأيدي خصومهم مذهبياً وسياسياً.

المغاربة شعروا بعد تجربة طويلة استمرت، منذ الثلاثينات من القرن الأول الهجري حتى الستينات من القرن الرابع، بأنهم استُنزِفوا واستُغِلوا بالتبعية في إقامة الدول وخدمتها، وبالمعاملة غير الكريمة التي كانوا يعاملون بها ـ باستثناء عهد الأدارسة المحدود في الزمان والمكان ـ وقد آن لهم أن يؤسسوا دولتهم أو دولهم، انطلاقاً من السلطة التي كانت تملكها القبيلة، والزعامة التي كانت لرؤساء القبائل. وكان لا بد أن يستلبوا الحكم ممن كانوا يحكمون. فكان المثال شرقاً من بني زيري بن مناد الذين أخذوا الحكم كتابعين للعبيديين عندما فكروا في مغادرة (إفريقيا) تونس إلى مصر. ثم استقلوا بالحكم في دولتهم: الزيرية والحمادية. وكان المثال أيضاً غرباً في بني عطية عندما أصبحوا ولاة للأمويين على المغرب الأقصى ثم استقلوا أو حاولوا أن

يستقلوا ـ بالحكم في بلاد المغرب.

الخلاصة أن الدولة المغربية أو نواتها تكونت في المغرب على مدى قرن، رغم الصراعات التي كانت قدراً ليدفعه حذر.

إنجازات حضارية:

2 ـ هذا العهد على دمويته لم يخل من إنجازات حضارية، من ذلك تأسيس بعض المدن وتطوير أخرى. مدينة فاس نفسها عرفت تطوراً مهماً بتحصينها بالأسوار والأبواب الضخمة التي ما تزال حتى الآن: باب الفتوح بناها فتوح بن دوناس، وأخوه عجيسة بنى باب عجيسة . كما بنيا قصبتين مهمتين في فاس. مدينة وجدة بناها سنة 384 زيري بن عطية وحصنها وجعلها عاصمة له، بعد أن نقل إليها الكثير من روائع فاس. في عهد دوناس بن حمامة عظمت فاس وعمرت وكثرت أرباضها ونفقت فيها التجارة. وأدار دوناس السور على أرباضها وبنى بها المساجد والحمامات والفنادق. فصارت بذلك حاضرة المغرب. ويقول المؤرخون إن دوناس لم يشتغل منذ ولي حتى توفي سنة 452 إلا بالبناء والتشييد.

ويصف المؤرخون عهد بني عطية بالبناء والتشييد وباتصال الأمن والرخاء طوال أيام دولتهم؟

إذا انتقلنا إلى عهد الزيريين نجد أن زيري بن مناد بنى مدينة أشير سنة 324 هـ. وكانت عاصمة وملجأ للملوك والجيوش، كلما تحركوا في حرب، لأنها مدينة حصينة منيعة. وجدد زيري مدينة مليانة.

أما بلكين بن زيري بن مناد فقد بنى مدينة الجزائر، حيث سميت جزائر بني مزغنة، على أنقاض مدينة قديمة كانت تسمى «إيكسيوم» تخربت قديماً. وكان مكانها يسمى بني مزغنة على اسم القبيلة التي تقطن هناك. كما أعاد بلكين بن زيري بناء مدينة المدية في جنوب غرب الجزائر. أما حماد فقد بنى

قلعة بني حماد التي تنسب إليها دولتهم وكانت من أهم القلاع التي عرفت عمراناً كبيراً ونشاطاً تجارياً، وكانت مقصد كل الذين حاربوا بني حماد يريدون هدمها. ويقول المؤرخون عن حماد هذا: إنه بنى ونشر العمران وشيد القصور وخلد الآثار.

ولم يستقر المجد للقلعة، فقد نقل منها بنو حماد كل ما كان بها من أثاث وزخرف وطرف. بعد أن نقل الناصر بن علناس بن حماد العاصمة إلى بجاية. وكان مصير القلعة التخريب، في عهد عبد المؤمن بن علي، حتى لا تبقى مرجعاً لعقب بني حماد.

والناصر بن علناس هو الذي أعاد بناء بجاية ـ وهي مدينة قديمة أسسها الفينيقيون، ولكنها تخربت حتى أعاد بناءها الناصر لتكون عاصمة ملكه بدلاً من القلعة. وإلى بجاية انتقل كثير من العلماء والتجار وأهل الأندلس. وأصبحت ميناء يعقد معه التجار الأوروبيون إتفاقات تجارية. وفي بجاية كان مجد بني حماد بعد القلعة، وكانت فيها نهايتهم على يد عبد المؤمن بن علي.

كفاح ضد زحف الصليبيين:

3 ـ صورة أخرى من التاريخ المضيء في هذا العهد هي صورة النضال ضد الزحف النصراني من الشمال (جنوب أوروبا) على الشواطىء التونسية بالأخص.

منذ محاولة النورمان الاستيلاء على صقلية في منتصف القرن الخامس بدأ الزيريون يحاولون صدهم دفاعاً عن الإسلام الذي كان في آخر أيامه في صقلية. وقد حاول تميم بن المعز الدفاع عما بقي من الجزيرة سنة 461 فلم يستطع إلى ذلك سبيلاً فانسحب من الجزيرة. ولم يكن يستطيع، وبلاده حافلة بالثورات والانقلابات. ومع ذلك قام بالمحاولة ربما ليتقي تطلع النورمان للهجوم على الموانىء التونسية. فعلاً هاجم النورمان المهدية، بعد أن استقر لهم الأمر نهائياً في صقلية بقوة بحرية وبرية كبيرة واستولوا على المهدية

وزويلة. ولم يجد تميم سبيلاً للتخلص منهم إلا بدفع فدية مالية كبيرة. بهذه الغزوة النصرانية انفتحت أبواب البحر أمام الشمال، وكانت صقلية طريقه إلى الجنوب. وكان الحلف النصراني يصاعد الحملة على تونس. وهي أقرب مكان إلى الشمال في وسط البحر الأبيض، كما سيكون المغرب أقرب إلى الغزو النصراني للجنوب في غرب البحر الأبيض، الانتقام من الإسلام الذي ساد في الأندلس، والذي احتل صنقلية سنة 212 وتكونت بها دول إسلامية قوية حتى احتلها النورمان سنة 464 هـ ـ فظل الوجود الإسلامي نحواً من قرنين ونصف.

إنتقام النصرانية من جهة، وخط دفاعها الأمامي ضد رجوع المسلمين إلى وسط أوروبا تمثل في الهجوم بدلاً من الدفاع. لذلك أخذوا يهاجمون الشواطىء التونسية فاحتلوا المهدية التي استخلصها منهم تميم بن المعز بالمال. وأخذ يحيى بن تميم العدة، بعد أن استفاد من الدرس الذي تلقاه في عهد والده. فكون أسطولاً بحرياً مهماً، وهاجم جنوة وسردينية اتباعاً لنفس الخطة التي سلكها النورمان في الهجوم على المهدية. واستمر الدفاع على الشواطىء التونسية في عهد علي بن يحيى ثم الحسن بن علي الذي احتل النورمان المهدية في عهده، وكانت الحرب سجالاً. بطرد الزيريين النورمان، ثم يتقوى النورمان فيحتلون الشواطىء من جديد مستغلين الخلافات والثورات والحروب الداخلية، حتى استولى النورمان على الساحل التونسي جميعه. ولم يخلص تونس من هذا الاحتلال الطويل الأمد إلا عبد المؤمن بن علي على عهد الموحدين.

فهذا جانب من النضال ضد الغزو الأجنبي يحسب في صفحات الزيريين.

التوحيد المذهبي:

4 ـ هذه الدول الصغيرة قامت بعمل مهم هو التوحيد المذهبي فقد كان المغرب نهبا بين الخوارج. وكانت دعوتهم قوية. ثم الفاطميين، الذين كان لهم مذهب ينتمي، ولكن انتماءه سلطوي سياسي أكثر منه مذهبي. وكان إلى

جانبهم دعاة الرافضة. يضاف إلى كل هذا دعوة الأمويين وعداؤهم للهاشميين معروف. ثم البرغواطيين الذين عبثوا بالعقيدة وانتشروا في البلاد، وكانوا يضاعفون الثورات ضد الدولة ويضللون الشعب، واستمر وضعهم الخطير هذا حتى منتصف المائة الخامسة ولم يقض عليهم نهائياً إلا المرابطون. ولكن الدول الثلاث كانت تقوم بجهود مشكورة في حماية المغرب من هذه الدعوة المدمرة لوحدة البلاد. الدول الثلاث ساهمت في القضاء على الرافضة وبقية الخوارج وتخلصت من التبعية للفاطميين. وقطعت الدعوة إليهم على المنابر، كما تخلص ابن عطية وبنوه من الدعوة الأموية. بكل ذلك ساهمت هذه الدولة في توحيد المغرب مذهبياً سنياً. كما ساهمت في مغربة الدولة، والبعد عن الانتماء السياسي والمذهبي الذي كان يمزق دولة الإسلام في الشرق، ابتداءً من الفاطميين في مصر حتى خراسان.

لا نحمد لها هذا الصنيع إنطلاقاً من تعصب مذهبي، ولكن تقديراً للوضع الذي بقي عليه المغرب موحداً مذهبياً. فلو نجح الفاطميون في بث المذهب الشيعي، ولو نجح الخوارج بمذاهبهم المختلفة، ولو نجح الرافضة وكل المقولات التي تلتصق بالدين. ولو نجح البرغواطيون، ولو انضاف كل هذا إلى القبلية المتمكنة حتى الآن من المغرب لعانى من تمزق سياسي ومذهبي وقبلي. فكثيراً ما استغلت السياسة المذهبية والدين، لتحارب خصومها وتدافع عن نفسها.

والمثال في المغرب نفسه. فقد كان الزيريون يدينون بالطاعة للعبيديين، فهم بولاتهم على المغرب، يخطبون باسمهم على المنابر، ولو أن التاريخ لا يحدثنا عن انتمائهم للمذهب الشيعي ونشره بالسلطة، ولكنهم حينما شعروا بقوتهم وتمكنهم من الدولة، خلعوا الطاعة لهم وألغوا الخطبة باسمهم على المنابر، بل خطبوا باسم العباسيين، باعتبارهم الخلفاء الشرعيين. وكذلك فعل آل زيري بن عطية مع الأمويين تارة يذكر المنصور بن أبي عامر في الخطبة تعبيراً عن ولائهم له، وحينما ساءت الأحوال بينه وبين المنصور اقتصر على

ذكر هشام، الخليفة الأموي المحاصر، تعبيراً عن رفضه الطاعة والولاء للمنصور. وذكر هشام إنما كان لإغاظة المنصور والتمرد على سلطاته. فإن زيري بن عطية خلع الطاعة للأمويين بعد أن تمكن من دولته. ولو أنه اقتصر على ذكر هشام.

إمارة لا خلافة:

سابعة الملاحظات أن الدويلات الثلاث التي تحدثنا عنها، وغيرها من الدويلات التي أغفلناها كبني حبوس وبني خراسان وبني الرند وبني جامع، وغيرها من الإمارات التي زعمت لنفسها أنها دولة لمجرد أنها استولت على مدينة أو إقليم، لم تدع لنفسها ملكاً ولا خلافة ولا سلطاناً ولا إمارة المؤمنين أو المسلمين، فقد كان لقب الخلافة ما يزال معترفاً به للعباسيين. وللقب أثره الديني. الأمويون في الأندلس أنفسهم لم يلقبوا أنفسهم بالخلفاء إلا في عهد (عبد الرحمن الناصر) ثامن الخلفاء الأمويين.

أما الدويلات المغربية فقد كان أمراؤها ولاة ويسمون أنفسهم أمراء.

ونستخلص من ذلك أن ألقاب رؤساء الدول لم تكن محدودة ليس في المغرب فحسب، ولكن في المشرق كذلك باستثناء لقب الخلافة الذي ورثته الدول عن خلافة أبي بكر، وبقي هذا اللقب يحمل البعد الديني إلى جانب البعد السياسي، ولذلك لم يجرأ أحد على تلقيب نفسه بالخليفة أو أمير المؤمنين إلا الفاطميون الذين اتخذوا لقب الخلافة.

ورؤساء الدويلات التي تحدثنا عنها كانوا يلقبون بالأمير في الغالب. والمؤرخون يضفون عليهم كل الألقاب بدون تمييز فابن خلدون مثلاً يعنون أحد فقرات فصوله: الطبقة الأولى من صنهاجة ومن كان لهم من الملك. ويعنون فصلاً آخر: دولة آل حماد من ملوك صنهاجة. كما يعنون فصلاً آخر: الخبر عن ملوك بني حبوس.

ويبدو أن المؤرخين القدماء الذين كانوا يتورعون عن تلقيب رؤساء هذه الدول بالخلافة، لم يكونوا يفرقون بين الملك والإمارة والملوك والأمراء والولاة. والأمر لم يكن يهمهم. فهذه الألقاب نتجت عن نوع من الحضارة السياسية التي حددت الألقاب وميزت بينها.

أما الدول ذات الطابع البدوي فلم تهتم بهذه الألقاب، إلا زيري بن عطية الذي قال عن نفسه أنه أمير بن أمير.

ويبدو أن لقب أمير كان يتلقب به بعض رؤساء القبائل وزعمائها فاحتفظوا به عند تكوين دولتهم.

وابن تاشفين نفسه زعيم دولة المرابطين لم يلقب نفسه بالخليفة ولا بأمير المؤمنين، وإنما اكتفى بأمير المسلمين.

تحول في مسار الدول المغربية
(خلاصة)

من القمع إلى رئآسة الدولة:

النماذج التي قدمنا من مغرب الدولة كانت نماذج فريدة. ذلك أن بعض الإمارات في المغرب العربي كانت تبتدىء من المنبع (الخلافة) يقوم عليها دعاة أو زعماء أو مغامرون عرب يأتون من المشرق. ولكن عضدهم الأول كان من المغرب. فكل الإمارات الإدريسية والخارجية، الرستمية والمدرارية، والأغلبية والشيعية نشأت من دعوة قام بها دعاة فروا من القمع وحملوا معهم رأياً في الحكم أو مذهباً أو دعوة، أو كانوا ولاة للخلافة باشروا الحكم في شبه استقلال. وجميعهم وجدوا الشعب الذي حكموه مستعداً لمساعدتهم والكفاح في سبيل الدولة التي أنشأوا والحرب معها ومن أجلها.

وقد كانت القبائل في خدمة هذه الدول للأسباب التي أشرنا إلى بعضها ولأن القبائل كانت في حاجة إلى رئاسة تحتمي بها وتتصرف باسمها، لأن النظام القبلي كان يقوم على المشيخة والزعامة. ولأن النزاعات القبلية في المغرب كانت من الخطورة بحيث تلتجىء كل قبيلة كبرى إلى زعيم تتوسم فيه الزعامة والغلبة لها على القبائل المنافسة، ولو جاء من خارج القبائل، بل لأنه من خارج القبائل تلتجىء إليه ما دام يضمن لها تحييد قبائل أخرى أو الغلبة عليها، أو تجمع القبائل الكبرى أو شيوخها على «إمامته» أو زعامته.

والعنصر الأهم هو الإسلام. فقد آمن البربر ـ في غالبيهم ـ بالإسلام. والزعامة الإسلامية كان لها أثر مهم في إقناع القبائل الكبرى بالإنضمام تحت لواء الدولة، ولأن هذه القبائل كانت تعمل تحت راية الإسلام ـ وبزعيم داعية

للإسلام ـ لنشر الدين في بعض القبائل التي احتفظت بالوثنية أو النصرانية أو اليهودية، كما هو الأمر بالنسبة للدولة الإدريسية أو في بعض القبائل التي أسلمت وانحرف كثير من أعضائها عن أصول الإسلام للجهل أو الزيغ، كما حدث بالنسبة للدولة المرابطية.

والعنصر الوحيد، الذي لم يتكرر إلا جزئياً هو القرابة من رسول الله في نموذج الأدارسة. وتكرر جزئياً في الدعوة الشيعية التي حملها الفاطميون.

كل هذه الدعوات وجدت تأييداً من القبائل المغربية. ولذلك كانت كما قدمنا دولاً مغربية برأس عربي. وكانت تجلب إليها كثيراً من العرب وتعتمد عليها. وقد قسمت الكثير منها العمل بين البربر والعرب. فللعرب الإدارة والقضاء والسلطة المدنية، وللبربر الحرب والأمن وحماية الدولة.

إتفق هذا ولم يختلف في مجموع الدول والإمارات التي تحدثنا عنها حتى دولة الأغالبة، ورأسها كان والياً عربياً تميمياً للعباسيين على بلاد الزاب اعتمدت على خليط من العرب المستقرين قبلهم في تونس وعلى الوافدين التميميين من المشرق وعلى البربر المستعربين وغير المستعربين. ولكن العرب كانوا أكثر عدداً من البربر، وأقوى سيطرة على الدولة. والأمر بدأ يختلف عند نهاية الدولة الفاطمية وانتقالها من المغرب إلى مصر.

اختلف الأمر في مظهرين:

الأول: هو بداية عهد الدول المغربية البربرية بدولة آل زيري.

الثاني: تسليم أمر الدولة من عربي إلى بربري أو إلى عربي بإرادة الأول وباتفاق مسبق، وليس بثورة أو دعوة أو مغامرة.

في هذا المظهر الثاني نجد تشابهاً مع تسليم أمر الولاية على إفريقيا (تونس) من الخليفة العباسي هارون الرشيد إلى إبراهيم بن أغلب (وهو عربي من تميم من أهل السنة) بشروط استمرار الولاء والدفاع عن الخلافة، وتعيين القضاة ـ وهم عصب الدولة ـ من الخليفة في بغداد وأداء جزء من مدخول

الدولة في تونس إلى الخلافة سنوياً، التشابه ليس تاماً، ولكن عنصر الاتفاق فيه هو الإخلاص للخلافة العباسية.

قيادة مغربية بربرية:

والتحول الذي حدث في انتقال الحكم نهائياً إلى القيادة المغربية البربرية كانت له أسباب استراتيجية وعميقة يمكن أن نجملها في النقط الآتية:

1 ـ غرق الفاطميون في مشاكل الحكم بالمغرب. ووجدوا أنفسهم محاصرين بالخصومات والحروب التي لا يستطيعون القيام بها إلا بواسطة الجيوش المغربية. غرقوا في المشاكل مع الأمويين في الأندلس الذين كانوا ينازلونهم على أرض المغرب. ومع الأدارسة والقبائل التي تناصرهم. كما قدمنا تفاصيل ذلك.

والفاطميون دخلوا في صراع مع معظم القبائل المغربية، وكانوا يثيرون بعض القبائل ضد البعض الآخر كما قدمنا ليضمنوا لهم السيطرة والنفوذ. ولكن هذه الخطة لم تكن لتستمر بعد أن توزع نفوذهم بين أقطار المغرب جميعها وبين صقلية.

2 ـ الدعوة الفاطمية استنفدت أغراضها بعد أن تكشف الفاطميون عن دعاة دمويين شرهين على السلطة والمال والقمع لا يهمهم من أمر الدعوة الشيعية شيء. وخاصة بعد أن وقف في وجههم فقهاء القيروان كما قدمنا.

3 ـ مركز مصر الذي طمحوا إليه منذ اليوم الأول أصبح مؤهلاً بعد ضعف مركز الخلافة وتفسخ عهد الإخشيديين.

ولم يكن الهدف فقط هو مصر، فالمنطلق الجغرافي واحد. ولم يكن بين مصر وبين بلاد المغرب، التي تمتد إلى طرابلس، حاجز إلا الصحراء الغربية التي لم تكن فاصلاً جغرافياً، ولا عسكرياً، بل كانت سبيل إتصال كجميع الصحاري التي تفصل بين مناطق المغرب شماله وجنوبه.

لم تكن إذن مصر هي منتهى طموح المعز، وقد كان من أكثر أمراء الفاطميين طموحاً وخبرة ودهاء وبعد نظر. بل كان الطموح لمركز الخلافة بغداد.

والمعز كان يعرف ما آلت إليه أوضاع الخلافة في الأقاليم التابعة لها، فقد نشأت دويلات في بلاد فارس والترك انفصلت عن الخلافة، وسيطر الأتراك على الخلافة والخليفة. واستولى بنو بويه على بغداد. ولأنهم شيعة متطرفون كانوا ينتقمون من الخلفاء الذين يحكمون باسمهم. وقد استمرت سيطرتهم على الدولة نحو مائة وثلاث عشرة سنة (334 ـ 447 هـ) وهم من بلاد الديلم. وقد استولوا على الدولة بعد أن ثاروا على عمالها في أقاليمهم واستولوا على كثير من المناطق. فاستولى أحمد بن بويه على بغداد سنة 334 في عهد الخليفة المستكفي. وقد أهان هؤلاء الخلفاء وعزلوا بعضهم وقتلوا آخرين، وكانت سلطة العباسيين صورية بعد أن قامت إمارات في جميع أنحاء الإمبراطورية العباسية من الأندلس حتى خراسان.

لذلك كان طبيعياً أن يطمح المعز إلى الانقضاض على مركز الخلافة (بغداد) ولم تكن مصر إلا محطة، لولا أن بني بويه كانوا من القوة والبطش بحيث لا يمكنون غيرهم من الاقتراب من مركز الخلافة، وإن كانوا يتركون السلطة في الأقاليم لكل ذي نفوذ، يكتفون منه بالخطبة باسم الخليفة في بغداد.

4 ـ المعز لدين الله، وقد أصبح اتجاهه في السلطة هو بغداد، كان يرغب في التخلص من متاعب المغرب، وهو يعرف أنه لا يمكنه الجمع بين المغرب والمشرق، خاصة بعد ثورة مخلد اليفرني التي أضعفت قوة الدولة في عهدي القائم والمنصور قبل أن ينتهي الأمر إلى المعز سنة 341 هـ ـ 946 م.

لم يكن ليترك الأرض والدولة والسلطة جميعها. وكان المثل أمامه من هارون الرشيد الذي عهد إلى إبراهيم بن الأغلب بحكم تونس، فأراد أن يقتدي

بهذا المثل. ولكن لمن يسلم السلطة ليضمن عودتها إذا ما فشلت مغامرته في مصر؟

لم يكن ليستغني عن جوهر القائد المتمرس المخلص، الذي بعث به ليسبقه إلى مصر ليفتح الإسكندرية سنة 358 هـ 969 م فقادة الأقاليم من العرب والبربر هم الذين اعتمد عليهم الفاطميون في إقامة الدولة. وبالطبع كان الاعتماد على البربر أكثر لأنهم أهل البلاد وأصحاب السلطة القبلية، وهم أكثر عدداً وأقوى مراساً على الحرب.

ظهرت مغربية الدولة ـ قيادة وشعباً ـ في عهد دول بني زيري وبني حماد وزيري بن عطية. فقد استقلت الدولة عن الفاطميين في عهدي بني زيري وبني حماد، وأنشأتا مملكتين قارتين ونظمتا الدولتين رغم ما كان بينهما من منافسة. وقاومتا خصومهما الزناتيين الذين كانوا يعملون ـ في الغالب ـ لحساب الأمويين في الأندلس كما حاولتا ـ كل في نطاق حدود دولته أن تغامر بالحرب وتضمر بالهزيمة ـ مقاومة الغزو النصراني النورماندي الذي استولى على صقلية ثم قفز منها إلى مهدية في معارك ضارية.

وقد تميزت الدولتان، في شرق المغرب العربي كما تميزت دولة زيري بن عطية في غربه (إلى حد ما) بالاستقلال عن سلطة الشرق (العباسيين ثم الفاطميين) وعن سلطة الشمال (الأمويين) فظهرت بذلك مغربية الدولة.

ورغم الإنجازات المهمة العمرانية التي قام بها بنو حماد في القلعة وبجاية، فإن الدولتين صرفتا جزءً مهماً من حياتهما ـ وتولى الأمر فيهما ملوك عظام كزيري بن مناد وبلكين بن زيري والمعز من دولة بني زيري ثم حماد والناصر والمنصور من دولة بني حماد ـ في الحروب التي كان يفرضها العصر. فالصراع الخفي والظاهر بين الفاطميين (الشيعة) والأمويين في الأندلس (السنة) كان من أسبابه تطاحن القبيلتين العظيمتين في المغرب: الصنهاجيين والزناتيين. والصراع القبلي لم يكن يخمد أواره حتى ينبعث من جديد، ثم

الصراع مع النورمانديين الذين كانوا يتربصون بالمغرب، الدوائر، انطلاقاً من صقلية التي أعادوها إلى سلطة المسيحية.

العصر إذن كان عصر صراع فلا غرابة إذا كانت الدول المغربية الناشئة تسير في نفس التيار، ولم يكن له خيار لأن حضارة الحرب كانت هي السائدة في مختلف أنحاء العالم، وليس فقط العالم الإسلامي.

الدول المغربية الثلاث وغيرها من دويلات غير ذات أهمية إنطلقت من منطلقين: أولهما الزعامة القبلية والسند القبلي. وثانيهما: المثل الذي أخذه البربر عن العرب في بلاد المغرب. فقد كان الزعماء العرب يلجأون إلى المغرب، وسرعان ما ينشؤون دولهم على عاتق الزعامات البربرية. وكان البربر يخدمون هذه الدول ويكنون لها الولاء حتى إذا استقر لها الأمر لم يكن للبربر نصيب إلا نصيب الجندي المقاتل الذي كثيراً ما كان يفقد حياته لصالح الدولة التي لم تكن في قيادتها بربرية. وسنجد هذا الاتجاه في الأندلس التي قام الحكم الإسلامي فيها على عاتق البربر، وكان الحكم للعرب.

ورغم أن الذين ناصروا الدول العربية من زعماء القبائل البربرية كانوا مندفعين بروح إسلامية، ويذهب بعض المؤرخين (تجاوزاً) في مثال بني زيري إلى أنها روح شيعية، فإن الوقت قد آن لتكون الدولة مغربية قيادة وشعباً بدافع نفس الروح، إذا لم نقل أنها كانت أكثر صفاءً من قيادات الخوارج والشيعة والسنة... إلخ.

الدولتان الشرقيتان: بني زيري وبني حماد استمرتا نحواً من مائة وثمانين سنة، وما كان لأية دولة في ذلك العصر أن تستمر هذه السنين دون أن تطحنها الحرب التي كانت ثقافة العصر وحضارته، خاصة مع الصراع الخطير ضد القوى التي أشرنا إليها. تضاف إليها قوة المرابطين التي كانت أولى دول الإمبراطورية بفتح الأندلس والصراع الطاحن مع النصرانية هناك.

مهما يقل عن الدول الصغيرة في المغرب، فإنها قامت بأدوار أساسية :

ـ مغربة الدولة وسد الطريق أمام تلاعب الفاطميين واستخدام المغرب طريقاً لمحاربة الأمويين. وسد الطريق أمام الأمويين، في عهد المنصور بن أبي عامر بالأخص، الذي حاول الاستيلاء نهائياً على المغرب الذي كان مصيره سيكون مع مصير الأندلس بعد سقوط قرطبة.

ـ التمهيد لدولة الإمبراطورية مثلته بالأخص دولتان عظيمتان: المرابطون والموحدون.

ـ منح المغرب الكبير الشخصية المغربية والقضاء على التبعية التي عرفها منذ الفتح الإسلامي باستثناء العهد الزاهر من حياة الدولة الإدريسية.

ـ بناء عواصم مهمة: الجزائر، بجاية، قلعة بني حماد، وجدة. وإعطاء الدليل على أن الدولة البربرية لم تكن مخربة لبعض المدن كما حدث بالفعل بالنسبة للمراكز التي يتحصن بها خصومهم، ولكنها كانت دولة بناء بالذوق الرفيع على نحو ما يصف المؤرخون المدن والقصور والحدائق.

فهرست

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

دار الغرب الإسلامي

بيروت - لبنان
لصاحبها: الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء، بناية الأسود
تلفون: Tel: 009611-350331 / خلوي: Cellulaire: 009613-638535
فاكس: Fax: 009611-742587 / ص.ب. 113-5787 بيروت، لبنان
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI B.P.:113-5787 Beyrouth, LIBAN

الرقم : 2005 / 10 / 2000 / 443

التنضيد: مطبعة الصراط ـ بيروت ـ لبنان

الطباعة: مطبعة الصراط ـ بيروت ـ لبنان

Nouvelle lecture

De

L'Histoire Du Maghreb Arabe

Ancienne et Contemporaine

Vol. I

Par

Abdelkrim Ghallab
Membre de l'Académie
du Royaume Du Maroc



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI

Nouvelle Lecture De L'Histoire du Maghreb Arabe

Ancienne et Contemporaine

Vol. I

Par

Abdelkrim Ghallab
Membre de l'Académie
du Royaume Du Maroc



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI